صمت الجياد

صمتك لغة.. وصمتي لعنة
صمتك وفاء .. وصمتي خيانة
صمتك حنان.. وصمتي قسوة
صمتك حكمة.. وصمتي حماقة

ولصمتنا نوايا لا تدركها سوى همساتهم
فاصبحنا بصمت الجياد

مروة جمال



صمت الجياد

مروة جمال

تدقيق لغوي

نهى طلبة

تصميم داخلي وغلاف

مروة جمال





المقدمة

تميمة

ابتسامة.. وليلة قمرية.

خصلات مشبعة بنكهة البندق كما اعتاد أبيها تسميتها, نظرات شقية وضحكة صاخبة ونبرة رنانة افتتحت العرض.

كانت إيناس قد اتخذت موقعها في القاعة الممتلئة عن آخرها..

العرض كان على وشك البدء وتميمتها الغالية غابت عن عينيها من أجل أن تحضر حالها..

تلك الشيطانة الصغيرة التي تصر منذ أشهر على اعتلاء المسرح بحفل مدرستها السنوي رغم صغر سنها..

حادثت نفسها وهي تحاول أن تتصورها بفستانها الأبيض الذي جعلها تبدو كعروس الماريونت وطوق الياسمين الذي صنعته رقية خصيصاً من أجل رأسها الصغير





ليتواكب مع ابتسامتها الساحرة وهي تردد الأناشيد بجوار زميلاتها بصوتها الرنان..

رجفة حزينة مرت على زاوية شفتيها عندما تذكرت غيابه..

لن تغفر له أبداً تفويت حلم تميمة الأول وتشويه لوحة سعادتها ولو بكشطة حمقاء..

بل هو الأحمق..

"نعم.. أنت الأحمق يا خالد!".

خفوت الأضواء نبهها لبدء العرض وما هي إلا لحظات حتى أبصرت صغيرتها تتصدر الجميع منفردة بأداء طفولي مبهج منشدة أول أغاني العرض.

فعلياً لم تدرك الدقائق القليلة التي مرت فقد كانت تراقب كل لمحة وهفوة وابتسامة على شفتيها..





ضحكة عينيها الصغيرتين ودلالها الطفولي وعفويتها وهي تضحك وتستجيب لصفير الجمهور..

طفلتها مميزة ليس فقط في أعينها بل بأعين الجميع..

تسارعت نبضات قلبها وهي تستمع للمديح المار بجانب أذنيها

"عسل"..

"شقية"..

"سعاد حسني صغيرة"...

ابتسمت وخافت فأغمضت عينيها تتلو من أجل صغيرتها المعوذتين.. شقيتها التي اكتسبت براءة ملامحها وحضور أبيها..





ومع انهمار آخر عبرة من عينيها فرحاً وتأثراً بصغيرتها التي تشب بجنون فوق السنوات وتتمايل على المسرح الصغير ملوحة لتصفيق الجمع أمامها، استشعرت أنامل دافئة تحيط خصرها بثبات وقبلة عميقة استأثرت بكتفها في إشارة واضحة لاشتياق رجل وغضب زوج لإنزياح شالها الأنيق عن كتفها الشبه عاري..

استدارت لتلمح ملامحه الصلبة ترمق طفلته وهو يتمم بابتسامة ثابتة: "تميمة"

****

خالد

كانت كعادتها قد اتخذت موقعها بالحديقة ككل مساء، تنسج بين إصبعيها كنزة صوفية وتراقب طفولته..

تلك الطاقة المذهلة من العفوية المتمثلة في براءته..





تدرك رقية أن جوهرتها الثمينة تختلف عن الجميع فهو لم يكن من هؤلاء الأطفال المتعلقين بركل الكرة أو سباقات السيارات وجنون أفلام الكارتون، بل هو أشبه بنبتة لافندر عطرية وجودها يبعث بنفسك الهدوء والطمأنينة أينما كنت..

ملامحه تحمل منها الكثير خاصة عينيه الصغيرتين بلونهما الأسود اللامع ولكنه ورث عن حسن خصلاته الناعمة وغمازتين ساحرتين تغوصان بوجنتيه مع كل ابتسامة، كان وسيماً للغاية بل كما تردد إيناس دوماً هو أوسم رجال مزرعة رضوان.

ابتسمت بأسى وهي تتذكر تسلله لغرفتها منذ أيام ليحصل على اللعبة المحرمة التي تصر دوماً أن تخفيها عنه بجبين مقطب وهي تتمتم

"جيتار حمزه ليس للعب"..





نعم تلك الأيقونة الباقية من حمزة الذي رحل مستغنياً عن كل شيء حتى موسيقاه..

انفرد خالد بلعبته الثمينة التي تكاد تضاهيه طولاً بعيداً عن أعينها وعندما لمحته وتوجهت نحوه متذمرة لم تملك سوى عبرتان انهمرا من عينيها وهي تشاهد صغيرها يجلس متكئاً على سور الحديقة محتضن تلك الآلة السحرية وترتسم على شفتيه الصغيرتين ابتسامة انتصار كلما أدرك نغمات أوتاره. وقتها همست لنفسها بحزن ممتزج بسعادة مفقودة:

"حمزه الصغير".

****

محمود

كعادته..

ملامح مقتضبة تسبق عمر طفولته بسنوات وشفتين مزمومتين على الدوام وكأنهما نسيا الابتسامة..





قبلة أمه الحارة فوق جبينه كل سنة وحقائب الهدايا المتناثرة لم تشفع لها ولن تشفع لها حتى آخر العمر..

"إلى اللقاء مدام سهام"

كان يرددها في عقله بسخرية كلما جاءت لتذهب من جديد..

تنتقل جسداً وروحاً بجوار رجل غريب عنه، أجبره الزمن أن يناديه عمي.. يحمل رحمها

أجساداً صغيرة واللقب شقيق، ولكن هو لا يعرفهم ولا يشعر بهم، وحتماً يحقد على أنفاسهم المحاطة بحنان أمه على الدوام تماماً كالشقيق الآخر..

الأصغر..

مدلل أبيه وأيقونة قلب أمه

"خالد".

وكأن حاله أن يظل منبوذاً عن عالم أبويه اللذان اختارا كل شيء سواه.





ابتسم ساخراً ليردد بنفسه مرة أخرى..

"وأنا لن أختار سوى محمود عندما أملك قرار الإختيار".

****





الفصل الأول

. انصتي لي

أتمنى مخلصاً أن تنصتي لي..
ما هناك امرأةٌ دون بديل..
فاتنٌ وجهك.. لكن في الهوى
ليس تكفي فتنة الوجه الجميل..
افعلي ما شئت.. لكن حاذري..
..حاذري أن تقتلي في فضولي
تعبت.. كفاي.. يا سيدتي..
.. وأنا أطرق باب المستحيل

فاعشقي كالناس.. أو لا تعشقي
إنني أرفض أنصاف الحلول

نزار قباني

رائحة الطعام أيقظت حواسه..

ستظلين يا رقية المرأة التي تدرك احتياجي من قبل أن أتفوه به.. قضم باشتياق قطعة من فطيرة القرفة ثم همهم بنشوة:

- طعمها بيرجع بيا سنين

ابتسمت رقية بتردد..





ربما يتذكر حسن أوقات الغربة بابتهاج،

يحن إليها ويتندر بحكاياتها ولكن..

لكن هي لا تُذَكِّرها تلك الأيام سوى ببرودة مؤلمة تحمل نكهة حرمان كادت أن تعتادها..

عالمٌ مكدس بالماكينات التى قتل الروتين بريقها..

بريقٌ كانت تستدعيه كلما تذوقت فطيرة قرفة ساخنة بنكهة توقظ الحواس.

تعثُر خالد المتكرر أخرجها من بؤرة الذكريات، انتفضت بوجل متوجةً نحوه وهي تصرخ:

- يا خالد.. حرام عليك مش قلت بلاش جري..

- سيبيه يجري





كانت نبرته منزعجة وكأنه سأم خوفها الزائد وحنوها المبالغ فيه, الكلمة المتكررة ملَّها هو قبل تأفف أذنيها..

- أنا بربي راجل مش بنت.. بطلي دلع في الولد..

- الحنية مش دلع..

- رقية.. إنتِ مدلعاه

- وحيدى..

نقاش دائماً ما ينتهى عند تلك الكلمة وكأنها دوماً تذكره أن خالد هو جائزتها الوحيدة أما هو فلديه غيره..

غيره الذي أصبح يراه بالمناسبات كالغرباء..

يغدق عليه بحنان متقطع ويبرر غيابه باستقرار واهٍ على الضفة الأخرى..

محمود الذي أصبح طفلاً يتسول وجود الأب وحنان الأم حتى زهد كلاهما.





زفر بضيق وهو يرتشف آخر ما تبقى من قهوته قبل أن يمليها قراره:

- رقية.. جهزي الأوضة التانية, محمود هيجي,هيعيش معانا..

تركها دون أن تنبس ببنت شفة..

تدقق النظر نحو خالد وتدور بفلك ذكريات آخر زيارات محمود للمزرعة وخفقات قلبها التي كانت تنتفض

كلما اقترب من وليدها.. تارة يجذبه بقسوة تطيحه أرضاً..

وتارة تنجو عيناه بفضل العناية الإلهية من هجوم سبابته..

أي أم تنتج طفلاً بهذا الكم الخرافي من العنف!!!..





لقد كانت تحسب الدقائق والساعات حتى تنتهي زيارته الدورية والآن عليها أن تستعد لوجوده على الدوام!

ارتجفت شفتيها قبل أن تصرخ بغضب رافض تجنبه هو برحيلٍ حازم ربما قبل أن تنتبه..

جذبت خالد في حنو لتطبع قبلة دافئة على جبينه متابعة:

- لو هو مش خايف عليك أنا ما بخافش غير عليك..

****

كانت خطواتها مترددة وهي تتبع جنونه مع شيطانته الصغيرة.. يختلف هو مع تميمة ..





يغدو رجلاً آخر يتخلى عن هيبته التي صقلتها السنوات ويغدو حراً تماما كما كان فوق صهوة رعد، وكأن بموت رعد مات شيئاً آخر داخل خالد..

شيئاً لا يوقظه سوى جنون تميمة..

كانت لتوها قد وصلت للسيارة عندما استقرت تميمة بالمقعد الخلفي وهي تركل والدها بمرح مطالبة بجرعتها الأسبوعية من حلوى الآيس كريم..

وقبل أن تلمس مقبض الباب استوقفتها أنامل باردة تجذب يدها بحميمية مصطنعة..

- أنا بالصدفة شفتكم قلت أسلم!

ابتسمت إيناس بمجاهدة اعتادتها مع تلك المرأة التي أصبحت مداخلة يومية..

هي عبارة عن حالة مستفزة من عبق عطر معتق وحمرة شفاه منتفخة على الدوام، وجسد تتفنن في إظهار منحنياته بفجور..

ولكن كل هذا لا يعنيها..





حتى الإلتصاق الغير مبرر بزوجها لا يعنيها ولن يعنيها..

فهي لا تفقه هذا الدور، ولا تتقنه ولن تكون بذراً لرغبات الغيرة مهما حدث..

تركت شيرين إيناس بعد أن صافحتها الأخيرة بفتور متعمد ثم توجهت نحو رب عملها خالد لتجذبه بخبث بضعة خطوات بعيداً عن السيارة متحججة بعذر واهٍ عن العمل ممزوج بفحيح أنثوي ماكر عن رونق مظهره بتلك الليلة..

دقائق وجاور إيناس بالسيارة لتغيب ابتسامته فور ما لمح نعاس تميمة متابعاً بضيق:

- ليه سيبتيها تنام؟؟

أجابته دون أن تستدير نحوه بل تعمدت الإنشغال بمراقبة الطريق:

- أنت عارف إنها بتنام بدري..





تأملها لوهلة قبل أن يتابع:

- مش مشكلة هصحيها لما نوصل محل الأيس كريم..

استدارت نحوه بدهشة:

- خلاص مش مهم النهاردة

تحرك بالسيارة في سرعة غاضبة متابعاً:

- لأ.. تميمة طلبت أيس كريم النهاردة ..

لم تجبه..

فقط ظلت تراقب ضيق ملامحه..

لا تدرك سببها أهو حقاً بسبب تميمة؟.. أم بسبب من عطّلته دون جدوى؟.. أم ربما بسببها هي؟..

وكأنه بكل لحظة يذكرها بما حدث بتلك الليلة..

بموت رعد...

****





صفحة المياة الزرقاء شهية, تثير بداخلنا أحلاماً جنونية قد تتمكن منها سكينة الحياة.

خلعت إلجا مئزرها الوردي قبل أن تشرع في بسط كريم الشمس فوق سيقانها العارية وهي تتوجه بابتسامة روتينية لباقي الفوج معها على القارب..

أجفلها صراخ أمين قائد اللانش الذي أثار صراخهاستياء باقي الركاب:

- هو فين؟.. نزل برده!!.. التيار هنا شديد..

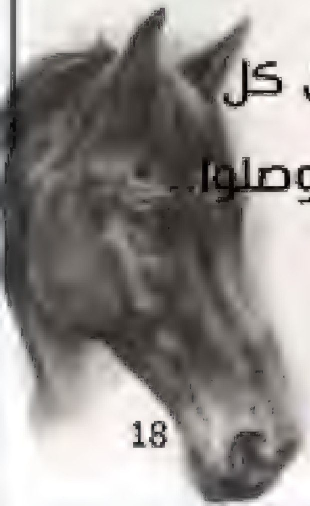
مطّت شفتيها لتجيبه ببرود:

- هو بيحب يجرب..

- ده بيهرج مش بيجرب!

لوت شفتيها بلامبالاة ثم استلقت على مقعدها لتتابع بتهكم:

- إنتم كده مصريين تخافوا من كل جديد وعلشان كده عمركم ما حتوصلوا..





أثارت حنقه ببرودها الأوروبي وتهكمها اللاذع, وود لو يذيقها دماء المصريين الحامية خاصة تلك التي تسري في عروقه جسده الصعيدي..

هو شاب وأسمر..

وكباقي أبناء جلدته في ضحكة عينيه تتهادى الوسامة..

الأم قلقة على الدوام, والأب يتحمل فراقه تحت وطأة طلب الرزق, وهو لا يتذكر متى غادر ومتى سيعود..

هو يعلم فقط أن تلك الغربة المؤقتة لديه هي أفضل الحلول وأن زملاءه هنا بالمرسى هم عائلته الأخرى..

عاد مرة أخرى ليتأمل إلجا ببشرتها البرونزية القاتلة وجمالها المعروض بسخاء على الدوام..





لا ينكر أنه فكر بها بدوره مثل الجميع، ولكن قبل أن يستكمل أقصى خيالاته جموحاً يوقفه أمرٌ غامض.. خانق لأنفاسه التي لا يمتلك سوى حريتها ويشعر ببساطة أنه يكرهها!!.

نفض أمين أفكاره وانتفض قلقاً مرة أخرى يبحث عن صاحبه بين الأمواج..

ولسه لموج البحر بتهرب يا صاحبي!

ومش عارف إنه غدار ملوش آمان!!

جرح النسا آسي يا صاحبي..

بس الأقوى منه قسوتك يا زمان..

نظرت نحوه إلجا باستهزاء ساخرة من مواله قبل أن تقفز بدورها في تلوي شيطاني امتزج بالبحر وكأنهما قرينان ليتمتم هو بجملته المعتادة:





- إلهي ما ترجعي!!

نفض شيطانها عن رأسه واستند بجزعه على الحامل قبل أن يتابع بصراخ أقوى باحثاً عن صديقه المتمرد:

- حــــمـــزه..

****

استدارت يميناً ثم يساراً علها تلمحه, يمتزج هو بمياه البحر بلحظات وكأن لكل منهما موطناً في الآخر..

قبل أن تنتبه كان قد تخطاها ليلقي لها بابتسامة هازئة قبل أن يصعد عائداً للمركب..

تمتمت وهي تلمحه باشتهاء أنثى:

- شيطان مصري!..

- حـمـزه





كان أمين ما زال يصرخ باسم صديقه حتى انتفض على لسعة باردة فوق ظهره، استدار بجنق ليواجه الهارب ويجفف المياه من ملابسه مكملاً:

- تهريج بالماي حمزه ما يصح!

- طيب جمّع بس وبعدين اشتم.

هو بنبرته الهادئة..

الشاب الذي طرق باباهم منذ سنوات بكسرة موجعة..

هزأ البعض من مهندس الورود الفاشل الذي قرر تحدي الأمواج، والآن يراقبونه غيظاً وهو يتفوق على الجميع ويصبح بجدارة من أفضل الغطاسين بالمنطقة.

جفف حمزه شعره وهو يرمق البحر شارداً ثم تابع:





- التيار كويس.. ينزلوا هنا عادي بس السباحين بس, مش عايز هواة.. ولايف جاكيت..

لوى أمين شفتيه امتعاضاً:

- ما نروح البُجعة التانية.. آمان وهادية.

رمقه حمزه بلوم بدوره:

- الشُعَب هنا أحسن والمية نضيفة.. كل المراكب التانية بتنزل هناك, والزحمة خنقة يا صاحبي.

ابتسم أمين بمكر قبل أن يرد:

- طيب ما نستنى إلجا.. اياكش تغرق ونرتاح!

ضحك حمزه متابعاً:

- مش فاهم أنت مش طايقها ليه؟.. دي مُزة يا فقري!!





قطب أمين ملامحه وهو يشير لرقبته:

- دمها سم.. يخنق..

ترك حمزه منشفته وعبث بشعره الذي استغنى عن طوله السابق وأصبح قصيراً بعض الشيء..

ليست خصلاته فقط التي تغيرت تبدل الشاب الهادئ ضعيف البنية وتحول لشاب قوي صقلت السباحة جسده والبحر روحه...

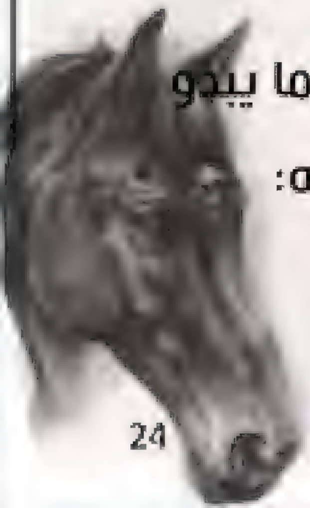
اختلف شيء بحمزه ولن يعود...

ألا تصقلنا الصدمات لنغدو آخرين لم نظن أننا سنقابلهم يوماً؟!

قطع حمزه أفكار صديقه بشأنه وهو يصرخ بالجا:

-come here . It is not a jock

انتبه أمين لحمزه الذي كان على ما يبدو عائداً للمياة مرة أخرى فسأله:





- حصل ايه؟

لم يجب حمزه ولكنه قفز للمياه مسرعاً بطريقة أثارت انتباه جميع الركاب على القارب..

أمين يعرف اللعبة وتكرارها وإلجا لا تمل..

قلق أصاب الركاب ولكن أمين طمأنهم وطلب منهم ارتداء أدوات الغطس، ثم راقب إلجا بخبث ابتسامتها نحو حمزه بعد ما تعمدت الإبتعاد عن منطقة الأمان المحددة والتي تعلمها جيداً!

وقبل أن يوبخها بغضب وأنفاس متسارعة جذبته نحوها بقبلة متطلبة لتكتمل الصورة التي تحرص على تصديرها للجميع

"أنهما عاشقان"





اسمك إذاً شهرزاد؟!!

جاريتك يا مولاي!!

معها أذوب بتفاصيل..

عينين..

شفتين..

خصلة شاردة وأخرى جاحدة..

ساق مرمرية..

وخصر يتلون..

يتلوى..

يتهاوى..

وتسقط

لا..

هي ترقص..

بسحر..





بشجن..

بألم..

بجنون..

وهي وحدها من تستحق أن تكون..

شهرزاد.

وضع القلم جانباً ليتأملها..

في تلك اللحظة الخاصة تتوقف..

تزهد موسيقاها وتشرد بعيداً بنظرة دون ملامح وكأنها مع وقع مؤلم الصدى تتذكر ما تجاهد لنسيانه.

وحينها فقط..

تراه..

تلمحه بركنه الخاص جداً وحلته الأنيقة..

الليلة هي رمادية بلون عالمها.

يبتسم وتزم شفتيها..





يهمس للهواء بهراء يبدو مغيظ.. فاحش..

فتقطب حاجبيها منتصبة لهجوم..

ويهزم هو غضبها بنظرة متملكة،

وخضراوين تحملان بريقاً مهلكاً وهالكاً

بزرقة لا تمتلكها امرأة سواها.

تهرب وتعود للرقص ويشير هو لمضيفه

بسؤال واحد:

- متى؟؟

وبطاعة ينحني عربي بلغة ركيكة تخطى

الخمسين من العمر:

- ليس بعد..

يغضب ولكن بثبات أصبح مكرر مع الغضب..

يرمق لوحته باتزان ثم يكمل:

- اللوحة غير مكتملة..





يتعرق الرجل ليغادر خالي الوفاض بسباب نحو الملعونة التي تُغضب أهم زبائنه..

ويبتسم هو في ثقة رجل يعلم أنه سينال أكثر مما يريد من بطلة شهرزاده التي تكره الرسم!

شهرزاده الحمراء..

كارمن...

****





الفصل الثاني

ـ حج حجيجة وبيت الله.. الكعبة ورسول الله.. حج حجيجة وبيت الله.. الكعبة ورسول الله..

كانت متعرقة بعض الشيء من استنفار حاد أمام الفرن..

تطهو وتطهو في رغبة جنونية للنسيان..

أعدت فطائر وبيتزا وكيك اسفنجي يكفي المزرعة بأكملها..

ولم يكفها ذاك..

فوضعت طاجن لحم ليلتهم لهيب الحرارة في النهاية.

بظهر يدها مسحت عرق جبينها وعادت لتهمس بأذن صغيرها بنفس الأغنية..

تُقبِّل وجنتيه ثم أذنيه وتدندن..

وفجأة بكت!





هيستيريا كادت أن توقظ ملاكها النائم فانتفضت إيناس على الفور لتحمل خالد نحو فراشه ثم عادت لرقية محتوية يديها هامسة بصرامة:

ـ رقية.. ما ينفعش..

تنهدت ببطء قبل أن تطلق لبكائها العنان..

لم تكن تتصور أن خبر قدوم محمود سيؤثر عليها بتلك الطريقة..

أي أنانية بائسة أصبحت!!

جذبت إيناس رأسها الساخن بفعل اللهب والأفكار نحوها لتسنده برقة على كتفها ثم تابعت:

ـ تميمة شقية قوي.. طول النهار تنطيط في البيت, وباباها مشجعها وكمان موضة الحصان.. اتخانقت مع خالد من شهر بسبب الموضوع ده وقلتله البنت صغيرة على



ركوب الخيل، ولكن كالعادة ما سمعنيش ولا اتناقش حتى.

زفرت إيناس بضيق وهي تتأمل آخر عراك تم بينهما..

هي ترفض وتجادل وتخبره كم هي قلقة بشأن تميمة، وهو يرمقها بشرود وكأنها تتحدث من كوكب آخر..

وكأنها بعيدة وابتعد بدوره..

تابعت وهي تتأمل رقية الأم المذعورة:

ـ وكل مرة بتركب خيل باترعب.. وكل ما تبعد عني باترعب وهو شايفني مجنونة قلق وحبستي ليها حتمحي شخصيتها.. رقية.. أنا مقدرة خوفك على خالد وقلقك بخصوص محمود وفاهماه، لكن ما تصدريش جنونك ده ليهم مش هينفع ومش هيفيد..

اعتدلت رقية لتمسح جزء من عبراتها ثم همست بحيرة:





ـ أنا مش عارفة أعمل ايه!!.. حتى لو لعبت دور الشرير في الفيلم وصممت الولد ما يجيش حسن مش هيسمعلي.. الولد وحيد وأمه اتجوزت وسابته.

ربتت إيناس فوق كتفها مشجعة:

ـ أنتِ بس خدي بالك ونبهي خالد، وجايز الولد عيشته هنا تقوِّم سلوكه

هزت رقية رأسها بيأس:

ـ هياخد وقت قوي.. الولد عنيف جداً.. مش عارفة أقول لك ايه، آخر مرة لعب مع خالد خبطه بخشبة على دماغه كانت حتتفتح.

ـ يا ساتر!!

قالتها إيناس بفزع..





فزع جعلها تفكر بدورها في تميمة وكأنها تخطط أن تحميها من هذا الطفل بدورها!

****

كانت قد أنهت لتوها عدة أعمال مكتبية ثم توجهت لصالة الطعام بالفندق لتتأكد أن كل شيء على ما يرام..

رغم أنها ودّت رفض الوظيفة بالبداية والإستقرار بمدينة ساحلية ربما كشرم الشيخ أو الغردقة ولكن مقابلة العمل تلك بدلت كل شيء.

حينها رأته..

قامة طويلة, ونظرة حادة, وشفتين رفيعتين تتحركان بتأنٍ لتخرج كلمات موزونة من صوت أجش دافيء وقاسٍ بذات الحين..

تركيبة مُهلكة أشعلتها كأنثى على الفور وتوسمت في العمل خيراً وأملاً حين لم تلمح بيسراه أو يمناه أي حلقة ارتباط.



لتصطدم بعد العمل بيوم واحد بعفريتة صغيرة تشبهه وأخرى شاء حظها السعيد أن تكون هي زوجته!

ولكن المنافسة أصبحت ألذ..

خاصة مع تجاهله التام لفتنتها..

خطة تلو أخرى تتبعثر في الهواء وهو لا يظهر بمقر الفندق سوى قليلاً، فكل اهتمامه منصب على المزرعة والخيول ويترك إدارة المشروع بكامله إليها..

يثق بها وهي محل تلك الثقة وزادت مكاسب المنتجع الصغير وهناك تفكير جدي بتوسيعه وبناء وحدات أخرى..

ابتسمت بمكر وهي تتذكر الجولة التي قاما بها سوياً في مضمار الخيل بحجة الحفل الذي تود تنظيمه لإضافة انتعاشة جديدة للمنتجع..





البداية مع عرض استعراضي لسباق الخيل ثم ستأتي فرقة روسية محترفة لتقدم بعض الاستعرضات وأخيراً الفلكلور المصري..

بنفسها اتفقت مع مخرج شاب لتصوير الحفل ومن ثم انتاج فيديو خاص عن المزرعة والمنتجع..

"صدقني يا خالد بعد الإعلان ده عدد النزلاء في الفندق هيختلف تماماً"

جملة أتبعتها بأخرى خبيثة

"سوري.. قصدي مستر خالد"

واكتمل الأمر بتعثر مقصود انتهى بين ذراعيه!

تنهدت بشوق غير مدركة أن شوقها يحمل صوتاً وأنه هناك يقف خلفها مباشرةً يحادث أحدهم بنبرة قاسية..

ملهمة لملحمة عشق.

ـ صباح الخير..





قالتها ببهجة مناقضة تماماً لملامحه المغتاظة, تحول نحوها بغضبه ليجذبها نحو غرفة مكتبها وقبل أن تنطق باغتها زاعقاً:

- آنسة شيرين.. تفهميني بقى ايه اللي حصل امبارح؟؟

كان قد استقر فوق كرسي مكتبها وقد ضرب بقدميه مسند صغير وردي اللون تريح هي عليه قدميها من حين لآخر..

همجيته اعتادتها وربما هي ما جذبها نحوه فهي همجية راقية إن صح التعبير تتصاعد وتتضائل حسب قدرتها على استفزازه..

توجهت نحوه بهدوء وابتسامة وسحبت المسند بتأني لتبعده عن قدميه مستديرة لتضعه بمكان مجاور وببطء مالتبقامتها بشكل يسمح برؤية ممتعة لما تخفيه تنورتها القصيرة!

اغواءها رخيص وهو يدرك ذلك..





تصور من قبل أنها ليست آنسة وود أن يصرفها عن المكان تجنباً لفضيحة قد تحدثها مع أحدهم, ولكنه احتفظ بها عندما أدرك أن اغواءها مركز نحوه فقط!

تنهدت بحيلة فاشلة ثم تمتمت بصوت خافت:

ـ النزلاء دول أنا ما كنتش مرتاحة ليهم من الأول, بس لو رفضت كل نزيل علشان الراحة النفسية الفندق ده هيصفصف على واحد بس!

كانت ترمقه بجرأة وهي تنطق كلمتها الأخيرة..

لم يعقِّب فتابعت مدركة أنه ينتظر الأهم:

ـ الصبح طبعاً اكتشفنا الكارثة والبهدلة اللي في الأوضة.. هو الولد صاحب الغرفة دفع كل التكاليف و.. موضوع المخدرات ده أنا كتمت عليه طبعاً مش عايزين وش..





ـ والمومس؟

قالها بتأني غاضب وعينين لا يقدر لسان على الكذب أمامهما..

عدلت من خصلاتها في توتر لتُكمل

:

ـ أنا ما اعرفش دخلوها ازاي و...

قاطعها بغضب وازاه بانتصاب مفاجيء ليوجهها بحدة:

ـهتدخل ازاي يعني؟.. ماهو يا إما من الريسيبشن وساعتها مسؤوليتك أو من البوابة الخلفية والحارس قبض علشان يسكت وبرده مسؤوليتك لأنه اختيارك وأنتِ اللي إديتي التوصية.

ـ يمشي

قالتها بابتسامة مباشرة وشفتين مصبوغتين باتقان قربتهما بجرأة منه..

رفعت رأسها لتتقابل شفتين ولو الحجة حديث..





تابعت ولكن بصوت أخفض وأكثر ثباتاً:

- على الفور يمشي.. بس أنت ما تتعصبش.

لم يتأثر وبالطبع لم يتحرك قيد أنملة.. وكأنه ستتمكن منه امرأة!..

همس بنبرة مماثلة ولكن تحمل قسوة آمر

:

- المرة الجاية أنتِ اللي هتمشي..

خفتت ابتسامتها لوهلة ولكنها ما لبثت عن عادت وبثقة أكبر لتتابع:

- ما فيش مرة جاية..

وفي حركة مجنونة رفعت يدها لتطوق رقبته مما أجفل ثباته ولكنها هممت بثقة:

- واضح إن تميمة كانت نايمة على كتفك

سحبت خصلة بنية اللون يستفزها ضوء الشمس فتتبلج شقرتها.





قبل أن تزيلها بالكامل أمسك بمعصمها في قوة ثم سحب الخصلة بتأني ليضعها في جيبه وهو ينظر نحوها بتحذير وجدت به متعة.

همست بخبث:

- أو مش تميمة..

قالتها وتركت موقعها لتتوجه نحو مكتبها متفحصة بعض الأوراق بجدية تامة وكأن شيئاً لم يكن..

ناولته ورقة صغيرة مستأذنة:

- هحتاج توقيع حضرتك هنا علشان تصريح الحفلة.

وقع الورقة دون أن يزيح بصره عنها..





لا يدرك هل تستفزه جرأتها.. لهفتها.. شغفها به!

هي ماهرة بعملها ولكن ليست استثنائية..

ببساطة يفصلها ويرتاح من تماديها، ولكنه اليوم اعترف لنفسه أنه بدأ يستلذ ذلك..

ببساطة رجل يستلذ ذلك..

بحلم على قدي

بشراع يعديني

بشموع تدفيني

بعيون تصون ودي

يقال أن أروع الأحلام أبسطها..

تلك الهواجس الدافئة التي تثلج صدورنا بحقيقة الصقيع.





قارب يتأرجح يميناً ويساراً يناجي القمر تحت وقع أمواج..

اعتاد أن تكون تلك هي صومعته الصافية.. يسند رأسه مواجهاً السماء.. يتأمل صراع النجوم بين توهج وخفوت فتلك نجمة الحظ, والأخرى نجمة الحب, أما هذه فتحمل فتنة النساء, والبعيدة هي كبرياء رجل..

زفرة حارة أخرجها مع ذكرى تموج بعقله منذ ست سنوات..

ليلة حريق قلبه وروحه وكبرياءه.

صراخ مُلِّح أخرجه من غفوة أفكاره..

ـ يا حمزه.. حمزه.. نمت يا صاحبي؟

استقام ليدرك أن قاربه ابتعد كالعادة وسط الأمواج وقرر أمين متطوعاً أن يسحبه بآخر..

ابتسم وهو يلمح سمرة وجه أمين اللامعة بغضب تحت ضوء القمر وتمتمته بغيظ:

ـ مرة بياخدك الموج وما ترجع..





البحر غدار يا حمزه.

عاد لنفس وضعيته مواجهاً السماء تاركاً الدفة لمنقذه وهمس بشرود:

- البحر صادق يا أمين.. أمواجه بتضربك وأنت داخل بيقول لك ارجع.

ترك أمين قاربه بدوره للأمواج فأصبحا خاضعين بأمر مياه..

أخرج لفافة مهترئة من التبغ وسحب نارها محرقاً صدره وأشواقه..

أجاب بسلاسة مُجَرِّب:

- بس بعدها بيسحبك يا صاحبي..

ابتسامة ساخرة مرت على زاوية شفتيه..

لو أخبره أحدهم حينها أن مصيره سيكون بقارب متأرجح بجانب صعيدي متذمر، لجزم بأنه مجنون..

اعتدل ليواجه أمين مختطفاً منه اللفافة ساحباً حريقها بدوره قبل أن يرميها في المياه..





وقبل أن يتذمر أمين على باقي لفافته الغالية ضحك حمزه بشدة ساخراً:

ـ يخمس معانا بدل ما يغرقنا!!

قطب أمين جبينه واعتدل ليحرك القارب زاعقاً:

ـ ليك نفس تنكت إياك!!

ـ وأنت ليك نفس تنكد.. بوظت الليلة اتحرك يلا.

كان زعيق حمزه أعلى نبرة ولكنه كان مرحاً يستجدي ابتسامة..

لم يعقب أمين وظل شارداً يحرك القارب، تأمله حمزه لوهلة قبل أن يسأله:

ـ أخبار الحاجة ايه؟

ابتسم أمين حينها بشوق ثم أتبع:

ـ بتسأل عليك.. وباعتة لك ملتوت





ابتسم حمزه متأثراً بعبق الوجبة الشهية التي لم يتذوقها بعد ثم أغاظ صديقه تلو ذلك:

- أيوة كده.. أهي حاجة عدلة من ورا سحنتك الكشرة!.. فكها يا فقري!!

صمت أمين لوهلة متأملاً سواد المياه القاسي ثم تابع بنبرة جافة:

- سعاد مشيعة مكتوب، كلام يقطم الضهر وأنا مليت أكتر ما هي ملت بس ما باليد حيلة.

سعاد زوجة أمين التي تركها بعد شهر واحد من الزفاف في سعي قاسٍ نحو الرزق..

بعد أن رتب أمر زيجته ومعيشته فاجأت الرياح سفينته وقطعة أرضه التي توسم فيها رزقه أصبحت بور بجبروت طامع..





ووجد نفسه في اختيار بين مجاورة العروس المليحة دون حيلة أو الحفر بصخر الحياة طلباً للرزق..

خطا نحو المدينة الساحلية مثل غيره واستقر به الأمر عاملاً على أحد اليخوت يجني ما يكفيها وأهله بالكاد ويقتات هو على الفُتات..

وسعاد ملَّت!!

زعق وهو يكررها بتبرم:

ـ ببيتها وريح أهلها وبتنام في حضن بتي وتقول ملُت.. أموت محروق أنا أحسن!

كان يزفر بغضب يوجز اشتياقه نحوها ونحو بدرية صغيرته التي تكبر دونه يوماً بعد يوم..

يتلهف لرؤيتها أيام معدودة كل عدة أشهر ويروي ظمأه منه بصورة يعلقها فوق فراشه.





صمت حمزه متأملاً وجع صديقه أم ربما وجع الحاجة التي أصبحت آفة الدنيا الدائمة..

ربت فوق كتفه ليواسيه:

ـ روق يا أبو بدرية.. الستات كلها نكدية أومال أنا مقاطعهم ليه؟!!

ضحك أمين يائساً:

ـ مقاطعهم!.. وإلجا دي إيه إياك مش ست!!

ابتسم حمزه عابثاً بخصلاته ثم نظر للشاطئ الذي بات قريباً, أردف بمكر:

ـ مقاطع الجواز.. والمصريات.

ابتسم بعدها بقسوة ليتابع بتباهٍ:

بني!! ـ أنا بقيت انترناشونال يا

ضحك أمين بشدة ثم رمق صديقه بخبث:





ـ الفجر قرب والدعوة مستجابة.. هدعي لك دعوة حلوة اسم الوالدة ايه

بدون تفكير وبنية صافية أجاب حمزه:

ـ نبيلة..

انتفخت أوداج أمين في سعادة غامضة قبل أن يزعق بدعوة خاصة جداً من أجل صاحبه:

ـ الهي تقع في المصرية اللي تربيك وتقلق راحة لياليك وتذوب في حبها زي الغريق يا حمزه يا ابن الست نبيلة!

ملامح حمزه ادمعت عيناه من الضحك فلم يملك سوى أن يتابع:

ـ قول آمين..

وقبل أن يقذفه حمزه في المياه كما انتوى وقبل أن يدركا المنادي على الشاطئ اخترقت الكلمات ضحكاتهما الصاخبة وكتمت الضجيج بلفظ واحد:



- يا أمين.. إلحق يا أمين.. الريس منصور..

انتفض أمين بقلق يصرخ في مناديه باستفسار:

- في إيه؟

صمت المنادي واجماً ثم تابع بنبرة أخرى أتبعها صمت تام:

- الريس منصور تعيش إنت.

على بعد خمسمائة متر فقط من أوبرا غارنييه وبمسافة قريبة لغاليري لافييت اعتادت أن تأخذ قهوتها الصباحية..

المقهى هادىء فمرتاديه عادة ما يزيدون بعد التاسعة صباحاً وخاصة من السائحين المتوجهين للغاليري..

حياها الجرسون بايماءة صامتة وقبل أن يحضر المنيو همست بفرنسية طليقة:

- المعتاد..





باريس المدينة التي أنهت بها وجهتها، المحطة النهائية بعد علاج امتد لأشهر حرص هو عليه عله يكتسب من شرها آماناً..

وخرجت فلم تجده ريحه واكتشفت أنه نسي حتى بشأن اعداءه.

لولا ما تبقى بحسابها البنكي ربما لتسولت ثمن تذكرة عودتها ولكنها لم تتسول ولم تعد..

حجزت مقعداً طائراً نحو باريس في رغبة ملحة لرؤية الموناليزا.

التشبع بتلك الابتسامة الغامضة التي تمنت لو ترسم مثلها أم ربما تجد من يفهم حزنها مثلما أدرك دافنشي دواخل بطلته.

تأملت قهوتها وتأملت ست سنوات مرت على الحريق..

النهاية التي سطرتها بليلة غضب لتنقلب عليها دون رحمة..





المرأة التي أصبحت عليها والقهوة التي تحسب ثمنها قبل أن ترتشفها والتمايل تحت شهوة أبصار تركت كل مآسيها واختزلتها بجسد.

صاحب المسرح الذي أبهرته العربية الحسناء، سطر لها رقصات ساحرة ستلهب زواره خاصة السائحين العرب..

ولكنها اشترطت سيناريو عرضها ولم تتنازل ورضخ هو خاصة مع جمهورها الذي تزايد ليلة تلو أخرى ومن كافة الأجناس.

الجميع يود رؤية شهرزاد التي خسرت بنهاية المطاف..

قتلها شهريار مثل كل امرأة ودفنت هي اسطورتها بجنون رقصة.

لم تنتصر شهرزاد..

ولن تنتصر..





شهريار سيظل منتقم حتى النهاية...

خيُل إليه أنه استمع إلى زفرتها الحارة من خلف الزجاج..

شهرزاده الحمراء مثيرة جنونه على مر أشهر..

منذ لمحها أول مرة ترقص بألم فوق مسرح علم أنه أمام استثنائية..

أنثى لا تتكرر سوى كل مائة عام وهو قرر أن يكون خاطف تلك المائة. أرسل مرسال.. واثنان.. وعشرة..

وهي ترفض..

بالطبع سوف ترفض..

هي ليست مجرد جسد..

خصر ونهد وأرداف لأجل حفل خاص..

هي لوحة يود أن يجسدها كما هي..





دماءها الحارة..

بريق الزرقة الصامتة بعينيها..

الخصلات المتناثرة تمرداً على الواقع والخيال..

تهديه كل ليلة نظرة..

متحدية..

متجبرة..

وهو يوازيها..

إن كانت هي كارمن بثوب شهرزاد..

فهو سيكون أوتار ريمسكي وبيزيه مجتمعين..

لترقص فقط على أنغامه..

وترتمي بالنهاية بين ضلوعه إن شاء!..

بثقة انفرجت شفتان قاسيتان وبخطوات هادئة توجه نحوها..





وقبل أن تستدير لمواجهة متطفل صباحها تلجمت بدورها..

فها هو متطفل كل ليلة وصاحب الصك المفتوح دون ثمن من أجل ليلته الخاصة كما يريد..

"مراد الغازي"





الفصل الثالث

إلى صامتة..

تكلمي.. تكلمي

أيتها الجميلة الخرساء

فالحب.. مثل الزهرة البيضاء

تكون أحلى.. عندما

توضع في إناء

نزار قباني

بسبعة وريقات يطلقون عليها عمراً..

أتتشكل ذكريات؟!..

صور وحروف من ماضي لا يصح أن نُطلق عليه بعيد..

كم عمر ذكرياتك يا صغير؟!

أهناك قهراً أشُد من ابتسامة ساخرة فوق وجه طفل!.

ـ محمود.. محمود





نبرة أبيه أقحمت نفسها بعالمه بحقيبة ذكريات فتحها دون وعي وقتما استقر بجواره بالسيارة..

نحو المنزل..

نحو.. قيد آخر لعائلة أجبرت على أن تكون أسرته..

حينها تذكر العجوز, الجدّة التي ابتهجت مع زيارة حسن الأخيرة وكأنها الخلاص..

"أخيراً"

تلك كانت عبارتها المقتضبة رغم العَبرة التي ذرفتها في نهاية الأمر.. اعتدل برأسه الصغير فوق المقعد ونظر نحو أبيه الذي انشغل بمحادثة عمل غير عابئ بالردّ..

ذلك الرجل الذي لا يحمل من ملامحه شيء ولولا إصرار أمه وحروف اسمه لما اعتبره والده..





هو لا يمتلك وسامته وسهام تقول أنه يحمل ملامح أبيها وجدُته طالما قهقهت بوجهه:

- بتفكرني بالغالي..

مِزاج هادئ لا يتكرر معها كثيراً خاصة أنه اعتاد تذمرها من صبيحة اليوم حتى سكون الظلام..

تشكو من وجع ظهرها وضربات قلبها وشيخوختها والطعام الذي ستعده من أجله وهناك الملابس وكيُها وطيُها..

مجهود شاق لم تعد تتحمله امرأة في عمرها، وينتهي اليوم بتهاويها على الفراش:

- أنا ما عدتش أد الهم ده.. أنا حكلم أمه.

وينام هو بذاك الشعور المكرر، تملك قاسي لطفل أدرك المعنى مبكراً للغاية...





أنه... عالة

- دي يا محمود المدرسة اللي نقلتك فيها..
حتكون مع حسن وتميمة بس إنت بقى سابقهم..

بملامح صلبة رمق المبنى واستدار دون أي ردة فعل..

تماماً مثلما استقبل خبر انتقاله للمزرعة..

استدار تاركاً أبيه وجدته وتوجه لغرفته ليلملم الحقيبة, حياة أخرى بجانب المدلل الصغير وهزيلة

الجسد صديقته, وكالعادة سيبدأ الأمر باللعب وينتهي بسخرية أو صراخ, يليه عقاب من الأب مصطنع الحنان وربما... المسؤولية.

****





ـ بابا جه.. بابا جه

أجفلتها صرخة حسن فأوقعت الكأس السادس من الطقم الكريستالي الذي كانت تنوي أن تستخدمه بعشاء الليلة..

جذبت إيناس يدها قبل أن تجرحها واصطنعت ضحكة ربما تلطف الأجواء:

ـ كده الطقم باي باي.. يلا علشان برده ما نفرقش بينهم!

كانت رقية شاردة عن الحديث ومتحفزة بكل حواسها نحو النافذة تراقب قدوم محمود.. همست بضيق بعد وهلة:

ـ هو فين؟.. أنا مش شايفاه..

كان ذلك قبل أن يظهر محمود مباشرة من السيارة..

يا إلهي!!!..





لقد زاد هذا الولد طولاً فتلك بنية صبي بالتاسعة وليس السابعة من العمر، وها هو يرمق خالد بعدائية..

ابتلعت ريقها وأفكارها تنتفض بشأن صغيرها قصير القامة بجانب الخشن على الجانب الآخر.

كانت إيناس ما زالت تتحدث ولكنها أيقنت أنها تحدث نفسها عندما تجاوزتها رقية مسرعة نحو الخارج في خطوات نحو استقبال وحماية..

تبعتها لتصل على قهقهة حسن وهو يجذب خالد برقة مردفاً:

ـ تعال سلم على أخوك يا خالد

لم يكن خالد يدرك بدوره هذا اللفظ الذي يكرره أبيه بشأن محمود

"أخوك"

ربما مثل تميمة..





فكلما غضب من تميمة تزجره رقية باللفظ المعتاد..

"أختك"

اقترب بحذر فهذا الولد ازداد طولاً وتلك المرة سيوجعه ضرباً لا محالة.. توقف مستديراً نحو أمه علها تصرفه ويرتاح، ولكن انتهى كل شيء مع جملة أبيه التالية:

ـ يلا.. خد أخوك على أوضتكم..

وقبل أن يستوعب كانت قبضة محمود القاسية تطحن أصابعه في شبه سلام..

أغمض عينيه من الألم متحدياً وجع طفولته تلك المرة ومحدقاً في سجال مُعانداً أنه من الآن لن يصرخ.

****

كان الصوان ممتلئاً عن آخره مما دعا بعض أهالي الحي الفقير بإخراج مقاعد بيوتهم من أجل جموع المُعَزِّين..





تلك هي المرة الأولى التي يزور فيها مسكن الريس منصور ويشاء القدر أن تكون من أجل واجب عزاءه..

الوجوه أمامه ذكرته بملامح الرجل التي تمكن منها شقاء الحياة وعود ظهره الذي انحنى تحت وطأة قسوة العيش..

قوته كان هذا القارب الذي على ما يبدو أمّن حياته وأسرته لسنوات..

ورغم تهالكه عاماً تلو الآخر إلا أن منتجعات كثيرة كانت تفضل أن تتعاقد على رحلاتها معه, خاصة أنه عجوز يفهم أسرار البحر ومداخله وله من السمعة الطيبة ما يجذب نحوه الجميع..

فالرحلات على متن "ليلى" طالما كانت الأفضل وأصبحت أيقونة يفضلها السائحون من مُرتادي المنطقة.

ملامح مزعجة أثارت انتباه حمزه ليميل على أمين في همس غاضب:





- ايه اللي جاب ده هنا؟؟!

نظر أمين للإشارة صديقه ليلمح صبري بملامحه المختالة يسير وسط عنتريان من أتباعه..

بضيق عيناه الثعلبيتين مسح المكان ليستقر بدوره على ملامح أمين وحمزه فحياهما بابتسامة باردة..

لا يفهم أحد كيف استطاع صبري الذي جاءهم فقط قبل بضعة سنوات يزحف على ركبيته طالباً الرزق أن يسيطر على نصف

مراكب المرسى!!.. تخلى معظم أصحاب المراكب مثل الريس منصور عن رفيقاتهم كما اعتادوا التندر وأصبح صبري يمتلك أسطولاً صغيراً من اليخوت والمراكب يصرفها لحسابه كيفما شاء..

ولكنه دائماً ما كان يود السيطرة على..

"ليلى"

فالمركب له تاريخ قوي مع المرسى ويفضلها الكثير من الزوار وقد تبرع أحد مرتاديها بمبلغ قيم العام الماضي





من أجل إصلاحها، فجعلها الريس منصور عروس متألقة في نكهة بدوية وسط صحراء زرقاء..

تلك البدوية الشاردة هي آخر جدران الحصن وعند امتلاكها سيكون المرسى كله تحت إمرته.

والآن العجوز المتعنت برفضه رحل رغماً عنه وعاجلاً وليس آجلاً سيحقق حلمه الذي خطط له طوال سنوات.

تنحنح صبري بابتسامة لا تليق ثم جهر بصوت عال:

- الموت علينا حق..

قبل أن يستدير فوجئ بأمين يهذر خلفه في غضب بين:

- ايه اللي جابك؟





باستهانة نظر نحو الصعيدي الهزيل ليزيح أصابعه السمراء من فوق كتفه ويتابع بتبجح:

ـ الواجب فيه سؤال يا ولد عمي!

زمجر أمين في غيظ من تبجحه على لكنته، ليزيحه حمزه ويتصدر المشهد بصدره العريض مواجهاً صبري في صرامة:

ـ امشي من هنا..

ضحك صبري فضحك على صوته مرافقيه دون اعتبار لمراسم العزاء حولهم ثم رمق حمزه بشراسة قبل أن يتابع متهكماً:

ـ ده الكابتن كمان بيخوفني!!

اقترب منه حمزه حتى كادت أن تتعارك جبهتهما..

صبري كان قوي البنية بدوره.. فبدايته في المرسى كانت مع أشد الأعمال مجهوداً وقسوة ولو لما تحت الصفر توصيف واضح فسيكون حتماً ما بدأ منه..





الآن يتحداه رجل الورود الذي وجد في مياه البحر ضالته..

سخر بنظره قبل أن يرفع يديه في إشارة بذيئة نحو حمزة ثم رحل متوجهاً نحو شقة الريس منصور فلديه ما هو أهم من تلك المهاترات.

****

كانت تجلس في ركن تراقب من بعيد نساء يتوشحن بسواد..

يقتربن..

يُقبلن وجنتها..

جبهتها..

يهمسن بدورها..

مسؤوليتها.. أمها..

أخويها..





"مات منصور"

وكأنها باتت الآن فقط تدرك الرحيل!..

رحل منصور دون عودة..

ألم تكن دوماً تناديه منصور!..

يضحك ويصطنع الغضب ويتساءل عن لفظ أبي..

فتقبل وجهه بشدة تؤلمه وتكررها..

منصور..

وهي..

هي..

ليلاه

حتى بعد قدوم التوأمين وحُلم الصبي الذي مَنّ الله عليه به بعد وقت طويل إلا أنها تظل أميرته وتضحك الأم:

- هتحتاج مركبين على اسم عصام وحسام..

فيبتسم برضى محتضنها:





- **ليلى بس**

استفاقت وجلة من لعنة الذكريات..

هي صامدة حتى الآن ولا سبيل للانهيار خاصة مع أمها الممددة بالداخل على الفراش من الصدمة..

لفظ..

"البركة فيكي يا بنتي"

يتكرر منذ الصباح منذ تقدمت الجنازة وشهدت دفنه حيث لم تتحمل أمها الموقف..

نهروها وطلبوا منها المكوث بالبيت..

وكأنها ستتركه وحده!

لا أخ..

ولا أخت..





هل سيرحل نحو قبره وحده؟!!..

استقامت عندما لمحت رجلين اخترقا صفوف النساء الباكيات..

والآن عليها أن تتقبل عزاء الرجال أيضاً!!..

ظنت أنها تركت تلك المهمة لخطيبها بالأسفل وبعض الجيران..

اقتربت منهم بملامح صامدة قطعها صبري بعزاء بارد اللهجة:

ـ البقية في حياتك يا ست البنات.

أومأت دون حديث فتابع هو متعجلاً:

ـ معاكِي صبري.. الريس منصور ده أبويا.. والله أبويا.. أي حاجة أنا سداد وما تقلقيش على المحروسة ليلى دي في عينيا..

ـ شكراً يا ريس صبري..

قالتها بصوت مبحوح تجاهد منذ الصباح على كتمه كي لا ينفجر ببكاء.. ولكن جاء الآن هذا الرجل ليعزف دون قصد على آخر أوتار تحملها.. يهذي الآن لأكثر من عشر دقائق عن الريس منصور والعلاقة



الحميمة بينهما، رغم أنها لم تسمع عنه قبل ذلك..

يخبرها أن المركب أمانة معه حتى تقرر هي والوالدة بشأنها..

و... و... و...

رفعت كفها فجأة في إشارة لعدم الاحتمال لتهمس بنبرة متقطعة:

ـ شكراً يا ريس..

ابتسم بغيظ متذكراً جفاء الريس منصور بشأنه وكأنها عادة عائلية!!.. استدار راحلاً وهو يستمع لهمس أحد مرافقيه:

ـ تفتكر هتبيع؟

سحب لفافة تبغ ثم نفث دخانها متملكاً الهواء بعد أن راقب بانحلال مؤخرة سيدة متوجهة نحو العزاء..





ضحك بخبث ثم أردف بثقة:

ـ هتعمل الكتكوتة اللي جوة دي إيه لوحدها؟!.. هتبيع وبسرعة قوي كمان.

دهس سيجارته ثم هبط الدرج ليواجه كلاً من حمزه وأمين اللذان اتبعاه بعد تفكير طويل..

رمقهما باستخفاف ثم هم مغادراً ليزمجر أمين:

ـ طبعاً عايز يشتري المركب..

صمت حمزه لوهلة قبل أن يتابع:

ـ تفتكر مرات الريس منصور هتبيع!

شرد أمين قليلاً ثم ابتسم براحة مردفاً:

ـ ما اعرفش عن مرته.. بس ليلى لو بنت أبوها زي ما بيقول مش هتبيع.

بدهشة نظر نحوه حمزه:

ـ ليلى مين؟!





ـ بنت الريس منصور.. وعلى اسمها بتكون

"ليلى"

****

قدمان حافيتان تتأرجحان بمرح لا يصل لمستوى الأرض تحيط بهما ساقان صلبتان وقد اضجع صاحبهما براحة فوق مقعد متأرجح وهي بين ذراعيه تقرأ له حكاية ما قبل النوم..

مرت على شفتيه ابتسامة وهو يلفف جدائل البندق حول خنصره ويستمع لتلعثم تميمة عن أميرتها وثعلب وبطة..

وطائرة نفاثة!..

ليدرك أنها كعادتها قد قررت تعديل الحكاية كيفما يروق لها!.

كانت البرودة قد بدأت تتسلل لصومعته المنعزلة..





تلك الحجرة التي بناها على مقربة من الفيلا خاصته لينفرد بنفسه بعيداً كلما شاء حتى وإن من أجل النوم.

- بابا.. بابا..

ابتسم لصغيرته ليهديها قبلة فوق شعرها ويجيب:

- نعم يا روح بابا..

- هناك.. ماما!

لمحها تقف من بعيد..

ترتدي ثوباً فضفاضاً وتداري كتفيها بشال أنيق وتراقبهما من بعيد..

تُقَدِم خطوة..

وتُؤَخِر خطوة..

كي تأخذ تميمة لغرفتها، ولكن كبرياءها يمنعها من الذهاب إليه..





الوقت يمر وهي تُشَيِّد دون شعور حاجز من الكبرياء بينهما حتى خُيِّل إليه أن كلاهما لن يستطع هدمه..

طبع قبلة أخرى فوق وجنة تميمة قبل أن يحتضنها بشدة ويستقيم وهي بين ذراعيه, همس لها:

- بردانة؟

أومأت الصغيرة في صمت وعندها رمق خيال زوجته لوهلة قبل أن يتوجه لزر الإضاءة ويغلق النور في إشارة لمبيته في الغرفة خاصته الليلة ومعه تميمة..

دون وعي لمست ارتعاش شفتها السفلى وهي تلمح اختفاؤه بتميمة بين الظلام..

الآن ستعرف تميمة أيضاً طريق المبيت خارج المنزل..

أغمضت عينيها بألم لتتذكر ثورته بعد ما حدث..





بل ثوراته!

البهجة التي انتهت بقرارها العنتري

باستضافة أمه بالمنزل..

زيارة امتدت للأبد دون تخطيط منها، فالأم

الوحيدة وجدت بها القشة التي ستعيد لها

رؤية ابنها ولو على مضض..

لم تتصور أن الأمر سيغضبه لتلك الدرجة التي

عندها قرر بناء تلك العزلة المجاورة والتي

تبدو كأنها زوجة أخرى تستأثر بزوجها

وقتما شاءت!!..

وهي لا تستطيع الإقتراب..

صبرت.. وجادلت.. وثابرت..

وكان هو باراً بأمه..

رغم رفضه الشديد لتلك المجاورة والتدخل

في تربية ابنته..

ولكن معها هي..

تبدل..

تغير..





لم يعد هذا الشغوف الذي كان يحملها

بشوق مفاجيء في وسط النهار..

أو كالذي فاجآها بليلة زفاف وسط الصحراء

حيث فقط كان..

هو..

وهي...

ورعد..

"رعد"

القشة التي قتلت البعير..

الجواد الذي لم يستطع جسده مقاومة

الظلام أكثر من ذلك..

زاد عمره وزاد تخبطه..

وخالد كان يعلم أن النهاية وشيكة,

ولكنها معاندة الغريق..

لم تشعر أن عبراتها كانت تنهمر





تلقائياً على وجهها وهي تتذكر ليلة رحيل رعد..

واتهامه لها أنها لم تقم باللازم ولم تستطع انقاذه..

بركان هائج انفجر في وجهها..

فهي هناك متواجدة مع أقصى لحظاته ظُلمة..

وهي وحدها اتخذت القرار العنتري باحضار أمه التي راقب موتها أيضاً أمام عينيه.

تلك الطاقة الهائلة من الغضب لم يكن لها القدرة على احتوائها.. ترويضها..

احتمالها..

لينتهي الأمر بهذرها عن أنانيتة وعقوقه الذي أنقذته منه باقتناص آخر أيام أمه بين جدران بيته..





أنانيته التي تمثلت في محاولة الإبقاء على رعد حتى آخر لحظة رغم آلامه...

وبدورها قتلت البعير بقشة غضب أخرى تندم عليها حتى الآن..

"أنانيتك.. إنك تكون معايا وقت ما تحب، وتهجرني وقت ما تحب، بغض النظر عن مشاعري أنا"

الجملة ما زالت تضيء بظلام ليله حتى الآن..

كلما انفرد بنفسه يتذكر ملامح آخر عراك ليتبدل بعدها كل شيء..

لا هي واسته ولا هو توجه نحوها.

آثر كلاهما الصمت في انتظار الآخر..

****

بطرف عينيه ألقى على حنقها الصباحي نظرة أخرى..





تجول وتصول بالمطبخ ربما من قبل شروق الشمس..

أعدت عشرة أصناف من المعجنات، وحضرت زجاجات العصير الطبيعي ولم تنسَ أن تضيف للسلة بعض الفاكهة..

من داخله يشفق عليها ويعلم مدى قلقها على خالد، ولكنه يخشى من تحول هذا القلق لما ما يشبه الهوس..

هذا إن لم يكن تم بالفعل.

تنهد ببطء قبل أن يقتحم خلوتها ليحييها بابتسامة واسعة مازحاً:

ـ الولاد هيتنفخوا من كتر الأكل..

بديناميكية جافة أجابته دون أن تحيد النظر عن ما تفعله:

ـ مش الولاد بس.. كمان أنت وخالد..

استمر على نفس المنوال بنبرته المازحة علها تبتسم على الأقل قبل





رحيلهم:

ـ احنا رايحين حديقة حيوانات مفتوحة.. يعني ببساطة الموز الجميل ده حيغري القرود وينطوا فوق خالد وهو في العربية!

أجفلها لترتعش يديها وتتحول ببصرها نحوه ولكنه لم يصمت أردف مكملاً ولكن بنبرة أكثر وضوحاً:

ـ أو محمود يزقه من العربية مثلاً..

حينها ارتعشت ككل وجحظت عيناها لوهلة بتحفز لتغيب ابتسامته ويتابع بجدية صارمة:

ـ يا ريت يا رقية تقدري تفرقي بين مناغشة الولاد لبعض وبين الرغبة في الأذى..

صمتت وعادت لتفحص طعامها بغضب دون أن تجيبه..

حاول أن يقترب منها ملطفاً الأجواء ولكنه لم يستطع..





وجد نفسه يخطو نحو الباب وهو يضيف بتوكيد:

- ولادي مش هيأذوا بعض يا رقية.. الإخوات مش هتكره بعض يا رقية..

قالها ورحل..

لا يعلم هل هو بصدد قسوة نحوها في الأيام الأخيرة؟..

هل نسي بشأن رقية الأم ويفكر فقط برقية زوجة الأب؟!

هل سيكره أبناه بعضهما يوماً؟...

طَلّتهما أخرجته من أفكاره..

خالد بسروال قصير وقميص مقلم مكوي بعناية، ومحمود ببنطال من خامة الجينز وقميص أزرق آثر تركه مهلهلاً بدلاً من تسويته مثل أخيه..





الفرق في الإهتمام بيّن!!

هكذا كان يهذي لحاله قبل أن تظهر رقية من العدم وتضع حقيبة الطعام في السيارة..

ناولت خالد علبتين من العصير واحدة له وآخرى لتميمة, وعندها استيقظت شياطينه وأوحت له بتجاهلها لمحمود حتى بشأن الطعام..

ولكن قبل أن يزيد الطين بلة وجدها تتجه نحو محمود وتناوله علبة أخرى من العصير بدوره ولفافة بها شطيرة ساخنة وهي تتمتم بهدوء:

أ دي علشان ما فطرتش زي أخوك.. كُل في العربية.

ثم استدارت نحو خالد لتتابع:

ـ في ساندويتشات في الشنطة يا خالد..

لم تزد..





فقط ربتت بهدوء فوق رأس محمود وقبلت خالد على وجنته وتوجهت للداخل وحيدة دون أن ترافقهم بالرحلة بأمر حسن.

الحُجَّة التي أرادها كي ينسجم الولدان دون قيود قلقها التي لا تنتهي.. تركتهم وكان هو متصلباً بجانب السيارة يفكر بأمرٍ واحد

"هي لم تكن عادلة في القُبلات!!"

****

كانت تميمة متحمسة جداً بشأن الرحلة..

إيناس بدورها كانت تشعر بالضيق، فرقية لن تكون موجودة إذاً هي لن ترافقهم بدورها..

زفرت بضيق ربما للمرة المائة وهي تكمل تحضير تميمة التي صرخت بوجه أمها بعفوية مضحكة:

ـ شعري بيطير يا مامي من النفخ!





لم تملك إيناس سوى أن تضحك بدورها وتهدي تلك الثمرة الشهية قبلة قوية وهي تردد:

- وحشتيني طول الليل وهتوحشيني النهاردة طول يوم.

قطبت تميمة جبينها لتتابع بتذمر:

- تعالي معانا يا مامي.

احتضنتها إيناس بحنان ثم قرصت وجنتها بخفة لتكمل:

- ما ينفعش أسيب طنط رقية لوحدها، وكمان أنتِ هتتشغلي باللعب طول اليوم.. هتكوني فاضية لي بقى؟!!

ابتسمت الصغيرة لتردف بشقاوة:

- لأ..





بمقلتين شبيهتين بصغيرتها توهج شعاع العسل بعينيها لتتوعد تميمتها بمرح:

ـ كده.. طيب ما فيش خروج.. تعالي هنا أنا هأحبسك في الأوضة وأقعد أبوس فيكي لغاية ما أزهقك!..

كانت تميمة تركض بكل قوتها ضاحكة بشدة وإيناس خلفها حافية بسروال بيتي قصير وبلوزة قطنية واسعة..

خصلاتها مبعثرة بشكل فوضوي لم يعتده عليها حيث نصفها مرفوع بدبوس شعر لامع والباقي وجد للهروب من قيده طريقاً...

"هل تكون بتلك العفوية المبهجة فقط في غيابه؟!!"





كانت تلك هي تمتمته لحالة وهو يراقبها على درجات السلم تحمل تميمة بعض أن أمسكتها وتداعبها بمرح منقضة فوق وجنتها تارة وبطنها تارة أخرى..

كانت قد وصلت لموقعه عندما صرخت تميمة باستنجاد من وسط ضحكاتها

- بابا..

لم تلحظه من قبل..

كانت تظن أنه توجه للسيارة خاصة أنه ارتدى ملابسه في تلك الغرفة التي يهرب إليها بسبب أو بدون..

اعتادت أن تجده فجأة بجانبها على الفراش أو لا تجده..

يظهر ويختفي كما يحلو له, ولكن الأكيد أنه منذ عام ومنذ صرختها بوجهه بتلك الليلة لم يقربها..

زفرت بارتباك عندما لاحظت هيئتها المزرية وتفحصه الغريب لها..





فعدلت من هندامها وجذبت خصلات شعرها لتقيدها مرة أخرى كما قيدت البهجة فوق وجهها..

ضحك باستهزاء ثم حادث تميمة بنبرة هادئة:

- عمو حسن مستني في العربية برة يلا اطلعيلهم يا حبيبتي..

ضحكت تميمة بشدة لتتوجه نحو أمها بوداع ضاحك ظانة أن اللعبة ما زالت مستمرة وأنها ستلحق بها للخارج..

ولكن إيناس ابتسمت بارتجاف وودعتها بالفعل متمنية لها وقتاً ممتعاً قبل أن تستدير فجأة هاربة من البقاء معه.

تملك غليظ حول معصمها شل تحركها لتدرك أن تميمة غادرت بالفعل ولكن هو ما زال موجوداً ويوقفها بقبضة يد..

استدارت نحوه متسائلة بجفاء بين





- في حاجة؟

لم يترك معصمها..

نظر بحدة نحو ساقيها ليتابع بنبرة محذرة:

- هو ما ينفعش تنزلي من أوضة النوم بشورت قصير كده ممكن قوي حسن كان يكون معايا.

استدارت نحوه بغضب لتوازي نبرته صوتاً وغضباً:

- أنا أصلاً ما كونتش أعرف أنك أنت موجود!

ترك معصمها ولكنه لم يرحل اقترب منها متأملاً هذا الشعاع الغاضب الذي ربما هو نفسه كف عن تأمله في الآونة الأخيرة..

ظلت ملامحه صلبة ولم تمر عليها ولو شبه ابتسامة ولكن نبرته كانت ماكرة وهو يتابع:

- وإذا كنتِ تعرفي كنتِ هتلبسي ايه؟

كانت غاضبة..





منفعلة..

هو يتركها..

هو يقرر انه لا يريدها..

يعاقبها..

والآن يمرح..

يمزح بشأن ذلك..

وينتظر منها أن ترتدي له خصيصاً ما يعجبه!

انفعالها بدا جلياً بالجملة الحمقاء:

- أكيد يعني مش هالبس حاجة!!

مر كثير من الوقت قبل أن تهاجم شفتيه ابتسامة كتلك..

في ثورة غضبها تخطئ وتتفوه بحماقات قد لا تستطيع تحمل عواقبها..

لم تدرك معنى جملتها إلا عندما همس فوق شفتيها:





ـ عارفة لو تفكري قبل ما تتكلمي كانت هتفرق معاكِ كتير!

أغمضت عينيها في ارتجاف وضيق بنفس الوقت..

خاصة مع رحيله رغم محاولة شبه الإغواء التي رددتها دون وعي.. ارتجاف وضيق يوازي رفضها الإعتراف بأنها تشتاق إليه..

****

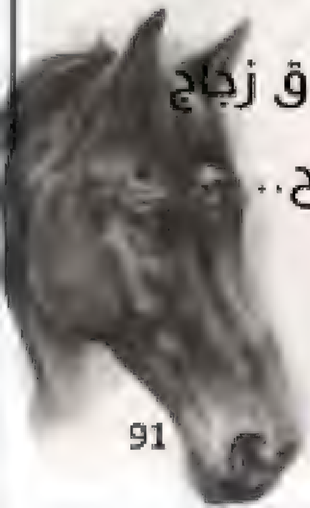
في قلب الليل..

باريس..

بدلاً من أن يستقلا سيارته حشر نفسه بجوارها داخل سيارة أجرة!!..

السائق على ما يبدو من أصول شرقية وعلى ما يبدو أيضاً أنه يعرفه حق المعرفة..

زفرت بضيق وأسندت جبهتها فوق زجاج السيارة تسترجع أحداث الصباح..





متى قالت نعم؟!

ولمَ؟!!

هذا المتأنق يكرر عرضه منذ أشهر وهي رافضة غير مبالية حتى بالتفكير فيما وراءه..

والآن..

اختلف شيء لا تدرك ماهيته..

تجربة لن تتكرر...

أنا من يؤمن بكِ شهرزاد..

ليلة حقيقية وليست مزيفة كتلك التي توهمين نفسكِ بها فوق مسرح!!

اتركي مسرحكِ الزائف واقتحمي مسرح الحياة!.

كلماته ما زالت تتردد..

تدق فوق ناقوس أذنيها لتجبرها على الإستمرار..

لماذا قالت نعم؟!





ربما لأنها ملّت تكرار..

"لا"

- وصلنا..

برزانة دافئة أخرجها من شرودها..

يمتلك هو صوتاً مصقولاً ربما كهيئته..

فالخصلات مشذبة.. والحلة منمقة..

والحذاء.. والساعة..

و.. و..

دون ترتيب همست:

- أنت عكسه!

ابتسم ولم يعقب..

بديهي أن حالها نتاج رجل..

كل صدمة أنثى سببها رجل، وكل جنون رجل سببه أنثى.

ترجل من السيارة لينحني بأناقة ساخرة قبل أن يردد:





ـ تفضلي سيدتي..

حديقة ولكنها ليست بحديقة قصره..

أين هي؟..

وأين هذا المكان الذي أخبرها أنه هناك سيقيم عرضه؟.

نعم منذ وافقت أصبحت شهرزاد عرضه الخاص يفعل بها كيف يشاء.. شهريار آخر مكرر..

وإن لم يبحث عن مجد فراش سيتوج انتصاره بلوحة يزين بها جدرانه..

دون اكتراث ابتسمت بثقة سرعان ما فقدتها عندما أيقنت أنها بغابات بولونيا

برقت نحوه فأوماً بمكر:

-Bois de Boulogne

وصمت لتنطق عيناه بالأكثر تشويقاً

"حديقة المسرات الدنيوية"





الفصل الرابع

ما قيمة الحوار؟..

ما قيمة الحوار؟..

ما دمت.. يا صديقتي، قانعةً بأنني وريث شهريار!

أذبح كالدجاج كل ليلةٍ ألفاً من الجواري..

أدحرج النهود كالثمار..

أذيب في الأحماض.. كل امرأةٍ تنام في جواري..

لا أحد يفهمني..

لا أحدٌ يفهم ما مأساة شهريار..

نزار قباني

رغم أن هيرونيموس بوس كان لديه شغف تصوير الخطيئة في شكلها الإنساني المتعدد إلا أنه ربما لم يتوقع عندما خط مرسومه أن لوحته سيوصمها البعض مع أكثر البقع انحداراً..





غابات بولونيا التي تبعد ببضعة كيلومترات عن الشانزليزيه ويحفها من الناحية الشرقية نهر السين..

تعتبر ملاذاً مشمساً لأصحاب ذوق التنزه الصباحي ونفقاً مظلماً لهؤلاء من يتجنبون نقاء الضوء.

أطلقوا عليها المسرات الدنيوية!

فكل شهوة.. دنيا..

وكل تيه.. دنيا.

وكل رخيص.. دنيا..

وكل متاح.. دنيا..

والمتاح هنا مباح، وأقصى أفكارنا انحرافاً هي واقع متجسد ومُعلِن عن نفسه بمبالغة لا تقبل الجدال..





تراجعت خطوتين للخلف في اشمئزاز وهلع بنفس الوقت, ولكن مقبض باب السيارة كان قد اختفى كما السيارة ذاتها!!..

ووجدت نفسها وحيدة معه في وسط أشباه بشر جاءوا لعرض بضاعتهم ظناً منهم أنها طالبة لمتعة رخيصة..

مثله!

- كفاية..

كانت زعقة صارمة منه بعدها ابتعدت الأجساد, اختفت في بقعة ظلام مجاورة كظل جائع فقد معنى الحياة..

الآن نوعاً ما عادت لها أنفاسها وعادت تلك الثقة الواهية التي تغلف بها نفسها لتعود كارمن كما كانت..

قبل أن تنطق..

تصرخ..

تسب..





أم ربما تلعن..

عادت لتتأمل ملامحه، كان مبتسماً بل أنها لمحت قواطعه الصفراء!.. ليست صفراء بحسب، بل أسنان شديدة الصفرة..

مدمن تبغ ربما أم هو متعاطي لما هو أقسى!..

مريض..

مجنون..

يضحك!!

كانت ضحكته عالية ثم تحولت لضحكة متحركة تصاحب تجوال صاحبها من هنا لهناك!..

يظن نفسه زوربا بعرض راقص مسرحي!..

أم ربما قرر أن ينقش بطولة سادية فوق أجساد النساء!..

ضحكاته أولدت لديها ذعر..

وكلمات كتلك التي تصب الرعب في نفوس الأسوياء بدأت تقتحم عقلها





دون تحكم منها، قبل أن تدمرها الأفكار توقف واستدار نحوها في شبه بقعة ضوء مشيراً لمنصة بدت أقرب إلى صخرة قاتمة..

من بين ابتسامة نطق بانتصار:

- مسرحك.. شهرزاد!!..

لم تستوعب.. ولم تفهم أي مقصد هاذر يرمي إليه..

حتى سلطت الأجساد حولهما أضواء ضعيفة لمكانٍ ما، أشار فلمحت مسطحاً منتصباً تحت الإنشاء يبدو كمنصة عرض.

تلجلجت ثم عاد صوتها مبحوحاً:

- مسرح مين؟!.. أنت مجنون!!

التفاتة هستيرية صدرت منه ثم هرع نحوها بخطوات مسرعة أرعبتها فسمرت قدميها دون حراك..





جذب ذراعها فضمها إليه ولكن في هدوء متناقض مع بريق الحماسة بوجهه..

أزاح خصلة من فوق أذنها ليهمس:

- ده أكثر مكان يليق بشهرزاد.. عارفة ليه؟

لم تنطق..

أغمضت عينيها لتنفي بحركة صامتة رافضة لكل ما حولها وأولهم هو، ابتعد عنها ولكن لم يتركها.. وضع ذراعه على كتفيها وبيده الأخرى ثبت وجهها على امرأة..

أجبرها على فتح عينيها لتبصر فرنسية بعمر ربما يناهز الثلاثين عاماً.. كانت ملامح وجهها جميلة يوماً ولكن المساحيق آلت ببشرة كانت حية نحو تشققات..

الجسد لم يكن أفضل حالاً ورغم ذلك هي بفخر لجأت لتزيين مواطن الرغبة بوشوم متعددة أثارت اشمئزازها على الفور..





أيمكن أن يكون الغري قبيحاً لتلك الدرجة!

أدارت وجهها فتركها ليضحك بشماتة متابعاً:

- إيه أول مرة تشوفي مومس؟!!.. ولا علشان دي درجة عاشرة ما بتقدمش بضاعتها بشكل شيك على مسرح أو في قصر!..

بغضب دفين باغتته لتريه الزرقة التي ظل لأشهر يراقبها احتقاراً يستحقه قبل أن تقذف بكلمة لترحل:

- حقير..

- قولتِ إيه..

- أنت مش مجنون.. أنت إنسان حقير..

- أنا كنت أفضل مجنون.. دلوقتِ شعرت بالإهانة!!





كان يرددها وهو يمسك بصدره في سخرية بائنة، استدارت لتهرب ولكنه لحقها..

- أغلب العباقرة قالوا عليهم مجانين.. جاليليو.. داروين.. سقراط.. دافنشي..

لم تستدر..

كانت تسارع في خطواتها نحو أقرب ضوء سيارة، كلها دقائق وستصبح في الطريق العام وستتخلص من هذا الكابوس الذي ورطت به نفسها بحماقة ومن جانبه كان يلحقها بخطوات ثابتة، يتكلم وكأن شيئاً لا يحدث وكأنها لا تهرول هروباً..

- إحنا قدامنا نختار نبقى عاقلين وننتهي زي كل حاجة عادية ما بتخلص ولا نتجنن ونعيش للأبد!

كانت قد اقتربت..

الوجهة تبدو أكثر وضوحاً الآن بل أنها على بعد خطوات من استقلال سيارة أجرة..





أوقفها بنبرة أخيرة بدت آمرة:

ـ شهرزاد كانت مجنونة.. كانت مومس..

بس عاشت في ألف كتاب!

لا تعلم هل جذب انتباهها أم أغضبها..

تركت سيارة أجرة تمر بعد أن كانت قد وصلت نحوها بالفعل لتستدير نحوه متحدية:

ـ شهرزاد لو مومس يبقى شهريار قواد!!

اقترب منها وقد لمعت نشوة الإنتصار بعينيه ليتابع:

ـ سيبك من شهريار.. شهرزاد هي البطلة.

ـ وأنت طبعاً مكتشف البطولة دي؟!

ـ أنا اللي هارسمها!

ـ ترسم إيه!.. إنت لسه مصدق اللعبة؟!

ـ هارسم نهايتها.. شهرزاد لازم تموت!

ـ شهرزاد كل يوم بتموت.





ـ وبايدك تخلصي عليها وتحيي كارمن.

ـ كارمن!!

كانت تنتقطها بتعجب.. شرود.. غفوة في تلك الهاوية التي سحبها نحوها.. وقف خلفها ليدير جسدها ونظرها هناك..

نحو مسرحه المزعوم..

وأزاح خصلة ثانية ليهمس بالأذن الأخرى تلك المرة وبصوت دافئ.. متطلب.. لن يتوانى عن تحقيق هدفه..

ـ على المسرح ده أنا وأنت حنقتل شهرزاد علشان نخلد لوحة تانية..

لوحة.. كارمن!!

****





ـ بيلعب وحش.

ربما تلك هي المرة الرابعة التي تأتي فيها تميمة متذمرة بشأن محمود, هدأتها إيناس وطلبت منها أن تلعب بدميتها تاركة لعب الصبيان ولكن تميمة أردفت بغضب طفولي:

ـ بس ده بيضرب..

ـ ضرب مين؟

كانت نبرة رقية قلقة عالية الصوت, مهرولة من مطبخها في قلق لم تشفع له العشرة أيام الفائتة بصحبة محمود..

وما يغذيه الآن هو صمت خالد..

فالطفل الشاكي تبدل ولم يعد ينطق بحديث يخص أخيه, بل وصل الأمر برؤية جرح سطحي بذراعه وعندما سألته أنكر سببه, لتُلقي تميمة بدلوها كالعادة بعدها وتخبرها أن محمود خدشه!!..

****





- قولتيلهم ليه؟!!

قطبت تميمة حاجبيها وهي تراقب تذمر رفيقها الأحمق الذي يصر على أن يتغلب على محمود بنفسه ودون مساعدة..

جلست بجانبه لتتابع ببديهية تليق بأبيها:

- هيضربك.. لازم تقول لمامتك.

- ويقول عليا عيل إني بشتكي لمامتي؟

كان خالد يجيبها بحزن..

محمود يصر أنه هو الأكبر منه والأكثر قوة والآن والده يفضله هو!

ألم يزعق فيه منذ يومين، ألم يخبره أن يكتفي بحنان أمه!

ألا ندرك أن حماقة أفكارنا يجب ألا تتعدى العقول، يجب ألا تدق آذان الصغار..

الحزن بقسمات خالد جعل تميمة تصمت لوهلة..

ماذا يحدث؟!





هذا الـ "محمود" غاضب على الدوام والآن أصبح مثله خالد..

ستلعب مع مَن الآن؟!!

ابتسمت لنفسها وكأنها توصلت لحل سحري لتكلك المشكلة وربتت فوق كتف خالد لتضيف بابتسامة عاقلة:

ـ لازم تقول لمامتك يا خالد.. علشان إحنا أطفال، الأطفال ما يحبوش الضرب

رمقها خالد بشرود ليضيف دون اكتراث لما قالته:

ـ تميمة.. لو قولتِ لماما تاني مش حخليكي تلعبي معانا.. فاهمة.

لم تجبه, فقط كتفت ذراعيها ورحلت..

فاللعب لم يعد ممتعاً كما كان..

****





- الحي أبقى من الميت.

دلوه الذي يأتي ويعود به..

مر أسبوعان حتى الآن وقل توافد المتشحين بالسواد وبدأ الجميع يعتاد!!

حتى أن الطفلين طلبا حلوى الآيس كريم بالأمس، وأقاما الدنيا طمعاً في مشاهدة التلفاز..

انتبهت مرة أخرى إليه..

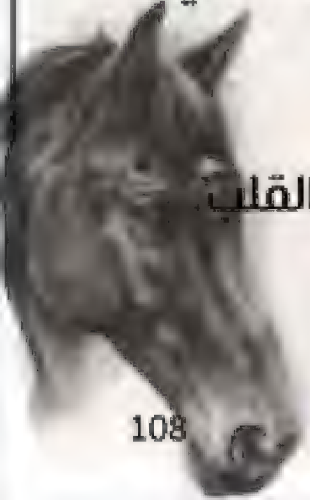
وجدي..

قامة قصيرة نوعاً ما وخصلات دهنية تبدو لناظريها ملتصقة بجبهة رأسه, والجبهة بدورها عريضة يبدو أن ورثها عن أمه كما ورث أيضاً قلة الصبر..

كان يرتشف كوب الشاي بعَجَلَة ويراقب التوأمين الضاحكين أمام أحد البرامج الكرتونية..

ابتسم بثقة بعد ما اضجع في جلسته في أريحية أكثر:

- والله عيال جدعة!.. الحزن في القلب.





- عايز إيه يا وجدي؟

باستدارة صارمة نحوه وجهت السؤال، يغدو ويجئ ويتردد ويشدو باسقاطات حمقاء.. فلتنتهي الأمر والآن.

تلعثم قليلاً وتناثرت حبات العرق فوق جبهته العريضة، هكذا هو دائماً عندما يتوتر..

لم تنسَ ليلة خطبتها والعرق البيّن كالشمس والغضب والتذمر والقلق و.. و..

وعندما تجرأت وسألته صبيحة اليوم التالي أجاب بآخر ما قد تتوقعه

"البوفيه كان مش أد كده!!.. بصراحة أنا اتكسفت قدام عيلتي."

وأيضاً بنفس الصباح خلعت الدبلة وولولت الأم..

فضيحة لا شك وشجعها الأب وعاد هو باعتذارات وتوسلات وتحت الضغط رضخت.

للعريس "اللقطة"!!





واللقطة يهذي الآن عن مبلغ مالي ودفعة أولى لنجار ما..

والحزن في القلب.. والحي أبقى من الميت..

وهو لا يملك أن يدفع النقود من ماله الآن لأنه أنفقها بالفعل في بضع بلاطات!!

سحب منديلاً ورقياً عاشراً قبل أن يُتّمها على أحسن حال:

- قولي لأمك ده حقك وفلوسك موجودة بس تروحي تسحبي من الدفتر..

الدفتر!

يحدثها الآن عن دفتر؟!!..

هل يندرج الإفتراس تحت جرائم القتل، وألا يجوز في من مثله..

بديناميكية صامته توجهت نحو غرفتها..

كان الصندوق هناك..





وهناك أخبرها منصور أنه قد وفر لها مبلغاً بسيطاً من أجل الزواج، لم يكن بثروة تكفي فهي..

بضعة آلاف كان يضيف عليها شهريا من الصحة والقوت حتى يتم الستر..

ابتسمت عندما استشعرت رخومة صوته في أذنيها وهو يكرر برضى مبهج..

"ستر البنات ده الجنة يا ليلى.. الجنة"

زفرت بأسى وهي ترمق الخمسمائة جنيه المتبقية في دفترها الذي يبني عليه الأحمق آمالاً..

وربما المبلغ الموازي لهما الذي تتقاضاه شهرياً نظير إدخال البيانات بأحد المكاتب المتواضعة بحي قريب..

المئات التي يعتمد عليها وجدي منذ الآن ويبنى فوقها آمالاً من المشاركة!

رمقت التوأمين.. أمها..





وجدي الملتهم لباقي إفطارها..

وخرجت بثقة وابتسامة مطمئنة للغاية.

وحلقة لامعة توازنها بإبهامها وسباباتها أمام عينيه..

"مع السلامة يا وجدي"

****

ألا يمّل الشيطان من خطط النساء!!

وكيد النساء..

ومكر النساء..

كانت تجلس بمواجهة المرآة..

اختارت ثوباً أزرق اللون بفتحة صدر طولية تبرز نهديها بطريقة فاتنة..

واستعوضت عن أحمر الشفاه بلمعة وردية اللون أعطتها مظهراً أكثر إشراقاً..





جعدت خصلاتها وزادت من دجنتها بمستحضرٍ لامع وتفننت في رسم عينيها بكل درجات الأسود..

الأسود فقط..

هي تريد الليلة أن تبدو غجرية, فهو رجل تليق به غجرية متمردة مثلها, وليست مجرد صفراء بخصلات بنية باهتة ربما تخجل منه حتى الآن!!..

*****

كانت إيناس تجلس بجوار النافذة عندما استشعرت خطواته بالغرفة, رجفة أصابتها ليس لقربه, ولكن لتذكرها تلك الليلة عندما عاد بتميمة نائمة.. وضعتها في





الفراش وأخذ هو حماماً دافئاً ليتخلص من أتربة السفر وعندما انتهى وجدها نائمة..

منكمشة تحت الغطاء وقميص نوم بأكمام طويلة وخصلات معقوصة تخبر كل رجل ألا يقترب..

بعد تلك اللحظة وتلك المواجهة التي كادت أن تذيب أحجار الجليد أخبرته بصمت ألا يقترب، بل وأتقنت دور النائمة حتى عندما

تحسس خصلاتها المكبوتة بغموض ثم استدار وببساطة نعس!..

وهكذا كل ليلة..

وكأنها عودة من جديد لروتين يعاقب به كل منهما الآخر ولا يدرك أنه يعاقب نفسه..

كلمات رقية عادت لتدق في أذنيها





"خالد عنيد يا إيناس.. بطلي سلبية بقى..

وخودي ناحيته خطوة واتنين وعشرة..

اعملي زي ما الستات بتعمل"

الآن عليها أن تتفنن في دلع النساء..

وعذوبة النساء..

ولُطف النساء..

بالأمس كان يكفيه أن تكون هي..

والآن يكفيها فقط أن يكون هو..

بغضبه..

بسطوته..

بصمته..

بعشقه البادي بعينيه رغماً عنه وبهجره الذي طال.

صوت باب الغرفة أنبأ عن رحيله..





هكذا دخل وبدل ملابسه وخرج ولم يتحدثا ولم تسأل عن وجهته..

احتضنت وسادتها في شوق وهمست بصوت ربما لو سمعه لاختلف العالم..

"بحبك"

****

- بحبك!!...

كانت هيئتها تكفيه بالفعل..

فلم يكن في حسبانه أن تتحول جلسة العمل لسهرة خاصة ترتدي فيها هذا الثوب الفاضح..

ضيق ملامحه لم يحيدها فتركت مقعدها المواجه له على المكتب وسحبت آخراً مجاوراً.. وكان يبدو أنها اختارت عطرها بعناية كما اختارت كل ما يخص مظهرها..

ومع كل هذا تتصرف بحرفية تامة..





تجذب الأوراق وتوضح خانة المصاريف ومراسلات شركات السياحة بالخارج..

تخبره عن التغيير القادم بالأسعار وتأخذ توقيعه على عقود التجديد لبعض العمال والفصل لآخرين.

ولكن فجأة دون مقدمات خرج صوتها هادئاً:

ـ بحبك!

ترك قلمه وأطال النظر نحوها بثبات فابتسمت بمكر متابعة:

ـ في حاجة؟!

استند على مقعده بثقة ليتابع:

ـ أنتِ قولتِ حاجة؟

ـ أنا!!.. قلت إيه؟

لوهلة استفزته..





ولكنه عاد ليكرر بهدوء لا يخلو من بعض الغضب:

- إيه يا آنسة شيرين أنتِ مش مركزة أنتِ بتقولي إيه؟..

ابتسمت بثقة ثم رفعت يدها لتدلك رقبتها ببطء دون اعتبار لمراقبته قبل أن تتابع:

- أنا شكلي سرحت.. وأنا لما بسرح مش بركز أنا بقول ايه.. ممكن نريح شوية؟

ترك مقعده وتوجه نحو النافذة ثم تابع دون أن يستدير:

- هو كفاية شغل النهارده.. نكمل بكره.

أصابها الإحباط وشعرت أن خطتها لم تسر كما يجب، بنبرة متلهفة أجابته:

- لا خلاص.. أنا بقيت كويسة!.





استدار ليرمقها بسخرية ولكن على العكس لم تغضبها بل أثارت لمعة التحدي بعينيها..

تابع وهو يقترب منها حتى أصبح بمواجهتها تماماً وقبل أن تقف أسند قبضتيه فوق مقعدها فأصبحت فعليا محاصرة بين ذراعيه بلذة!!

- أنتِ شكلك تعبانة يا شيرين.. نامي بدري علشان بكره تبقي مركزة بدل ما تخرفي!

لا تعلم هل ضربات قلبها عشق..

أم خوف!.

لا يهم فكلاهما شعور جيد خاصة معه، رسمت فوق شفتيها ابتسامة واثقة وراقبت رحيله..

لم يغضب..

ولم يرفض..





وحتماً الخطوة القادمة ستكون منه...

****

واحد.. اثنان.. ثلاثة..

- فقدت مهارتك يا أمين!

قالها حمزه ضاحكاً بعد أن قذف بحجره للمرة العاشرة على التوالي بمسافة أبعد كثيراً من تلك التي أحرزها صديقه..

جلس أمين على رصيف الميناء شارداً وعاد لمراقبة تلك الوحيدة الطافية فوق سطح المياة دون صاحبها..

تنهد بحرارة قبل أن يتابع:

- الرجالة نفسهم أهل الريس منصور ما يبيعوش بس مش عارف كيف!..

صمت حمزه وشرد بدوره..





منصور العجوز الذي صمد كشجرة معمرة أمام طوفان صبري..

ولم تبقَ سوى عروسه الأصيل "ليلى"..

وبعض المراكب مثلها ولولا أصالة أصحابهن لاستأثر صبري بما تبقى واحتكر السوق بمنطق الكبار..

وكأن أمين قرأ أفكاره فهمس من بين دخان سيجارته:

- صبري وراه مختار علي.. هو اللي سانده.

- وهو اللي زي ده ناقص فلوس!

ضحك أمين بسخرية:

- ناقص يا صاحبي.. ناقص!.

صمت حمزه قليلاً ثم فكر بجدية:

- يبقى الحل إن المركب ما تتباعش.. مركب منصور لو اتباعت الخيط الباقي هيكر وراها وما حدش هيقف قصاد صبري.





دهس أمين باقي سيجارته مومئاً بدوره:

- صح.. إحنا هنتكلم مع الست أم ليلى ويشغلها أي حد فينا وتاخد نصيبها كل شهر.. صحيح مش زي وقت الريس منصور بس أحسن من بيعها.

ربت حمزه فوق كتف صديقه:

- المهم توافق.. روح نام بقى أنا حاسهر شوية.

ضحك أمين بخبث:

- بتوزعني يا صاحبي؟!

ضربه حمزه برقة فوق ظهره ثم تابع بنبرة حماسية:

- صاروخ روسي أرض جو!.. شعر بني وعينين لبني يا أمين.. لبني!!.. لون مش موجود في الوجود!

تنهد أمين بقلة حيلة:





ـ ما فيش فايدة فيك.

استدار ليرحل ثم عاد خطوتين للخلف ليهمس بمكر:

ـ تحب أبعتلك إلجا!

قالها أمين وهرع مسرعاً بضحك قبل أن يلحق به حمزه..

كان قد جهز اللانش وعشاء مميز لجولة ساحرة تحت أضواء القمر، ولكنه تذكر في اللحظة الأخيرة أنه لم يُحضر أغطية إضافية في حال إذا ما شعرت صديقته بالبرد، خاصة أنها لا تستغنى عن هذا السروال القصير المسمى..

"الهوت شورت"!

تنهد هامساً:

ـ سامحني يا ريس منصور!.. هرجعهم بكره.

فقز حمزه لقارب الريس منصور ونزل





لكابينة النوم عله يجد بعض الأغطية النظيفة..

كان المكان هادئاً..

مظلماً وساكناً مما أولد بداخله رهبة..

فابتسم ساخراً من حاله وهو يبحث عن مكان تلك الأغطية التي بدت لامرئية:

- والله سهرة بريئة!.. اظهري بقى.

كانت لحظة قبل أن يلمح خيالاً مسرعاً في بقعة الضوء الخفيفة التي أشعلها لنفسه..

انتفض مذعوراً لوهلة قبل أن يردد مُطمئناً حاله:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. هو منصور رجع ولا إيه!!

ارتاح قليلاً وسخر من نفسه، ولكنه ما لبث أن سمع وقع خطوات..





فانتفض بجدية أكبر تلك المرة ظناً منه أن هناك   لص بالقارب أو أحد أتباع صبري.

كان جسداً ضعيفاً يرتدي سروالاً من خامة الجينز وقميصاً أبيض اللون ويخفي ملامحه خلف قبعة أشبه بتلك التي يرتديها الصيادون..

حاول صاحب الجسد أن يهرب ولكن لياقة حمزه كانت أسرع منه فوثب فوق أحد الحواجز ليقفز خلفه ويقيده بإحكام وهو يزعق:

- إنت مين وبتعمل إيه هنا؟

لم يجب وكان يبدو عليه أنه مذعور, فبدأ يركل بقدميه في شكل عشوائي.. بدا ضعيفاً للغاية مما أثار دهشة حمزه..

وتبعت الدهشة الحفيظة, عندما





استشعر طراوة الجسد بين ذراعيه!..

لم يكن يطحن بعظام رجل حتماً، فالرجل لا يمتلك سوى صدر قاسي يحطمه في عراك وليس...!!

أبعد يديه في ذعر توازى مع سحب القبعة ليفاجئ بشعيرات قصيرة تتناثر أمامه وجسد رقيق يقفز مبتعداً عنه تحمل صاحبته..

عينين سوداويتين بغموض البحر وجنونه في آن واحد..

تسارعت أنفاس كلاهما..

هي مذعورة..

وهو مصدوم..

ولكنه حوار لابد أن يبدأه أحد..





ـ أنتِ مين؟

لم تجبه..

عادت إلى الوراء وتبدل الذعر بثقة وإن كانت مهزوزة..

اقترب منها ليجذبها من ذراعها بقسوة تلك المرة وكرر سؤاله:

ـ بقولك أنتِ مين؟.. وبتعملي إيه هنا؟..

أغضبها..

الآن تبدلت الثقة لغضب..

فبعد مشقة سفر غير محسوب ووصول بسواد ليلٍ لم تعمل حسابه يأتِ هذا ليحاسبها!..

وفي الشيء الوحيد الذي تمتلكه..

خلصت ذراعها من قبضته بعنف لتنطق أخيراً وبتحدي أوجع صوتها:

ـ أنت اللي مين؟.. وازاي تدخل هنا من غير استئذان؟..





ضحك ساخراً:

ـ نعم يا ختي!.. ليه داخل شقة الأستاذ محمود جاد الله في الدور الخامس عمارة 9!!

زمت شفتيها لترمقه بغيظ:

ـ أنت جاي تهزر هنا!!

اقترب منها فارتدت للخلف دون تخطيط وعندها أيقن أنها ما زالت خائفة منه، تنفس ببطء حتى يهدأ ثم تابع:

ـ بهدوء باسألك.. أنتِ بتعملي هنا إيه؟

شعرت أنه لا مناص لديها من الجواب..

لم تكن تنوي أن تتحدث مع غريب وخاصة بين سكون ليل لا يحمل سواهما..

ارتجفت شفتاها قبل أن تتابع بقلة حيلة:

ـ ده مركب بابا.. ارتحت!

تجمد بمكانه لوهلة حتى استدرك أنها هي بالفعل ولم تسمع منه سوى همسة بدت أكثر رقة:

ـ أنتِ ليلى!





الفصل الخامس

بقايا امرأة

..وقفت تحدق في الطريق

..وخلف عينيها جراح اليأس

.........تعصف بالبريق

..وعبيرها يتوسد النسمات

..محمولاً كأشلاء الغريق

..والشمس تترك للضياع ثيابها

..ويغوص منها السحر في بحرٍ سحيق

وعلى جدائل شعرها

..جلس العذاب وراح في نوم عميق

..ماتت على فمها ابتسامة عاشق

..فغدت بقايا من رحيق

فاروق جويدة





- ايه يا ست البنات.. حد قالك علينا ما نفهمش في الأصول!!.. ولا باين إنك ما تعرفيش غلاوة الريس منصور عندينا!..

كانت ليلى تجلس في ركن بالقارب بعد أن هدأت أنفاسها قليلاً..

ترمق بغضب هذا الغريب الذي قيدها, وأفزعها, واستجوبها, وفي النهاية تركها ليقوم بمكالمة تليفونية طالباً منها الإنتظار!..

ودُت بلحظتها أن تطرده وتهنأ ببضع ساعات من النوم إن استطاعت, ولكن بما أن النوم اختفى ولن يعود فالأحرى بها أن تواكب ما يحدث.. على الرغم من غضبها من حمزه إلا أنها كانت تستمع للأمين بملامح هادئة..

سمرته وكد ذراعيه يذكرانها بأبيها, طيبة بملامح اشرأبت بشقا الدنيا قبل هناءها, وبصر لم يرتفع نحوها ولو للحظة في تقدير قروي راقٍ..





- معلش يا ريس أمين.. السفر كان مُتعب وكمان الأتوبيس اتعطل وأخرني فما حبتش أزعج حد.

صوتها رقيق للغاية.. رفيع, تتحدث بنبرة موزونة ويبدو أنها تفكر في كلماتها جيداً قبل أن تنطقها..

ولكن ملامحها تبدو مختلفة..

لها نظرة قاسية..

لا يعلم هل ولدت بها أم هي اختبار قسوة فراق أبيها؟..

في الدقائق التي فصلت بين مقابلتهما العاصفة وحضور أمين تركته لتجلس منزوية في زاوية القارب تراقب الطريق..

كانت إشارة واضحة أنها لا تريد التحدث معه..

وهو..





هو كان غاضباً بما فيه الكفاية ليبدأ أي حوار..

فتلك الفتاة صغيرة الحجم التي تبدو من بعيد كصبي رقيق أفسدت سهرته المنتظرة..

والآن يبدو أنها هي من تلومه!!

ولكن هذا لم يمنعه من تأمل ملامحها..

لم تكن تشبه أبيها في شيء..

ربما هي ورثت ملامح أمها ورغم شحوبها البادي وعياء السفر تحت عينيها, كانت تحمل جمالاً مختلفاً.

جملتها الثانية لم تخرجه فقط من أفكاره بل حالة التحديق نحوها التي بدت غريبة فأربكتها وأغضبتها من جديد لتخرج نبرتها أكثر اضطراباً وهجوماً:

ـ وبعدين أنا لازم أتعود أعتمد على نفسي مادام نويت أنزل الشغل.





بدا أمين محتاراً فتلجلج للحظة قبل أن يستفسر بأدب:

- معلش.. شغل إيه يا ست البنات؟

استقامت ليلى لتنظر نحوهما بشموخ وبقرارها الذي لا يحمل بادرة مجادلة:

- أنا نويت أشغل المركب بدل بابا.. ببساطة اعتبروا إن الريس منصور ما ماتش!.

****

اعتبروا إن الريس منصور ما ماتش!!

جملة تختزل الكثير وتقفز رافضة أي نقاش..

نقاش كان يجب أن تبدأه مع صفعة باب من شخص اسمه وجدي كان من قبل سيكون الأقرب والآن هو بعيد..

للغاية بعيد.

كان أحد التوأمين قد رسم صورة..





رجل برأس كبير يحمل فوقها قارب وابتسامته واسعة بل تكاد تقفز من وجهه..

اختزل الصغير أباه بنقش فوق ورق وأصبح يحادثه صباحاً ومساءً، بل أيضاً يشكي أخاه الآخر..

حل سحري لفراق منصور!

ولكن بالنسبة لها الموت أكثر من مجرد فراق، هو قفزة قاسية أجبرها عليها الزمن وبعدها يتبدل كل شيء..

أمها منذ سمعت خبر وجدي واجمة..

أفرغت القليل من المصاغ وتُفكر في إكمال الزيجة بثمن بيع القارب وربما تشتري ماكينة خياطة أو تنشأ مشروع ما يدر دخلاً مضموناً..

هناك بنود لم تكن تعلم أن لها بالحياة وجود..





مصاريف مدرسية.. صحية.. إيجار منزل سيزيد مرة أخرى في الشهور القادمة بل هناك دين بنكي يتم تسديده على أقساط.

كما اتخذت قرار وجدي اتخذت قرار آخر أجزمت ألا تقبل به نقاش..

سيظل فراق منصور لولديه مجرد ألم نتغلب عليه بصورة..

أما الباقي فمنصور لم يمت..

كانت جملة توازي قرارها العنتري بالرحيل لتحل مكان أبيها..

بُهتت أمها قبل أن ترفض باستماتة, ولكن هل هناك جدال مع ابنة منصور!!..

في الصباح كانت هي وحقيبتها والتوأمين ووداع..

قبلة على هذا الخد وعناق الأقوياء..

وابتسامة مكتومة وأمل في غد أفضل حتى إن لم يكن لها.





رحلت صاحبة الرأس الحجري غير مبالية بشيء سوى راحة أخويها..

****

علمتها رقية تعويذة سحرية..

رائحة الروزماري وأوراق الريحان فوق نافذة مطبخها هي استنشاق من عبير الجنة كل صباح..

كانت تشرب قهوتها أمام النافذة مغمضة العينين تتذكر رجلاً..

أرادها فجذبها بقبلة غير مبال..

أوقف حافلة من أجل أن يخطفها من عليها شاءت أم أبت...

وأهداها ليلة زفاف فوق ظهر حصان.

رعد..

اختلف الأمر بعد رحيل رعد..





أهذا هو الموت؟..

أعمق من مجرد فراق..

حاجبيها انقبضا وهي تتذكر صراخه..

فلتفعل المعجزات أو على الأقل تحاول!

والآن ماذا تفعل هل تمسك بأحد ذراعيه؟..

تملس فوق رأسه؟..

أم تبحث عن ضمادة سحرية للجرح بداخله؟.

فخالد يبكي..

تلك هي المرة الأولى التي تلمحه يبكي..

وكان يكفيه فقط إصبعها النحيل فوق رأسه لينفجر..

ولم تكن هي نداً لهذا الإنفجار..

بل هو انهيار فوق حصون المرأة الوحيدة المباح لها باختبار ضعفه ولكن.. ضعف القوي، ثورة.. جنون..

غضب أعمي ظنت أنها اختبرته لتكتشف أنها لم ترَ سوى الفتات..





ولملمة الفتات هينة ولكن ماذا عن الأنقاض!.

صرير باب جعلها ترتد بسرعة..

تمسح عبرة وتجذب فنجانها هروباً من النافذة..

وهو..

لا يشتم عبق بندق..

ولا يجد نفسه في شرودها هناك..

الشرود أصبح قاسٍ كسكين حاد يصر على تمزيق الحقيقة الوحيدة بعالمه وهي حبها..

ولكن هناك كلمة..

صرخة ترن في أذنيه كلما انفرد بنفسه..

جرحها الذي لم تشفه السنون فقذفته بوجهه في أقصى لحظاته ظلمة

جملة واحدة بدلت كل شيء..





هناك..

بغرفة فرس رحل ولم يحل فيها آخر مكانه..

بذكرى هذا الأدهم الغاضب الذي فوق صهوته تصغر الحياة وتطغى النسمات على البصر حيث لا مكان سوى لنسيم الحرية حتى ولو من أجل الغضب.

هناك قررت أن تواسيه..

وهناك قرر أن يغضب ويصرخ وينفجر في الوحيدة التي قدرها أن تتحمله..

وهناك قالتها ولا يستطيع حتى الآن أن ينساها..

"لازم تكون أقوى وتتعود.. لازم تنسى جنونك برعد زي ما أنا نسيت شريف!!"

صمت..

صمت خيم عليها وعليه..

لم تزد ولم يعقب..

كان صمت بدأه في غرفة شهدت على همس جواد..





وبمطبخها مع رائحة الروزماري وعبق الذكريات كان صرير المياه هو البطل..

خالد يسكب قهوة وهي تجلي بعض الصحون القليلة قتلاً للوقت.

ـ أنا خلصت.

صوت صغير هو صاحب البهجة في البيت..

كانت تميمة قد استعدت مبكراً لكي ترافق أبيها لركوب الخيل..

ساعة يكون قلب إيناس فيها وجلاً خوفاً من جرأة تميمة وخالد سوياً..

طالما طلب منها أن ترافقهما ولكنها كانت ترفض، فهي لا تحتمل رؤية الصغيرة فوق صهوة هذا الجواد العالي والصورة القادمة هي عدوها مغمضة العينين كالمجنون أبيها..

وكأنها لم تذب عشقاً بهذا الجنون..

استدارت لتجد خالد قد أنهى قهوته مع بضعة مقرمشات مالحة..





كانت قد أعدت بعض الفطائر فناولت تميمة البعض ووضعت في صحنه أيضاً وهي تقول:

- صباح الخير..

قال بجفاء:

- ايه ده؟

- دي فطاير خبزتها لكم للفطار.

كان ردها جافاً أيضاً..

ولما لا؟!..

فهي منذ الخامسة صباحاً مستيقظة لتعد لهم هذا الفطور الشهي وهو حتى لا يكلف حاله ليتذوق..

بل هو يستعد للخروج لصباح آخر بيوم العطلة دونها.

حمل تميمة ليخرج وهو يجزم أنها لم ولن تفكر أن ترافقهما ولو لمرة واحدة.. تتغلب على رفضها وخوفها ولو من أجله..





تشاهد تميمة فوق صهوة تلك المهرة التي أصبحت فرسة جامحة ممنوعة على الجميع سوى ابنته..

إيناس التي ازدادت جمالاً وأصبحت أفضل فرس بمزرعته وحتماً الأقرب له..

ولكن إيناس الأخرى تأبى التنازل متخفية خلف حائط الكبرياء.

****

صباح آخر وصراخ آخر يتكرر بين رقية وحسن وبسببه..

وكأن أبيه يهتم حقاً!

تسلل للمطبخ ليبتلع إفطاراً سريعاً قبل أن تعرض عليه رقية الطعام ويرفض..

تود أن تصطنع دور أم حانية فوق بقاياه..

الأخرى صاحبة الخصلات الفاتحة أتت مبكراً يبدو أنها باكية مثل رقية.. ولكن تلك تحمل ملامح أجمل, الصغيرة تميمة





تشبهها ولكنها شريرة ماكرة تكرهه كما يكرهه خالد.

- صباح الخير يا إيناس.

كان صوت رقية متحشرجاً ربما من صريخ أو بكاء ولكن إيناس لم يكن لها طاقة حقاً في أن تستمع بل كانت تموت شوقاً لتجد من يستمع إليها.. والنهاية لم يتحدث أحد.

رقية صامتة تعد إفطاراً..

حسن رحل..

خالد يصطنع النوم..

ومحمود يجلس أمام كوب حليب دون أن يمسه..

بدأت تشعر أن هذا الطفل يمتنع عن الطعام من أجل أن يفتعل المشاكل لها أكثر..

زفرت دون صبر قبل أن تحادثه بلهجة صلدة غريبة عليها:

- محمود.. اشرب اللبن وكمل فطارك.



- أنا مش جعان.

كانت نبرته صارمة توازي قسوتها الحديثة أم ربما أكثر، وتبعتها رقية بتهديد لم يكن بغرض الأمومة:

- لو ما شربتش اللبن هتتحبس في أوضتك طول اليوم.

لم يعلق الفتى فقط استقام ونظر نحوها بتحدي، فزاد غضب رقية لتصرخ تلك المرة:

- قولتلك اشرب اللبن..

- وأنا قلتلك لأ.

صراخ الطفل موازي ولو بعد عام لن يستمع لها..

جذبت إيناس رقية ورمقتها بنظرة حتى تهدأ قليلاً..

تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها رقية بهذا الإغتياظ..

هل تكره رقية محمود حقاً؟!





أم هو حسن الذي قرر أن يضغط عليها كالعادة؟..

أم أنها لا تملك حق الإنفجار؟!

فلتغضب رقية.. وليرفض حسن.. ولينزوي محمود بالغرفة منفذاً عقابه بتلذذ..

****

صغيرة بخصلات أصبغتها الشمس ذهبية، كلما صهل الحصان تضحك خاصة أن العدو ظاكثر متعة عندما يكون بين ذراعي أبيها..

كان خالد يمتطي فرسه وتذكره خصلات الصغيرة بتلك الهادئة التي تمردت بين ذراعيه ولكنه كان تمرداً محبوباً رقيقاً جداً فوق قلبه.

الوقت لم يتخطَ العاشرة صباحاً ومن فوق صهوة الجواد لمح صبغة قرمزية





لا تليق بالصباح وتنورة قصيرة واسعة لا تليق حتماً بالمكان.

شيرين..

رغم أنها تقف بعيدة عن المضمار إلا أن ملامحها ظاهرة بوضوح..

تشبه نجمات المسرح اللاتي يثقلن في التبرج بغية أن يلتهم الجمهور ملامحهن دون جهد..

وهو الآن جمهورها المنشود.

اقتربت بخطوات محسوبة أجبرتها عليها الرمال حول المضمار خاصة مع حذاءها الشاهق المرهق حتماً لقدميها وأعين الرجال..

عدة عمال تعلقوا بساقيها وهي تقترب في غنج مبتسمة لتميمة وله..

والتحية له..

والتنهيدة دون مبرر له..





والعرق المتصبب فوق قميصها الحريري بفتحة زر تنفرج من الحرارة له!

- تميمة شاطرة قوي.. واضح إنها طالعة لباباها.

كانت قد جاورته بعد أن نزل من فوق صهوة جواده ليتابع تدريب تميمة وحدها مع أحد العمال..

اسندت ظهرها فوق السياج الخشبي وارتكزت بقبضتها على أحد دواعمه فخدشت يدها عن قصد ماكر..

صرخة رقيقة أطلقتها لينتبه أن أحد الأخشاب الرفيعة قد جرحتها واستقرت تحت باطن كفها..

تألمت بتأثر:

- بتوجع جداً.





نظر لكفها ثم أمسك به ليضغط على أحد جانبيه بقسوة وهو يردد:

- ما تخافيش.

كان الألم خفيفاً فهو لا يوازي بهجة يديها بين تملك قبضته.. هذا القرب الشديد منه الذي ربما يدركه هو ويتغاضى بنظره المدقق نحو كفها وما به من جرح طفيف..

ولكن سريعاً وبحرفية أخرج ما يؤلمها لتنتهي اللحظة..

ابتسمت شاكرة وفي حركة غريبة قبلت جرحها!

نظر نحوها يخفي صدمته من منحنى جرأتها المنفجر ويدس مكره بسؤال فأجابته:

- مامتي كانت بتعمل كده.

كانت كاذبة وكان يعلم ولكن..

هناك.. بعيد..





كانت تقف امرأة هي أقصى ما تمنى..

لا تضع تبرجاً صارخ ولا تنوي إبهار جمهور..

ولا يراها الجمهور..

هي فقط هناك قررت أن تتخذ خطوة..

أن تأخذ فطوره وتقضي الصباح معه.. أن تتواجد من أجله..

ولكنه لم يكن ينتظر..

كان يقف برفقة امرأة ما..

يمسك بأناملها وتقبل لمسة يديه فوق كفيها في حميمية لم يحاول حتى إخفاءها عن ابنته..

****

كان محمود قد قضى الوقت في التظاهر بالنوم.. كالعادة خالد تناول فطوره واختار لعبة ما.. ورقية تشغل حالها بحديقتها.. أما الأخرى صديقتها فرحلت بعد المشاحنة وبدت مسرعة.





ولكنها عادت..

كانت تحمل لفافة ورقية وتقف شاردة أمام الباب وكأنها لا تود طرقه ولا تنوي الرحيل..

انتبهت فقط عندما لمحت هذا الطفل يطيل النظر نحوها من النافذة..

وحيداً.. غاضباً.. دون إفطار.. ودون أن يهتم أحد.

اقتربت منه ثم ناولته اللفافة الساخنة لينظر نحوها بتعجب فتجيب:

- أنا عملتلك دي..

ظل ينظر نحوها بتوجس فتابعت بابتسامة:

- يلا قبل ما تبرد.

سحب منها محمود اللفافة ليقول بصوت هادي:

- شكراً





ابتسمت مرة أخرى بحنو قبل أن تحييه
بإشارة يدها وترحل..

وشعرت حينها براحة ربما أكثر من الصراخ
الذي كانت تنتويه على صدر رقية..

عاد خالد

عاد بعد أن أهلك تميمته هذا الصباح..

الفتاة حقاً متعرقة وتود النوم بشدة..

حملها برقة ليتركها مع وجبة ممتعة أمام
برنامجها الكرتوني المفضل.. ورحل قبل أن
تشعر إيناس بوجوده..

أو ربما شعرت فلن يكون هناك فرق!!

كان محمود يجلس وحيداً تحت ظل شجرة
بعد المنزل بأمتار قليلة.. يلاحظه خالد بين
كل حين وآخر وخاصة في تلك الأيام التي
يدرب بها تميمة..

دائماً يلمحه يقف من بعيد يراقب الخيل
ودروس الفروسية خاصتها في شغف..





يشكو حسن أن الفتى قليل الكلام..

ولكنها ميزة..

فماذا يود حسن من طفل ثرثار دون داعي؟!

لفت نظره تلك المرة ما هو أكثر من هدوء محمود ومراقبته..

سلة صغيرة من مطبخ زوجته، وباقتراب طفيف أيقن أنها فطائر الصباح. شعر محمود باقتراب خالد فانكمش بتحفظ..

فصديق والده هذا قليل الابتسام وربما الحضور..

نادراً ما يتحدث لطفل سوى ابنته وصراخه على مخدوميه هو الأقرب دائماً..

جلس خالد مجاوراً له ليستند على جذع الشجرة بدوره ثم قال بصوت هادئ:

ـ مش بتاكل ليه؟

قرب محمود الطعام من خالد في تردد قبل أن يتابع:





ـ اتفضل.. دي فطائر زوجتك اديتهالي!.

رمقه خالد بتعجب مكرراً كلمته:

ـ زوجتك!!.. اسمها طنط إيناس.

لوى محمود شفتيه بتمرد ولكنه كرر الكلام بأدب:

ـ طنط إيناس..

أخذ خالد فطيرة ليقضمها ثم أكمل:

ـ مش بتاكل ليه.

ـ أنا مش بحب الفطاير!

كانت إجابته سريعة وبديهية للغاية..

ضحك خالد ليسأله:

ـ طيب ليه أخدتها؟

رغم بساطة السؤال شرد الطفل..

صمت طويلاً مفكراً بحزن..

حزن ذكّره بطفل آخر مر عليه العمر..





طفل لم يكن يطالب بأكثر من اهتمام حقيقي من أم هي من امتلك من الحياة.

ودّ خالد أن يضيف شيئاً آخر ولكن محمود جاوبه بنبرة غليظة تحمل احتياج يرفض الإفصاح عنه.

ـ لأنها عملتها علشاني.

كانت إيناس كاذبة وربما لن يسامحها خالد في خديعتها للطفل لتعطه فطائر رفضها هو من قبل ولكن..

ربما بعض الكذب قد يكون أرقى ما نقدم أحياناً..

****

إذا كانت تلك هي زيارتك الأولى لمتحف اللوفر فتصور نفسك أسفل قاعدة هرم زجاجي محاصر بالباحة الداخلية لقصر قطنه ملوك توجوا على عرش باريس..



سولي، وريشيلو، ودينون..

ثلاث أجنحة ستلمح أولهم في الجهة الشمالية.. أما الثاني ففي الجهة الشرقية.. والأخير والأكثر شهرة يقبع في الجهة الجنوبية للهرم..

عادة ما سيكون دينون هو وجهتك الأولى كهاوٍ, حيث ستتبع الأسهم بحثاً عن الجوكوندا أو "الموناليزا"..

قبل أن تصل إليها ستمر بـ "غاليري أبولون" حيث ستخطو داخل نفق سحري محاطٍ بنقوش ثمينة تمتد حتى السقف المزين بلوحات مبهرة.. وبعدها ستتخذ ممر اللوحات الفرنسية في القرنين الثالث عشر والخامس عشر حتى تصل نحو الوجهة الأكثر شهرة وهي لوحة الموناليزا.

خلف واجهة زجاجية تقف وحيدة, الزوار يمرون سريعاً أمام كل نقش وأمامها





حتى إن أرادوا الرحيل يجبرهم الزحام على المكوث..

ابتسمت بسخرية عندما لمحت سائحة تصر على أن تتخذ وضع الـ "سيلفي" مع غالية دافنشي وبالطبع بفم ممتد بشكل غريب بُغية تصغيره!

تخطت الجمع لتتجه غرباً نحو قاعة اللوحات الكبيرة حيث تبحث عن النقش الأكثر أهمية بالنسبة لها تلك المرة.

"موت سردنبال"

موضوعاً سردياً اتخذه أوجين دولاكروا لينقش تلك الحالة المتوهجة من المنتصف بأطراف معتمة وكأنها زحف الموت..

اللوحة تحوي ملكاً على فراش الرحيل محاطاً بأجساد عبيده وجواري عاريات في حالة تبدو كوداع متعة..

فالملك أمر عبيده بذبح الخيول والنساء وحرق مملكته ليموت بجانب ثرواته كي لا يذق مرارة الأسر والهزيمة.



بتدقيق النظر في التفاصيل ستلمح ملامح من انتصار على وجه سردنبال وهو يراقب هلاك ثراوته بيده قبل أن ينالها العدو..

أما النساء فصورهن دولاكروا بعري يوازي نظرة المتعة للجواري بهذا العصر..

أما العبيد فلن تجد في ملامحهم سوى الإصرار على تنفيذ أمر ملكهم ولو كان الموت!..

بين شرودها في خُمرة اللوحة الساطعة مع تدرج النيران القاتم خرج صوتاً هادئاً بثبات لا تنساه يقتحم أحد أذنيها باقتراب لا يبالي:

ـ كنت عارف إنك حتكوني هنا!

استدارت كارمن نحوه لتلمح بريق مثير بعينيه..

حدقة زيتونية تشع بغموض ترهبه ولا تعلم لما؟..





عادت خطوتين للوراء لتجلس على أحد المقاعد المقابلة للوحة وعندما جاورها سألته وعينيها ما زالت معلقة بالملك وجواريه:

- أنت بقى شايف شهرزاد متعة رخيصة.. تموت وتعيش بأمر الملك.

- مش أنا.. إنتِ!

كانت عبارته مقتضبة وكأنه يخبرها بدواخلها دون جهد..

بنبرة أكثر غضباً نظرت نحوه مردفة:

- أنا مش شايفة شهرزاد مومس.

- بس أنتِ بتقتليها كل يوم علشان هي مجرد متعة!

- أنا بقتلها علشان..

توقفت..





نظر نحوها بملامح بدت قاتمة..

داخله شهريار آخر كل رجل به شهريار محبوس يود استدعاء مسرور كلما مل.

كارمن تقتل شهرزاد أم تقتل متعة شهريار بها كل ليلة..

شهريار الذي لم يكن مهتم يوماً بالحكايا، سيجبرها على الفراق عندما يريد ولهذا فلترحل هي برغبتها حتى وإن رحلت خاسرة..

تركها ليترجل نحو اللوحة مرة آخرى، أشار بيديه فوق ملامح إحدى الجواري ليتحدث ببحة تحمل تأثراً غامض:

- شايفة.. الخوف واضح في ملامحها إزاي، الرومانتيكية في الفن مش إنك ترسمي تفاصيل جسد أو حتى تسردي تاريخ لوحة.. الأهم المشاعر.. وعارفة إيه أجمل مشاعر يا كارمن؟

استقامت لتجاوره ولكن لم تتحدث ربما الإجابة البديهية..





الحب ولكن كيف؟!

هي نفسها لم تعد تؤمن بذلك..

تابع وقد وضع أحد ذراعيه فوق أحد كتفيها ليكمل بضمة قاسية انعكست على نبرته فبدت أكثر توحشاً:

- الخوف.. الألم.. هي دي الحاجة الوحيدة اللي مستحيل ينجح فيها الكدب.

تركها ومشى عدة خطوات قبل أم يستدير بحدة وبنبرة عالية بعض الشيء:

- شهرزادك فاشلة يا كارمن.. عارفة ليه؟.. مش علشان شهريار انتصر.. لأ.

صمت وكأنه ينتظر منها إجابة, وربما هي تحمل جواب ورد ودفاع ومعاندة ولكنها كانت تود أن تستمع إليه..

فشهريار أمامها يملك هو مفتاح الحكايا تلك المرة.

ابتسم بمكر واثق قبل أن يمد يديه نحوها وهو يردد:



ـ تعالي معايا.. هتشوفي بعينك وهتفهمي إنك بتضيعي وقتك وقدامك كنز يليق بفنانة مش مومس!.

ابتلعت ريقها..

هل تمر دقائق أم ساعات وهي تفكر..

ما بها ترهب رجل!

يبدو منمقاً.. هادئ الملامح.. وسيم.. ولكن..

مخيف!

رهبة ما تجتاحها برفقته وهو يعلم..

بدا قارئ للأفكار قبل أن يزيد:

ـ الخوف متعة يا كارمن.. متعة حقيقية مش وهم.

نظرت نحوه بغية تحديه وسؤاله:

ـ وأنت جربت الخوف؟





ابتسم واقترب منها.. أمام عينيها بل شفتيها ابتسم وهمس:

- التجربة بالنسبة لي مش مهمة.. المهم إني أرسمه.

وحينها تبعته..

ربما رغبة في اختبار المجهول وربما حقاً تود أن تقتل شهرزاد.





الفصل السادس

يا سيِّدتي:

أنتِ خلاصةُ كلِّ الشعرِ..

ووردةُ كلِّ الحرياتْ..

يكفي أن أتهجى اسمَكِ..

حتى أصبحَ مَلِكَ الشعرِ..

وفرعونَ الكلماتْ..

يكفي أن تعشقَني امرأةٌ مثلكِ..

حتى أدخُلَ في كتبِ التاريخْ..

وتُرفعُ من أجلي الراياتْ..

نزار قباني

أماريليس

كانت هناك فتاة رقيقة اسمها أماريليس

وفي أحد الأيام بينما كانت تتنزه بين





الزهور رأت راعي أغنام شاب وقعت في حبه من أول نظرة.

كان اسمه أتيو ولم يكن يهتم يوماً بالنساء..

حياته هي الزهور والزهور فقط وعندما حدثوه عن الحب قال

"سأحب فقط مَن تأتيني بزهرة لم أرى جمالاً يماثلها!"..

غابت أماريليس تبحث عن الزهرة وربما النصيحة لعلها تظفر بحب أتيو..

وأخبرها كاهن بوصفة سحرية..

تتلخص في سهمٍ ذهبي تجرح به قلبها أمام منزل أتيو لكي تعلن صراحة عشقها نحوه.

ثلاثون ليلة تمر أماريليس من أمام منزل أتيو, تجرح قلبها لتتقطر دماؤها أمام بابه دون بادرة أمل.





حتى حدثت المعجزة ومن موقع دمائها تفتحت زهرة ساحرة تحمل بين أوراقها حُمرة جنون العشق ونقاء أبيض لعروس خجول.

كانت تصرخ بفرح مرددة اسمه وحين فتح الباب لمح أجمل فتاة وقعت عيناه عليها..

كانت تبدو هشة كأفرع الزهور وتحمل بين يديها زهرة أوقظت بقلبه شعور لا يقاوم.

شعور اختصره بقبلة..

وقلب عاد للحياة..

وزهرة أصبحت أماريليس.

****

لحظة..

عندها تلكأت فوق طرف لسانه كلمة..

"أحبك"

لم يكن في حاجة سوى لجنون..





ألم يختبر وجودها مع رجلٍ سواه؟!

لم يحتَج سوى لانعكاس الظلام فوق وجهها ليمتلكها بقبلة كانت أقصى ما يترجم غضب عاشق.

رشفة قهوة، فتبغ، فشرود، فخيالها من خلف النافذة تراقبه على استحياء في خشية غير مبررة من الإقتراب!.

ولما غير مبررة!

ابحث عن الكبرياء..

ضحكة ساخرة مرت فوق شفتيه..

هل يتذكر الآن زهور الكبرياء؟!.

لا!

ليست هناك للكبرياء زهور..

كانت هناك أمامه تُشع ببريق غامض في الظلام، زهرة أماريليس بوريقاتها حُمرة ساحرة تلهب القلب وفي وسطها شعاعٍ أبيضٍ راقٍ يشبهها!





تتشبث هي بخجل.. كبرياء.. هروب..

وكأنها ستطوي أماريليس لتضيع حمرتها للأبد!

لما هي تبدو بعيدة إلى الأبد؟!!..

عندما عاد بنظره نحو النافذة كانت قد غابت..

ابتعدت وابتعد هو..

لا يمتلك هو تعويذة كاهن..

ولا هي تبحث عن سهم لأجله!..

*****

هل بهت بريق البندق؟!!

كانت تمشط خصلاتها وتنظر للمرآة بحاجب مقتضب..

لا ترى نفسها بل تراه ينظر للمرآة سواها.





منذ البداية وهي ترفض شعور الغيرة بكل معانيه وإن اختبرته فلن يكون مع متسلقة تسعى خلف زوجها منذ أشهر..

ولكن هذا الصباح..

كانت تلك المتسلقة تحمل في خصلاتها الفحمية بريق.. بريق افتقدته هي بعينيه.

تنهدت ببطء وهي تفتح أزرار قميصها البيتي بتلكؤ..

هناك ببقعة قرب أحد نهديها علامة جرح بات الآن عمره ست سنوات. ابتسمت وهي تتذكر خجلها منه عندما أصر على رؤيته بصباح ليلة الزفاف..

تهرب ويصر وترضخ بأعين مغمضة ويحتوي هو الجرح وصاحبته بين ذراعيه.

ألم تضحي أماريليس بالفعل؟

ألم تقدم جرح قلب يشهد ندبها عليه حتى الآن؟..





أليس بكافٍ أن يجرحها السهم لمرة واحدة!

****

على بعد شارعين من محطة جار دي ليون وبمسافة سير تقدر بثلاثمائة متر نحو نهر السين هناك مبنى مستقل بحي هادئ به بضعة مطاعم متفرقة..

كانا قد استقلا سيارته ليتخذا الطريق الشمالي المجاور للنهر..

البناية كانت بسيطة مما أجفلها للحظة بسؤال، فقد كانت تظن أنه يعيش بمكان أكثر قيمة، أجاب حيرتها بثقة وازت مروره من بوابة البناية:

ـ ده الاستديو بتاعي.

رددت عبارته بشرود وهي تتبعه:

ـ استديو!

ابتسم بثقة قبل أن يصعد الدرج الضيق مشيراً أن تتبعه وهو يهمس:





- مش كل الناس تعرف مين هو فعلاً مراد الغازي!..

الشقة لم تكن كبيرة الحجم..

مجرد غرفة معيشة صغيرة تحتوي على أريكة واسعة ومقعد طويل أشبه بالشيزلونج الخاص بالطبيب النفسي..

في مواجهتهما ركن يشبه المطبخ، لا يحتوي سوى على ثلاجة صغيرة وماكينة للقهوة..

رغم بساطة المكان إلا أنه ذكرها بشقتها التي رحلت عنها منتقمة.. وهاربة..

دون وعي أرجفتها ابتسامة ساخرة فترددت على مدخل المكان..

ابتسم هو بمكر قبل أن يقيمها من أخمص قدميها لرأسها بنظرة..





كانت ضعيفة الوزن..

رغم فتنتها يجزم أنها أقل بريقاً من ذي قبل، شعرها مرفوع بعشوائية وترتدي حلة رسمية بلون باهت ولكن حمرة شعرها تكفي!..

قدميها تبدو مجهدتان من حذاء أنثوي شاهق..

والأكثر تعباً عيناها وكأنها لا تنام.

قال بعفوية وهو يتجه نحو ماكينة صنع القهوة:

ـ أتصور قهوتك من غير سكر؟

صمتت لوهلة قبل أن تدخل وتتابع بنبرة تحمل ذكرى تأبى الرحيل:

ـ مُرّة!

من خلفها وبعد وقت قضته في تأمل المكان ناولها القهوة ليسبقها نحو غرفة مغلقة بباب مزدوج قبل أن يدعوها:





ـ اتفضلي..

رغم عملية الشقة إلا أن تلك الغرفة بدا بها دفء من نوع خاص، جنون فنان يترك العالم ليرقص فوق لوحة ألوانه..

مر بعقلها ذكرى امرأة بأمل وشاب صغير اتخذته وسيلة..

ألم يكن من الأفضل أن تستمع لزهور حمزه؟..

أم تدرك كم هو غبي حمزه؟!.

كانت مساحة الغرفة مقسمة بشكل طولي ويبدو أنه لم يبخل على تفردها بشيء، فمع كل خطوة كانت الإضاءة تعمل تلقائياً ليوازي الضوء خطواته ولوحاته..

مرت بأربع لوحات، لم يتوقف هو عندهم ولكن تعلقت بهم عيناها خاصة بتلك التي تحمل خيال امرأة تتجول بحرية في سوق نخاسة!





ترتدي الأزرق وتزين سرة بطنها بخاتم فيروزي اللون، والفيروز أيضاً يتدلى في شكل بلوري من فوق جبهتها..

بدت الأجساد حولها كظلال فمراد لم يركز سوى على ملامحها وبدت هي وكأنها وجدت الطريق ليس إلي السوق بل هرباً منه ولكن بخطوات واثقة..

موهوب..

حقيقة لا تنكرها..

هذا الغازي يبدو أنه يحمل موهبة من نوع خاص..

أخيراً وقف أمام لوحة واسعة الأبعاد وأشار لها أن تقترب..

همست وهي تتأملها:

ـ علشان كده اخترت بولوني

كانت نسخة مقلدة لنقش هيرونيموس..





"حديقة المباهج الأرضية أو المسرات الدنيوية"..

ولكن تلك كانت تحمل اختلافاً مقصوداً، فاللوحة الأصلية مقسمة لثلاث أقسام أيسرها يمثل الجنة وخلق حواء وآدم، وأيمنها يصور جهنم، أما وسطها فهو حالة رمزية للإنجراف الجنس البشري نحو المعاصي..

لوحة مراد كانت قسماً واحداً يحوي الكثير من الأجساد على ما يبدو لنساء استدركت فيما بعد أنهن جميعاً عاريات إلا من غطاء حديدي يخفي وجوههن، وعلى بعد أمتار منهن رجل يرتدي ملابس تجعله أشبه بجلاد ولكنه يخفي وجهه خلف نفس الساتر الحديدي!

كلوحة هيرونيموس لم تكن تفاصيل الأجساد واضحة ولكن مراد اختصر كل ما يريد في ملامح امرأة واحدة بدت شاردة





عن الجمع لتتخذ قرارها المنفرد بخلع القناع فبدا فوق ملامحها هلع غامض وكأنها أدركت ما يهابه الجميع..

نظرت كارمن نحوه في حيرة فتقدم ليجوارها متمعناً النظر للوحة في نشوة ثم قال:

- الخطيئة لعنة مكررة عمرنا ما هنقدر نتخلص منها فاخترعنا ماسك.. قناع نضحك بيه على عيوننا وعلى نفسنا والجلاد هنا مش مثال ذكوري لو ركزتِ حتلاقي بنية جسمه زيهم بالضبط!

اقتربت أكثر لتدرك أن الجلاد بدوره أنثى تشبههن جميعاً وترتدي نفس القناع..

بدا الجلاد كالضمير الأعمى يقف منتصباً في وضع استعداد والتنفيذ سيكون لتلك التي تجرأت وخلعت القناع..

تراجعت خطوتين للوراء وبدت غاضبة بشكل واضح..





ابتسم فأدركت أنه يعلم ما بداخلها..

رفعت أحد حاجبيها بكبرياء قبل أن تقول:

ـ والخطيئة أنثى!

كان قد خلع سترته وشمر عن ذراعيّ قميصه متخلصاً من قيد زريه الأعلى ليكون أكثر أريحية، استند فوق مقعد عالٍ يبدو أنه ونيسه بالرسم ثم بلل شفتيه بلسانه ببطء متعمداً التفكير وربما اللعب بغرورها قبل أن يجيب:

ـ والجلاد هنا أنثى!

كان محقاً ولكنه كان يحمل غموضاً لا تدركه، فالفن لها كان حالة تنفجر بألوانها فوق ورقة بيضاء..

أما هو فيحمل سوداوية غامضة وربما هو مجرد مقلد يتباهي بفلسفة ما..





كان التحليل الأخير هو الأكثر ارضاءً لعقلها,

ولكنه لم يعطها الفرصة لكي تُكمل التوقعات..

جذبها من يدها لتقترب من اللوحة أكثر..

بل أكثر..

وكأنها يصرخ بأفكاره

"لا تهتمي بالرتوش توغلي بالتفاصيل"

أدركت أنه يدفع رأسها دفعاً خفيفاً لتواجه ملامح المرأة المذعورة..

كانت عيناها تحمل تعبيراً يصرح بالكثير..

ذعر لا تعلم هل هو من الموت أم ربما من الخطيئة!!..

وهي لم تكن مبهورة بالفكرة بقدر قدرته الفذة على تصوير تلك الملامح وبهذا الوجه الصغير..





- في بداية ما رسمتها كنت فعلا بقلد لوحة هيرونيموس لكن.. فجأة لقيتني بركز على الجزء الدنيوي ولقيتني بركز على المرأة بحكم أن دايمًا هي رمز الخطيئة في مجتمعاتنا

استدارت له تتأمل كل تفاصيل وجهه..

كان يتحدث بسرد دافئ رغم قسوة ما يعبر عنه بل ربما هي المرة الأولى التي يُسهب فيها بحديث مطول, فأغلب جمله معها قصيرة نافذة تحمل بين سطورها أفكاراً آمرة..

تابع هو دون توقف:

- ملامحها كانت بتطاردني.. اختصرت اللوحة في ملامحها ولولا المجهود كنت شوهت كل الرتوش دي وسبت بس التعبير الرائع.

- رائع!

كان محقاً فروعة اللوحة تكمن في تصويره لتلك الملامح..





وكأنها صرخة ما قبل النهاية..

ارتجفت وشعرت أن الجلاد له ذراعاً تبغيها..

بل أذرع عدة تخرج من اللوحة لتقبض قلبها هي!..

وهو بحرفية اقترب من لوحته يخاطب الفنانة بداخلها لا الراقصة في نموذج شهرزاده..

أشار للنقش وهو يتابع بجدية:

ـ الفكرة هنا ربط بين الرومانتيكية والواقعية.. رمزية الشرق والخطيئة والأنثى والعاطفة والواقع..

خوفها واقع!

ألمها واقع!

قبل أن تخرج من دائرة التأمل جذبها للوحة أخرى..

كانت لفتاة تبدو وحيدة بشتاء مظلم..

تلك المرة الصورة مظلمة..





لم يعتمد على الألوان بشكل واضح كسابقتها، الفتاة كانت لها خصلات معقوصة خلف رأسها سوى من خصلة شاردة قررت أن تتوسط جبهتها.. الملفت في اللوحة هو فكيها..

مراد صور فك الفتاة بحرفية نادرة ليرسم حالة رائعة من القهر المتمثل في حركة فم.

كان يجاورها بخلفية محاضر يشرح هوسه ليستفيض مرة أخرى:

- كنت قريب هنا وشوفتها.. هي مومس على فكرة أو تقريباً كانت بتحاول تبقى مومس.. كان واضح قوي أنها مبتدئة وأنها حتى مش عارفة تجيب زبون.. بعد محاولات عديدة يأست وقررت تقف في المكان ده تراقب البرد ومحل المخبوزات اللي في آخر الشارع وعلى وشها الابتسامة دي..

أي فنان يفوت تلك ابتسامة!!..

هكذا كانت تفكر كارمن، كانت لوحة غاية في الروعة حركت بداخلها عواصف





ظننت أنها قد همدت, وريشة تود أن تعود للنور بعد سبات مميت. على وجهها ظهرت ابتسامة أخرى ربما ليست ممثالة ولكنها أصبحت تحمل تقديراً للرجل الواقف جوارها..

للفنان داخل الرجل الواقف بجوارها!

أمسك بيدها مرة أخرى..

تخطت في الطريق عدة لوحات لم يبدو أنهم أقل أهمية فها هي لوحة لوجه بهلوان باكي، وأخرى تمثل سحر شرقي في جارية منتحرة على فراش الموت, ولكن مراد كان يود أن يريها القطعة الأكثر أهمية في مجموعته

صفعة ما قبل الختام كما يسميها..

فتاة بملامح شرقية تجلس فوق حافة طاولة خشبية, الصورة لم تكن تحوي في الخلفية سوى حائط زيتي والطاولة تحت فخذيها..





كانت لها خصلات باهتة تناثرت فوق كتفيها لا تصل لما بعد ذلك.. مشدوهة وقفت كارمن فالملامح كانت تبدو مذعورة بشكل مريع..

عيناها ممتلئة رعباً ولا تعلم كيف احتفظ مراد في ذاكرته بهذا التعبير وما السر خلفه..

شيء آخر لفت انتباهها بشكل قوي فالفتاة كانت عارية تماماً وتلك المرة رسم مراد تفاصيلها دون رادع حتى وإن كانت قد أحاطت مفاتنها بأحد ذراعيها في حركة بدت موازية لخوفها وكأنه رد فعل موازي لصدمة..

استدارت علها تفهم..

اللوحة رائعة ولكنها تحمل بين ثناياها حكاية..

وحتماً تلك الفتاة ليست بصدفة على قارعة طريق أو من وحي خياله..





بنبرة هادئة وصوت طغت بحته تأثراً، عاد بالزمن خمس سنوات:

- كان اسمها خديجة.. وقتها كنت عايش في الجزائر في قرية صغيرة على الحدود.. كنت بحب الرسم قوي وكان عندي أوضة أبسط ما يكون.. ترابيزة خشب ولوحة، خديجة كانت مبهورة بيا جداً وفعلياً طارت من الفرحة لما طلبت أرسمها..

تلك هي المرة الأولى التي يتحدث فيها مراد عن نفسه..

لهجته مصرية وها هو يسرد ماضي من بلد آخر ولكن الفضول بشأن هذا لم يكن هاجسها كانت تود أن تعرف حكاية خديجة..

لم تقاطعه فاسترسل وهو يقترب من لوحته أكثر..





ـ خديجة كانت منتظرة لوحة لبراءتها في فستان ووردة وصدمتها الأولى كانت لما عرفت أنا عايز أرسمها إزاي

معضلة! أن تقنع فتاة شرقية بخلع ملابسها كاملة من أجل لوحة..

لم تكن كارمن بحاجة لتفسير فالمرأة لن تفعل هذا إلا بسبب الحب!

والحب بدايته انبهار..

انبهار بكل ما يحمله فارسها حتى ولو كوارث, نظرت نحوه بألم سنوات مضت لتسأله:

ـ خدعتها؟

نظر نحوها بعمق..

لم يجبها فقط استرسل في حكايته:

ـ هي أقنعت نفسها.. أقنعت نفسها برغبة آدم في حواء..

بسخرية رمقته وردّت:





ـ ورغبة آدم كانت في شيء مختلف تماماً

لمعت عيناه بقسوة ثم اقترب من اللوحة

ليشير لوجهها متابعاً:

- العُري عندي كان وسيلة مش غاية..

للحظة دي.. هه!

قال "هه" بسخرية قاتلة..

الفتاة.. الصدمة.. الخوف

كانت تتشكل بحياة أمام عينيها..

امرأة ورجل برغبتها وحبها وعشقها

وأريحية القادم في تنازل تنوي تقديمه بين

ذراعيه..

ماذا حدث؟!

عاد خطوات وجذبها من يدها..

انطفأت الأضواء وخيم الظلام على ملامح

المذعورة.. نظرت نحوه بغضب:

ـ إزاي؟





كان فمه مغلقاً مع ابتسامة لوته بشكل جانبي واضح..

على أطراف شفتيه قوسين هما تعبير الضحك والغضب بسحر غامض..

لم يجبها وارتشف باقي قهوته, جذبت ذراعه هي تلك مرة بغضب له حمرة مستعرة عادت للحياة..

تكرر بلهجة الآمر تلك المرة:

ـ عملت إيه؟

تنهد بصوت مسموع..

رائحة القهوة بأنفاسه مختلطة بأنفاس خديجة..

هكذا كانت تفكر..

ولكن هو..

هو رجل يسعى خلف هدفه دون رادع..





هو الإبن الذي عشق الفن رغماً عن أنف أبيه..

هو من رتب خطواته بتأني وتنقصه واحدة فقط نحو القمة..

خطوة واحدة..

لوحة واحدة..

امرأة واحدة..

تقف كعجينة مستساغة أمامه وسيشكلها كيفما يشاء.

****

ـ ما تخافيش يا ليلى..

ـ صعب قوي يا بابا..

ـ ما فيش حاجة اسمها صعب..

ما زالت تتذكر يديه وهي تمسك بالمقود..





صوته الرخيم وهو يشجعها كي تتولى الدفة ولو لمرة لن تتكرر!

لم تكن تعلم أن زيارتها التالية ستكون دونه..

أنها ستتولى الدفة منذ ذاك الحين وحيدة..

نسمة هواء داعبت أنفها..

كان منصور يعشق حرية أنفاسه فلم يقيد دفته بحجرة خشبية مثل معظم القوارب بل

تركها حرة بمقدمته في مواجهة الهواء الطلق.

كانت خلفها ضوضاء..

أمين..

مستأجرين.. موسيقى.. عمال.. رحلة غوص..

وحمزه!

تبدلت ملامحها..





وعاد الغضب يستعر جديد مع صوته, هذا الذي هاج وماج دون دور حقيقي يستحقه عندما علم بنيتها في تسيير عمل منصور..

زفرت بضيق يوازي عدم رغبتها في الإعتماد عليه وربما الإعتماد على أي أحد ولكنها مضطرة!..

فقد شعرت بحنقة الغريق بحثاً عن عود قش وهم يتحدثون عن موارد وعمال وعقد وفندق ومسكن وصبري..

وجدت نفسه ملتصقة رغماً عنها بلفظ ريشة في مهب الريح..

ريشة متشبثة بقرار لا تعلم كيف السبيل لتنفيذه..

رتب أمين كل شيء وساعده حمزه..

بنود لا تقبل الجدال ربما كقرار عملها مكان منصور..

ولهذا في غضون أيام وجدت نفسها بدوامة..





تسكن مع امرأة خمسينية تُدعى فاتن, لها بشرة سمراء محببة وتعمل بمطعم فندق فاخر لتقدم الخبز الفلاحي الشهير..

مثل منصور تعود لبناتها كل شهر وربما ثلاثة..

زوجت اثنتين وباقي واحدة!

تكرر على العشاء والغداء وقبل صلاة الفجر..

"ستر البنات جنة"

وعلى القارب اتفق أمين مع موردي الطعام وبعض العمال من أجل أول رحلة..

ولا مطلوب منها سوى قيادة القارب..

كانت تود أن تتذمر وتصرخ وترتب كل شيء بقوة منصور وحنكته ولكن.. هي ببساطة لا تعلم كيف!

وكانت ستكون كارثة لو أنها نسيت ما علمه لها منصور بشأن القيادة, ولكن ببوصلة ومساعدة خفية من الطبيب أمين تم الأمر..





لتبحر بليلى وعلى متنها أول فوج بعد رحيل منصور..

ـ الشاي..

كان الأسمر قد أعد لها كوباً ثقيلاً كهذا الذي يفضله أبيها, ارتشفت منه القليل لتشكره بابتسامة:

ـ شكراً يا ريس أمين.

ـ العفو يا ست البنات.. تأمريني بحاجة؟

ـ الأمر لله وحده.

تركها أمين وتوجه لعمله..

عادة هو مع حمزه يجهز عدة الغوص ويتأكد من مخزون الهواء..

يراقب العمال ويباشر الطعام ويتولى طلبات الضيوف..

ثم ينفرد بحاله في مؤخرة القارب يراقب البحر في شرود..





لا يهتم بالموسيقى العالية ولا بطوفان البيكيني الراقص في مجون..

يؤدي عمله في صمت يشبه أبيها ويشبهها..

هي بدورها قررت أن تتحاشى حتى النظر..

تنفرد بنفسها في مقدمة القارب تتحرك مع طلبهم وتتوقف كذلك..

رغم أن صاحب القرار هو حمزه..

يحدد لها على الخريطة وبالبوصلة أين سيتوجه ويصرخ فجأة:

ـ اقفي هنا!!

ثم يأمرها أن تتحرك من جديد!..

حتماً لم يكن يفعل هذا منصور ولكنها الآن مضطرة.

هدوء عم المكان بعد أن قفز الجميع خلف الغواص الشاب ليختفوا جميعاً تحت سطح الماء..





تفكرت بمتعة تلك الدقائق بين زرقة تصرخ بلا صوت..

مراقبة الجمال بشق الأنفس..

لم تمر نصف ساعة وعادوا وتبدل كل شيء..

فصمتهم وجلاً لطبيعة فوق قدرتهم تحول لصخب راقص وموسيقى أقل ما يقال عنها أنها ضوضاء..

بدا أنهم فوج أسباني أو ربما إيطالي فالفتيات يحملن ملامح شرق المتوسط والرجال لهم سمرة برونزية مميزة..

كانت تحاول ألا تنتبه ولكنهم لم يتركوا جزء بالقارب لم ينتشروا به حتى أن أحدهم ابتدأ معها حديثاً مطولاً بلغة لم تفقه منها حرفاً..

وفجأة وبأسبانية طليقة:

- أنه صباح رائع.. وقتا ممتعًا صديقي.





كانت جملة نطقها حمزه قبل أن يودع السائح المتطفل ويجاورها بدلاً منه ولكن على المقعد..

تجاهلته ولم تسأله حتى عن ما قاله الرجل وما قاله بدوره..

لم تكن تهتم ولم تكن مستريحة لمجاورته لها على المقعد خاصتها فهو قد يكون واسعاً لفرد لكن لا يجوز لإثنين!

ولكن حمزه لم يبال..

بل كان مستغرقاً في التهام وجبته الدسمة من فواكه البحر غير منتبه أن قطرات المياه من جسده طالت ملابسها..

استقامت ليلى مبتعدة تنظف ملابسها في ضيق..

كانت ترتدي سروالاً واسعاً من الكتان الفاتح وفوقه قميص أبيض كان أسوأ اختيار لبداية عمل فوق سطح مركب..





خصلاتها قصيرة ورغم ذلك تصر على تقييدها والنتيجة تمرد عشوائي من خصلات عدة تنسدل فوق رقبتها بشكل طفولي لطيف.

ترك حمزه طبقه ليتوجه نحوها ويميل فوق أذنيها بهمس محذر:

ـ لما تلاقي واحد لزقلك كده من غير داعي تناديلي

ابتعدت خطوة لتنطق في استهجان:

ـ وأندهلك ليه إن شاء الله!!

عنيدة تثير فيه مشاعر ضيق وغيظ سحرية..

مشكلة متحركة على قدمين وتظن أنها شمشون الجبار ولولا صبر أمين لأعادها لمنزلها على الفور متخلصاً من قرارات أطفال دون داعٍ..

فالآن عليه أن يهتم بعمله وابنة منصور!





زفر بضيق يحمل أنفاس وجبته فسعلت بضيق موازي..

تنفس ببطء فلوت شفتيها مللاً..

وجحظت عيناه غضباً فوازته سخرية وكأنها ستخاف..

- ما دام مش فاهمة بيقولك إيه تندهي لحد.. أنا مش عايز وجع دماغ مع الجروب بتاعي..

كانت نبرته عالية وقد نفذ صبره فمنذ دقائق فقط كان رجل أربعيني بمظهر مثير للجدل يحاكيها دون داعٍ متلذذاً بإخبارها عن رغبته في تذوق فتاة عربية!

لولا قواعد هو مجبر عليها لكان حطم أنفه, ولكن الحمقاء كانت تبتسم وتومأ برأسها موافقة ظانة أنها هكذا تتخلص منه..

ساق عارية ظهرت مفاجأة من خلفه وبذراع نحيلة طوقت رقبته لتنقر نقرات خفيفة فوق الشعيرات الخفيفة فوق صدره..





لم تدرك ليلى أنها ببساطة تحدق في صدمة..

له وليديها ولنقراتها المتتالية ولـ..

احمرت وجنتها ورفعت بصرها هروباً لتلتقي بعينيه مما زاد الأمر سوءً.. كانت الأخرى تهمس في أذنه بكلمة ثم قبلة دون ملامح واضحة منه..

فقط كان يرمقها هي بغضب!

استدارت لتقول نعم حتى تتخلص منه..

ومن تلك المتعلقة برقبته في وضع يحتاج لغرفة وعقد زواج فوري لا لحديث صباحي عن قواعد عمل!

بعدها بثوانٍ رحل ومعه تلك من نادها هيلدا لينفرد بها في مقدمة القارب في تناغم رقيق لم يخلو من اختلاس النظر نحوها من حين للآخر..

تنفرد بالمقود..





تتجاهل الجمع واستشعرت الخطر فقيدت خصلاتها بحدة أكبر لتتمرد أكثر وتُمزق ربطتها وينسدل القصير على كتفيها في تبعثر ممتع..

تنهد بغيظ فهذا ما ينقصه..

حمقاء الصغيرة متشبثة بمهنة رجل لن تجلب له سوى المتاعب..

****

صباحها اليوم سيختلف!..

هكذا أصبحت تردد كل يوم ولكن لا شيء..

يظهر هو بموعده المعتاد..

يتابع بعض الأعمال ويتجاهلها متعمداً ثم يعود لمزرعته وخيوله..

الحمقاء زوجته كانت بمضمار الخيل صباح الأمس ولكن وحدها دونه.. جذبت فرسة تشبهها ولم تجرؤ على أكثر من مداعبة خائبة لا ترقى لإمتطاء الفرسان.





نعست عيناها قليلاً..

قليلاً جداً..

فآخر ما قد يجتاح شيرين نظرة ناعسة فهي شعلة شهية شاء أم أبى.

كانت تفكر وتنظر بالمرآة..

تعدل من وضع قميصها عل المفاتن تبدو مختلفة، ترفع تنورتها وتثنيها وتفردها..

وتخلع حذاءها وقرطها ثم تختار آخر وفي وسط هذا كله تأرجح خصلة مجعدة علها عفوية تبهره.

تحول مكتبها لمركز تجميلي!..

لو رآه لقتلها ولعلم كيف تموت شوقاً..

أهكذا يكون الحال مع عشق فارس!.

ألا يمكن أن تنال جولة فوق ظهر حصان وهو معها؟..

عادت عينيها مرة آخرى للنعاس..





بل أضحت مغمضة غارقة في تخيلات غير مشروعة!

ووسط كل هذا همس باسمها..

"شيرين"

ولولا أن الأحلام حقيقية لظنت أن الخيال قد حطم الواقع وأن همسه حقيقي بدوره وليس زعقة غاضبة من مدير لمستخدمته

الغارقة بنوم مبتسم وقدميها الحافيتين تتأرجحان فوق سطح مكتبها..

ربما مرت نصف دقيقة قبل أن تعدل من موضعها..

المهم أن حمرة الخجل الخائبة ليست حاضرة وأن اللعثمة ليست واردة وحتماً الإرتباك ليس بحلِ خاصة مع التكملة وخالد لن يتهاون في حديث يسبقه غضبه!





صفع الباب ليقترب منها مع اللحظة التي أخفضت بها قدميها وانشغلت بارتداء حذاءها..

ـ دي أوضة مكتب ولا أوضة نوم؟

خُيل لها أن صوته لم يجذب الموظفين فقط بل المارة من الطريق الخارجي، لم يكن أمامها حيلة سوى مقابلة غضبه بهجوم..

اقتربت منه بلمعة متحدية لتجيب:

ـ أوضة نوم!

ولكن..

بعد الجملة كادت أن تندم فبريق عينيه كان ينبأ بزعقة أخرى خرافية أم ربما صفعة..

غريزتها دفعتها للوراء.

خطوة.. اثنان..

حتى اصطدمت بحافة المكتب.





وعندما شعرت أنه قد ينطق بما لا يحمد عقباه لم يكن أمامها سبيل سوى شلالات نياجرا!!

الدموع المصطنعة تجهدها لحد كبير ولكن ما باليد حيلة..

وما بخالد من أمل فلم تتأثر ملامحه ولو برجفة ظل يراقب العرض بوجه صنم..

لا حركة..

لا نفس..

والشلالات تحتاج لحشرجة..

ومناديل ولا يوجد فجذبت خاصته من جيب قميصه وكان يحمل رائحته فلم تود ارجاعه..

حرك رقبته يميناً والآن يساراً, آخر مراقبته الساخرة كما يوضح..

حركت شفتيها في قهر:





- أنت ليه بتنسى إني بشر من لحم ودم!.. بس حضرتك معاك حق هتعرف منين أني واخدة منوم!

الكذب لا يحتاج جواب ولا مجادلة ولا نفي ولا موافقة..

الكذب يسقط بنظرة..

وخاصة لو تقييمية كتلك التي رمقها بها خالد فاستدركت مصححة:

- مهدئ.. أنا واخدة مهدئ خلاني سرحت..

عندما أيقن أنها قد ألقت كل ما في جعبتها تخطاها ليجلس فوق مقعدها فجلست بدورها على المقعد المقابل..

بللت شفتيها لتتابع ولو بأي شيء ولكنه أوقفها بإشارة يد وصمت وهلة قبل أن يردف بنبرة ثابتة:

- وأنا شغلي يمشي ازاي بالمهدئات!

أرادت أن تقاطعه ولكن لا مجال..





أوقفها ثانية بنفس الإشارة ثم تابع:

ـ مش مركزة, تاخدي أجازة.. مش مسؤولة عن وضعك ومظهرك حتى لو في أوضة مكتبك, تروحي أوضة نومك يا شيرين.. بس مش هنا عند ماما!

جانبه المظلم يقتلها..

سخريته رغم كل ما تقدم تذبحها غيظاً..

حركت شفتيها بابتسامة باهتة وحركت رأسها بإشارة نعم وهمّت لتغادر.

أوقفها بلهجة آمرة:

ـ رايحة فين؟

بدا صوتها متحشرجاً وخاصة مع جوابها المقتضب:

ـ تعبانة جداً.. لو سمحت ممكن آخد بقية اليوم أجازة؟





كانت الإشارة الثالثة ولكن ليس لتقف أو تسمعه بل بالرحيل كما تشاء..

ولكنها أصرت أن يكون رحيلها مختلفاً

أكثر دراما..

وأكثر جدوى..

وأكثر تحقيقاً للأحلام..

سقطة فإغماءة!





الفصل السابع

العطر عطرك والمكان هو المكان

واللحن نفس اللحن

أسكرنا وعربد في جوانحنا

فذابت مهجتان

لكن شيئا من رحيق الأمس ضاع

حلم تراجع..! توبة فسدت! ضمير مات!

ليل في دروب اليأس يلتهم الشعاع

الحب في أعماقنا طفل تشرد كالضياع

نحيا الوداع ولم نكن

يوما نفكر في الوداع

فاروق جويده

عشقها رجل مع همسات جواد...

غابت الهمسات





وغاب الجواد

وعشقه..

ارتجفت شفتاها وهي ترمق الغرفة الخالية، غرفة رعد الذي أبت أن تحتضن غيره.

تنهدت ببطء.. بحرقة..

مرة.. اثنان.. ثلاثة.. عشر.

هل توقف عن حبها؟!

السؤال الأكثر قسوة الذي تواجه به نفسها كل مساء.

هل غاب عشقه مع غياب رعد؟

أهي التي على حافة الجنون؟

أهي التي انهارت مع موت رعد؟

خافت..

جزعت من خالد الآخر بعد أن فقد نصفه الآخر..

سنوات الزواج التي كانت تمر بجنون وبهجة توازي عينيه بعد امتطائه..



وانطفأ البريق ليس فقط بصدمة فقدانه, بل فقدها هي بذات اليوم..

فقدها ولا تعرف ذنب من هو أم هي!!

****

لماذا يتعارض الواقع دوما مع الحالمية؟..

ألا يمكن للواقع أن يكون وردي اللون يبعث في العقل طيوراً تغرد!..

ألا يمكن أن تستفيق من شرودها على قبلة منه.. رائحته؟!..

أن تستدير لتخبره بعينيها لا شيء فيفهم..

أن تسامحه دون تعقيدات!

صهيل الجواد أنبأها أنها تحلم ولم تكن حتى محظوظة بحلم كامل..

استدارت وآخر ما توقعته تلك العينين الصغيرتين اللتين تراقبنها بشغف..

ابتسمت..





فهو نسخة مصغرة منه رغم أنه ابن حسن..

تراجع محمود خطوتين في خجل فاقتربت منه بحاجب مقتضب مصطنعة الجدية:

- امممم أنت هنا من إمتى؟

تلعثم الفتى الصغير ليرد في رقة ليست من طبعه:

- أنا آسف.. كنت بس عايز اتفرج من بعيد على الحصان.

ابتسمت بشرود.. وخلف الشرود شفقة..

كم يشعر هذا الطفل بالعزلة..

عزلة تخلق توحشاً..

وتوحشاً ينتهي بهروب..

والهروب يتوقف عند حد شغف خفي بامتطاء حصان!

- تعال..

هكذا وببساطة قالتها..





عقصت خصلاتها واستدعت سائس وحققت

له أمنية قبل أن يطلبها..

سعادة غامرة اجتاحتها وهي تراقب

ابتسامته فوق المهر الصغير والسائس يدور

بهما في حلقات مكررة..

حلقة تحمل ابتسامة محمود..

أخرى تحمل ضحكات تميمة التي تفوتها مرة

تلو أخرى..

خافت عليها فحرمت نفسها من مشاهدة

تلك المتعة مع ابنتها..

وهناك حلقة أخرى..

رجل وليس طفل..

توحشه كارثياً ولكن قدرها أن تتحمله..

قدرها أن تقطع طريق الهروب لا أن تهرب

مثله.

****





ماذا يحدث!

لما يبتعد عنها وسحقاً لما لا تقاوم؟!!.

شعور حارق اجتاحه وهو يحمل جسد تلك اللاشيء..

اقتراب يفتقده مع زوجته وتمر الأشهر..

وكلما حاول..

كبرياؤها يصده وكرامته تمنعه.

ترك الفندق وتوجه نحو اسطبلات الخيل،

الغرف خانقة وهواء المكيف الهوائي يحمل رائحة!

كان يحل أزرار قميصه واحداً تلو آخر وهو يقود السيارة..

يشعر بالاختناق..

يشعر بالحاجة..

ويقتله هذا الشعور لأنه أقسم ألا يقترب!





أمسك بالهاتف وعبث بأرقامه ليحدث أحدهم ويطلب تجهيز جواد..

الأفضل..

الأسرع..

يود أن يعدو..

يعدو.. ويعدو..

دون تفكير.. ودون توقف..

كان محمود قد أنهى جولته الممتعة ليظهر بعينيه بريقاً مختلفاً..

بريق أصرت أن تختبره مع تميمة متغلبة على خوفها وحماقتها..

ودَّعت الطفل بحنان وأوصت أحدهم أن يوصله منبهة عليه بشدة ألا يتخذ الطريق الطويل وحده مرة أخرى..

اقتضابة منه أنبأتها أنه يعامل نفسه كرجل رافضاً حتى تلك التربيتة الرقيقة فوق رأسه فهي تليق أكثر بابن رقية





وليس به..

رحل الطفل وهي تفكر كم يبدو سهلاً للغاية أن تحتويه أم وكم يبدو صعباً أن تكون تلك الأم هي رقية!..

- أحضر لك فرس يا دكتورة؟..

صوت السائس الغليظ أفاقها من الشرود، ابتسمت لحالها ساخرة تردد بشرود:

- فرس!!

هي لم تمتطِ فرس منذ سنوات..

جربت الأمر في بداية الزواج ووعدها بتعلميها، ولكنه كان يخادع..

فبكل مرة كان يقفز خلفها لينفرد بها ويلقنها شيئاً آخر..

وبعد ولادة تميمة جربت أكثر من مرة ولكن دون اهتمام فكانت تعود مسرعة دوماً لحضن صغيرتها..

وبعد موت رعد ابتعدت عن المكان ولم تقربه..



وهل يسعى هو لهذا أم أن غروره كالعادة يمنعه أن يوقف اهتمام أنثوي؟..

كانت شفتيها مزمومة وهي تتذكر تلك اللزجة التي كانت بجواره..

تتذكر نظرته نحوها..

صبره على تجاوزها..

استمتاعه؟!

- عايزة مني حاجة يا دكتورة إيناس؟





- يا دكتورة؟

الرجل يصر على قطع شرودها، أم ما بالها هي هذا الصباح غارقة بحالمية في الذكريات؟..

هل بسبب تلك المرأة؟!

لامت نفسها..

هل تسحبها كرامتها نحو شعور مهين بالغيرة؟..



السائس المُلح غليظ الصوت..

ما به؟..

فاليذهب الى الجحيم ويتركها وشأنها..

استدارت بحدة..

أطالت النظر نحو السائس الشاب حتى ارتبك ثم قالت دون تفكير:

- عايزة حصان.

....

الجنون فوق صهوة جواد ولكن وحدها دونه..

في البداية كانت مترددة حتى أنها فكرت أن تطلب مساعدة من السائس ولكنه إن علم سيقتلها!

صرفت الشاب وجذبت اللجام..

كانت فرسة أنثى..

لون رمادي فاتح..

بِنية متوسطة..





وزمجرة طفيفة..

اختيار ممتاز ويناسبها..

زفرت.. ترددت..

مالت برأسها فوق الخصلات الرمادية..

ومالت خصلاتها من فوق جبهتها فاختلطت بندقها بشحوب..

كانت وأصبحت!

ارتجفت شفاتها وهي تفكر لأول مرة كيف يراها..

لم تكن يوماً متوهجة بخصلات حمراء..

ولن تصبح مغناج بجدائل عقيق أسود..

هي كما هي..

خصلات البندق..

أشعت عيناها ولكن بحزن لتطلق كم آخر من التنهيدات قررت أن توقفه بقفزة..





رفعت ساقها اليمنى واستندت بقوة على حزام الجواد لترفع جسدها برشاقة فوقه..

الأمر لم يكن صعباً فتكراره معه عدة مرات أكسبها خبرة..

خبرة لن تفيدها مع امتطاءها للفرسة الصغيرة وحدها ولأول مرة.

"اسحبي اللجام.. حركي رجلك.. اخبطيه بس برقة"

تعليمات خالد لها بدروس سابقة..

كانت تحرك الفرس خطوات عدة وتنزل أو يختطف هو كلاهما..

زفرت بضيق وهي تحاول بمجهود مضني أن تحرك الفرسة..

ولكن المخلوقة الرمادية ثابتة كصنم..

لوت شفتيها متحسرة عن تجربة كانت حتماً ستسعد بها تميمة

أو تخبره..





ليعلم من تميمة وليس منها..

فكرت بمعاندة وهي تحث الجواد على الحركة ولكن دون استجابة..

ركلاتها ربما ضعيفة أم اكتسبت بعض الوزن..

عبست بحنق امرأة آخر ما تود التفكير بشأنها هو زيادة في بضعة كيلو

جرامات!!.. اقتربت من فقدان الأمل وزفرت..

وطارت خصلات البندق وطارت خصلات أخرى رمادية عندما انفجرت الفرسة بانطلاق صاروخي مخيف!!

كسرت حاجزين وهربت ببساطة نحو الصحراء.

****

كان قد وصل مع خروج جواده..



جهز السائس كل شيء مسرعاً وانشغل هو بمكالمة عمل أوقفها على إثر عبارة واحدة:

- الدكتورة هنا يا بشمهندس.. وسالم طلعلها نجوى.

لم يستوعب الأمر إلا حينما استدار للمضمار ليلمحها فوق صهوة الجواد الرمادي. تبتسم وتعبس..

تركل قدميها بشكل مضحك فوق صهوة صنم..

فالفرسة "نجوى" رقيقة جداً وتتحرك ببطء دائم من أجل الضيوف قليلي الخبرة..

ابتسم ساخراً..

فزوجته تبدو مثلهم "قليلة الخبرة"

كانت قد بدأت تيأس وبتيبُس الجواد شيء أسعده. ربما لأنها ستحتاجه رغماً عنها..

كان الجواد خاصته قد أصبح جاهزاً فأغلق





هاتفه على عجالة قبل أن تنتطلق سارينة مفاجآة تُبدل كل شيء..

كانت سارينة اسعاف من طريق مجاور ويبدو أن شيئاً ما أصبها فدوت بجنون, جنون صم آذان الجميع وأفزع الفرسة فانطلقت تهرب ببندقيته عليها..

**

كانت لحظة لم تدرك بعدها شيء..

صوت ارتطام الحواجز كان مرعباً وشعرت أنها ستفلت اللجام وعند تلك النقطة خاصة ارتعبت فتركته!

تركته لتحيط عنق الفرسة بكلتا ذراعيها في تشابك هستيري وتميل برأسها فلا ترى شيء..

كلتاهما خائفتان ولا تملك واحدة أن توقف أخرى فتشبث إيناس بعنق الفرسة زادها رعباً وعدو الفرسة بسرعة رياح أوقفت عقل إيناس عن التفكير.





لم تشعر بشيء سوى بحوافر تقترب..

صهيل آخر..

صوت تحتاجه وصراخ باسمها قبل أن تستدير بحماقة فلا استطاعت الصمود ولا قدر أن يلتقطها..

كانت ذراعه تجاهد لاحتواء خصرها ولكن سرعة الفرس لم تسعفه، فغابت من تخدُّل ذراعيها لتسقط ولولا عزم ذراعيه لكانت سقطتها مريعة فوق ما يحتمل.

أوقف فرسه ليترجل مسرعاً..

كانت ممدة تأن في ألم، لا يعرف ماذا يواجه..

كسر أم شرخ؟.. وأين؟!

قوة أعصابه لم يكن لها وجود..

كان يترجف وهو يحرك رأسها ويناديه دون جواب





عيناها تغيب وتبكي

تتألم..

كان يجاهد لتفيق وهاتفه يهتز بين يديه مستدعياً بكل وجل طبيب..

****

- مجرد شرخ بسيط.. الحمد لله واضح إن حضرتك لما حاولت تسحبها قللت من قوة الإصطدام.

كلمات الطبيب وازت رحيله..

كانت تشعر بوخز بسيط وترمق قدمها الملتفة داخل رباط أبيض سميك..

تحسست ببطء كدمة بسيطة على جانب وجهها وإن لم تؤلمها فتقتلها نظرة القلق بعين تميمة..

وأبو تميمة..

حشرجة صوته وهو يصرخ باسمها منادياً لن تنساها..

ما به؟!.. وما بها؟!.





هل يجب أن يختبر ألم قلقه عليها بهذا الرعب!

انكمشت عندما رمقها بنظرة نارية..

كانت تتنفس باضطراب غير محتمل لطوفان غضب آخر..

ـ ماما بقت كويسة يا تميمة.. روحي على أوضتك.

استاءت الطفلة لتجيبه برفض متعنت:

ـ عايزة أقعد مع مامتي.

أيقن أنه احتد على تميمة في الساعات السابقة أكثر من مرة..

قلقه أحاله وحشاً يصرخ بالجميع..

استعاد نفسه قليلاً وهو يرمق الطفلة بحنان جاثياً على ركبتيه قبل أن يستكمل بصوت يخصها هي فقط:





ـ ماما هتاخد حقنة كبيرة.. اقعدي شوية في أوضتك علشان أعرف أضحك عليها وأديها الحقنة!

ابتسمت الطفلة ببراءة لتتقدم نحو أمها بقبلة رقيقة فوق جبهتها قبل أن تطمئنها بعفوية:

ـ ما تخافيش يا ماما.. بابا مش معاه حقنة.. دي تورتة جميلة!..

ذُهلت ملامح خالد وهو يستمع لكلمات ابنته ورحيلها بفخر قبل أن تتمتم إيناس بحماقة موازية:

ـ هو أنا هاخد حقنة؟!!

كانت عيناها منفعلتان بشكل غامض، رغم أن الطبيب طمأنهم إلا أنه شدد على عدم الحركة..

كان بدوره ثابتاً كصنم يحدق فيها..

لا ملامح..





لا تعبير واضح..

تنفست ببطء وهي منتظرة زعيق..

حتماً سيصرخ..

سيثور..

سيلقي بكلماته عبثاً ويتركها ويرحل كالعادة..

انكمشت قدماها رغماً عنها فحاولت أن تضمها وكانت النتيجة تأوه..

لفظ آه عفوي للغاية..

إن لم يعبر جموده فهو على الأقل جذب انتباهه ليتحرك مسرعاً مربتاً بدفء فوق قدمها المصابة وهو يأمرها بصلابة مناقضة:

ـ الدكتور قال ما فيش حركة وما تدوسيش عليها خالص لمدة أسبوع.

استسلمت..





بل تصلبت دون حراك وهي تفكر بألف طلب يخص البيت وتميمة..

كانت ما زالت بملابس الصباح, سروال بلون رمادي فاتح قص الطبيب أحد أطرافه ليتمكن من معالجة الشرخ وقميص بلون أزرق زاهي جعلها تبدو وهمية..

هي لا تحتاج لتبرج لتبهره ولا حتى لعرض إغواء رخيص..

هي بتفاصيلها ما زالت تثير جنونه ولكن..

لكن غضبه كان يحمل الكثير..

يحمل ابتعاد.. رفض.. صمت متقن..

وألوان باهتة تختارها خصيصاً بالمساء..

والآن ترتدي الأزرق وهي تعرف ولعه به!

تحرك خطوتين مبتعداً ليسقي نبتة تحتفظ بها على حافة النافذة..





كانت هديته لها بعيد زواجهما قبل الأخير..

كانت نبتة كوليوس بلون أرجواني مميز متماشي مع ديكور الغرفة..

اختارها لرائحتها العطرية المميزة..

منعشة.. تشبهها بشكل ما.

- أنا بعتت لوالدتك علشان تيجي تقعد معانا الأسبوع ده وتاخد بالها من تميمة..

قرار دكتاتوري رقم واحد..

هكذا تحدث دون أن ينظر نحوها, كان مشغولًا بالنبتة.

همت لتقاطع ولو بلا شيء ولكن هو كان الأسبق.

- ما فيش إهمال.. رجلك ما تدوسيش عليها خالص وإذا حكمت تقومي من السرير أنا هشيلك!

قرار دكتاوري رقم اثنان..





لا تنكر أنها عند تلك النقطة رفعت حاجبيها, ألديه طفلتان هي وتميمة!

ولو أن النبرة مختلفة لكان الأمر أسهل ولكنه كالعادة يبدو غاضب

جداً غاضب..

ـ الموضوع أبسط من كده وأنا أقدر اتصرف

رغم أن تلاقي الحروف وترتيبها يحمل ثقة إلا أن صوتها كان مرتجفاً للغاية.. ارتجاف ليس به طاقة لعراك آخر قد تفقد به كل ثباتها وتندرج لمرحلة جديدة تحت مسمى..

"غيرة أنثى"

وهو..

هو استدار وبسلاسة وبهدوء اقترب منها ليحل زر قميص أزرق زاهي..

فآخر وآخر

بعملية تامة ونفس الملامح..





دون تعبير!

وجلت في البداية لا تفهم ثم تراجعت مسرعة بجملة مرتبكة:

- خالد.. أنا هاتصرف.. الموضوع مش مستاهل.

- تفتكري؟

كان آخر جواب توقعته منه وربما آخر نبرة..

فقد بدت رقيقة متفهمة ولكن..

لم يدم الأمر طويلاً..

عندها توحشت عيناه وانتصب ليطل فوقها بظله وهو يردد بغضب مكتوم:

- تفتكري يا إيناس الموضوع مش مستاهل؟.. تفتكري أنه عادي.. أنه ممكن كنت تتهرسي تحت رجلين الحصان..

كان صوته عالياً جداً لدرجة أنها حينها لم تكن تفكر سوى بفزع تميمة..

قاطعته..





هو لديه الكثير وسيكمل وهي لا تود أن تسمع..

تلألأت عيناها بعبرات وصوتها برجاء:

- خالد كفاية..

عاشقة هي للصمت..

تقدسه!

لم ينطق ولم يجادلها..

وظل ثابتاً رغم العبرة ورغم الإرتجافة ورغم هوس فقدانها الذي طاله..

توجه لخزانة الملابس وأخرج أول ثوب نوم طالته يداه, وعاد ليضحل اعتراضها الغير مبرر ويساعدها رغماً عنها في تبديل ملابسها في جدية تامة وكأنه يساعد تميمة!

جدية مصطنعة بشكل فاق تصوره فقد افتقدها بجنون لم يكن هو يدرك أبعاده حتى اليوم.

....



كانت ما زالت على وضعها متحررة من كل شيء..

جذبت حاسبها المحمول لتنقر نقرات إضافية, لولا تلك التكنولوجيا لقتلتها الوحدة, وأيضاً رغم تلك التكنولوجيا تبحث حواء عن آدم بشكل بدائي للغاية وكذلك هو..

أعادت خصلاتها للوراء دفعة واحدة وهي تحرك بين شفتيها قطعة جافة من الجبن تمضغها بملل كإفطار وغداء وربما عشاء..

أتتها كلمات محدثها مضيئة فوق الشاشة:

ـ مودك زفت يا شيري؟

تبعها بعلامات يد تشير لأسفل في إشارة ليأسه..

زفرت ببطء لتوقن أنها ملته..





أربعة أشهر من القيل والقال في كل شيء

ولا تشعر معه سوى بخواء..

يرفضها خالد فتفتح حاسوبها تبحث عنه..

ترسل صورة فاتنتين وتنتظر منه عبارات

غزل أخذت وضعاً أكثر جرأة في الآونة

الأخيرة، واليوم هو مملاً للغاية حتى أنها لم

تفتح الكاميرا كما وعدته

ببساطة أغلقت المحادثة وحذفته وطفأت

الحاسوب ونامت..

واحد كاثنين كعشرة..

أيقنت فعلياً أنها لا تتذكر عدد من مروا

عليها من الرجال وضحكت..

ضحكت بهستيريا وهي تلمح بالمرآة ظل ما

أصبحت عليه..





بل ظل ذكرى هذا اليوم بتفاصيله عندما قررت المراهقة ذات الستة عشر عاماً أن تتخذ قراراً جنونياً..

قراراً يجزم أنها وحدها تمسك الدفة حينما تشاء.

كانت وقت الظهيرة.. موعد غداء مقدس, السيدة واجدة لا تحبذ الإختلاط وتثق بالقليل.. القليل جداً, ومن القليل جداً اختارت

أسوأ رجل كي تمنحه فرصة الإنفراد بابنتها..

يبدأ الأمر بضربة خفيفة فوق الساق وفي التالية قرصة والثالثة رفع تنورتها وهو يبتسم لأمها فوق المائدة!

يبتسم بثقة تقول لها لن تصدقك..

وكان محقاً فكيف ستصدق أمها أن الأربعيني الوقور ابن خالتها يتحرش بها..





أصبحت تكره تجمعات الغداء تلك وتثق أن ضفائرها وفستانها المحتشم لن يشفع لها..

تهرب فتستدعيها الأم بصرامة..

تتحجج بمرض فيكون هو بغرفتها بغرض الإطمئنان..

بدا كابوساً لن ينتهي وفهمت الكارثة عندما أيقنت أن الأم تطمع بزواج من قريبها الوسيم.

لينتهي الأمر في الظهيرة وعلى مائدة غداء، في عين أمها كانت عادية..

عادية للغاية..

فستان أنيق له أكمام قصيرة بنكهة طفولية..

قصير ولكن هو مثل أبيها..





خصلاتها ليست ضفائر ولكنها مشذبة بعناية خلف أذنيها.

ببراءة طلبت من أمها وجبة تعرف أنها ستمنحها وقتاً لتنفرد به..

طبق شهي من السلاطة يتطلب على الأقل عشر دقائق وهي أكثر من كافية.

انسحبت الأم واختلفت هي في لحظات..

الأكمام بدت غير ذات أهمية عندما انحسر الرداء عن كتفيها لينحدر بسلاسة مرتبة..

صدريتها أعطت مفاتنها مظهراً لا بأس به على الإطلاق، وساقيها بدتا أجمل عندما اختارت أن تجلس فوق يد المقعد تنظر نحوه في براءة!

كل شيء تم بسرعة..

تم كما تريد..

لتضبطهما أمها وهي فعلياً على مقعده..





دفعها..

بدأ يغلق أزرار قميصه..

تعرق..

تلعثم..

هرب وكانت هي منتصرة بخبث مبكر جداً من حواء.

حواء التي ستخرج بخطة أخرى حتماً أفضل وحتماً ستعطيها ما تريد..

صباح جديد..

تستيقظ هي في الخامسة فجراً مع كوب تقليدي من الشاي بالحليب, نسيم الصباح هنا له انتعاشة خاصة لا تستطيع تفويته لأي سبب.

بشرفة صغيرة من مبنى سكني لا يتجاوز العشرة أدوار وشقة بمساحة لا بأس بها تشارك ليلى أم رانيا بالسكن..





فاتن لا تحبذ اسمها بل تفضل "أم رانيا" وحروف ابنتها الكبرى، أمومة فاتن تقليدية ودافئة للغاية تذكرها بأمها..

افتقدت ليلى أمها..

افتقدت أخويها..

أسرعت لتخرج قبل أن يتمكن منها هاجس الاشتياق..

ستعمل..

ستشغل نفسها بكل شيء ولا شيء وتكفيها ذكرى منصور..

كانت تشعر بالراحة لمرور الرحلات الأخيرة دونه، فوجوده ومحيط شقرواته يوترها..

في البداية ظنت أنه من هؤلاء طالبي الزواج السحري من أجل سفرة دون عودة لأي بلد سوى هذا العبث، ولكن اتضح أنه يفعل ذلك من أجل المتعة والمتعة فقط وهذا عبث أسوأ..

وصلت مبكرة..





كان رحيم الفتى الصغير ما زال ينظف مركبها وأمين وحمزة لم يظهرا بعد..

تنهدت وهي تعلم أن صباحها لقاء آخر بعد أيام من الراحة ولكن في العمل لا اختيار..

وفي المصادفة أيضاً لا اختيار على الأقل بالنسبة لها..

اصطدمت بحائط لزج وابتسامة صفراء..

صبري

أكثر اسم تكرر أمامها منذ وصلت ولم تره سوى مرة في العزاء دون تركيز بأي شيء يخصه..

عادت خطوتين للخلف ترمقه في استهجان، هذا الرجل يمتلك ابتسامة منفرة بشكل لا يوصف..

ـ زعلان منك يا بنت الغالي!

صوته خرج ليغلب ابتسامته، رفعت أنفها في شموخ واستعدت جفاء العالم وهي تجيب:





- خير يا ريس أي خدمة؟

حافظ على ابتسامته وهو يخرج سيجارة رفيعة أشعلها ببطء وهو يكمل:

- مش اتفقنا هنتكلم؟

كانت هي تقف ثابته دون حراك، ترتدي بنطالاً يبدو ذكورياً بعض الشيء وفوقه بلوزة قطنية بسيطة دون نقوش..

علمها البحر أن تحتفظ بشعرها تحت قبعة بسيطة وتتخلى عن أي مظهر تجميلي سوى كريم صباحي اضطرت له كي لا تحترق بشرتها ولكنها لا تزال أنثى!

هاجس مفزع يجتاحها وهي وحيدة بعمل يخص الرجال، وهذا الذي يقف أمامها تنتطق عيناه بذات الأمر ربما فقط بغرض تخويفها..

ماذا يجب أن تفعل فتاة أمام عينين تترك وجهها وتتحدث فقط مع مفاتنها دون حياء!!





بعشوائية ضمت ذراعيها في وضع مربع أمام صدرها وهي تجيب بحدة:

ـ أنا ما اتفقتش معاك على حاجة يا ريس صبري وعن إذنك ورايا شغل.

فرك ذقنه بضحكة مختالة..

ضحكة مغرور يظن أنه مخيف..

هكذا كان يردد عقلها..

محافظاً على ابتسامته التي غادرت رحاب اللزوجة نحو التشفي قال:

ـ أنا سيبتك بمزاجي وقلت يومين وهتيجي ونتكلم.

ـ ما فيش كلام يتقال يا ريس.

ـ لا في يا بنت الغالي.. ولا نسيتِ إني عايز ليلى!

عيناه تسخر بتلميح حقير..





الأمر يتطور نحو وِجهة لم تكن تعلم أن لها وجود..

نحو ذكورية تجد في أنوثتها ضعفاً تنوي استغلاله..

تنفست ببطء وقبل أن تجيبه أو ربما تصرفه وتنتهي من هذا الحوار السمج تابع هو بهدوء واثق:

- المركب دي بتاعتي.. النهارده.. بكره.. بعد شهر.. في الآخر هتبقى بتاعتي!

استدعت هي الأخرى برود واثق لتجيب بنبرة جافة:

- خلصت؟.. اتفضل بقى للأن ورايا شغل.

ضحك بعلو غريب قبل أن يتقدم نحوها خطوة:

- طيب نتفق.. مش بيقولوا الكلام أخد وعطا..





ظلت على جمودها دون تعليق على انفعاله المبتهج!

ـ بس أنت كلامك أخد بس يا ريس صبري.

لمعت عيناه بقسوة.. ولكن لم تفارقه الابتسامة بل زادت وهو يؤكد:

ـ أنا كده عامل زي واد الكوتشينة أحب أقش، وعلى فكرة معايا البت تكسب أكتر من الشايب

تشبيهه أزعجها فأيقنت أنه لا يستحق جواب..

استدارت لتتركه دون اكتراث..

يحدث نفسه..

يأكل نفسه..

لا تبالي..

ولكنه تخطاها ليسد طريقها.. أظهر شره بخشونة صوت في تخويف بائس:





- مش حلو الكلام كده.. والشغل هنا خطر وكله مشاكل.. معلش إنت لسه ورور.. لسه في البداية.

- شكراً على النصيحة.

قاطعة نبرتها..

وتخطه بدورها دون أن تنظر نحوه، معه لا سبيل سوى التجاهل التام، ولكن هو يود أن يرسم النهاية بقوة ذراعه إن تطلب الأمر، فأوقفها تلك المرة بقبضة غير مستحقة فوق ذراعها..

استدارت بغضب بيْن تلك المرة ولكنه لم يبالِ..

تركها ثم رمقها بنظرة تقييمية مهينة قبل أن يلقي بدلوه الأخير:

- أنا ممكن أزود السعر علشان خاطر عيون ليلى.. وصاحبة ليلى!





استعادت رباطة جأشها بعين مغمضة..

ولكن نبرتها غلبها الزعيق..

- مركب منصور مش هتتباع.. وكفاية كده علشان ما تضيعش وقتي وأنصحك ما تتكلمش معايا تاني..

تحلم ابنة منصور..

تظن أن بضعة الرجال حولها سيحمونها ومركبه, فقط ستمر الأيام وسينسون الدفاع عنها لتغدو وحيدة وعندها لن يمانع بآخذها والمركب سوياً, فهي فاكهة نضرة لم يتذوقها من قبل..

أفكاره معها ابتسامة تترجمها ومراقبة لرحيلها ونشوة بلذة معركته تلك المرة..

فالعراك مع منصور جيد ولكن مع تلك.. ممتع.

****





استدعاء أمها كان أسوأ قرار اتخذه بحياته..

المنزل تحوَّل..

رقية تأتي منذ الصباح لتجلس مع الجدة ويتحول منزله لمطعم فطائر!..

وايناس في فراشها أغلب الوقت بأمره والمزعج أنها لا تجادل..

ليتها تجادل لينفجرا سوياً وينتهي الأمر.

وتميمة تقضي وقتها في لعب ممتع مع صديقها خالد الذي أصبح مقيم بمنزلهم هو وأمه..

طرقات مزعجة تلقاها حسن, كان مازال على الفراش في نوم عميق..

رقية تعاند وتكابر وترحل..

تعد إفطار محمود وخالد وتتركه ليخدم نفسه, وبغضبه لم تعد تبالي حتى أنه يشك الآن أنها تتعرض لنوبة مبكرة من سن يأس يرفض احتياجاته!..



كان يصب القهوة لخالد المنفجر غضباً وهو يضحك باستهانة..

اختار بضعة مقرمشات مالحة ووضعها بسخرية:

ـ معلش يا خالد.. مصنع الفطاير عندك!

رفع خالد حاجبيه في استشاطة:

ـ إنت بتهزر.. روح خد مراتك وحل مشاكلك.. البيت ريحته فرن!

سحب حسن لفافة تبغ ليزيد شراهة تدخينه وهو يسأله:

ـ وقاعد فيه ليه؟.. ما تروح صومعتك.. أنا بفكر أعملي واحدة زيها!

جذب خالد لفافة صديقه لينفثها ببطء ثم يرميها..

ـ خليك في نفسك!..

تأمل حسن صديقه..

زحفت بضعة شعيرات بيضاء لرأسه..





عيناه تحمل هموماً رغم أنه يمتلك المرأة التي يحب..

أليس مثله؟..

ألا يحب هو رقية؟..

ولكن ماذا حدث

لما أصبح هجومياً معها في الآونة الأخيرة؟..

أم لأنها تكره محمود؟...

وكأن عينه استشاطت فجأة..

انتفض ليدور بالمنزل كالمجنون وهو يناديه:

ـ محمود.. محمود..

راقبه خالد بهدوء يعي كل ما بداخله..

رغبته التي استفاق عليها مؤخراً بشأن ولده, أم ربما تلك المسؤولية التي قرر أن يعاقب عليها رقية..





عاد ولم يجد طفله ليجيبه خالد ببطء متعمد:

- محمود عندي في الفرن.. قصدي في البيت بيجي مع رقية وخالد.

- امبارح سابته.

كانت نبرة حسن قاتمة بها توعد مقلق، اقترب منه خالد ليجيبه بنبرة صارمة:

- امبارح أنا بعتله يجي يركب خيل... هيتدرب مع تميمة.

هدأت ملامح حسن قليلاً، شرد ليسأله:

- هو محمود بيحب الخيل؟!

ربت خالد فوق ظهره ليرتشف باقي قهوته دفعة واحدة ثم قال بتنهيدة ناصحة:

- ما تهدش بيتك يا حسن.. ما تعملش في خالد زي محمود.

استدار قبل أن يدور حوار آخر وربما قبل أن يدافع حسن عن سلوكه بمهاجمته شخصه هو وبنفس الجملة:





ـ وإنت كمان ما تهدش بيتك..

****

الحاجة ثريا رغم تمكن العمر منها ما زالت جميلة..

قررت أن تدخل في منافسة حامية مع رقية بالمطبخ علها تحصل على المراد..

ابنتها قليلة الكلام وتخفي أجواء التوتر مع زوجها ولكن قلب الأم يخبرها بخبايا..

تنهدت رقية بطء قبل أن تهمس حتى لا تسمعها إيناس:

ـ انصحيها أنتِ يا ست ثريا أنا غلبت معاها.

خلعت ثريا نظارتها الطبية قبل أن تلوي فمها ضيقاً:

ـ أنا عايزاها تخاوي تميمة وتجيب عيلين كمان.

ضربت رقية عجينتها بقسوة وأجابتها:

ـ نصحتها كتير.. بتكسل سنة ورا سنة



رمقت ثريا رقية بدهاء ثم اقتربت منها لتسأل:

ـ وخالد مش مظبوط بقى له فترة حتى مش بيجيلنا كتير زي الأول.

ارتبكت رقية بعفوية لتجيب مسرعة:

ـ تلاقيه مشغول بمشاكل المزرعة

رفعت ثريا حاجبها عن غير اقتناع ثم ألقت ما في جوفها بغضب:

ـ ومين البت الملزقة اللي جات سألت عليه امبارح دي؟

استدارت رقية بدهشة لتستفسر بدورها:

ـ ملزقة!.. إحنا ما عندناش ملزقين في المزرعة.

استشاط غضب ثريا لتجيبها بزعقة حادة:

ـ لا عندكم.. وشكلك نايمة في العسل إنتِ والهبلة اللي فوق!





ضحكت رقية وتركت عجينتها لتقترب من ثريا من فضول:

ـ طيب شوفتيها فين دي؟

جلست ثريا على مقعدها في غضب ورمقت مدخل المطبخ قبل أن تردف في همس مغتاظ:

ـ الوقت كان بالليل.. ممكن 9, واليناس كانت في أوضتها وهو كان لسه راجع وطلع يغير هدومه ولقيت الباب بيخبط ودي قدامي بتقولي عايزة مستر خالد!

كانت ثريا قد رفعت من نبرة صوتها مقلدة شيرين مما أضحك رقية ولكنها كتمت انفعالها لتعرف الباقي..

أكملت ثريا بضيق امرأة:

ـ لابسة بنطلون محزق.. قلة أدب.. وبلوزة بقى لي أربعين سنة متجوزة ما لبستش وحياتك يا بنتي زيها لا برة ولا جوة..





إيه الأشكال دي!!.. وبتشتغل هنا إزاي؟.. وليه إيناس ساكتة على كده؟..

سألتها رقية في فضول دون تعليق على حديثها:

- وكانت عايزة ايه؟

أجابت ثريا ببديهية ماكرة:

- ما اعرفش.. هو أنا ندهت له!.. قولت لها نايم ومشيتها قبل ما ينزل، والخايبة دي ليا كلام معاها.

ضحكت رقية في محاولة لتهدئتها:

- هتتكلمي معاها في إيه بس!.. دي مجرد موظفة وإيناس مش بتبص للتفاهات دي.

نظرت ثريا نحو صديقة ابنتها الحمقاء في نظرها لتجيبها بنصح واثق:

- بس الرجالة بتبص.





فركت رقية جبهتها لتنطق بذلة لسان غير محسوبة:

- بس مشكلة خالد وإيناس أكبر من التفاهة دي صدقيني.

وعندها انتفضت ثريا فوق رأس المسكينة كمن وجد ضالته لتلمع عيناها وهي تحيط بها دون أمل في الهروب:

- قولتي لي.. مشكلة إيه بقى؟!

****

يتجاهلها

منذ ما حدث لم يظهر بالفندق..

تجاهل تام..

ثقتها تخدعها أنه هروب.. وقسوته تخبرها أنه لا يبالي.

بالأمس اتخذت قراراً جنونياً..





فلتغضب زوجته ولتحصل مشكلة عله ينفجر بها ويكسر هذا التجاهل، ولكن ظهرت عجوز لا تعرفها وأنكرت وجوده..

أم ربما هو من طلب منها ذلك..

كانت تجلس بمكتبها وتنظم برنامج الحفل المنتظر دون تركيز..

تتصفح مواقع إلكترونية غير ذات أهمية وتقتل الوقت..

وفجأة انتفضت ككل..

ما بها؟..

هي لم يؤثر بها رجل من قبل..

لم تنتفض من قبل أو يغزو وجهها احمراراً وهكذا فجأة تبدل الأمر مع صوته..

بسرعة خارقة وضعت على وجهها نظارة طبية لمظهر أكثر إلتزاماً رغم تناقضه مع فتحة القميص الأحمر والحلة الرمادية





والسروال القاتل كما يطلق عليه معرض أزياءها المفضل..

طرقات الباب أوحت أنه لم يكن هو..

كانت موظفة تخبرها أنه ينتظرها بمكتبه وقبل أن تندهش وتتوجه نحو مكتبه بالفندق نبهتتها الموظفة أنه ليس هنا بل بالمكتب الآخر بالمبنى المتواضع قرب مزرعة الخيل..

حتى الآن هي لا تفهم إصراره على معاداة الرفاهية..

المبنى قديم لا يحتوي سوى على عدة غرف إحداهما له والأخرى لحسن..

كان يجلس على طاولة مكتبه ويوليها ظهره حتى عندما طرقت الباب سمح لها بالدخول دون أن يستدير وظل على زعيقه بمحادثة تليفونية مع مورد ما..

جلست على أحد المقاعد بملامح ثابته تنوى تجاهل ما حدث بالمرة السابقة..





تأكدت من ملف تنظيم الحفل الذي يود الإطلاع عليه وعبثت بأوراقه مرة تلو أخرى لتوقعه ولكن تلك المرة عن غير عمد..

زفرت لتجلس على الأرض في ضيق تلملم أوراقها ولم تدرك أنها أنهى مكالمته ويراقبها في صمت..

نظرة غامضة ولا تظهر بملامحه أية تعابير..

استقامت مسرعة لتعطيه الملف بحرفية وصمود على غير عادتها:

- اتفضل يا فندم.

كانت خائفة أن يغضب بسبب زيارتها منزله وحضًرت بضع مبررات ولكن يبدو أنه لا يعلم..

سحب هو الملف ليتأمله وعندما استأذنت لترحل أوقفها بإشارة إصبع





مغرور يتحكم بها دون اكتراث ولكن صبراً جميلاً..

هكذا منت نفسها قبل أن يسألها هو بصوت أجش قاطعاً شريط الخيالات:

- إيه فرقة إكسترا دي؟

نظرت نحو ملفها بجدية ثم أجابته:

- دي فرقة عروض فلكلور.

حرك شفتيه باستهانة:

- ده قديم ومكرر ودوشة دون داعي، عندنا عروض الخيول.

كانت ستفقد حماسها لولا أن لمعت برأسها فكرة جهنمية..

لمعت عيناها لتوافقه وتبدي حرفية مصطنعة:

- ممكن أغيرهم بأي حاجة جديدة؟..

فكر قليلاً ثم أغلق الملف وناولها إياه:





- اتصرفي.. المهم الفيلم الترويجي للفندق يتعرض أول الحفلة والمخرج ياخد لقطات حلوة منها علشان أنزلها في الإعلان.

ابتسمت بثقة عادت لها بعدما تجاهل موقفهما الأخير لتهمس بنبرة أنثوية واضحة:

- ما تقلقش هفاجأك!

وقبل أن يرفع بصره نحوها كانت قد اختفت مسرعة..

الجملة الأخيرة ستكون لها ولن تمنحه رفاهية الإعتراض.

****





الفصل الثامن

في عينيها..

أتجول في بحر اللذات

روعة.. لوعة..

نبض قلب يتخطى الآهات

في شفتيها..

الصبر جنون والخطوة مجون..

وشقيق اللعنة عقلي..

بل هي لعنات..

امرأتي تهرب مني وأنا اخترت الصمت..

في كل الأوقات..

بقلمي

مروة جمال

بقديم الزمان ظهرت أسطورة يونانية تقول

أن بداية الخلق ثلاث كائنات..

رجل وامرأة وخنثى...





خلقت الآلهة لكل واحد من تلك الكائنات رأسان وأربع أذرع وأربع سيقان ثم شطرت كل كائن منهما نصفين وبعثرت الأطراف ليتيه كل كائن بحثاً عن نصفه الآخر..

خلق الله حواء من ذراع آدم وكل آدم يبحث عن خلق ذراعه..

الزوجة عند آدم هي النسخة الأكثر رقة..

سكناه التي قدرها الله له من قبل أن يولد..

اشتهاؤها ليس متعة بقدر ما هو اكتمال

تبتعد.. وليس دلال!

بالأمس غفا متأخراً..

ببساطة اندس في فراشه بجوارها ولم ينعس، وهي ارتبكت وأعطته ظهرها لتصطنع نوم، وفضحتها تلك الرجفة





عندما أحاط خصرها بذراعيه في عناق غير مكتمل.

ما به؟!

هو لم يكن يوماً رجل في انتظار لهفة..

لم يكن بطرف مستقبل أو متسول لشبه عاطفة..

لما قرر أن يبتعد فجأة؟..

وسحقاً لما لم تقاوم؟!..

ربما لأنه كف عن طلب المتعة..

ربما لأنه يطمع في حقه من الكمال!

مرت حوالي ربع ساعة قبل أن تستشعر ثبات أنفاسه..

استغرق في النوم وبسكينة ليست من شيمه..

كانت ثابتة بل متصلبة من وقت تلك اللحظة التي وضع يده عليها..





هكذا هو..

يغيب ويغدو ليجاورها على الفراش باحتضان غير مفهوم يستغرق دقائق قبل أن يستدير تاركها أو يغط في النوم!.

الليلة بل كل ليلة كانت تسأل نفسها ماذا عليها أن تفعل؟!

تقترب بكلمة أخرى أم تتجاهل كل شيء وتكون له امرأة لتدمغ خلافهما بالفراش، تجذبه من رأسه العنيد صارخة كفى..

أم تحاوره بحكمة لا تظن أنها تمتلكها..

أم تظل هكذا بوضع انتظار ربما يستدعي فرس آخر سوى رعد ليخطفها فوقه ولن تمانع؟!

لم تدرك أنها بوسط أفكارها أزاحت ذراعه..

استدارت وشردت بملامحه..

صارحت نفسها أنها افتقدته بشدة..

وأنها ابتعدت بشدة ولا تعلم لما؟





وكأنه طرف خيط تصر هي على تعقيده من ناحية ويربط هو عقدته من الناحية الأخرى، عقدة تلو أخرى حتى تاهت البداية وضلت هي الطريق نحو لقاءه.

تنهيدتها وازت حركة إصبع فوق أحد حاجبيه، كان مستغرقاً بالنوم فبدت مطمئنة أكثر وهي تتجول بإصبعها فوق ملامحه..

تلك الليلة برحيل رعد تشعر أنها فقدت جزء منه.. جزء لا مجال أن تستعيده..

لو كان الأمر بيد الهمس لاختارت عصبة ترتديها أمام وجهه متمنية ترويضه.. ولكنها لا تجرؤ!

ارتجفت وكادت أن توقظه

ابتعدت ولكن..

فجأة توقف كل شيء حتى هي وأنفاسها وإصبعها الأحمق الذي تجول فوق شفتيه!

استيقظ ليبدو وكأنه لم يستغرق بالنوم أبداً..





كانت عيناه تتأملها بثبات يناقض طواحين الهواء داخلها..

همست بثرثرة حمقاء، تسعة عشر كلمة نطقتهم في أقل من عشر ثوان!..

لم يستوعب منهم سوى لفظ تميمة وبعدها وجدها تنتفض بهذا الثوب الكريمي الأحمق الذي يبدو وكأنه لأمها!..

- أنا هاروح أطمن على تميمة!

ابتسم بهدوء واثق وتحدث دون أن يتحرك من مكانه:

- تميمة في سابع نومة.. هتقلقيها على الفاضي.

دارت بحدقتيها في الغرفة ثم كررت نفس الجملة:

- هاروح أطمن على تميمة.

قبل أن تستدير كان قد استقام من فراشه بسرعة جعلته مواجهاً لها في لحظات..





عادت خطوتين للخلف بقدمها المجَبْرة وهمست ببطء:

- أنا كويسة.. مشيت النهارده عليها شوية..

- عارف.

أجابها بثبات وابتسامة غامضة ثم أكمل:

- مامتك قالت لي.

لوت شفتيها في ضيق لتقول بتذمر واضح:

- مامتي اللي إنت اشتكيت لها!

كانت جملة نافذة غيرت ملامحه حتى أنه خيل إليها أنها تسمع هدير غضب ليس بها طاقة على احتماله وأكدها بجملة نافذة حملت نبرة تختلف عن تلك التي كان يحادثها بها قبل ثوانٍ:

- مش أنا اللي أشتكي يا إيناس.. شكلك نسيتِ إنتِ متجوزة مين.. أو تقريبا نسيتِ إنك متجوزة!





عبارة وازاها باستدارة ليرحل.. هكذا سيتم الأمرَ!

تقذف بكلمة ويغضب ويرحل..

ويبتعد..

وتصمت!

أوقفته..

بارتجاف ربما وبتلكؤ ضعيف فوق ظهره ولكنها أوقفته..

استدار دون انفعال فتنهدت هي متابعة قبل أن يتحدث:

- أنا آسفة.. ما تزعلش.

هكذا وببساطة كررتها مغمضة العينين كطفلة ملَّت العقاب..

كررتها مع خطوة نحوه..

اقتراب غير مفهوم..





على وجنته حريق غير مفهوم..

قبلة مترددة..

وهروب سريع..

وتمتمة غير مفسرة لم يلتقط منها سوى تميمة!

الحمقاء.. الغبية.. الجبانة!

هربت!..

تنفس ببطء قبل أن يبتسم وهو يعيد رأسه إلى الوراء بثقة

خطوة واحدة وصاحبتها حواء..

ليست متعة وإنما اكتمال

****

كيف تبدو بتلك الحماقة؟!

جسدها الضئيل يتأرجح بين ضخامة مقعد، تخفي نصف وجهها تحت قبعة قبيحة





تتجاهل كل ما حولها وتسبح وحدها في ملكوت خاص..

يراقبها لأكثر من ساعة دون انقطاع ولم تنتبه!

كان أمين قد انشغل بخدمة ضيوف القارب، وإلجا تركت جسدها لضوء الشمس، وهو جلس ببقعة منزوية تراها بوضوح..

في البداية كان ينوي معها عراكاً خاصة عندما علم من رحيم مناوشتها مع صبري، ولكنه فجأة وقبل أن يتوجه إليها سكن واتخذ لنفسه مقعد مشاهدة..

في البداية كانت تبكي..

دون صوت.. دون ملامح ملتاعة..

فقط عبرات شفافة تنهمر رغماً عنها فتمسحها في ضيق كي لا يلحظها أحد.

ووسط كل هذا البكاء قررت أن تغني!





لا يسمع شيء ولا يمكن أن يفسر لحناً ولكن شفتيها تخبره أنه غناء..

شفتان خائنتان تفضح طفولة عنيدة متشبثة بقوة رجل رحل عن عالمها..

عند تلك النقطة تحديداً لم يستطع أن يقاوم فكرة أن يذهب إليها..

تخلى عن فكرة العراك ولكنه لم يقرر أي هدف ينوي بتلك المحادثة..

مشاكسة..

مناوشة..

أم ربما هي متعة افتقدها في الأيام الفائتة..

حديثها وغضبها ومعاندتها وارتباك عينيها وتورد وجنتيها بخجل من قبلة إلجا..

ابتسم لحاله بمكر قبل أن يتوجه نحوها..





خطوة ثم اثنان ثم عشرة ولم تستدر، كانت تحدق في زرقة البحر أمامها ليس تجاهلاً لشخصه هي بالفعل كانت في شرود بعيد..

منزلها.. أبيها.. أمها.. التوأمين ودناءة صبري..

ـ أنا قلقان بدل ما نرجع على الغردقة تودينا تل أبيب!

استدارت فجأة وكانت حدقتاها مضطربتان..

عيناها ليست واسعة بشكل جمالي ولكنها دائرية كتلك التي يمتلكها الأطفال..

نقطتان سوداوتان تسبحان في ضوء قمر..

الأبيض نقي والأسود صافٍ والأهداب طويلة بنعومة ساحرة

يا الله كيف لم يلحظ من قبل هذا السحر!..

تنحنح ببحة لم يقصدها:

ـ آسف أنا خضيتك.





آسف!

هذا الـ "حمزه" يعتذر!..

حقاً هو يوم غريب من البداية..

زفرت ببطء لتخرج نبرتها بدورها مبحوحة وكان يعلم أن السبب بكاء:

- حصل خير.. أنا ما سرحتش ولا حاجة خلاص إحنا قربنا.

ابتسم بشقاوة ولم يرحل.. وقف جوارها مشيراً للإتجاهات المؤشر أمامه:

- عارف!..

صمتت وتنفست ببطء ولم تجب.. صمت لدقيقة قبل أن ينطق فجأة وبدون مقدمات:

- كنتِ بتغني إيه؟.

تعلم أن ينتقي كلماته معها بدقة مستفزة ولكن الآن ما هذا!!..

استدارت نحوه في دهشة لترد مستنكرة:

- نعم!





رفع كتفيه لتتحرك شفتيه ببديهية:

ـ سألتك كنتِ بتغني إيه؟

تحركت شفتيها بسرعة..

ستنطق وتقول شيئاً ولكنها تراجعت، تجمد لسانها ثم عادت لتفكر وتنطق بحدة:

ـ ما كنتش بغني.. وبعدين أنت..

قاطعها بنبرة هادئة:

ـ لا كنتِ بتغني وقبلها كنتِ بتعيطي.. مش هاسألك كنتِ بتعيطي ليه!.. بس قوليلي كنتِ بتغني إيه؟

حدقتاها ما زالتا على نفس الوضع ويزيد هو في إغاظتها ليحصد متعة بريقهما!..

استدارت تتركه وتتنفس ببطء..

شهيق ثم زفير ثم شهيق وستهدأ وإلا ستهديه قبضة كان يستحقها صبري!..

لا تعلم ماذا أصابها فشعرت باشمئزاز عندما تذكرت هذا القميء..



اقترب منها حمزه أكثر ثم همس بجانب أذنيها بمراوغة:

ـ أنا كمان بحب محمد فوزي قوي!..

تلك المرة مع استدارتها طارت قبعتها القبيحة..

تناثرت خصلاتها حول وجهها وبأصابعها بدأت تلملم خصلة وتزيح أخرى وتبتعد بنظرها عنه بحثاً عن قبعتها الهاربة..

هو سيحرق القبعة إن استطاع وسيمنع كل قيد لتلك الخصلات المبعثرة..

أرادت أن تتخطاه فذهبت يمينه كان أمامها، تراجعت لليسار فكان أيضاً هناك.. عادت خطوة لترمقه بغضب فلم يعلق..

نظر نحوها متسائلاً في براءة:

ـ في حاجة؟!

ـ أعدي لو سمحت.





قالتها بحدة واضحة وقد نفذ صبرها منه،
كتم ضحكته ثم سألها بصوت مسالم:

ـ ليه؟

رفعت حاجبيها في دهشة لا تنوي صبراً..

ضربت كفوفها بغضب لتهاجمه:

ـ وأنت مالك!!

غابت ابتسامته المتلاعبة وضاقت حدقتاه مما أجفلها للحظة ولكنه لن يخيفها.. ابتعلت ريقها وأزاحت ذراعه بعنف كي تمر ولكنه تصلب فلم يتزحزح، بل تقدم هو نحوها فأجبرها على التراجع خطوتان..

قرب وجهه منها ثم أطلق نبرة تحذيرية بصوت خافت:

ـ أسلوبك معايا يكون أحسن من كده يا ليلى.





رفعت عينيها بوجهه في تحدٍ رافض ولكنه لم يعطها فرصة تابع بنفس النبرة:

- ومرة تانية ما تقفيش تتكلمي مع صبري لوحدك.. بتشتغلي معايا تلتزمي بقوانيني يا بنت منصور!

وكأنها ستصمت!

ستوافق وتجزع وتقول نعم..

ليست ليلى

وصلته أنفاسها الحارة قبل هجوم آخر من ثرثرتها المتمردة:

- وبنت منصور ما حدش يمشي كلامه عليها ولو على الشغل أنا بقول كفاية وأنا أقدر أتصرف لوحدي!

وبمعاندة أزاحته لترحل..

تخطته غير مبالية ودارت تبحث عن قبعتها الهاربة حتى وجدتها، ثبتتها بقسوة وعادت لعجلة القيادة..





لن تختبئ خلف حماية رجل ولن ترهب آخر..

ستكون هي مائة رجل إن تطلب الأمر.

وهو..

هو كان ضيقه بأقصاه تلك المرة

منها ومن نفسه..

ومن هذا الانجذاب الغير مفسر وغير مقبول بقاموس حمزه.

****

متكئاً على مقعده..

أغمض عينيه وحل ربطة عنقه قليلاً وترك أصابعه بين يدي خبيرة معالجة صينية..

ضغطتان هنا بجانب الإبهام وأخرى بنقر خفيف فوق باطن الكف..

حركات مدروسة أزالت كلاً من صداعه وضيقه.





الصينيات لهن جسد ضئيل وبشرة شاحبة,

لم يفكر من قبل أن يرسم امرأة صينية

فهو يراهن مجرد آلة دون مشاعر..

تؤدي عملها كماكينة حتى في حال إن

طلبها كعاهرة!

صرفها بصمت وعاد ببصره نحو النافذة

يفكر في الحمراء, تبدلت شفتيه للابتسامة

قاتمة..

لا يعلم أي تسمية تليق بها..

نعم الآن يفكر في لوحته الخالدة..

أي مسمى سيختار؟..

أيوشمها بـ كارمن

أم آخر نساء شهريار؟..

كانت هي منفردة بنفسها بشقتها

الصغيرة تجلس منذ الأمد أمام لوحة رسم!





هكذا ودون ترتيب استيقظت بليلة لتبتاع

لوحة وألوان..

وفقط..

تركتها بيضاء لتدرك أنها لن تستطيع أن

ترسم..

تنهدت ببطء واستقامت لتبحث عن فنجان

قهوتها الخامس!..

هاتفها ينبأ عن انقطاع اتصالات مراد

والغريب أنها لم تشعر بالراحة..

كان الفضول يأكلها بشأن هذا الرجل وربما

بشأن لوحاته وشغفه الذي لا تمتلكه..

بشأن نساءه

بطلات بؤس لا تعلم هل اختاروه أم اختاره..

بشأن خديجة التي أصر على عدم تكلمة

رواياتها فعاقبته برحيل..

أم ربما هربت كي لا تعلم..





كي لا تتكرر أمامها سذاجة خديجة..

وعشق خديجة..

وهروب خديجة بعد أن فشلت في قتل من تحب!

دقات الباب أرجفتها وأرجفت قهوتها لتتناثر فوق السجادة..

ولم يدرك هو أسبب الضيق في عينيها مجيئه أم فساد سجادتها الشبه أنيقة.

كانت تبدو مجهدة العينين, لا نوم.. لا نوم على الإطلاق..

ومع هذا هي جميلة بشكل خاص.. بل هي راقية بشكل خاص..

لها خصر مموج يستحق لقب راقصة بالفطرة, خصلاتها ربما مقصوصة ولكنها ساحرة بنكهة شرقية وأصابعها نحيلة.. مرتجفة..

جذب يدها بتملك ثم بدأ يضغط على كفها برقة..





هو رغم ضخامة جسده إلا أن يده ليست غليظة بل تحمل نعومة فنان..

حاولت أن تسحب أناملها ولكنها تملكه أوقفها ليردد بهدوء:

- ده مساج متخصص.. حيضيع الصداع خالص.

رفعت رأسها في معاندة:

- بس أنا ما عنديش صداع.

نظر بسخرية نحو فناجين قهوتها ثم أكمل ما يفعله دون اكتراث..

تركها أخيراً وهو يبتسم بثقة:

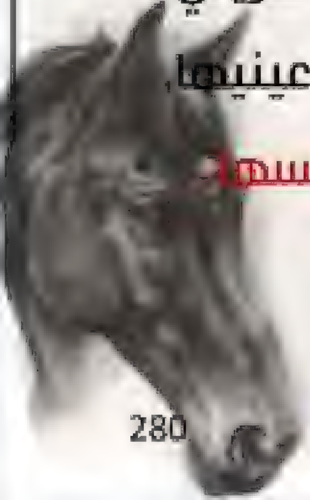
- أعتقد كده أفضل!

لم تجب..

قامت لتنشغل عنه وتصب له قهوة..

كانت ترتدي سروالاً صباحياً بلون كريمي فاتح وفوقه قميص خفيف بزرقة عينيها،

هي امرأة تعرف كيف تنتقي ملابسها.





كيف تخطو..

وكيف تشرب قهوتها لتثير رغماً عنها بداخله فتنة!

ولكن كل هذا الآن بعيداً عن دائرة اهتمامه..

حتى المرأة التي تجردت من كل شيء لأجله لم يقربها..

ببساطة ناولها ملابسها لترحل في خزي..

خزي اللحظة التي دفعت ثمنها غالياً بعد ذلك!

احتوى أناملها بكوب القهوة ليضعه جانباً ويحدثها بنبرة موزونة:

- أنا جيت يا كارمن علشان أكملك الحكاية.

استقرت فوق مقعدها بغرور لتجيبه:

- حكاية إيه؟.. أنا مش مهتمة بحكاياتك يا أستاذ مراد!





غرورها وثقتها اهتزت في لحظة عندما تبدل لتلمع عيناه ببريق غامض اجتاحه واجتاحها هو بقرب أفزعها..

ربما لم يلمسها ولكنه كان يقف مواجهاً لها في تحدٍ وهو يهمس:

ـ كدابة!.. عينيكِ بتقول العكس.

زرقاء..

يمتلك هو شراع ليبحر ويتوغل وينبش أسرار مخفية ويخرج بأجمل انفعال قد يحصل عليه رجل..

بل فنان..

لم يبالِ بجوابها وتوجه نحو النافذة..

القهوة مع سيجارة وحكاية أخرى..

بل تكملة حكاية..

وربما النهاية تختصر كل شيء!





- خديجة انتحرت..

كانت جملة نافذة أخرجت من عقلها كل تردد وأفكار ومعاندة..

ظلت ترمقه بتردد وهي تكرر وتسأل بذات الحين:

- ماتت.. علشان الصورة ولا..!

كانت مرتبكة..

الحقيقة متداخلة بعقلها ولا تفهم سر فزع الفتاة..

سر رغبتها وتنازلها وموتها..

كرر هو ببرود:

- أنا ما لمستهاش.. قلت لك عُريها كان وسيلة مش غاية!

خرجت نبرتها أكثر ظلمة:

- وسيلة لإيه؟.. أنت عارف إن القصة مش بورتريه عريان.

فرك عينيه ببطء وتنهد ثم ألصق جبهته بالنافذة ليسهب



بحالمية لا تليق:

- كل لوحة وليها قصة.. والقصة المكررة ليها رونق خاص.. الفتاة العربية بين الرغبة والقيود.. التحرر والخوف.. الجنس والعار..

- بس أنت قلت..

قاطعته ولم يعطها الفرصة فقاطعها بحدة سوداء:

- لحظة اتبدلت فيها.. الخجل بقى رعب والرغبة المترددة بقت عار.. جسمها كله اتنفض وخبت نفسها بحسرة.. صوابع صغيرة لا تخفي شيئاً..

تلجلجت كارمن وقبل أن تفكر بسؤال كان هو يحمل الجواب الأخير:

- أنا وهي وأخوها بنفس الغرفة.. ملامحها محفورة جوايا لغاية اللحظة دي.. ظهر فجأة واختفى بيها.. كنت عارف أنها النهاية وكنت عارف أنها الضحية.. كنت عارف أنها هتموت.. وكنت راضي!





كانت كارمن تجلس دون حراك وعيناها منهارة.. عبرات تتجمع دون انهمار!

ما بال هذا المثلث بين عاشق وامرأة وأخ بمكان غير مناسب وما بال الضحايا يتساقطون كورق خريف منتهية صلاحيته..

ارتجفت وعندما خلع سترته ليدفئها رفضتها:

- سيبني يا خالد!

ابتسم..

انتصار غريب يتجول فوق ملامحه، خلع سترته..

وضعها فوق كتفيها رغماً عنها..

انحنى فوق مقعدها ليحيط ذراعيها بيديه ويتملك عقلها بصوت هادئ:

- أنا خلدت خديجة بألوان.. لو كانت عايشة كانت حتموت كل ليلة بس هي ماتت مرة وعاشت للأبد..





صمت لوهلة ليترك فرصة لعقلها كي يستوعب حديثه ثم أزاد بجملته الأهم:

- ماتت وخرجت منتصرة يا كارمن.

****

ثريا سترحل..

هكذا اتخذت قرارها بعد محادثة مطولة مع ابنتها العنيدة..

ثريا سيدة عتيقة الطباع تحتفظ في دولاب مطبخها بخلطات شعبية من أجل كل شيء..

سعال وضيق ووجع عظام عبد الرحمن..

تقص بايناس عن أبيها..

تخبرها أن الزواج يخرج بعد فترة من إطار العشق ولهفة الزوج على طلة زوجته..

تخبرها عن أسنان أبيها التي لم تعد تحتمل عجينتها المقرمشة وخلطتها السحرية بوضع اللبن من أجله..





عن ألم ظهرها الذي يفاجأها بوقت الفجر لينتفض ويحضر لها درزة من المسكنات..

عن اهتمام خرج من دائرة المحاولة فأصبح عادة..

عن المنزل الذي أصبح فارغاً لعراك العواجيز وكيف أن هذا العراك يحمل لذة..

ليست كل النساء محظوظات لتشيخ بجوار من تحب!

رحلت ثريا..

تناولت إفطارها معهما بعد أن طردت رقية بقلب أم لتعود لبيتها وزوجها..

قبلت إيناس فوق وجنتها وهمست بأذن خالد ليضحك بمكر أمام حيرة زوجته.

كانت ما زالت تضغط على قدمها ببطء ولكن الطبيب سمح بالحركة من سوء حظه!..





جلست لترتشف باقي قهوتها وأخذ هو قطعة متبقية من فطائر رقية قبل أن يسألها بمراوغة:

ـ خلاص قفلتوا الفرن!

نظرت له بطرف عينيها تكتم ضحكة..

تبتسم بصدق دون أن تخفي أو تفكر فتتردد وتفسد اللحظة..

وهو..

هو أكثر راحة رغم أنها لم تنهي خطوتها التي يريد بعد..

دون وعي مدت يدها لتأخذ آخر فطيرة ووجدت أنه يريدها بدوره..

فطائر صغيرة بنكهة الموز..

ابتسمت فهي تعلم أنه يفضلها ودون وعي سحبتها لتضعها بداخل فمه..

ودون مراوغة قبل هو أناملها مع آخر قطعة..





دون أن يفكر أو يعاند أو ينتقي حسابات..

ودون ترتيب تظهر ملاكه بأسوأ أوقاتها اختياراً..

- أنا عايزة فطاير موز!

لتبتسم إيناس لصغيرتها وتهرب نحو المطبخ لجلب المزيد وهو على مقعده لا يفكر سوى بجلب رقية لتحضر له المئات إن أرادت فقط ليتناولها من يديها..

****

هي امرأة لها فلسفة خاصة.. خاصة جداً.

تؤمن أن حواء خُلقت من أجل متعة آدم، حواء وازدواجية تنادي بحرية واستقلال زائف تخلعه مع ملابسها من أجل رجل!

ولكن ورغم هذا حواء الأذكى..

هي حواء التي اتهمها الرجل في الأساطير أنها هي من أغوت آدم..





هي من اشتهت التفاحة وهي من زرعت

فكرة التمرد وحصدها آدم..

وكل جنس آدم..

كانت تراقب هاتفها بضحكة ساخرة, تعتقد

أنها ضربت رقم قياسي بعدد من مروا

عليها من آدم..

ويتهاوى هذا الرقم أمامه فمعه استنفذت

كل خططها!

هي أنثى تعشق النظرة ومن هي الأنثى التي

لا تشتهي نفسها بعين رجل..

وهو لم يخصها يوماً بتلك النظرة..

ربما يمرح.. يعاند.. يجادل ثم يقسو ويبتعد

وكأنها غير مرئية..

وهذا الصباح ظهر لدقائق معدودة

ليحادثها بجفاء وحتى دون أن ينظر, أصبحت

تنتقي الملابس لأجله وهو لا ينظر..

توحشت عيناها وهي تراقب صورته





لما لا تنتابه أمامها لحظة ضعف؟..

لما لا يرضخ دون تعقيدات؟..

ولما لا يهديها شهوة تغتنم بها كل شيء؟...

ببساطة لما لا يكون كأي آدم..

تنهدت ببطء قبل أن تحرك صورته من على هاتفها لتجري اتصال..

هو يريد حفل مختلف وهي تريده أن يراها امرأة مختلفة

أن تكون بتلك الليلة امرأة خارج نطاق المنافسة..

تكون له كما يستحق وكما هي طبيعة حواء لأجل آدم!!

****

هل من طبيعتها الخضوع؟..

يأمر آدم فترضخ حواء..





يصرخ آدم فتصمت حواء..

كان أمين يجاوره وهو يراقب البحر في ضيق..

زرقته سوداء قاتمة تتحداه كتلك العنيدة التي أبلغتهما بقرار واجب النفاذ أنها ستستقل بالعمل..

شكر وابتسامة لأمين ونظرة مستعرة من أجله!

تنهد أمين بضيق:

- زودتها يا حمزه.. شكلك شديت عليها.

نظر نحوه حمزه ولم يعقب..

للحظة ظن أن الأمر هكذا أفضل..

ولكن آدم بداخله كان يأمر

يصرخ لتصمت حواء..

كانت هي ما تزال بالقارب تراقب رحيم وتلملم باقي حاجيتها لترحل..





ربت فوق ذراع أمين قبل أن يتركه ليتوجه نحوها وهو يهمس:

ـ هحلها لك.

كانت هي قد تركت القارب لتوها..

أوقفها صدر أصبحت تحفظه، يقحم حاله بطريقها دون دعوة..

زفرت ببطء ثم قالت له بنبرة جافة:

ـ في حاجة يا كابتن حمزه؟

ـ في شغل يا كابتن ليلى!

كانت نبرته جادة وجافة مثلها تماماً..

وضعت حقيبتها فوق ظهرها وعدلت قبعتها لتجيب باقتضاب:

ـ أعتقد إحنا خلصنا كلام في الموضوع ده.

لم يدر لحديثها بالاً..





أخرج هاتفه محادثاً رقم ما وهو ينظر نحوها ويكرر:

- تحسين باشا.. لقيت لك مركب ممتاز وحالته كويسة جداً.. والقبطان على ضمانتي!

قالها بسخرية وهو يغمز لها بإحدى عينيه، فتنهدت بغيظ واستدارت تتحاشى النظر نحوه..

أكمل هو بحرفية تامة بعد أن أنهى محادثته:

- مجموعة مصرية.. ناس محترمة وهادية طالعين بأسرهم.. رحلة صيد خفيفة وحتكون بداية حلوة ليكي، ولا أنا ولا أمين طالعين معاكم، وكمان الرحلة بعد الظهر يعني ساعتين تلاتة كده وترجعوا على المغرب.

تبدلت ملامحها وبدت أكثر راحة..





لن ترفض بداية بسيطة كتلك حتى وإن كانت عن طريقه..

شكرته في إيجاز مودعة ومع خطواتها كان هو يسحب هاتفه لمكالمة أخرى واتفاق آخر..

كانت آخر كلماته طلب حار من صديقه تحسين:

ـ عايزك بس تزهقها وياريت تتوهها شوية!

ينجح آدم وتفشل حواء

وبعد أربع وعشرين ساعة كان آدم يقفز جنوناً فوق المرسى..

فحواء وقاربها اختفيا وتاهت ليلى بحق هي وضيوف تحسين!





الفصل التاسع

أشهد على عصيان..

ولن أغفر لك..

فقد تآمرت عليّ مع أعماقي..

ومنعت التجول في شوارع عمري..

وأعلنت الأحكام العرفية في شبكتي العصبية..

وها أنا أسيرتك!

أركض في دورتك الدموية مكبلة بالسلاسل..

كجدتي الملكة زنوبيا في شوراع روما..

ولن أغفر لك..

وسأعاقبك عقاباً لن تنساه

سأحبك!

غادة السمان

فطيرة سكر!

لا تصدق أن كل ما حدث بدأ مع فطيرة سكر!..





كانت قد استيقظت مبكرة كعادتها، صلَّت الفجر ونامت قليلاً ثم بدأت صباحها بمقرمشات خبز وكوب دافيء من الشاي بالحليب، عندها ظهرت فاتن من العدم مشمرة عن أكتافها لتقول بحماس:

- نفطر مع بعض يا ليلى..

ابتسمت لها ليلى وتركت ما في يدها لتساعد المرأة الطيبة، ولكن فاتن أقعدتها وتوجهت للمطبخ وحدها وهي تقول بصوتٍ عالٍ:

- خلصي الشاي براحتك.. وبعدين أنا هاعجن فطيرة وده تخصصي..

فاتن بارعة بكل ما يخص الطعام وخاصة الفطير والعيش المخبوز بعبقه القروي الشهي، هي امرأة سمينة بعض الشيء وتكن للطعام معزة خاصة وبالتحديد كل ما هو قريب للسكر حتى أنها تحلي مذاق الشاي بخمس معالق!!.





كانت ليلى تخجل أن ترفض لها دعوة أياً كانت..

شاي مسائي وثرثرة ما.. أو فطيرة فواكه مبتكرة.. خبز طازج تعده لها كشطائر قبل أن ترحل وكأنها تنقص ابنة رابعة تحمل همها..

وفي هذا الصباح أصرت فاتن على ليلى أن تنهي نصيبها بدلاً من وجبة الأطفال التي تقتاتها..

وخجلت ليلى أن تخبرها مدى حساسية معدتها لما يزيد من السكر. وغادرت ليلى بمعدة مضطربة وزادها تيه تحسين الذي أصر على تغيير الوجهة أكثر من عشر مرات ليحصل على سمك تونا أكبر!..

وبعدما تاه عنهم الطريق وبوصلتها لا تزدها إلا حيرة أصبح تحسين أربع أشخاص وكان وجه زوجته مهتزاً فقط بثوانٍ قبل أن تفقد الوعي..

إغماءتها لم تستمر كثيراً..





أحضرت مدام جيهان عطراً نفاذاً وقاس نبضها طبيب من الضيوف وعادت لوعيها مسرعة ولكنهم أصروا أن تستريح وليتوقف المركب قليلاً وأخرجوا طعامهم وبدأوا ببساطة وقت سمر..

رجال مثل تحسين بك هي لا تعرفهم ولا تقترب من أمثاله، وزوجته بمظهرها المنمق وأظارفها المقلمة بعناية لا تمثل لها سوى صورة جمعية خيرية ونادي مسائي..

ربما تحليلها ساذج مظهري ولكنها لم تختبر مع أمثالهم سواه.

النساء في حيها يضعن ربطة دائمة فوق شعورهن حتى بالمنزل، أظافر أمها تكسرت منذ الأزل والفتيات تجاربهن مع التبرج شنيعة..

ولهذا تتخلى هي عن كل مظهر يخصه..





جلست بجانبها زوجة الطبيب الذي عالجها منذ قليل وقد تحسست بشرتها باهتمام. اضطربت ليلى بعض الشيء، فابتسمت المرأة لتقول لجيهان زوجة تحسين بمكر..

ـ بشرتها دي بيدفعوا عندي دم قلبهم بالمركز علشان يطولوها!

غمزت لها جيهان بشقاوة:

ـ الطبيعي يكسب.

نظرت السيدة مرة أخرى نحو ليلى لتحادثها بحميمية:

ـ وأنتِ ليه مسترجلة كده يا ليلى؟.. حد يخبي الجمال ده!

جميلة!

لم يصرح لها الكثيرين من قبل أنها جميلة..

أمها هي أمها ستراها جميلة على الدوام..

وجدي كان يريد فتاة مكافحة وصديقاتها يقولن أنها هادئة الملامح..





ابتعلت ريقها بخجل لتردف:

- ما فيش دماغ للشكل والجمال.. المهم الشغل.

نظرت نحوها المرأة باهتمام:

- وشغل غريب على بنت!

ابتسمت مرة أخرى ولكن بلمحة حزن:

- النصيب.

قاطعت جيهان حديثهما في تسلط أنثوي غاضب:

- ما فيش شغل للرجالة وغيره للستات.. الست زي الراجل يا بتاعة التجميل!

ليهمس زوجها تحسين بتذمر بعد أن فقد الأمل في صيد ثمين واكتفى بشواء ما تحصل عليه:

- محاضرة حقوق المرأة هتبدأ.. منك لله يا حمزه!





ولحسن الحظ لم تسمعه ليلى واستقامت لكي تفكر في الطريق وتعيد المركب, ولكن كان حمزه على الساحل أسرع ووجدت على الرادار نداء من المرسى ليستعلم عن بقعتهم..

مرت حوالي ساعتين إلى أن وصلوا..

لم تكن تدرك أنهم ابتعدوا لهذا الحد وأدركت أنها تصرفت بحماقة عندما لمحت وجه حمزه المكفهر وهو يحادث أحدهم

ويربت على كتفه أن الأمر قد حُل ويودع تحسين باعتذار وحرارة..

أما هي فلم يحادثها ببساطة طلب منها أن تسير خلفه ليوصلها!

هكذا وبجملة نافذة..

زاعقة دون حق..

- تعالي ورايا!

جذبت حقيبتها لتلحقه بغضب ولكنها كانت تود سؤاله والإطمئنان..



فلم تكن تبغي مشاكل في بداية عملها مع الضابط المسؤول, سألته بنبرة عالية ليتوقف:

ـ حصل إيه؟.. الضابط قالك إيه؟

توقف للحظة ليبتسم ابتسامة خاصة هي لم ترها ثم أكمل سيره ليقول بحدة دون أن يستدير:

ـ هقولك في الطريق.

كانت معترضة على فكرة أن يوصلها ولكن تأخر الوقت لم يساعدها على الممانعة, سيارته كانت صغيرة الحجم بلون أحمر!

بالطبع سيبتاع لون أحمر هذا المتأنق زير النساء والفتيات وسمكات البحر إن أمكن!..

قطع شرودها وهو يناديها من داخل سيارته:

ـ يلا يا ستي اركبي.





فتحت باب السيارة لتجاوره بشفتين مزمومتين ويبدو أنها أغلقته بعنف فوضع يده على قلبه متأثراً ليصرخ بمزاح:

- عربيتي!!.. بالراحة هو كلكم كده؟!

نظرت نحوه باستغراب:

- كلنا ايه؟!

أجاب بمنطقية خاصة به:

- المصريات.. بترزعوا ليه باب العربية نفسي أفهم!!

رفعت حاجبيها لتنظر نحوه بعدم تصديق ولم تجبه ولكنه لم يبالِ, أكمل:

- علشان كده أنا مقاطعهم.. عربيتي الجديدة دي أنتِ أول بنت مصرية تركبها على فكرة.. شوفتي حظك بقى!

كان يحرك رأسه بفخر بدا لها بتلك اللحظة خيلاء.. بل عته..





نظرت نحوه بابتسامة صفراء وقالت بهدوء جاهدت من أجله:

- معلش يا كابتن حمزه.. احرمني من الحظ ده.

وقربت يدها نحو الباب لتفتحه ولكنه أوقف يدها ليقاطعها بنبرة شبه جادة:

- خلاص.. خلينا في المهم.

صمتت ونظرت نحو الطريق فانطلق بالسيارة ليقول بثقة شديدة:

- الضابط كان هيعملك مشكلة مع الرخصة بس فوتها علشاني وبشرط..

استدارت نحوه بفضول غير مستريح:

- شرط إيه؟

كتم ابتسامته ليقول بجدية أكثر:

- ما تطلعيش لوحدك.. ولو مش معايا.. مع حد ثقة ومحترف.





أسندت رأسها على المقعد لتكتف ذراعيها دون تعقيب، عثرة تلو أخرى أم هي من تعاند..

تنهدت ببطء فقطع صمتها بنبرة أجشة:

ـ ليلى..؟..

ـ نعم.

أجابته على الفور بنبرة شاردة تراقب الطريق، نظر نحوها ثم عاد لطريقه وغيَّر ما ينوى قوله..

كان يريد أن يعتذر لحدته عليها ولكن..

فقط لم ينطقها، بدل لهجته لسؤال آمر:

ـ قوليلي.. تهتوا ازاي؟

عندها انفجرت.. كانت كل ملامحها تتحدث..





عيناها.. وشفتاها.. ويداها.. وحاجباها لا يتوقفان عن الحركة وهي تشرح كيف أربكها تحسين بطلباته المتكررة من أجل سمكة!

كانت تبدو ممتعة بلذة, داخلها طفلة متذمرة دللها منصور وعلمها الصبر بآن واحد..

ابتسم بشقاوة قبل أن يقطب حاجبية بجدية ليلومها:

ـ وسمعتِ كلامه ليه؟

وأخرج من داخلها الطفلة وكانت عفوية.. قالت دون تفكير:

ـ ما أنا بسمع كلامك!

وعندها أوقف السيارة على جانب الطريق وقبل المنزل بخطوات معدودة ليقول لها بمكر منتصر:

ـ تسمعي كلامي أنا بس!

وأتبعها بغمزة من عينيه اليسرى



كان يعرف أنه سيغضبها وكان مستمتع بذلك..

وقبل أن تحطم رأسه قررت أن تخرج حتى دون شكراً أو إلقاء السلام وصفعت سيارته بقوة فتاة مصرية..

لتتركه متحسراً.. ضاحكاً.. وزاعقاً بأمر واجب النفاذ:

ـ نمرة تليفونك يا كابتن؟

عادت وهي تزفر دون صبر:

ـ ليه؟

نظر نحوها متصنعاً عدم الاهتمام:

ـ أكيد مش هعاكس يا كابتن.. بس لازم يكون معايا موبايلك لما يكون أمين مش موجود علشان لو في شغل، ولا خلاص استسلمتِ؟





لم تجبه فقط سحبت من يده الهاتف وسجلت نمرتها وتركته يراقب خطوتها المتسارعة نحو المنزل

يخط رسالة نصية قصيرة باستفزاز محبب..

"متنسيش تسجلي رقمي.. حمزه"

;)

ولم ينسَ أن يهديها غمزة!..

****

هناك مقولة تقول أن الحب عند الرجل أن يأخذ الكثير وعند المرأة أن تعطي بغير حساب.

كانت تجلس بشرود أمام مرآتها، شعرها مرفوع في أناقة واختارت لجيدها قلادة بلون البندق..

أغمضت عينيها غير مصدقة ما فعلته بالأمس وكيف تسللت مع رقية ليتركا المزرعة لساعة ابتاعت فيها ما تريد..



وصلت إيناس بسيارة حسن ورقية...

كانت ترتدي ثوباً هادئاً بلون كريمي راقٍ وجيد أنها ضمت بندقها خلف رأسها وإلا كان سيعاقبها بشدة على تلك الفتنة الغير مقصودة..

لا تعلم سر انقباضها!..

رغم أن الحفل يبدو على ما يرام ورغم اهتمامه هو بكل التفاصيل ورغم ورغم ورغم..





أناقة أخرى بصبغة بندقية أيضاً ولكنها لما بعد الحفل!.

كان قد سبقها ليشرف على الترتيبات..

اختار كل شيء بعناية، وبدأ عرض الخيل مبكراً فألهب حماس الضيوف..

بدا المصور متحمساً واعداً بأفضل فيلم تروجي قد ينتجه أما من استأجرته فحتى الآن مختفية!



شيء ما يزعجها ولا تعرف ماذا؟

انحنت رقية جانب أذنها لتهمس برقة:

- مالك يا أنوس.. رجعتِ في كلامك ولا ايه؟

رمقت رقية بحذر ثم نظرت بخجل نحو حسن وكأنه سيفهم مقصد زوجته..

لوت رقية شفتيها في إشارة أنه لا ولن يسمع..

ضحكت إيناس وعادت لتشغل نفسها مع بداية العرض مع عودة زوجها ليجلس إلى جوارها

كانت البداية مع عرض فيديو عن المزرعة ومميزات المنتجع الذي يقدم لمرتاديه الطبيعة والهواء النقي وخدمة امتطاء الخيل..

تلا ذلك عرض للخيول المشاركة بمسابقة الفروسية ثم نبذة قصيرة عن صاحب المكان..





نبذة مكتوبة بعناية..

وصاحبتها غير موجودة..

كان قد لاحظ اختفاء شيرين وأزعجه الأمر..

رتبت كل التفاصيل بشكل رائع ثم اختفت..

واختفت الأضواء..

تضائلت بشكل مدروس من أجل تقديم فقرة أخرى..

رداء أحمر ظهر من العدم..

خصر تفننت في تنحيفه ومؤخرة مرسومة بعناية..

ظهر عاري إلا من بعض خيوط رفيعة تشابكت بتسلسل مكرر مثير للعين..

شعر فحمي مموج وحمرة شفاة قرمزية ومرة أخرى درجات الأسود..

فوق عينيها اختارت ليلاً مرواغاً..

الرجل يختلف عن المرأة، شاء أم أبى يميل الرجل للجسد..





تخونه عيناه نحو قدٍّ وخصر ونهد..

وفي أفضل الظروف يستغفر ربه ويستدير بعد أن يقتنص نظرة أولى!

وهو رجل لا يخجل ولا يتردد..

ينظر ولا يبالي..

يستمتع بالفاكهة المعروضة ولا يشتهي تذوق!

كانت تمسك بورقة وتبتسم بثقة اكتسبتها من أعين جميع الرجال ومن عطرها الذي ربما وصل لأنفه رغم أنه على بعد أمتار يجاور جميلته..

جميلة ولكنها باهتة دون حياة ودون لهفة تليق برجل مثله..

- نورتونا...

هكذا خرج صوتها واثقاً ليقطع أفكارها بشأنه وزوجته ولو قليلاً..





رمقت ورقتها بابتسامة غامضة ثم ألقتها وقرّبت شفتيها من المايكروفون خصتها لتهمس بمكر يحمل حرارة!

- من شهرين طلب مني مستر خالد أنظم الحفلة دي.. واللي يعرف مستر خالد أكيد عارف إن طلباته أوامر.. والحقيقة اللي يشتغل مع مستر خالد لازم ينفذ أوامره عمياني وقبل ما يطلبها كمان!.

ضحكات خافتة ظهرت بين الجموع ربما عندما تذكروا قسوته بالعمل وهو لم تتأثر ملامحه فقط رفع أحد حاجبية بنظرة تحمل توعد..

وكأنها تريد شيئاً آخر, فليتوعدها ويعاقبها..

فقط يحضر وستتكفل هي بالباقي!!

زادت ابتسامتها مع تنهيدة تكفل بتوزيعها الميكروفون لتُكمل:





ـ النهاردة انا بقدم لكم فرقة جديدة..

الفرقة دي أول مرة تيجي حفل خاص شغلهم كله على مسارح ودور ثقافة..

أوعدكم بسهرة مميزة جداً جداً على شرف منتجعنا وشرف مستر خالد لأن أفكاره أوامر.

كانت جملة أخيرة بنظرة عين موازية نحوه بمعاني عدة تحتمل ألف تفسير تحت مراقبة زوجته التي كانت لتوها تفكر كيف ستبدأ معه ما أفسدوه من علاقة..

وكان هو بدوره سيغرق بأفكاره لولا انشغاله بالعرض المسرحي أمامه..

كانت فرقة مميزة بحق..

أبهرته..

قدموا عروضاً مميزة بالنيران ورقصة راقية ألهبت حماس الضيوف أسموها برقصة الأفعى..

رقصة لم تفهم منها إيناس سوى الأفعى الملتصقة لزوجها دون داع وانتفخ





هو بهرمونات ذكورية حمقاء تحت رعاية مطاردة أنثى!

....

لا ينكر أن احمرارها بجانبه زاد من نشوته..

تغار وتكابر حتى أنها حتى تلك اللحظة تحافظ على ابتسامتها..

توترها يحمل عدة انفعلات يحفظها عن ظهر قلب..

. سبابتها تنقر فوق شفتيها..

. حدقتيها تتجولان بعيداً عنه..

. وأحد خصلاتها تتمرد فتعيدها بتوتر إلى الوراء..

همس دافئ فوق كتفيها نبهها أنه يلاحظ وبابتهاج:

ـ الحفلة مش عاجباكِ؟





أغمضت عينيها لتفكر ببطء ثم استدارت بثبات مصطنع متجاهلة رائحة العطر الصارخة على الجانب الآخر:

ـ لا.. ازاي!.. ممتازة..

ثم لم تستطع أن تمنع نفسها فنظرت للأفعى بابتسامة صفراء:

ـ مجهود مميز يا مدام شيرين!

قفزت على وجهه ابتسامة جانبية قبل أن يهمس لها بتصحيح ماكر:

ـ آنسة!

لم تتخلَ هي عن ابتسامتها الباردة لترفع حاجبيها في عدم اكتراث وتستدير متابعة للحفل!!

أما الأخرى فقررت أن تأخذ خطوتها التالية وفوراً..





إضاءة خاصة وغمزة من صديقة وشد وجذب

وفي النهاية رضخت قبل أن تهديه نظرة

خاصة وعلى مرأى زوجته..

****

لماذا ترقص!

منذ البداية بل من قبل عصر الجواري

والسلاطين وهي تتقن الإغواء برقصة..

تتفنن في خطوة واثنان.. وانحناءة لتضحك

وتهمس وتنظر وتهديه متعة المشاهدة.

كانت الجواري تتهافتن للفوز بليلة من خلال

رقصة..

وتوافق الزوجة من أجل رضى السلطان..

لو خُيّر نصف رجال الأرض سيختار الرجل أن

يكون سلطاناً..

وهناك امرأة تقف على بعد أمتار ترتدي

حمرة بظهر عاري وترقص!..





ترقص كي تتوجه سلطاناً.. وملكاً بل وشهريار عصره إن أراد..

فالرقصة له.. والضحكة له.. والميل كل الميل له..

وهو ثابت لا يتحرك ولا ترتجف بوجهه ملامح..

صخرة ولكنها تشاهد..

كل تفصيلة وكل حركة كانت مسجلة بعقله وعيناه..

وعلمت وازدادت ثقة!

عرضها سخي بدأته بإلحاح مفتعل من صديقة ونهته بشبه غمزة من أجله غير مبالية بشيء سواه..

ألم يشاهد؟!

كان حسن قد أخرج نظارته الخاصة لرؤية أفضل..





وتعالى صفير موظف مشاغب من الخلف..

فركت رقية أصابعها ولكن حتى هي كانت تشاهد فالعرض كاد يكون نكهة مرة واحدة بالعمر..

أما إيناس فأغمضت عينيها..

فالمشاهدة تلك ليست ممتعة لها, هي من أجل رجل وهذا الرجل هو زوجها!

استقامت فجأة وعندها نطق بثبات:

ـ رايحة فين؟

نظرت نحوه في تحدٍ..

نعم تحدي..

ألا ترقص سكرتيرته من أجله أمام الجميع!..

لم تعقب ورحلت ليشير هو لحسن أن يقوم بإيصالها هي ورقية.

نعم تركها لتعود وحدها وبقي هو بحفل تتويجه..





وكانت الأخرى تراقب من بعيد..

رحلت زوجته وبقى هو..

وعلمت أنه ليس عليها إلا أن تتقن دور العشيقة..

الزوجة تؤلم.. والعشيقة تداوي..

الزوجة ترفض.. والعشيقة تجيب..

الزوجة تهرب.. والعشيقة تريد..

جاورته وعلى وجهها ابتسامة واثقة..

الحفل على وشك الإنتهاء ولا يجوز بعد رقصتها عرض فسيمل الجميع!

استدارت تنظر نحوه..

لا بل تلتهم ملامحه رغم أنه كان ما يزال ينظر نحو المسرح ودون تعبير..

همست بعد وقت:

- إيه رأيك؟





حينها استدار..

أهداها نظرة فسرتها كيفما تشاء خاصة عندما أكمل بنبرة قاطعة:

- اسبقيني على مكتبك!

****

عندما تغار المرأة ينطلق طوفان..

عاصفة تطيح بالأخضر واليابس فلا تتذكر أي جميل وتصبح كل أفعاله ذنوباً.

النظرة ذنب.. والكلمة كارثة..

والشرود..

"يا لطيف"

كانت تتجول بغرفتها وتود فعلياً خنقه!

يشاهد ويظن نفسه هارون الرشيد غير مبال..

يهديها العشق فوق صهوة جواد وينتفخ غروره مع عرض رخيص!..





جلست متهاوية على مقعد زينتها..

الليلة تزينت من أجله..

وضعت تبرج خفيف واختارت أن تتدثر بعبق بندق..

فكرت ألف مرة فيما ستقدمه من كلمات، خدعها خيالها بسيناريو مخالف تماماً لما يتم..

هي وحدها وهو مع امرأة أخرى تريد أن تكون له عشيقة.

****

والعشيقة كانت بغرفة عملها..

ردائها الملتصق يملؤها ثقة!..

تستند على طاولة جانبية وتراقب الباب في تحفز في انتظاره..





ورغم أنها تعلم أنه لن يستسلم بسهولة إلا أنها رتبت للأمر عدة سيناريوهات بدورها..

كان هو قد أنهى بحرفية باقي الحفل وودع الضيوف واتفق مع المصور على موعد تسليم الشريط..

ترك العمال ينهون عملهم وتوجه نحو من تنتظره قبل أن يرمق هاتفه بملامح غاضبة في رسالة صبيانية من حسن..

تخبره أن زوجته ستودع رقتها الليلة وتستمتع بتقطيع جسده على مائدة العشاء!

ورغماً عنه ابتسم..

لا يتصورها بهذا الجنون من الغيرة..

حتى مع كارمن فيما سبق كانت غيرتها هادئة لا يصاحبها انفعال.

"فلتفتعلي يا حبيبتي عراكاً ولكن امزجيه من أجلي برشفة لذة"

ولذة أخرى بدت باهتة..





واليوم كرهها..

شيرين أنثى جميلة كانت تهديه باهتمامها متعة خاصة ولكن..

اليوم تمادت وتسببت بشبه فضيحة له أمام عامليه..

موظفة ترقص لمديرها أمام الجميع بحجة واهية..

أي أحمق لم يلحظ هذا..

كانت قبضته مكورة بغضب وهو يدلف لمكتبها واضطربت هي من وجهه ولكنها قررت أن تتحامق!

ابتسمت لتقترب منه وببحة أردفت:

ـ آسفة.. غصب عني!

لم يتحرك..

كان ثابتاً يضع كلتا يديه في جيبي بنطاله، رمقها بازدراء مقصود وتحكم بنبرة صوته كي لا يتطور الأمر:





ـ وسطك بيتحرك غصب عنك!

ضيقت عينيها لتقترب أكثر ودون رادع وتلك المرة أمام شفتيه:

ـ ليك أنت بس.

عاد خطوتين إلى الوراء ليبتسم بسخرية لاذعة:

ـ ليا بس يبقى كان لازم نكون لوحدنا مش قدام الناس!

عادت ثقتها..

أي وهم أخبرها أنه غاضب..

بدت بعينيها لهفة وهي تكرر بمكر:

ـ إحنا دلوقتِ لوحدنا..

عرض مباشر من امرأة تقدم دون حساب..

والرجل نوعان إما خائف من ورطتها أو مغامر بأحد النساء!

عرض يتمثل في خطوة أولى.. وثالثة.. وخامسة..





ونقرات من أصابعها النحيلة فوق ربطة عنقه..

بل تحت ربطة عنقه..

حلّت عقدة وتسللت بخفة مدروسة لتحل زر قميصه العلوى وهناك تركت أصابعها فوق دفء تلك الكرة الصغيرة أمام حلقه..

وكان يتنفس..

وبسرعة..

لحظة تخونه فيها قواه..

كان شبه مشلول وهي تجذب يده كي تلتف حول خصرها وتستقر هناك
فوق آخر خيوط الرداء العاري علّه يحلها وترتاح!

فجأة عاد للوراء..

خطوة.. واثنان.. وخمسة..

ابتسمت بثقة عندما ظنت أنه سيتم إغلاق الباب ولكن..





رفع بصره نحوها ليهدر دون صوت..

مجرد أنفاس سريعة توحي بطوفان غضب

هي لم تختبر منه شيئاً..

وفجأة انفجر بصوت لا يبالي:

ـ اطلعي برة!

كانت تتمتم.. تتسائل..

بها صدمة وشبه ثقة فقدتها:

ـ إيه!

رفع عينيه نحوها ليستعر بنبرة أقسى:

ـ اخرجي برة.. ما شوفش وشك هنا تاني.

توحشت عيناها..

بدت أخرى كأنثى ضبع تتأهب لهجوم..

صرخت ببحة:

ـ أنت بتهزر صح!.. بعد كل اللي عملته وعايزة اعمله علشانك؟!





اتسعت حدقتاه لينفجر على مداه:

ـ أنتِ صدقتِ نفسك!!

ـ أنا بحبك وأنت عارف.

كانت هي تصرخ أكثر.. تتحداه وليعلم الجميع

توترت ملامحه ليقترب منها ويجذبها من ذراعها بقسوة تركت آثار أصابع على بشرتها، همس محذراً:

ـ ما تتحدنيش يا شيرين.. مش خالد رضوان اللي هتضحك عليه واحدة زيك.

رفرفت أهدابها بتوسل وهي تستدير له دون مقاومة:

ـ أنا مش طالبة أكثر من أكون ليك حتى لو في الظل!

عشيقة..

تعلنها بوضوح بعد أن سئمت من التلميح..





تجولت عيناه فوقها وهو يفكر في الأمر الذي تطور دون أن يحكم خيوطه..

لا أنثى تقترب سوى بإذنه..

وكارمن من قبل جذبها وصرفها بإرادته ولم تنل من بعده سوى الضياع

ولكن تلك..

فاجرة

هكذا همس لنفسه قبل أن يهديها استهزاء..

ـ هه..

قالها بازدراء..

ترك ذراعها ليزيحها بعيداً عنه فاصطدمت بحافة مكتبها ولم يشفع لها تأوهها المصطنع فتم كلماته:

ـ ما شوفش وشك تاني

ورحل..





بنواقيس غضب تدق عقله ويود أن يقتلها..

فقد تهاون ولم يظن أن فجورها سيقوده لتلك مواجهة وخاصة أن مقدمتها كانت أمام زوجته.

****

لا تصدق أنها فعلياً كانت تحصي الوقت..

ثوانٍ.. دقائق.

هو غائب لأكثر من خمسة وثلاثون دقيقة..

وهي في الدقيقة الخامسة والعشرون توقفت عن مراقبة النافذة وظلت مرابضة لمقعدها متخذة قناع أنها لا تبالي..

لم تكن تعلم أن فوق أنفها احمراراً وأن عينيها بها جحوظ خفيف ينبئ عن غضب.. شعاع عسل بعيداً تلك الليلة عن مغازلته..

إحساس قاتل هذا الذي تختبره..





كانت فعلياً تشعر بنيران تأكل صدرها وقلبها وعقلها في آن واحد وهي تتخيل إنفراده بتلك المرأة..

تقترب.. يتغاضى

سيبتعد..

سيقترب..

ستفقد هي عقلها لا محالة..

وجملة توعدية لأنثى شرقية خالصة..

"صبرك عليا يا خالد"

وتحرك الباب ببطء لينبئ عن مجيئه..

كان وجهه عابساً وكأنها إشارة لها كي لا تنطق!

توجه ببطء لخزانة الملابس يخلع سترته ثم ربطة عنقه والكارثة على وجهه شرود..

شرود رجل.. وغيرة امرأة..

"يا لطيف"





انفجرت فجأة وبنبرة رفيعة صارخة:

ـ أنت بتعمل ايه؟!

نظر نحوها ليوازي عبوسه بدهشة:

ـ بغير هدومي..

لوت شفتيها في استهزاء لتصرفه بجنون تلبسها الليلة دون سواها:

ـ اتفضل ارجع للهانم اللي كنت معاها.

عندها ترك ربطة عنقه لتسقط أرضاً ولم يبالِ بتبديل باقي ملابسه ليتوجه نحوها هامساً بغضب مستعر:

ـ في إيه يا إيناس؟!.. وأنا من إمتى بكون مع هوانم!

ابتعدت عنه ورغماً عنها كانت تتعثر في ثوبها الطويل الذي لم تخلعه بدورها..

فقط تخلصت من الحذاء وبقيت رابضة تنتظره..





تنفست ببطء قبل أن تجيبه بنبرة لا تقل غضباً:

ـ من ساعة ما وافقت على المهزلة اللي حصلت من شوية.. ومهزلة ليه!.. واضح إنها كانت عاجباك.

لم يسمح لها بالإبتعاد..

ضغط بطرف حذاءه فوق ذيل فستانها فمنعها من التحرك ليهمس بتنمر لائم:

ـ مين دي اللي كانت عاجباني؟

جذبت ذيل فستانها بعنف وقد ارتجفت عيناها لتستدير بانفعال:

ـ لو كرامة مراتك تهمك كنت وقفتها عند حدها مش تقعد تكمل فرجة..

عند تلك اللحظة تحديداً تجولت فوق شفتيه ابتسامة أثارت جنونها وهو يكرر:

ـ أعتقد مش أنا لوحدي اللي... اتفرجت..

تحركت شفتيها ولكنها لم تنطق..





تفكر بسيء وأسوء وموجع وانتقام..

ردّت بعد تفكير:

ـ بس أنت اللي شجعتها..

عندها تبدلت ملامحه..

غابت الابتسامة اللعوب التي كانت تود مناوشتها، اقترب ليسألها بجدية:

ـ أنتِ شايفة إن أنا السبب؟!

استدارت تتحاشاه لتُكمل بمعاندة:

ـ أيوة أنت السبب..

اقترب منها وكان أكثر هدوءً حتى أن أصابعه بدأت تتجول على ذراعيها ببطء.. يحايلها بطريقة خاصة ترضيه..

أزاحت يده لتبتعد وتهاجمه بقسوة:

ـ إيه فقرة هارون الرشيد خلصت هناك وحنكملها هنا!

ضاقت عيناه وعندها هاجمها بدوره:





- إحنا فقرتنا صامتة.. وبقالها كتير يا مدام..

حركت فمها باستهزاء:

- وأنت معذور لأي بديل.. بلاش نستبدلها بفقرة غيرة لإني مش هغير يا خالد..

جرحته رغم أنها لم تكن تقصد وكان يعلم، تنفس بقسوة:

- منها مستحيل.. لكن مباح إنك تغيري عليا..

ابتعدت عنه لتتوجه نحو النافذة ودون وعي كررت بإصرار:

- أنا مش بغير يا خالد ومش هغير.. فرّق بين ده وبين كرامتي..

عندها انفجر.. فعليا انطلق طوفان..

غضب.. حرارة.. صبر وجب نفاذه..

أم صمت وجب قطعه..



وبرغم هذا لم تكن نبرته عالية ولكنها كانت موجعة:

- الموضوع كله أنتِ يا إيناس.. أنتِ ما استحملتيش غضبي وقت موت رعد.. ما استحملتيش موت رعد فقررتِ تصبري نفسك بأسوأ جملة ممكن تختاريها والمفروض إن ده علشاني.. وقررتِ بعدها تعاقبيني يا إيناس..

بتعاقبيني علشان بعدت.. فقررتِ تبعدي..

سكتت فقررتِ.. تسكتي..

عاد للوراء..

يبتعد وينظر لعينيها اللاتين استداراتا نحوه في هلع..

فزع من طوفان آخر لا تود أن تعمل له حساباً..

هدر بقسوة:

- صمتك لغة.. وصمتي لعنة..





صمتك وفاء.. وصمتي خيانة..

صمتك حنان.. وصمتي قسوة..

صمتك حكمة.. وصمتي حماقة..

تنفس ببطء..

أما هي فكانت بلا أنفاس تراقب صندوقه المفتوح أمامها ولأول مرة..

بنبرة أخيرة قال وبشبه بحة:

- ببساطة مش من حقي.. لا أغضب, ولا أحزن, ولا أطالبك بحاجة ولا حتى أخون لانك يا إيناس ضحيت واتجوزتيني وده كفاية قوي!..

وهكذا

انفجر طوفانه الأخير وخرج..

****

جلست مكانها ولكن على الأرض..

هل أخرجت الوحش أم أغضبت الطفل!؟



لم تواجه الأمر من قبل على هذا النحو رغم أنه كان محقاً..

كانت تواسي نفسها وليس هو..

وقتما ذكرت شريف كانت تصبر حالها لفقدان رعد ففقدته هو..

لم تدرك أنها بدأت تبكي إلا عندما استمعت للنشيج..

وتلك المرة لم تكن تبكي لحالها بل تبكي لأنه يتألم..

ألمه يقتلها ويبدو أنه لا يعلم..

لا يعلم كيف انتفضت لدمائه أول مرة عندما هاجمه الأشقياء رغم أنها لم تكن عشقته بعد..

عندما صرخ بكارمن فأيقظها الطفل بداخله كي تنتبه!

عندما انطلقت رصاصة كانت ستخطفه منها





ارتعشت..

تفقد خالد الآن وأكثر مما تتصور!..

وتحبه أكثر مما تتصور..

وابتسمت..

وتذكرت رعد.. العصبة..

هو.. وجنونه فوق صهوته أعمى مثله..

فقط ليخبرها أنه يعلم..

ووقتها هربت..

ولكن الليلة لن تهرب..

ولن تسمح له أن يغضب وأن يبتعد وأن يصمت وسحقاً يتقن دور الضحية!

توجهت بخطوات ثابتة.. خلعت ثوب واستبدلته بآخر..

رتبت خصلاتها, لا.. ستنثرها.. اختارت عطره المفضل..





تحركت أناملها برقة فوق رقبتها.. فوق صدرها.. فوق الجرح.

تنهدت ببطء ورمقت الإضاءة الخافتة من النافذة...

هناك بمنفاه الإختياري..

ربما لم يعد ينتظرها..

ربما هو غاضب ليشتاق..

ولكنها ستذهب..

****

جسدها خريطة..

نعم المرأة جسدها خريطة وهي وحدها من تقرر الطريق..

كما قررت طريق يديه فوق ظهرها من ساعة ورفض!

كانت تلقي بملابسها بعبث داخل حقيبة لترحل..

أهكذا سينتهي الأمر؟..





ترحل وحتى قبل أن تنتهي منه وينتهي منها!

يعطيها بادرة رغبة تطفيء جموحها نحوه..

ألم يحتجزها مرة بين ذراعيه؟..

ألم ينظر نحو تلميحاتها بمكر؟

ألم يراقب رقصتها له بشغف؟!

قال بلؤك..

"يستطيع الرجل أن يجمع بين حب ثلاث نساء.. فهناك امرأة يحبها.. وامرأة يعبث معها.. وامرأة يشكو إليها"

وهي عرضت بوضوح دور العابثة..

ورفض.

تنفست.. ببطء..

بل توعدت..

وتأملت بآخر لحظة ضعف حدثت منذ قليل..

وقررت أن تكون أو لا تكون





و..

توجهت بخطوات ثابتة.. خلعت ثوب واستبدلته بآخر..

ثوبها أشبه بمئزر جاهز للإنزلاق..

عطرها نبيذي اللون..

خصلاتها منثورة..

وزينت شفتيها بحمرة أخرى..

ربما هو ليس بمنزله..

ربما بمعزله الأنيق وربما تعارك مع زوجته بسببها..

خرجت دون خطة معينة..

فقط خطوات تتوجه نحو عزلته وتأمل وجوده!!

****

يحترق..

لا يحبذ هذا النوع من الإحتراق ولكنه لم





يجد بُدّاً من لفافة تبغ يحرقها ويحترق معها..

ممدداً فوق فراشه يفكر بكل شيء ولا شيء..

يشتاق ويريد وغاضبٌ وقاسي ومجروح..

زفر بعمق يود اخراج كل حدث بتلك الليلة من رأسه

فقط يود العودة للصباح وفطائر الموز وقُبلتها

ولكن لا سبيل...

وعلى بابه بدأت طرقات..

نبضات أنثوية متقطعة..

أنامل رفيعة..

وهمس صامت ينطق..

"خالد"





الفصل العاشر

هل تسمعين أشواقي

عندما أكونُ صامتاً؟

إنَّ الصمتَ، يا سيِّدتي..

هو أقوى أسلحتي..

أفضل أن تصمتِ وأنت في مملكتي..

فالصمت أقوى تعبيراً من النطق

وأفضل من الكلام الهمس

نزار قباني

نقرات أصابعها مترددة فوق الباب الخشبي..

ستبدأ وستحاور وستقول وستلوم وستبرر..

...9





تعشق...

وتوقف كل شيء مع انفراجة باب..

وهو..

اليوم تصمت وتتأمله من جديد..

تغوص بملامحه وتعبير عينيه الذي لا يهدأ..

يتجبر ويستكين..

يغضب ويهدأ..

ويعاقب ويعشق..

تنفست ببطء وخانتها شفتيها..

للحديث.. ولا حوار عقلاني كان أم جامح!..

لا شيء سوى أنها كادت تفعل الشيء

الوحيد الذي تجيده

تصمت وتبكي..

ولكن...

القبلة هي الرسائل السرية التي تعجز عن

استقبالها الأذن..





هي خديعة الطبيعة كي نمارس توقف لذيذ للكلمات

هي ناقوس الشغف.

"إنجريد برجمان"

فاز الفرنسيون بالقبلات، والإنجليز بالكلمات

وهو لا يبالي سوى بشفتيها..

كانت ترتدي زرقة كما يعشق..

النسيج مع خصلاتها بهي ويقتله فوق جسد.

مترددة؟؟..

فتحملي الصمت إذاً!

جذبها وأخرسها ولا يطلب عقاب بل هو مشتاق..

وخالد يشتاق بتملك فيجذب خصر ويثبت رأس ويحتكر أنفاس، ولولا الهواء ما قدر لها ابتعاد..



ووجنتيها تتخضبان بحمرة فهي امرأة خجول..

فابتسم بمكر وأفكاره تخبره بتغير طفيف في نكهة البندق خاصته فقد أصبحت ممزوجة بشوكولاة!

رفع ذقنها نحوه وتأملها..

كان وقت ينتظره أن تتحدث أو ليتها تبتكر..

تنفست هي ببطء وتحسست شفتيها فبدأ هو بمزاح لا تعتاده كثيراً:

ـ شوكولاة؟!

اتسعت حدقيتها ورفعت عينيها نحوه في استحياء تكتم بدورها ابتسامة ثم رضي عنها صوتها أخيراً وخرج:

ـ كنت متضايقة..

قالتها وهي تتذكر وتقطب حاجبيها..





سمعت صوت أنفاسه وكأنه يلومها ونفسه..

اقتربت منه لترفع ذراعيها محيطه برقبته ثم تابعت بمكر:

ـ أنت مش بتحب الشوكولاة

رفع أحد حاجبيه بجدية وازت تحكمه هو بخصرها:

ـ والحل؟

توقفت قليلاً وكانت تفكر بمتعة له, ثم رفعت بصرها مرة أخرى لتشب فوق قدميها وتقترب منه أكثر مجيبة بسخرية محببة:

ـ معلش هتضطر تضحي!

وعندها رسمت هي وجه القُبلة

وهاي هي تبتكر...

****





سيارتها تقبع في الظلام وتشاهد الحمقاء تخطو خطوة وتعود اثنان كي تصل لزوجها..

ضربت المقود بغضب لتلوم تأخيرها على أفضل فرصة كانت ستنالها حتماً.. وغدت سارحة في تخيلات مستحيلة..

تضم جسدها في فراشه بينما تفاجآهما زوجته.

وهكذا تنتهي الرواية..

هي وحيدة تتحسر، وهو يمارس دور شمشون بالداخل ومع حمقاءه يتجبر!

تنهدت بغيظ..

بل كيد ومرت أكثر من عشر دقائق بلا أفكار حتى لمعت عيناها بمساعدة شيطان..

محظوظة هي بإبليس نشيط!!

****





كانت بين ذراعيه ولم يعد يبالي أو يفكر بشيء سوى أنه يفتقدها وبشدة..

طرق باب مريب أجفلها وأثار غضبه..

استدار وهو يتصور أن حماقة حسن جاءت به في وقت يُحل قتله..

أم ربما تميمة تسللت وحدها..

كان يُعدل قميصه وطلب من إيناس أن تُعدل من فستانها هي الأخرى وبينما ترفع هي كتف الفستان وتبتعد عن نظر الباب لمحت..

وليتها ما..

قدم امرأة تخطو..

ورداء صمم كمئزر..

وخصلات فحمية.. ونظرة ناعسة..

وخطوة نحوه صلبته وهمس مغوي واعتذار:

ـ أنا آسفة يا حبيبي!





وقبل أن يستوعب قبلته..

وأمام زوجته!

كانت ايناس تسمع صوت أنفاسها في أذنيها وتراقب خيال مزعج..

بل مؤلم..

شفتي امرأة فوق ثغره..

وذهول.. ودفعة.. وصمت.. وتحدي..

وصفعة!..

واستوعب فتوقف قلبه ونظر نحوها..

حدثت كارثة..

وبعينيها بكاء....

بسببه..

تنفس بسرعة ولأول مرة يغيب قرار..

أيمارس عنفوانه ليضرب امرأة حتى تسيل منها دماء؟..





أم يذهب إليها ويحتضنها؟؟

كانت شيرين منزوية بركن وتراقب نظرته المتحسرة نحو زوجته..

أشبعتها شماتة وابتسمت بانتصار..

لا تبالي وغالباً ستتعثر زوجته هاربة وهي ستظل ولن ترحل..

أغمضت إيناس عينيها ولكن لتمنع عبرات..

لن تبكي..

لن تبكي..

استقامت لتقف..

وكانت عيناه تقول لا..

وخطواتها بطيئة ولكن بها تصميم..

لم تنظر نحو الأخرى فالعهر لا يستحق انتباه..

توجهت نحوه وبدت كأنها ستتخطاه..

ولكن..





فجأة توقفت لتواجهه..

ترمقه ولا ترمش..

تتأمله.. تتنفسه..

تغار وتود أن تنبش إن استطاعت..

لا ليست غيرة فهذا شعور أسوأ وبمراحل..

وشفتيه ملوثة!

كبحت نفسها وغضبها واستدارت له

لتتحرك خطوتين وتصبح في مواجهته..

ومدت يده لجيب بنطاله وأخرجت منديلاً..

وتفرك بقسوة وتمسح تخضب حمرة لا تليق

به..

تطهر شفتيه!

كانت شيرين تراقب ما يحدث مذهولة..

هي ثابتة وهو بالمثل..





وكأنه طفل يُترك لأمه إصلاح ما لوثه..

ومتى انسحبت؟..

لا يعلم.. ولا يهتم..

كانت إيناس ترتجف.. وشفتيه بدأتا تؤلمه ولكنه لم يوقفها..

تركها حتى تصلبت يداها فاحتواها ببطء..

أنزلها وسحب المنديل ليرميه جانباً ثم قربها منه..

في البداية لم يقبلها فقط جذبها ليضع جبهتها فوق أنفه..

كان يتنفسها لتهدأ, لكنه لم يكن يدرك أنه يتسول الراحة ربما أكثر منها..

كانت ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها ولكن لن تبكي..





لن يهاجمها ضعف لا يتحمله كبرياء أنثى

بتلك اللحظة

وهي ملكة الكبرياء..

تجاهد ضد قبضتيه اللتين تحكتما بخصرها..

ابتعدت عنه..

دفعته..

رمقت.. برقت.. صرخت..

وجذبها لينطق بعينيه ولسانه معاً:

- مش هينفع

وقبل أن تفكر جذبها بقبلة..

قبلته هو فقط.. هي الطرف المتذمر..

الرافض..

المتألم..

ولكن لا سبيل..

لا مجال..





ووقتها انفجر الطوفان وأصبحت قبلتها مالحة المذاق، ابتعد وقد طوق رأسها بيده.. عبس ليلوم:

- ما تعيطيش!

لوم وغضب وبكاء لا تستحقه مكيدة حثالة..

هكذا يكرر وهكذا يؤمن..

وهكذا سيحذف ببراعة رجل تلك الحظات ليبتعد ويغلق بابه بمفتاح ويخلع قميصه ولينتهي الأمر..

****

لا يعلم هل هي الثامنة صباحاً أم السابعة؟؟..

ولكنه يعلم أنها استيقظت قبله ورحلت..

تأمل مكانها الفارغ على الفراش.





ليتها ظلت واستكانت فوق صدره، ألم تستكين بالأمس!

ارتدى ملابسه على عجالة وهو يزمجر كأسوأ خيوله..

إنها العاشرة ولا يعرف كيف استغرق في النوم لهذا الحد!

كانت تميمة قد رحلت مبكراً لمدرستها وتأمل المنزل والمطبخ نظيفاً دونها..

فرك جبهته ليفكر أين ذهبت..

ولمعت عيناه بقسوة عندما تصور رحيلها غاضبة فبدأ يتوعد بعقاب.

لم يكن الوقت في صالحه فلديه عمل كثير وخاصة أن المومس المتنكرة رحلت دون ترتيب..

زفر بضيق وقرر أن يأخذ حماماً ساخناً ويتوجه بالبداية للإسطبلات..

كان العمال في حركة ونشاط..



أخيراً يدركون مهامهم دون توبيخ..

كان يتوجه مسرعاً لمقر خيول السباق عندما أوقفه دسوقي:

ـ يا بشمهندس خالد.. يا بشمهندس..

توقف وهو يعبث بهاتفه ليجيب مسرعاً وبمزاج سيء:

ـ خير يا دسوقي؟

ابتلع دسوقي ريقه ثم نطق بصوته الغليظ:

ـ الدكتورة هنا من الصبح وهي دلوقتِ في بلوك 5 عند عنتر!

هز رأسه في غير استيعاب:

ـ دكتورة!.. دكتورة مين؟

بهتت ملامح دسوقي وشعر بالحيرة قبل أن يجيب بتردد:

ـ دكــ... دكتورة إيناس..





لا يعلم هل مرت دقيقتان أم ثلاث وهو بمكانه دون حراك حتى هرب السائس العجوز من أمامه..

الباقي لم يحتاج لجهد..

ظهرت صباحاً وصرفت الطبيب المتابع للمزرعة بعنترية لتتسلم زمام الأمور..

ضم قبضتيه وتوحشت عيناه بغيظ وهو يدرك تسللها من جانب غفوته لتنفرد بصنع قرارات..

كانت تقف في غرفة الجواد وبجانبها سائس شاب..

ترتدي سترة بنية خفيفة فوق قميص أبيض وسروال بندقي!

بندقي في أول يوم عمل!

بندقي يا إيناس!!





عقله يصرخ ولكن فقط ليزعجه هو..

هي ترفع خصلات شعرها بنظارة عسلية وتوجه الأوامر للسائس وهي تفحص الحصان بحرفية تامة..

وكأن ليس لها ست سنوات على ترك العمل..

- روح أنت دلوقت يا علي.

كانت نبرته ثابتة وهو يوجه أمر واجب النفاذ للسائس الصغير..

تحرك الشاب مسرعاً على الفور..

أما هي فتحركت حول الجواد وأكملت عدة ملاحظات تكتبها..

تصور أنها ستخرج هاربة متحاشية حديثه ولكنها توجهت نحوه بأسرار عسكرية نسائية!!

كانت نضرة بشكل لا يوصف..





وعيناها تقطر عسلاً ذاب من ضوء الشمس المتسلل من النافذة..

لون نظارتها الشمسية يعطي تناغماً مربكاً مع خصلات البندق..

وفوق جيدها وضعت قلادة بتميمة زرقاء.

كان يتنفس ببطء وغضب وشغف..

رفعت بصرها لتنطق بعملية تامة:

ـ الدكتور يوسف ده كان مبهدل الدنيا خالص.. عنتر راحة يومين وميطلعش سبق الأسبوع الجاي، ده لو عايز تحافظ على رجله.

رفع أحد حاجبيه يتأملها في سخرية ممزوجة بدهشة فأكملت دون اكتراث:

ـ عندي خمس أدوية ناقصة وأربعة قربوا يخلصوا وكلهم مهمين.. كمان بلوكات 12 و 8 و6 في الاسطبل التاني السايس عماد مهمل فيهم، دسوقي يشد عليه.

لا يعلم ما الذي لجمه!..





يراقبها صامتاً حتى تنتهي..

تخطته دون أن تزيد وكأنها انتهت ولكنها فجأة استدارت لتتابع:

ـ آه صحيح.. الفرسة عبلة ما تتعشرش دلوقتِ استنى شهرين!.

رفع كلا حاجبيه وأكمل دهشته وحده فهي كانت قد استقلت سيارة رباعية لتتوجه بها نحو العيادة وهو ترك العنان لصوت جهوري وصل حدود العاصمة وهو يزعق:

ـ دسوقي...

****

ابتسمت فاتن وهي تسحب ليلى من المتجر وتضحك:

ـ كفاية يا ليلى كده الشنطة حتتقل عليكِ.

رمقت ليلى الألعاب التي ابتاعتها للتوأمين..





لقد بذرت بعض النقود ولكن تلك هي أول أجازة منذ ابتعدت..

تشتاق لهم.. تشتاق لهم كثيراً..

لم تتصور أن الاشتياق قد يشمل مقدمة أنف وجبهة تستعرض عند الغضب وصوت باكي..

ولكن مع الأطفال لا حسابات.

تنهدت لتجيب فاتن بابتسامة راضية:

ـ الشنطة من التاكسي للباص.

عدلت فاتن من حجابها وهي تجيبها ببساطة:

ـ أنا ما حجزتش الباص يا ليلى!

توقفت ليلى فجأة بعيون مصدومة لتجيب بنبرة حزينة:

ـ ليه؟ مش هالحق أسافر بكرة!

ابتسمت فاتن مستدركة:





ـ لا يا حبيبتي.. الحكاية إن في سواق طيب عنده عربية ميكروباص نضيفة ومكيفة بيطلع كل يومين ثلاثة، وبيوصل كل زمايلنا وهو طالع بكرة ومعاده أحسن من الباص بكتير.

تنهدت ليلى براحة:

ـ الحمد لله تمام.. اتخضيت.

تأملتها فاتن:

ـ وحشوكي للدرجة دي؟

تبدلت ملامح ليلى لحنين يختص بطفلة وهي تجيب:

ـ قوي.. قوي.. قوي..

****

كانت سيارة عوض السائق ميكروباص بيضاء..

ليست جديدة ولكنها كانت تبدو بحالة جيدة ومكيفة كما أخبرتها فاتن رغم أن



كل همها بتلك اللحظة هو الوصول لأسرتها وبأي شكل..

كانت هي أول من يصل..

استقبلها السائق بابتسامة ووضع حقيبتها في مكان مخصص وبدأ الركاب يتوافدون، وبدا أغلبهم من عاملين الفنادق واستراحت لأنها لم تكن الفتاة الوحيدة فقد حضرت فتاتان بثياب رسمية واتخذتا المقعد الأخير سوياً في حديث بدا غير منتهي..

كانت هي تجلس في المقعد الواسع خلف السائق وخلفها جلس شابان بدا من حديثهما أنهما يعملان بأحد البازارات، وجاء ثالث جاورهما وشاركهما بالحديث..

كان السائق قد بدأ يتجهز للحركة ويمسك الهاتف وعندها ظهرت فتاة ثالثة ترتدي شورت قصير من خامة الجينز وبلوزة قطنية برسومات مطبوعة وحذاء رياضي فاتح.. لها خصلات قصيرة مجعدة بشكل صناعي وملونة أيضاً بدرجات بنية..





لم ترتح ليلى لهيئتها وتمنت أنها لا تجاورها، وبالفعل تخطتها الفتاة لتجاور البنات بالمؤخرة وتزعق بالسائق بنبرة مزعجة:

ـ ناقص واحد يا عوض.. أهم واحد!

قالتها وضحكت بشدة لتضحك الفتاتان بدورهما ويغمز أحد الشباب مناوشها:

ـ هنبدأ مشاكل من أولها!!

لم ينهِ الشاب كلمته حتى لمحته!..

كان يرتدي قميصاً مقلماً بلون أزرق فاتح وسروالاً فاتحاً من الجينز ويتحدث بالهاتف رافعاً حقيبة صغيرة فوق ظهره..

قذف الحقيبة لعوض ونطق بغرور قبل أن ينطق المسكين:

ـ أنا أتأخر براحتي!





عندها توقف بدهشة مصطنعة وهو يرمقها بالسيارة ليبتسم مع هزة رأس ساخرة وهو يحادثها:

- القبطان ليلى حجز لي مكان جنبه.. أنا محظوظ!!

فتحت فاهها غاضبة خاصة مع استدارة الجميع لها وخاصة الفتاة بالخصلات المصطنعة..

استدارت كاتمة غضبها مراقبة للنافذة وإن أغمضت عينيها فلن تغمض أنفها عن عطره الرياضي الصارخ بجانبها..

وكأنه استحمام صباحي بزجاجة!!

تحركت السيارة وبدت مسرعة من البداية..

سمعت صوته يخاطب السائق بصوت عال:

- بالراحة يا عوض.. مش كل مرة أتوب وأنا معاك!





ضحك الجميع وهمس هو فوق كتفها مكملاً:

- ما تخافيش.. هو بيخبط بس, لكن ما اتقلبناش قبل كده!

تنفست ببطء وودت أن تتعلم العد لمائة كي تكبح لسانها ولا ترد عليه..

استدارت بابتسامة باهتة تقول..

اصمت..

وعادت لمراقبة الطريق..

بعد ساعتين كانت الشمس قد بدأت في التعبير عن حضورها وبحرارة..

الجمع بدأ يتفرق بين شارد ونائم..

أسندت هي ظهرها على النافذة تراقب الطريق فعندما جاءت كانت شاردة في ذكرى منصور والظلام الذي حلّ..

ظلام الطريق وظلام رحيله..





لا تعلم أي وقت استمر شرودها وتوقفت هي عن حساب الكيلومترات..

بل كادت أن تغمض عينيها حتى حدثت انحرافة قوية أفزعتهم جميعاً, وصرخت البنات..

ولولا ذراع حمزه التي حاوطتها ربما لأرتطم رأسها بقسوة بالنافذة..

بلطف من القدير استطاع عوض أن يتحكم بانحراف السيارة وأوقفها على جانب الطريق..

وغادرت هي شرود فزعتها مع الحديث والصراخ والحركة لتوقن أنها فعلياً بين ذراعيه!

رفعت رأسها فجأة لتدفعه وتبتعد ملتصقة بالنافذة من جديد تراقب من حولهما في خجل ولكن بدا أن لا أحد ينتبه, نظر هو نحوها بتدقيق:





ـ أنتِ كويسة؟

أومأت بغضب.. نعم..

وفهمت أنه كان يود حمايتها ولكنها كانت غاضبة أنه ظل على نهجه حتى بعد توقف السيارة..

بدأ الجميع بالنزول بعد أن اتضح أن السيارة دهست شيئاً ما أفسد إطارين..

وحمداً لله أنها لم تنقلب..

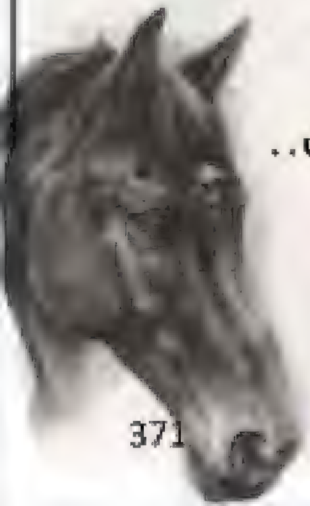
ظلت تنظر هي في حيرة حتى سبقها هو وقال:

ـ انزلي يا ليلى.

كانوا في الصحراء وهواء البحر ما زال حاضراً..

قام شابان بتولي تبديل إطار ورفع عوض الثاني فوق ظهره باحثاً عن مواصلة لأقرب مكان إصلاح..

بدا جلياً أن الأمر سيأخذ وقت..





كانت هناك بضعة صخور متفرقة جلس عليها البعض وفتاة آثرت البقاء بالسيارة.. لم تستطع هي أن تتحمل حرارة السيارة فاختارت صخرة وجلست فوقها تتنفس بعض الهواء..

كانت لم تضع شيئاً بمعدتها فهي لا تحبذ الطعام مع السفر، ولكن الآن وبعد ما حدث تشعر أنها على وشك هبوط سيفقدها وعيها..

لم تشأ أن يتكرر موقف الرحلة الأخيرة فجذبت حقيبتها لتبتلع بضعة لقيمات وعندها جاورها هو كعادته دون دعوة:

ـ دي ساندويتشات؟

أومأت بخجل:

ـ اتفضل.. دي فاتن عملتهم علشان ما اقدرتش أفطر.

فرك رقبته بإجهاد وهو يراقب الطريق:

ـ أنا زيك مش بحب أفطر!.





ناولته واحداً فجذبه وعلى وجهه تعبير غير راضٍ!..

قضم قطعة وأكمل:

- أنا قلت هدوق طبيخك!

استدارت متنهدة وعلى وجهها عبارة..

لا أمل..

لم يتحدث هو ثانية لأنه ببساطة انشغل بالطعام..

شطيرة فأخرى.. فأخرى..

حسناً فاتن مفيدة فقد شغلت فمه لبعض الوقت!

ولكن لا تعلم لما كانت تراقبه خلسة وهو يتناول طعامه..

كان فكه يتحرك بطريقة منظمة وراقية للغاية..





شعرت بحالها مجنونة فما الممتع في مراقبة شخص يتناول طعام!

بجانب فكيه وبموازاة فمه تماماً تظهر عضمة صغيرة مع مضغه..

وبأي حال جنوني لفتاة تتشبث بقيادة قارب بدا وسيماً..

استدار فجأة فأجفلها وأغضبها لأنه ببساطة كان صامتاً لعلمه أنها تراقبه..

وضعت حقيبتها جانباً في ضيق وظلت تراقب الطريق في إشارة لملل انتظار..

فابتسم هو بمكر قبل أن يقول:

ـ شكلك زعلتِ؟

استدارت بملامح جادة:

ـ زعلت!.. من إيه؟

نظر نحوها معانداً:

ـ علشان مسكتك من دراعك ساعة العربية ما جنحت.



أمسكها من ذراعها!.. يمزح أم يجمل الأمر؟؟!!..

زفرت بضيق وتخضبت حمرتها فكررت مسرعة:

ـ حصل خير.. أنا ما توقعتش العربية تفلت كده.

نظر حوله يراقب باقي المجموعة ثم تابع بجدية كاذبة:

ـ أنا اتخضيت!

لم تعلق فتابع بمزاح مقصود وبصوت هامس:

ـ معلش أصل أنا لما باتخض باحضن!

استدارت نحوه بغضب قبائل هنود ضد سطوة كولومبوس..

والآن هي توده فتاة مكبلة ترميه كضحية من أجل قربان أسطورة!.





لم ينقذها سوى تنبيه من فتاة أنهن سيتوجهن لحمام قريب فتبعتهن على الفور دون تفكير..

كانت مسافة تقدر بـ 50 متر..

حمام ومسجد ومكان مظلل ولطيف..

لم ترتح للفتيات وخاصة صاحبة الخصلات التي كانت تتحدث أغلب الوقت عن حمزه وكأنها تودها أن تسمع!

تأخرت بدورة المياه متعمدة وعندما نادوها أخبرتهن أن يرحلن لأنها ستتأخر قليلاً..

وتأخرت متعمدة..

ولم تدرك خطأها إلا عندما عادت لتكتشف أن جميعهم تشبثوا بوسيلة إيصال ستعيدهم للغردقة بدلاً من حرارة الشمس..

وهو الوحيد الذي انتظرها مع سيارة عوض المعطلة والذي لم يظهر حتى الآن!

رمقت هاتفها المغلق بحسرة مع تعبيره الراضي جداً عن ما حدث:





- كلمتك كتير وهما أندال!

لم تعقب..

جلست على الصخرة لتستوعب أنها عالقة معه.

****





الفصل الحادي عشر

بأناملي أضمك

بقلبي مسكنك

عند صدري راحتك

إلى عقلي تلجأين

حبيبتي....

أفقد سيطرتي عندما أراكِ هكذا

لا أستطيع كبح جماحي أمام رؤية عفويتك

سقطتِ في غفوة لمجرد أني كنت معك

شعرت بي أحسستِ بأنفاسي

لمستِ قربي

أتأملك في كل ساعة بل وكل لحظة

لم أتحرك خشية إيقاظك

لم أتنفس خشية إفزاعك

لم أرمش خشية تحريك الهدوء حولك

تأملت ملامحك فضللت في غياهب العشق

ضممتك إليّ فسكنتِ وتركتِ عقال الأمور

من يديك

خفت عليك من صوت ضربات قلبي أن تقلق

راحتك معشوقتي

ضممتك حباً واحتواء





فلتجمعيه حبيبتي

وأوصليه لوليدي

فكلاكما مسكني

وأنا مسكنكما

إهداء من العضوة

أمة الرحمن

أي شيء يشبه هذا!!

تصور أنها حالما ستعود سينطلق لسانه..

يمازح ويرواغ ويستمتع بانفعال ملامحها..

شفتاها تضطربان بشكل ممتع..

وتجَوُّل عيناها لا ينتهي هرباً منه.

عندما تغضب تُغمضهما وكأنها تعُدّ

أنفاسها كي لا تهاجمه..

لا ينفك أن يبتسم كلما تذكر ملامحها

عندما اكتشفت رحيل الجميع سواه





وجلوسها على الصخرة وحيدة كطفلة تؤنب نفسها وتتحاشاه تماماً.

وتحاشاها بدوره!

أخرج هاتفه وظل يجري عدة محادثات كتابية لا تنتهي، وإن انتهت فخاتمتها تكون قلوب صغيرة وقبلات متعددة!!..

زفر مللاً ليستدير نحو ثباتها الذي لا يفعل شيئاً وكأنها استحدثت لنفسها هواية عد السيارات..

اعتدل ليجاورها أكثر ثم أمال جسده نحوها لينطق بمزاح:

ـ وصلوا لكام؟!

استدارت نحوه وليتها ما فعلت..

متعرقة.. حمراء الوجه..

وبها شرود مريب..





صوت أنفاسها مع زيغ عيناها أخبراه أنها لم تحتمل حرارة الشمس فوجد نفسه يقترب منها وينظر لعينيها بدقة وقد انتابه القلق:

ـ ليلى.. ليلى أنتِ كويسة؟

فجأة تبدلت ملامحها لتضم حاجبيها في رقة طفولية أرهقته وهزت رأسها بمعنى..

"لا"..

ثم استقامت فجأة لتتركه مبتعدة لتفرغ كل ما في جوفها من طعام.

يكفيها التعب وحرارة الجو والملل والآن تستفرغ وأمامه!..

عندما همّت لتستدير كان هو قد اقترب منها ممسكاً بزجاجة مياه وعطره الخاص!

أخذت المياه وملست فوق وجهها بخجل وهي تهمس شكراً وقبل أن تعيدها كان هو قد ناولها العطر ليأمرها برقة:





ـ شمي ده يا ليلى هيفوقك..

ابتعدت خطوة وردت بتسرع مرتبك:

ـ لا ما فيش داعي.. معايا برفان هطلعه من الشنطة..

اعترض خطوتها الهاربة ليجذب كفها الرقيق ويرش عليه الكثير متعمداً..

اعترضت فجأة:

ـ خلاص كفاية.

مضطربة..

بلذة.

كلمتان وحدقتان وارتعاش شفتان تخبره أنها لا تريد أن تنتهي عالقة بعطره!

وابتسم أكثر وأزاد لها الجرعة!..

وبأسوأ أوقاته اختياراً ظهر عوض مبتسماً بانتصار:

ـ غيرت الكاوتش يا بشمهندس.. فين الناس؟





تبدلت ملامح حمزه بيأس لينطق بصوت مرتفع:

ـ راحوا في الوبا يا عوض..

ثم تابع همساً بحديث لها:

ـ حظك حلو!

وراقبها بمتعة تبتعد ولونها أحمر وكفها مرتعش ورائحتها تشبهه..

مرتبكة غاضبة وجالسة تستمع لحواره مع عوض..

وهو وكأنه يعلم أنه لن يجاورها بالعربة فاختار أن يترك لها أثراً..

فجأة ودون مقدمات سمعته يقول للسائق:

ـ أوعى تنام!

ولم تفهم مقصده إلا عندما توقفت السيارة ليعود هو للخلف مرة أخرى، ولكن في





المقعد خلفها وعندما تحرك عوض اقترب من أذنها ليهمس آمراً:

- ما تنسيش تصحيني كمان ساعة.. وابقي حضري الغدا!!

توحشت عيناها لتستدير غاضبة ولكن لم يمهلها حديث..

تمدد بأريحية وفجأة نام.

****

وعاشوا بتبات ونبات وخلفوا صبيان وبنات"

تتمة كل حكاية

يتزوج الأمير وتنتفخ الأميرة

تضيع مع قبلة وينتظر هو منها أن تنقذه من داء الوحش

تذمرت تميمة..

تقطب جبينها فيتولد فوق جبهتها خطّان، تسمي أحدهما خالد والآخر إيناس!





وتضحك إيناس على كل ابتكار مجنون من صغيرتها..

فتقرر الصغيرة تكملة حكاية خاصة بها عن حصان وتلك المرة طائر..

تبدلت ملامح إيناس للاهتمام ثم رفعت حاجبيها:

ـ حصان بيطير.. طيب احكي.

تنظر تميمة لسقف الغرفة.. كانت ممددة على الفراش بشكل عرضي حيث تسند رأسها على ساقي إيناس الدافئة وتتسلل أصابع قدميها الصغيرة من تحت الغطاء في رفض مكرر لدفء قدميها.

وتحكي..

عن حصان أبيض يطير بها في السماء حيث قابلت علاء الدين وأميرته جاسمين وأخذت جولة سحرية فوق البساط!





تصدق حكاياها وترددها بعفوية مبهجة وإيناس منفعلة معها كطفلة حقيقية توازيها جنوناً..

كلتاهما ترتديان لوناً وردي، تميمة بمنامة قطنية دافئة وإيناس بقميص قطني قصير وممتع!

كان يسأل نفسه وهو يراقبهما من خلف الباب النصف مغلق..

متى ابتاعت هذا اللون الأحمق؟!..

رغم أنه لا يفضله إلا أنه عليها يبدو محبباً..

صرخت تميمة فجأة فاجفلتها:

- بابا..

عندها قرر أن ينتهي من نوبة المراقبة لنوبة المشاركة وبدور رئيسي لا يليق أن يتخذ غيره..





دخل الغرفة الصغيرة بابتسامة ثابتة ثم حملها فوق ظهره بحميمة وهو يتجه نحو الفراش الصغير ويحدثها بلطف يختصها به دوماً:

- كام حدوتة لغاية دلوقتِ؟..

نطقت بانتصار:

- أربعة يا بابا

تلك هي تميمة..

بطلة..

صاحبة رقم قياسي في الحواديت..

تستمع لخمسة وتقص عشرة قبل أن تمل وتستلم مرغمة للنوم.

نظرت نحوهما إيناس بقلة حيلة وهمّت لتغادر الفراش مرددة:

- بابا يكمل الحكايات على بال ما أحضر العشا.





ولكن قبل أن تتحرك كان هو قد أسند ركبتيه فوق الفراش ليضع تميمة ويمسك برسغها قائلاً بحزم:

- بابا عايز ماما تحكي هي الحواديت

وقبل أن تستوعب كان هو قد وضع رأسه فوق ساقيها مكان ابنته لتضحك تميمة بمرح وتقفز فوق صدر والدها غامرة وجهها كله في رقبته وتردد بصوت مكتوم:

- حواديت كتير يا ماما.

نظرت نحوه فلمحته ينظر نحوها بعبث متحدياً:

- ناقص عشرة!

فنظرت نحوه متحدية بدورها:

- هتستحمل عشر حواديت؟!

ابتسم مفكراً ثم قال بمكر مقصود:

- ممكن أضحي!





ضيقت عينيها فبدا عسلها مختفياً..

تعاقبه عن قصد ودون قصد..

ترتدي الليلة أقصر منامة لديها وبلون لا يعجبه!

تضم خصلاتها في جديلتين مثل تميمة في ممارسة لتلك اللعبة التي استحدثاها سوياً منذ زمن وهي لعبة الأخوات..

فتميمة لا تمتلك أختاً فقررت أن تكون إيناس أختها حيث أن إيناس بدورها لا تمتلك أخت!

الصغيرة تمتلك حلولاً مبتكرة..

والصغيرة نامت!

في معجزة نادرة لا تتكرر كثيراً وكأنها فعلتها لأجله..

استقام ببطء ليضعها برقة فوق الفراش ويمسد جبينها بقبل رقيقة..





همست إيناس بدهشة:

ـ نامت بسرعة!

رفع عينيه نحوها لينطق بتلميح مباشر:

ـ حظنا حلو!

وقبل أن تفكر كان يسحب ذراعها ليخرجا سوياً من الغرفة..

توقفت في منتصف الطريق لتسحب أناملها من بين قبضته:

ـ هحضر لك العشا

استدار نحوها بوقفته المعتادة, منتصباً وظهره إلى الخلف قليلاً مع كلتا قبضتيه في جيوب بنطاله..

قال بلهجة قاطعة:

ـ مش دلوقتِ.. أنا مش جعان.

رفعت حاجبيها في عدم إكتراث:

ـ بس أنا جعانة!





رفع هو حاجبيه ولكن في دهشة تحولت سريعاً لغضب مكتوم خاصة مع استدارتها غير عابئة نحو مطبخها..

والليلة مطبخها له رائحة عطرية مميزة, وضعت في أركانه أعواد من بخور الفانيلا أعطته دفئاً خاصاً به..

على الموقد طنجرة بها حساء خضروات ساخن وأخرى أعدت فيها معكرونة ومعها بعض اللحم المشوي.

كانت تعلم أنه سيلحق بها وهكذا بدأت تعد الأطباق وتحضر بعض السلاطة وكأن شيئاً لم يكن!

وكأن ذكرى شفتي الأخرى لم تعد تهاجمها..

وكأنها كانت تود الهروب بعقلها صارخة..

وكان قلبها سعيداً بأنه لم يسمح..

وكأنها لم تستمتع بمعاندته هذا الصباح وقبلها بانبهار عينيه..





عيناه فقط تخبرانها كم هي أنثى!!

ليست عينيه فقط بل كل انفعالاته..

وهو..

وكأنه هو لا يستشيط غضباً الآن

طعام شهي هو آخر ما يفكر به!

ورائحة عطرية مفضلة لديه ولكن فوق أعواد دخان لا يطيقها

والأدهى ثوب يقدس تصميمه ولكن بآخر ما يفضله من الألوان..

جلس على المائدة ينظر نحو انتصار ملامحها..

ما يبقيه هادئاً هو أنها تبدو مرتاحة وهذا ما يهمه رغم أنها تستحق عقاب على قرارها المنفرد دون اعتباره.

جلست أمامه لتبدأ بالحساء فرمقها بتفحص وهي تأكل بشهية حقيقية:





ـ الشغل جوعك النهارده؟

تابعت دون أن تنظر نحوه:

ـ كمان اتشغلت ونسيت آكل أي حاجة الظهر!

لم تكن له رغبة حقاً في الطعام, اضجع على مقعده مكتفاً ذراعيه ليكمل بمرواغة:

ـ والمدير بتاعك غلس؟!!

مرت فوق شفتيها ابتسامة, وأيضاً دون أن تنظر تابعت:

ـ قوي!!

رفع حاجبه الأيسر ثم مد ساقيه لجلسة يبدو أنها ستطول ليكمل بتحذير:

ـ وعصبي..

كررت نفس الابتسامة وأيضاً أجابت دون أن تنظر:

ـ عارفة!





ارتكز هو بقبضتيه على المائدة لتختلف وضعية جلوسه بأخرى أكثر تحفزاً وهمس بصوت رخيم تلك المرة:

ـ وبيحبك..

أجفلها فأوقعت ملعقتها..

رفعت رأسها نحوه فبدت منفعلة بشكل لا يفهمه..

ليست غاضبة ولكنها ليست مُرتاحة..

أغمضت عينيها لتهمس:

ـ مش محتاج يقول..

ضيق هو عينيه ليسأل بحق يمتلكه كرجل:

ـ وأنتِ مش محتاجة تسمعي!

بدت أكثر انفعالاً..

تراجعت بمقعدها للوراء بل استقامت فجأة لا تحيد بصرها عنه..





عيناها مرتعشة بشكل ما.. ولسانها يخونها..

لتتحدث.. وتقول.. وتصرخ.. وتلوم..

وتلعن لحظة خضوع وصمت تكررت معها على مر أشهر.

لا تود أن تصمت مرة أخرى ولا تود أن تتحدث عما حدث..

لا تستطيع أن تنسى ولا يجوز أن تعود لقواعدها مسالمة!!

رفعت رأسها لتتوجه نحوه..

خطوة.. وثانية.. وثالثة كانت بمواجهة مقعده..

أمالت رأسها لتقترب منه هامسة:

- محتاجة...

ولم تكمل..





توقف لسانها ربما لتترك له حرية تصور الجملة

كانت أنفاسه تضرب ضلوعه..

كإنسان مستمتع بالحوار..

ولكن كرجل يود أن يصرخ بها ما هذا الحديث الماسخ لنتواجه بغرفتي وبأحقية رجل بامرأة

رفع بصره نحوها ثابتاً ومناقضاً خيالاته:

ـ محتاجة إيه يا إيناس؟.. قوليها وما تسكتيش تاني..

رفعت رأسها وكان شامخاً, ابتعدت الثلاث خطوات لتهمس سريعاً وقبل رحيل:

ـ المرة دي مش هينفع تنتقم!

وتركته..

بعبارة واحدة تذكرها.. وتذكره..

بالأمس الذي لا يود أن يُمحى..





بنقطة قررت أن تضعها خلف سطر شيرين

لتغلقه للأبد دون أية فرصة لفتح هامش

ثقيل بذريعة انتقام..

باعتراف ضمني أن غيرة الأنثى وصلت مداها

تلك الليلة ولا يجوز له أن يختبر ما بعدها..

ضم قبضته في غضب وشعر بصلابة تفكيره

تعانده فقد كان قد خطط مبادئ انتقامه

بالفعل..

وتوعد أن تدفع الأخرى الثمن وبقسوة..

والآن هي قسوة اختيار بين انتقام لأجلها

وتنازل لإرضاءها

البندقية..

****

تواجه السين وحيدة وتصر أن تتذكر!

كيف يعمل العقل؟..

وهل بوسعنا حقاً التحكم في الأفكار؟..





الضغط على زر نسيان، وآخر سكينة، وهذا للحب وربما نجرب الأيسر لوضعية الجمود!...

شعرت بنبرته تتهكم بجانبها:

- بكره السُوّاح!

هكذا ودون مقدمات يقرر أن يظهر مراد..

تارة بالمسرح، وتارة بمنزلها، وتارة فوق رأسها من العدم.

الجو كان به لسعة برودة خفيفة ورغم ذلك كانت القوارب تجوب نهر السين مكتظة بسائحيها وأضواءها الخافتة وموائد العشاء الراقية.

أخرج سيجارة نفثها ببطء ليتأمل انعكاس الأضواء فوق صفحة المياه ثم ينطق بتذمر:

- لو قراري أمنع كل المراكب دي.. تشويه غبي للطبيعة.

ضمت ذراعيها لتتغلب على شعورها بالبرد ثم تابعت بنبرة ميتة:





ـ عايز ايه؟

استدار نحوها مندهشاً، لم يتصور أنها ستباغته هكذا بسؤال.. يظنها أضعف

يريدها أضعف..

كررت هي بإصرار:

ـ عايز مني إيه يا مراد؟

هو رجل لا يحتار بجواب..

صدق.. كذب.. حقيقة.. خداع..

ما الفرق؟

هل تترجم الحروف النوايا؟..

هل فاز الشعراء بصدق قلوبهم؟.. أم أن كل روائي يعيش خلف سطوره قصة؟!

وقف خلفها تماماً ليحيط جسدها وذراعيها بذراعيه مقيداً تذمرها وهامساً فوق أذنيها كعادته معها..

ـ كل حاجة!





ارتعشت عيناها.. تفهم ولا تفهم.. تتوقع وتخشى..

وحين أن مقاومتها لا تجدي تجمدت كصخرة غير مبالية به وكررت بنفس البرود:

ـ ما فيش حد بياخد كل حاجة.. اختار!

الأمر بدا أكثر لذة..

كارمن تناور في رمقها الأخير..

الشرقية التي تعثر برقصتها منذ أشهر وجذبته بألمها المكرر فوق مسرح..

تتهاوى وتبكي وترقص وتموت ألف مرة..

وعيناها تخبره أنها فريدة وأن ورائها حكاية..

بل ألف حكاية..

بل تاريخ شهي للوحة منتظرة..

لمجموعة آن ظهورها قبل أن يتلقفها وحش نسيان..



لنساء ضعن في مخاض الألم والحياة..

للاختبار لحظة قهر..

لحظة يأس..

لحظة فزع..

لحظة خوف..

ولحظة موت!

وهي البطلة للأخيرة ويودها أن تخطو

وبكل إرادة..

كانت تداري ارتجاف وتتصنع قوة..

الليلة فقط تواجه ذكرياتها بشأن خالد..

كل شيء..

وكل لمحة..

وكل هفوة..

وكل لقاء..





وكل حب وكل كراهية..

وكأنه وداع!..

وخلفها يضمها هو إليه أكثر..

ليس احتواء..

وليس تملك.. وحتماً ليست رغبة..

ربما هي سادية الطغيان.

أحقية وحش ما بعذراء كقربان..

أحقية رجل ببقايا نساءه..

أحقية فنان بلوحته وحرية إبداعه بشأنها كيفما يشاء..

شاءت أم أبت هي لوحته المنتظرة..

أزاح خصلة تشرد من كهف الحمراء..

وابتسم لنفسه قبل أن يناور ثلجيتها المناقضة لشهرزاده

وأقحم صوته في أذنيها ليحفر لحن نبرته بحرفية صياد:





ـ مع كارمن ممكن اختار لكن مع شهرزاد..

كل حاجة!..

استدارت نحوه وحينها تخلصت من القيد..

وجل.. خوف..

فضول هو الأسوأ على مر التاريخ.

مد قبضته ليحتضن يديها ويجذبها تتحرك خلفه ولكن بخطوات بطيئة..

ـ هتخسري ايه لو جربت؟

ـ أجرب إيه؟

ـ أي حاجة.. كل حاجة!

ـ والنهاية؟

ـ هتفرق في ايه مدام الطريق كان ممتع!

ـ خديجة طريقها كان ممتع؟.

ـ نهايتها كانت ملهمة.

ـ موت!





- رقي.

- خسرت..

- جسمها وكسبت روحها.

- تفتكر هي حاسة بالمكسب ده؟..

- المجهول ممتع إحنا اللي جبناء وبنخاف!

- ودليل الشجاعة ايه؟

- قرار

- أي قرار؟

- مش مهم المهم إننا نقدر نقرر أو نجرب!

- المهم الرغبة؟

- الرغبة مجرد وجه للغريزة وعقلنا بيشكلها!

- والغريزة بتقول ايه؟

- بتقولك اهربي مني!

صمتت.. لا جواب

بل سؤال وربما أخير:





- والرغبة بتقول إيه؟..

وابتسم وجذبها أكثر لتجاوره وقبضته ما زالت متحكمة بيدها:

- الرغبة بتقولك جربي طريق مراد.. بتقولك إن دي النهاية.

****

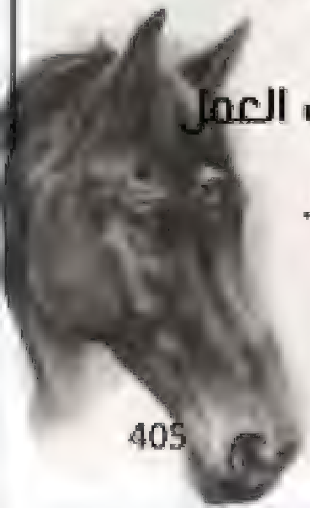
قابلتها الخالة فتحية, سيدة طيبة وصديقة أمها الصدوق من الحي..

ما إن لمحتها حتى انفضت تاركة جمع نساءها الغفير في تجمع فطري لنميمة ما بعد صلاة العشاء وانطلقت مهرولة نحوها تحتضنها بشوق..

لا تنكر أنها انتفضت ليس فقط من اعتصار السيدة الضخمة لضلوعها الضعيفة بل لعدة أفكار بدت وليدة لحظتها تلك..

تفسير أمها لغيابها ثم كيف؟!

هل يدرك سكان الحي أنها قررت العمل بالمدينة الساحلية وحيدة؟.





أخرجتها رنة صوت العجوز من مخاوفها عنوة:

ـ خالتك عاملة إيه؟.. وشغلك في اسكندرية كويس؟

ابتسمت ولكن بحزن..

أتوافق أم ترفض؟

أتواجه أم تجادل؟

أتراها على شفا حرب من أمها الآن تحت رعاية قيد..

ألأنها فتاة أصبحت محدودة الخيارات؟؟..

وإن توسعت فستلجأ رغماً عنها لكذب!!.

الخالة فتحية تحدث نفسها تقريباً..

وتحتضها مجدداً وتمسك لسانها عن قول رائحتك غريبة!

وتضحك ليلى..





ابتسمت مع استعادة ملامحه نائماً بعمق طوال الطريق وفي النهاية يزعق عوض.. مراراً..

"وصلنا يا بشمهندس"

دون جواب..

وطلب منها السائق استدارة كي تحاول إيقاظه وترددت ونفذت وهمست بصوت ضعيف ولكنه يتشبث جدية رجل:

- بشمهندس حمزه.. وصلنا.. يا..

قاطعها بصوت رزين:

- كابتن حمزه!..

قطبت جبينها..

هو مستيقظ وبمرح..

كانت عيناه ما تزال مغلقة ولكن فوق وجهه انفعال غامض

شقي يشبهه..





وأي غباء أنثوي يتلبسها ويتلبس عيناها الناظرة نحوه

ماذا تنتظر؟!

أن يفتح عينيه مثلاً ليقابلها..

لينظر نحوها بتأمل يزعجها ويربكها والآن يسعدها!

لتضيق حدقتاه بمراوغة ويأمرها..

أم يسألها:

ـ عملتِ الغدا؟!

وتنمرت.. وتذمرت..

وتمردت على انجذاب أحمق وليد لحظة..

وليد عطر..

وليد اقتراب..

وليد وِحدة..

وقبل أن ترحل سألها دون حق:





ـ راجعة امتى؟

ولم تجب ولن تجب ولكنها كالحمقاء تقف الآن أمام جارتها تبتسم لعبق عطره..

وفوق بمنزلها ودفء لقاءها المنتظر بالتوأمين وقرارها المتعقل بغلق كل باب لنقاش وازت حركة مفتاحها بالباب ترحيب حار..

صوت أمها وضيف..

ورجل!

وزيارة بوقت لا تفهمه وجملة واحدة اخترقت أذنيها..

"نورت يا ريس صبري"





الفصل الثاني عشر

أحبيني.. بلا عقدِ

وضيعي في خطوط يدي

أحبيني..

لأسبوع.. لأيامٍ.. لساعاتٍ..

فلست أنا الذي يهتم بالأبد..

أنا تشرين.. شهر الريح،

والأمطار.. والبردِ

أنا تشرين فانسحقي

كصاعقة على جسدي

أحبيني..

بكل توحش التترِ..

بكل حرارة الأدغال..

كل شراسة المطرِ..

ولا تبقي ولا تذري..

ولا تتحضري أبداً





فقد سقطت على شفتيك..

كل حضارة الحضر..

أحبيني..

نزار قباني

ربما مرت دقيقة.. اثنتان!

هي متسمرة أمام الباب ووالدتها تُهديها نظرة اشتياق وعلى أريكة منزلهم آخر رجل توقعت رؤيته..

لزوجة ملامحه تصيبها بالقشعريرة..

رغم أنه قد يُصنف في عرف بعض النساء وسيم ولكنها تكره كل ما يخصه..





عيناه ثعلبية بشكل مقيت, أسنانه بها صفرة تبغ وربما ما هو أكثر وفوق وجهه بقايا ذقن غير حليق يبدو أنه به يتفاخر!

زفرت بضيق وازى دخولها وترحيب أمها الذي ما زال حاراً!

ـ تعالي يا ليلى.. الريس صبري كان بيطمني على أحوالك.

ودّت لو تهديه ابتسامة ساخرة ولكن كان هو أسبق..

شفتاه منفرجتان بثقة وتحدي..

للاحظ أنها لم تغلق الباب وتأكد أنها لن تغلقه عندما وضعت حقيبتها أرضاً وظلت مُرابِضة بجانب مقبضه لتتسلل كلمات من شفتيها مضطرة:

ـ فيك الخير!





استشعرت أمها توتر ما, وأمها امرأة بسيطة ربما أكثر مما يجب..

بساطة كانت يجب أن تدرك عينا هذا الرجل منذ دخلت ابنتها.

وإن كانت النظرة تحمل ألف معنى فنظرات هذا الكريه لا تحمل سوى معنى واحد

دناءة..

والدناءة تختصر في انتهاك كل ما هو ليس ملكك..

ربما مال وربما جسد..

وابنة منصور جسدها ربما ضئيل ولكنه بدأ يعجبه..

حتى مع توترها وذراعيها اللذين ضمتهما فوق صدرها فلم تجني سوى أنها استفزته أكثر!





دون أن يحيد نظره عن كل شيء منها تحدث بنبرة استفزتها:

- يا ريت يا أم ليلى بس فنجان قهوة مظبوط.. علشان سواقة الليل أصلي راجع على الغردقة دلوقتِ!

- بس كده.. من عنيا!

مضيافة!

أمها تمارس ضيافة لهذا وبمنزل منصور..

على جثتها لو تذوق تلك القهوة..

رمقتها أمها بحيرة غاضبة وهي تتخطاها نحو المطبخ في تنبيه صامت كي ترحب كما يجب بالضيف!!

لم تدرك سليمة النية أنها بلحظة ما تركت المكان تسلل هذا الكريه نحو ابنتها ليقترب منها بغير حق هامساً بتهديد حقير:

- الست الوالدة حتزعل قوي لو عرفت إني بضايقك!





ماذا الآن؟!..

هكذا كانت تسأل حالها وهي تبتعد عن أنفاسه خطوتين وتوازي تهديده بنظرة متحدية وكأنها تقول هات ما عندك..

تلفت هو حوله بخبث قبل أن يبلل شفتيه في إشارة بذيئة لم تفهمها ثم أردف بفحيح ناعم:

- هي موافقة بالعافية على موضوع شغلك ده وشكلها كده مرحبة بالبيع..

عندها قطبت جبينها في انزعاج بيّن..

ما تُراه قد تم من حديث في غيابها؟..

وهل تفكر أمها فعلاً في بيع قطعة من منصور؟!

أنفاس تبغ رديء تقترب..

رجل يود قطعة من عالم منصور وخرى أكثر حلاوة من قلبه..

فتاة صغيرة تبدو كقطعة كعك محلى بالمقارنة بما اختبره من قبل من نساء





أشياء كثيرة تمر أمام أعيننا ولا نلحظها إلا عند التدقيق

التدقيق والتحديق!..

همس بقسوة تلك المرة:

ـ تقبلي صديق العيلة اللي خايف على مصلحتكم ولا نقولها سوا على اللي بتواجهيه لوحدك هناك؟!

ورفع يده اليمني لتنقبض أصابعه فوق كتفها بغلظة وهو يتابع:

ـ وعندي أكثر من طريقة!

وتوقف الأمر عند صوت ارتطام!

كيف حدث؟..

وماذا حدث؟..

هو نفسه ربما لا يدرك..





ففجأة صغيرة الجسد دفعته ليرتطم جسده بطاولة ما سقطت على الأرض بما تحمله من أطباق زينة..

وخرجت أم ليلى لتجد المدعو صبري ملتصقاً بالحائط وأمام وجهه سبابة ابنتها تصرخ بنبرة لا تقبل جدال:

- لو فاكر إن بنت منصور بتهدد يبقى أنت ما تعرفش مين هي ليلى.. تطلع برة وما شوفش وشك هنا تاني.

وعندها فقط لاحظت..

النظرة الكريهة نحو ابنتها..

التلون..

الخديعة..

والإبتزاز..

وأن إرث منصور ليس بقارب متهالك وديون متراكمة فقط..

فهناك أيضاً الطمع!





وخرج الكريه دون حرف آخر وتركت ليلى كل شيء لتدخل غرفة التوأمان وتغفو بجوارهم متشبثة بأمان..

****

كيف استطاعت أن تفوت تلك لحظات؟!

كان يقف على بعد أمتار من مُهرين صغيرين..

أحدهما فرسة أصيلة بنية اللون تمطتيها تميمة..

كانت فرسة هادئة اختارها بعناية لصغيرته كي تكون معها دوماً في البدايات..

ومهر آخر أسود بنقاط رمادية متفرقة بعشوائية وفوقه محمود.

تعجبت من إصرار الطفل الصغير على التشبث بمهره الثائر..





نبرة خالد وصوته الحاد يأمر كلاهما فيلتزمان.

كان يبدو وسيماً كعادته..

يرتدي قميصاً بلون أبيض نقي فوق سروال من خامة الجينز القاسي..

فكه قاسياً بغضب فهو هكذا بتدريباته وليتحمل الجميع..

عيناه تتحركان بدقة محسوبة بين متدربيه الصغار ويقف سائس مسكين خلفه لا يملك سوى إطاعة الأوامر.

بجانب المضمار وفوق جذع شجرة مقطوعة كان يتوجه كل فترة ليتجرع بعض المياه ويتخلص من ساعة معصمه وكل قيد..

حتى أنه تخلص من حزام بنطاله وقفز بقوة فوق فرس ما ليتبعاه.

عيناه اصطدمتا بها فجأة..





تقف بجوار مدخل الإسطبل تراقبهم..

حمقاء تجمع شعرها في جديلة واحدة على جانب وجهها..

ترتدي مثله قميصاً أبيضاً فضفاضاً فوق سروال نسائي من خامة الجينز الرقيق وزادت فوقه سترة خفيفة بلا أمام بلون بني فاتح.

بدت مشرقة..

أوقف جواده لتلمع فوق وجهه ابتسامة ماكرة ثم أمر السائس أن ينتبه لتميمة ومحمود ليتوجه نحوها بعد أن ترجل من الجواد ساحبه خلفه.

كانت تحاول بيأس أن تلمح تميمة من خلف جسده ولكنه استحوذ على بصرها ليسألها بمراوغة:

ـ أخبار الخيل إيه يا دكتور؟

ضمت حاجبيها لوهلة قبل أن تجيبه بعملية تامة :





ـ كل حاجة تمام يا بشمهندس

وقبل أن يتحدث هو تابعت هي مسرعة:

ـ وأخبار تدريب تميمة إيه؟

رجع هو خطوات إلى الوراء مداعباً خصلات فرسه بثقة:

ـ ممتازة.. طالعة لباباها!

ضيقت عينيها تفهم مقصده فتابع هو بنبرة يود إغاظتها:

ـ مامتها شوية بتخاف!

ضمت ساعديها في غضب تنظر نحوه غير مصدقة فتابع هو:

ـ الفرسة نجوى موجودة ولو جريت ممكن أنقذك تاني على فكرة!

قبل أن تجيبه كان هو قد نادي دسوقي ليحضر نجوى فكانت أمامها في دقائق..

لا تدرك غرضه!..





هل يتحداها لتلجأ إليه يدربها مثل تميمة؟..

أم هي مناورة ليثبت أنها ستخاف المحاولة من جديد؟.

قبل أن يفكر كانت هي تسحب الفرسة لترفع جسدها فوقها بسلاسة أدهشته.. وأغضبته!

خاصة عندما تركته لتتوجه نحو تميمة ومحمود والفرسة تطيعها بإذعان..

متى روضت تلك أيضاً؟!

رفع حاجبيه مندهشاً مراقباً لحيويتها مع الطفلين وتميمة تضحك بسعادة لوجود ماما بجانبها آخيراً..

حمقاء يا إيناس لما فوتّ هذا؟!

كان يهمسها لحاله وقد نسي بشأن جواده حتى تركه مع دسوقي وتوجه نحوهم مترجلاً..





ربما مرت نصف ساعة أو أكثر ولكنه توقف عن الصراخ..

وأوقف ديكتاتورية تدريبه ليراقب انفعالات ملامحها..

ها هي تتبدل وتتشكل أمامه من جديد..

ربما تغيظه ولكن بقرب لذيذ يروي ظمأه..

ترمي بهمسة وكلمة وتنتظر ردة فعله

وإن فعلها فهي لا تمانع.

أشار بنظرة عين للسائس كي يسحب تميمة ومحمود داخل الإسطبل في متعة أخرى لإطعام الفرس وهمت هي لتنزل من فوق الجواد ولكن..

مجنون..

هو حقاً مجنون..

قفزته المفاجأة أفزعتها وفهمت لما صرف الطفلين..





وقبل أن تنطق كانت فرستها المستكينة تعدو بعيداً عن كل شيء..

نجوى تمتلك الصحراء بضربة ساقٍ منه وهي محاصرة بين ذراعيه ولا تنوي الهروب.

في منتصف الرحلة كانت قد أغمضت عينيها..

ربما شردت وربما قربه وأنفاسه لا يجوز معها رؤيا..

استفاقت على همسته بجانب جيدها بعد أن توقفت الفرسة.

ـ الخيل لازم يجري علشان يحس بالحياة..

أعطته نصف استدارة:

ـ دي نظريتك في التعليم؟

اقترب منها أكثر لتخرج نبرته دافئة:

ـ دي نظريتي في الحب!

ظلت ثابتة لا تعلق فأردف هو بنبرة آمرة:





- إيناس.. اديني وشك..

تجولت حدقياها لا تفهم..

فكرر هو بصوت بدا متعجلاً:

- لفي يا إيناس..

وقبل أن تدرك كان قد ساعدها ليحرك خصرها وتبدل وضعها فوق الفرسة فتصبح جالسة بشكل عكسي وفي مواجهته..

تأملها ربما لنصف دقيقة ولم تحد هي بصرها عنه حتى جذب جزء من جديلتها فحل رباطها مردداً:

- أنتِ عارفة إن كده أحلى!

لا زالت تخجل من الغزل..

أي امرأة قاتلة تزوج..

ابتسمت متحدية تورد وجنتيها لترادف بصوت مبحوح:

- أنت بتحبه كده..





أمال رأسه نحوها وقد امتلأ شغفاً ورضا:

- وبحب إيه كمان؟

ابتعدت عن وجهه لترجع بجذعها للخلف قليلاً وبدت متنمرة فابتسم بغرور فأردفت مسرعة:

- بتحب البندق!

تنوي هلاكه هي اليوم لا محاله وستهلك هي معه..

وضع قبضته فوق وجهها فاستدارت بما يشبه رفض أربكه!

تابعت:

- أنا جوايا كلام كتير مش عارفة أقوله.

كانت عيناه ترتعشان..

ليس قلقاً ولكن تأثراً بها وبكل ما يمر به معها, أردف هو بما يثقل صدره:

- ليه مش عايزة انتقام؟





للحظة توقع صمت وأفكار وهروب كعادتها ولكنها أجابت وبأسرع مما توقع حتى أنها بدت مقاطعة له:

ـ علشان ما ينفعش سيرتها تيجي أو تظهر في حياتنا تاني حتى لو بشكل انتقام.. علشان مش هاقدر استحمل فكرة أنك ممكن تنطق اسمها أو تشوفها تاني يا خالد.

وصمتت لوهلة فبدت أنفاسها سريعة قبل أن تردف:

ـ حتى التفكير ممنوع!

ملامحها أصابت قلبه بوجع..

تذكر تلك اللحظة التي سببت كل هذا الألم ويدرك أن حتى انتقامه لن يمحيها.. أيقن أن عبرة ما ستهرب ولكنه أوقفها,..





مرر إصبعه سريعاً تحت جفنها ثم أحاط رأسها بكلتا يديه ليقربها منه أكثر وبدا صوته فوق وجهها همساً:

ـ أنا قلت إيه ما تعيطيش.. إياكِ تعيطي!

وقبل أن تدرك كان قد تخلل خصلاتها بشكل ما آلمها واستحوذ على شفتيها..

ولم يجد مذاق سوى الذي يفضله حينذاك البندق.

****

أمام التلفاز كان يجلس لمشاهدة مسرحية وصوت ضحكاته تصدو بجدران المنزل.. لا يبالي..

ومنذ متى يبالي حسن؟!..

جاء الولد.. ذهب الولد.. ووقت الحاجة رقية تدلل..

المأكل والملبس والجسد..





والآن حين ملت واختارت هروب اتهمها ببساطة أنها تمر بسن يأس!

ولا تنفك أن تبتسم بألم متصورة ذريعة أخرى لأنه يحتاج..

كانت تحمل بيدها سكيناً خفيفاً لتقشير بعض الفاكهة وعراك خالد ومحمود الأخير يتملكها..

مناوشة خبيثة من محمود تخبر خالد عن متعته اليومية بامتطاء الخيل مع صديقته الجديدة تميمة!

ولم تدرك سوى جنون ما تلبُس صرخات محمود لتفهم أن من لكمه هو خالد!..

حتى أن الفتى يعاني الآن زرقة منتفخة بجانب عينه اليمنى نتاج عنف ليس من طبيعة فتاها المدلل.

تركت السكين لتتوجه نحو المدلل الكبير بصحن فاكهته المفضلة وتدرك





أنه الليلة منتشي بشكل واضح ويود بأحقية

أن يأخذها هي والفاكهة سوياً..

ولما لا؟!

أبناءه ونساءه وطعامه وتلفازه وتصرفي يا

رقية..

كلما تخبره عن عراك..

تصرفي يا رقية..

كلما حاولت أن تفتح حوار وربما حل..

خطأك يا رقية.. خالد مدلل..

الآن خالد مدلل.. خالد عنيف..

خالد يستحق عقاب والمتخابث ابن سهام

ينعم بحنية أبيه!

وأبيه يجاورها على الأريكة وصوت ضحكاته

ستصيبها حتماً بالصمم..

وستصيب نبتة عمرها بالعطوب..





خالد يعطب..

يتبدل..

وذكرى تميمة نبهتها لمشاعر طفل لم تكن تدرك أن لها وجوداً..

خالد يغار!

ويبتسم حسن ويطفأ التلفاز ويسأل عن نوم الأولاد ولا يتذكر حتى عقابه لخالد..

ويجذبها نحوه بليلة العطلة وقاموس احتياج لكل رجل..

وأراحته ربما تستريح وربما تخرجه من الصورة ليبقى على هامشها كما يفضل

حفاظاً على نبتتها..

****

تتجاهله..

بشكل مفضوح!..

تتشبث بقبعتها القبيحة وكوب الشاي الأسود بماركة أمين المسجلة.





وتترك القارب بروتين الغوص والطعام والموسيقى وتشرد..

وربما هي منفردة بدندنة عقل لأغنية ما لـ "محمد فوزي"

لم يكن يعلم أن بعقلها أمواج تتعارك منذ عادت..

لم يكن يعلم بشأن زيارة صبري ولم تخبر هي أحد..

ستتصدى له وتستطيع..

وأمها رغم الخوف والجدال والعراك لم تمتلك سوى أن تتركها ترحل أم ربما تعود

فقارب منصور أصبح هو عالمها الآن..

تعالت الموسيقى أكثر صخباً..

حتى الموسيقى تتآمر عليها لتنظر نحوه!

كان قد خرج لتوه من المياه..





شبه مبلل بسروال فاتح قصير وتيشيرت مطبوع دون أكمام..

يمسك بزجاجة مياه غازية وتسحبه هيلجا للرقص فيرفض

وتتمايل شقراء نصف عارية بشكل أخجلها!

أيطلقون على الرقص الشرقي اغواء1..

إذاً ما تفعل تلك؟!!

كانت هيلجا ترقص بتمايل مُهلك إن صح التعبير..

تقترب منه في مكر وفرض أنثوي متخابث لسلطتها..

استولت على مشروبه.. تجرعته..

أهدته قبلة وإن لم تنل شفتيه فقد استقرت فوق ذقنه..

وخصرها كان جنونياً مع أغنية صاخبة لمطربة تصرخ!





وهل بدا عليها ضيق؟..

في البداية لم يكن مهتماً بسيناريو هيلجا المكرر ولكن ضيقها البيِّن أهداه نشوة..

عيناها بريئة مثلها..

تدقق وتستهجن وتغضب وتهرب..

شفتاها ترتجفان ولهما همس صامت..

شفتاها تستحوذ دوماً على انتباهه..

شفتاها لهما نقاء صادم!

أي غنوة تدندن الآن يا ترى!!

ولم تغنِ..

ولم تجلس صامتة تراقب..

تركت له الجمل بما رقص..

أوقفت القارب حيث أنهم وصلوا للمكان المطلوب وانسحبت للقمرة السفلية تبحث عن حاوية قهوة, فالصداع زادته الموسيقى توحشاً..





عادة لا يقترب أحد من القمرة السفلى حتى دورة المياه فهي بمكان مرتفع على القارب..

بعد نزول خمس درجات هناك ممر قصير بغرفتين..

إحداهما للنوم وبها أغطية وأخرى صممها منصور كمطبخ بسيط..

المكان مظلم قليلاً ولكنه هادئ مفصول عن باقي القارب بصخب زواره..

صخب آخر رغم هدوء نبرته إلا أنه أفزع بقلبها طبولاً..

- بتدوري على حاجة يا كابتن ليلى؟

أجفلها فاستدارت فجأة ومعها لا يجوز استدارة ولا مفاجآت!..





فتلك الخصلات القصيرة تتآمر على وجهها فترسم فوق وجنتيها خيوطاً مهلكة إن صح التعبير..

فمها المنفرج وحدقتاها المشدوهتان، كلها على بعضها تهديه لذة غامضة!

اقترب منها وفوق وجهه ابتسامة متلاعبة فارتبكت لتتخطاه وتخرج ووتتذمر وتهاجم:

- أنت بتعمل إيه هنا؟

لم يجب على سؤالها بل قطع تخطيها ليحتجزها دون هروب وسألها بمراوغة:

- ليه اتضايقتي؟..

للحظة خانتها شفتيها..

الجواب السريع حل ومطلوب ولكن أين هو!

بعد ارتعاش مكرر تنفست بغضب على نفسها لتجيب:

- علشان ما يصحش.. الرقص اللي فوق ده عيب.. ما يصحش كده على مركب منصور..



هي غير مقتنعة بجوابها فالسائحين يفعلوا ما هو أكثر وهو يعلم أنها كاذبة ويالها من متعة..

اقترب أكثر ليخفض رأسه فأصبحت توازيها ثم همس ببطء:

ـ وده مبرر أنك تقفي غلط!

ابتعدت عن مرمى أنفاسه وعطره وبدت حائرة لا تفهم مقصده..

وبعدها لمحت ابتسامة لعوب راضية جداً فوق شفتيه قبل أن يضيف بثقة:

ـ أنا ماليش دعوة.. أنا نبهتك!

كانت لحظة قبل أن تشعر بتأرجح شديد للقارب..

ميل قوي بناحيتها يعقبه آخر من ناحيته!

وقبل أن تدرك أو تفهم كانت مسحوبة رغماً عنها لتلتصق بالحائط وهو أمامها





تماماً يستند خلف ظهرها بذراعيه كي لا ينفع أكثر، زعقت مستفهمة:

- هو في إيه؟

وقبل أن يجيب تبدل القارب ليتغير الوضع..

هو متكئاً على حاجز خشبي وهي رغماً عنها سقطت فوقه، وقبل أن تحاول أن تحفظ توازنها انتبهت لثقل ذراعه حول خصرها!

رفعت عينيها بغضب ولا وقت يسعفها..

فمرة أخرى كانت الدفعة أقوى لتتمالك نفسها قبل أن تسقط ويمتلكها هو بذراعه فليتها سقطت..

أجاب أخيراً:

- كان لازم تسأليني قبل ما تقفي.. التيار هنا عالي... مرجيحة يا كابتن!

والمرجيحة على شكل قارب، أسقطته هو ولم يحاول أن يرفض لتسقط هي فوقه في وضع أهداه لذة منتقاة..





كانت خصلاتها منثورة فوق وجهها

ووجهه ولم يدرك أن ذراعه ما زال متملكاً

إلا عندما أيقن دفعة يائسة منها لتحاول

الوقوف..

ولم يكن بحاجة لعطره تلك المرة

فالآن عطرها هو ملك الحوار!

وحتى الميل في الجهة الأخرى غير مباح

فالميل كل الميل الآن لجهته هو فقط..

كانت مع التمايل تجاهد لتقف وعلى وجهها

احمراراً يحمل ألف تفسير

غضب..

خجل..

غيظ..

فوضى رائعة!

وبعد قليل سيتحول الأمر لصفعة إن لم

يتمالك نفسه..





أرخى ذراعيه قليلاً وورمقته هي بغضب مكتوم قبل أن تستقيم متحكمة في توازنها بصعوبة مع ميل القارب..

وقبل أن تحاول فقط أن تتحدث..

ربما بلوم..

أو زعيق..

توبيخ قاسٍ لثقافة كارثية لديه غالباً ما تنتهي بعناق..

قبل كل هذا..

أغمض هو عينيه لينطق بنبرة خالية من المزاح تلك المرة وبصوت غليظ وهادىء كالهمس:

- إمشي يا ليلى..

ولم يعطها حتى فرصة لتحرك شفتيها اعتراضاً أو قبولاً

فقط أتبع وبنبرة ودت تنبيهها لتهرب:

- حالاً يا ليلى..





الفصل الثالث عشر

من النقيضين تتكونين..

مزيج من الضعف والقوة..

من العناد والاستسلام..

هكذا أنت

تتجسدين في

براءة طفلة..

وعناد حمقاء..

وفتنة أنثى..

ما أرنو إليه من همسي..

ارتباكك!

وما جل اهتمام ناظري سوي..

سواد بؤبؤيك..

وما كل سخرية مني إلا لإيقاظ مارد الأنثى بعناد الطفلة..

فما بين الهشاشة والرقة..





والخضوع والتجبر..

والتواضع والتكبر..

أتيه أنا في غياهبك..

في أزقة ظلالك.. أجول..

وفي بهاء طلتك أتجمد..

أتخابث.. أسخر.. أماطل.. أضحك... أحكي..

ما كل ذلك إلا من أجل

رعشه شفتيك..

وزيغ حدقتيك..

وحمرة وجنتيك..

فلقد أصبت بحمى مراقبتك..

وتلتها علة الشغف في الوجود بقربك..

وارتويت بداء مسؤليتك مني..

مراهق متخابث في الحركات والنظرات..

وكهل عجوز في الكلمات والعبارات..

فلا أدري إلى أي الطرق سوف ننساق..





فـــ للأقدار يد تعمل في الخفاء..

اهداء من..

أمة الرحمن

"الله يسلمك"..

رسالة نصية..

غاب بعد شغب بحجة أرجوحة..

وصرفها لتهرب عندما تلجَّم لسانها أمام كلمته فلا نال عقاب ولا نالت راحة..

وتجاهلته بقية اليوم ليختفي هو بعدها لأسبوع متواصل..

ولم تسأل..

ولما تهتم؟.. ولما قد تبالي؟!

ودون مقدمات على رحلة قارب تحدث أمين عن مرضه وملازمته للفراش..

مريض!





ـ هه..

قالتها دون تركيز وعقلها يكمل..

"يستحق"!..

وتابع أمين بأريحية راوي..

عن حمزة.. وطيبة حمزه.. وقلب حمزه..

ووحدة حمزه رغم كل ما حوله من صخب!!

وأرادت أن تنهي الحوار فتبعثرت منها حروف:

ـ سلامته..

وردّ عليها هو بمساء نفس اليوم..

وبرسالة نصية..

"الله يسلمك"

ولم تبالي..

والهاتف ملقى على فراش وعلى أريكة دون اهتمام

هي لا تهتم..





تجزم لنفسها أمام المرآة، وأمام التلفاز، وأمام فطائر فاتن..

لا أهتم.

ورسالة نصية أخرى بذات المساء..

وكأنه غاب ليعود.

"تصبحي على خير".

وتأملتها..

غاضبة وراضية ولكن لا..

هي غاضبة..

هي لا تهتم..

بل ستنام بعمق ودون أحلام يتسلل إليها..

نوماً هنيئاً...

وتسلل وطردته شر طرده وعاقبته وعاقبت أرجوحته واستيقظت راضية على رسالة نصية أخرى..





"طيب صباح الخير"!

****

- قرصة ودن!

كان صبري يجلس مضجعاً أمام دخانه..

خلطة خاصة يهديها له صديق من على حدود اليهود..

تيه رائع!

ابتسم مساعده وهو يقدم واجب الزيارة لشاب مفتول العضلات..

قدراته الذهنية ليست بمرضية ولكنه ينفذ الأوامر..

والأمر يخص صاحبة ليلى..

همس صبري بتحية أخرى ألهبت حماس الشاب الذي سيحل محل رحيم مساعدها الصغير في رحلة الغد..





رحيم الذي جاءته إصابة بسيطة ستقعده بالفراش كسير الساق..

إصابة مقصودة.

وهذا اسمه رزق..

اختيار أمين الذي لم يجد أفضل منه!

بدأ رزق في عد النقود بلهفة حتى أن صبري كرر كلماته غاضباً لكي تنفذ بالحرف:

- خبطة صغيرة يا رزق.. زي ما فهمتك بالضبط.. قرصة ودن.

****

وكان صباحاً جميلاً

استيقظ من سبات إجباري بحجة مرض كي لا يتحايل ويراها..

يحادثها.. يعاندها..

يقربها نحوه ويفيق على عطر أقوى مما يحتمل فينقذها!





واكتشف أنه استعوض عنها بخيال..

والخيال ملكه يبيح له ما يشاء وهذا أسوء.

لعبة الرسائل النصية أعجبته..

وشغلت خيالاته فظل مواظباً عليها مستمتعاً بهروبها..

وهذا الصباح هو معها والمفاجأة في عينيها ملهمة..

وخطواتها المتسارعة.. وتثبيت قبعتها الحمقاء..

وهي حمقاء لأنها ترتدي قميصاً بلون البحر وسروالاً بلون الصحراء وخصلات ليلها مناقضة لنهار وجهها ويالها من تركيبة مُجهدة!

وشفتيها هذت بشبه جملة..

ـ صباح الخير..

قالتها مسرعة وهي تمر من أمامه..





ومعه حق أمين هو يبدو مريضاً..

فوجهه شاحب ويبدو وسيماً وهذا سيء..

جداً سيء..

وهي لا تهتم..

إذاً فصباح الخير!

ولم يجب..

ربما أجاب أمين وشخص ما يجاورهم وعادوا لمحادثة ما هو ليس طرفاً فيها..

هو يراقب..

يتأمل..

هو فعلياً لا يحيد بصره..

حتى أنه لم يقرب الماء وعهد لمجموعته بغواص آخر، وظل يتجول على القارب بين نظرات صامتة نحوها وفعل لا شيء..

وليته تحدث..





فتلك الهمسات الصامتة لا تُحتمل..

وشغلت نفسها هي بمائة شيء ولم تقرب القمرة السفلية..

وفجأة ناداها رزق مساعدها الجديد، هناك شيء ما غير مضبوط بجانب القارب والقارب يقف موازياً لآخر كما العادة في رحلات البحر والغوص..

ليس قريباً وليس بعيداً..

كما طلب صبري المسافة المطلوبة!

ومالت بجسدها..

تبتغي رؤية ونالت همسة ولكن ليست كتلك المعبقة بعطر حمزه، كانت أخرى كريهة الرائحة تحمل اسم صبري..

هدية صبري..

- الريس صبري بيمسي..

وفي حركة فجائية دفعها..





دفعة بسيطة لتسقط بجسدها الضعيف بين القاربين..

لتصطدم رأسها فلا تنجدها سباحة.

"قرصة ودن"..

وكان أمين يتحدث بصوته الهادئ.. رحلته الأخيرة لبلدته أعطته راحة, ربما هو شوق اللقاء..

وكان هو يسمعه بشرود..

يغويه عقله بمحادثتها ويعود ليصفعه بلوم على حماقة تتكرر..

وفجأة اسمها يصدو..

بصراخ!

وانتفض هو وأمين على كلمات رزق وجسدها بالمياه..

بلحظة لمحها تقاوم ببطء ولحظة مستكينة لقاع البحر!

ولم يخلع حتى قميصه.. قفز دون وعي..



وهي..

هي من علمها منصور السباحة كسمكة

اجتاح رأسها ثقل

ظلام..

وأنفاس تهرب..

رغم السباحة.. رغم المحاولة.. كانت تسقط.

البحر يحب العذراوات ولكن تلك تخصني!

بيد واحدة كان يجذبها من مقدمة قميصها

لترتفع فوق ذراعيه..

شاحبة!

ووعيها متقطع..

رفعها ليمددها فوق سطح المركب ويضغط

فوق بطنها باستماتة وكانت شبه واعية..

شهقت..

وسعلت وأجلسوها نصف جلسة ترتعش..





وحولها خيالات عدة لا ترى منها سواه..

ودثرها بمنشفة ثقيلة وكان مرتاعاً..

أخفض رأسه لها موازياً وحرك جفونها بإبهاميه..

وربت فوق وجنتيها وصوته يبدو كصدى:

- ليلى.. سامعاني؟؟

وهي لا تجيب.. كل شيء يبدو مشوش..

يزيح خصلاتها المبتلة ويبدو أكثر قلقاً..

وإن كانت هي لا ترى سوى خياله هو لا يرى سواها بتلك اللحظات

ولا يبالي..

أحاط وجهها بكفيه يحركه يميناً ويساراً ويزعق أكثر:

- ليلى..





وعيناها الآن تغيب وشفتيها بها ارتعاش

ومن جانب رأسها خيط رفيع مر بكفه

الأيمن..

دماء..

****

بغياب الوعي الواقع مشوش..

تغيب على شيء وتستيقظ على آخر وتصبح

بلحظات مسروقة..

وغابت هي على لفظ باسمها بنبرته وعادت

على صفحة وجهه..

لم تكن تعلم أنه حملها بنفسه للغرفة

السفلية بالقمرة..

لم تكن تعلم أنه هو من وضعها في

الفراش ومن أخرج الإسعافات بكف مرتعش

ليقطب جرحها وأنه أعطاها حقنة..

كان يجلس على حافة الفراش وليس به

تركيز.. فقط يراقبها بقلق ويزعق برزق

وأمين ويعيد القارب للمرسى..





حركة قدميها الذي لم ينتبه أنه كان يجاورها بقرب شديد وتأوهها عندما لمست رأسها نبهاه فترك كل شيء وانتفض يقترب أكثر..

أزاح يديها من فوق رأسها وهمس بجدية:

- ما تلمسيش الجرح.. مجرد ما نوصل هنطمن في المستشفى.

همست بصوت ضعيف:

- مستشفى!

قرب عينيه ليتفحص حدقتيها ثم وضع قبضته فوق رأسها وأكمل:

- الحمد لله.. ما فيش حرارة.

أزاحت يده واستقامت تعتدل في جلستها حتى استوعبت أنها بالغرفة..

تجولت ببصرها في حيرة ثم سألته:

- حصل ايه؟





زفر هو بضيق واضح ليجيب بنبرة بدت محتدة:

- والله المفروض أنا اللي أسأل.. وقعتِ ازاي؟

"الريس صبري بيمسي"!

الآن يعود لها الواقع..

تهديد صبري ودفعة رزق وعقاب من شبه رجل..

عندما شردت ظن أنها ستغيب عن الوعي مرة أخرى فربت على وجنتها يكرر في قلق:

- ليلى!

ووجنتها الآن تُهديها احمراراً..

ودفعت يده وانتفضت لتبتعد وأيقنت أنها وحدها في الغرفة معه وقطبت جبينها اعتراضاً وأجابته بحزم:

- رجلي اتزحلقت.





ولم تتصور أن تنال منهم هجوماً بل وزعيق أيضاً:

- وأصلاً واقفة على حافة المركب ليه؟

وكانت تتنفس بسرعة..

ليس توتراً فحسب فهي ما زالت تشعر بالإعياء..

وأغمضت عينيها لتحرك يدها بإشارة حاسمة:

- أنا مش قادرة أتكلم.

والآن تعود ليلى التي يعرفها..

وليتها تستقيم وتهرب وتعانده ويمنعها..

ابتسم برضى مناقضاً لجنونه واقترب منها يهمس بعطره ونبرته وشقاوته التي يختصها بها:

- خليكي فاكرة.. إنت اللي خضيتيني!

****





تحاول أن تحيا..

هي الشهادة التي استطاعت بفضلها الهروب من قيد العلاج بعد ثلاث محاولات يائسة للإنتحار!

ستحاول أن تحيا ولو بقتل نفسها كل ليلة على خشبة مسرح!

هناك امرأة تسعى لتكون نجمة وهناك امرأة تولد نجمة..

وكرجل مثل أي رجل قد يفتتن للحظات بجمال خصر.. ثغر.. نهد.

ولكن ألا يستحق تخليده تضحية..

والقاعدة تقول احترسي من رجل يفهم الموسيقى..

وفوق مائدة عشاء أهداها صوت كمان..

ويقول "هاييتي" أنها آلة لها أمزجة البشر..

تهديك انفعالات عازفها وتكشف أسراره.





والكمان يبكي..

أبالشجن نترك لأرواحنا العنان!

ربما دون عبرات نحترق..

وزرقة عينيها بحر متلاطم الأمواج يرفض أن يصبح حزناً مستباح.

وقربت من شفتيها مشروب وهذت بشبه كلمات:

- بيتك راقي.

ليس ببيت، بل قصر..

أحد أساطير مراد الغازي وكل ركن به لوحة خاصة..

حتى المائدة السوداء التي تتسع لأكثر من أربعين شخصاً كانت جوانبها رؤوس أسود تزأر وكأنها النهاية...

وأقدامها تحمل قواعد أبانوس مصقولة..

وعلى طرفيها هي وهو..

ليبدو بعيد وقريب بذات الحين..





وكانت ترتدي هي ثوباً أسود دون أكمام

ورغم هزلها جميلة بشجن خاص.

رقيقة البنية ترفع خصلاتها الحمراء بشكل

مرتب وتترك خيوط مجدولة كستائر الكتمان

فوق جيدها..

لا ترتدي بأناملها سوى خاتم واحد ويبدو

قيماً من بقايا ثراء راحل..

واستقام يطلب رقصة على أوتار كمان..

ولم تمانع بل أصبحت تحبذ رؤيته.. كلماته..

احتواءه!

والليلة ذقنه غير مشذبة وتكسبه خشونة لا

تعتادها منه..

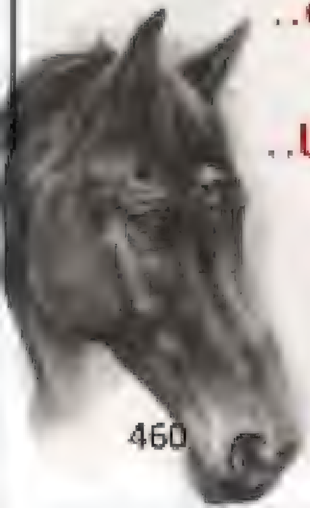
ولأن الأسود ملك الألوان اختار بدوره حلة

سمراء وقميص يوازيها وربطة عنق رمادية

حلها قليلاً مع أول زر من قميصه..

وصرخ الكمان لتصرخ الرقصة..

يجذبها بقوة نحوه ويدفعها..





تقترب وتبتعد وفق سلطته، وعند الإقتراب همس:

- الموت نجاة!

وأبعدها ليقربها مرة أخرى وتهمس هي:

- الموت رقي..

وأبعدها وكانت عيناها تلمع تلك المرة..

بريق نشوة غائبة، همس مرة أخرى وكان أضعف بحكم غريزة..

فمرر قبضته فوق ظهرها:

- والاختيار؟

ورغم انقباضها وازته ولم تبتعد بل همست هي بنبرة واثقة:

- رفاهية!..

عزف الكمان يفهم.. يهدأ وينتفض ويحـ





وأبعدها وظل ممسكاً بيدها الممدودة..

سألها:

- تملكيها؟

وشردت ولم تتحرك وحدها فجذبها لمتعة امرأة بين أحضانه ولو بذريعة رقصة. أجابت هي دون انفعال:

- بحاول!

وتركها تراقب وجهها في مرآة مقابلة..

وتوقف الرقص رغم استمرار الموسيقى..

كانت شاحبة..

هزيلة..

فقدت ربع وزنها في أقل من عامين..

فاتنة كانت أجمل..

ضعيفة بعد قوة..





منبوذة من عالم تمنته ورجل غفت بجوار اشتياقه..

ضم ذراعيه حولها متملكاً ومناقضاً لما يخطط..

ارتجفت عيناها فبدت لا تفهم..

لا تدرك أي نهاية يود..

ولا تدرك خطواتها المتبعثرة دون ترتيب

وتذكرت خديجة.. وهمست تتشبث بثقة:

- متخيل لوحة شهرزاد إزاي؟..

لمعت عيناه ونظر نحوها من خلال المرآة:

- النهاية!

كانت توازيه نظراً وبثبات, همستها رغم ثقل نبرتها كانت أنثوية بشكل لا يوصف:

- وكارمن؟

تحركت شفتاه بابتسامة محسوبة..





قاسية, واقترب من أذنها مزيحاً ستائرها الحمراء:

ـ كارمن ليها دور البطولة..

وصمت لوهلة يراقب انفعال عينيها ثم أكمل بهمس خافت مدموج بأنفاسه:

ـ الأخير!

وابتعلت ريقها وأغمضت عينيها تود استسلام..

ربما القدر يسوقه نحوها لينفذ ما فشلت فيه من قبل..

ربما هي نهاية محتومة وليس للهروب منها سبيل..

وارتخت براحة..

وودت أن تترك كل ألم يوازي رقصة, كل ذكرى وكل عاطفة مذمومة قتلتها..

وكان وجهه دافئاً رغم أشواك ذقنه..

كان قريباً..





يمهد خيارات عدة..

لمستقبل امرأة تشارف على الرحيل والاختيار لها..

نهاية ملكة

أم إنكسار بشبه حياة..

وهذت مع صخب الكمان الأخير:

- إزاي؟!.

وتحركت يده وخرجت بنصل!

ولم يخفها..

حتى عندما اقترب من عاجية بشرتها..

لم يكن بنصل مخيف

كان يبدو كملاذ!!

وهمس نصله قبل منه..

- موت شهرزاد..

****





كانت تتكأ فوق مرفقيها لتنهي بعض الأوراق الخاصة بما ينقصها من أدوية في العيادة..

بالأمس عرض عليها أن يقوم ببعض التجديدات بمكتبها ورفضت بشدة.. تحبذ الاحتفاظ بكل ركن وذكراه..

وخاصة هذا المقعد عندما بكت من صراخه عليها في أول مرة رأت رعد وجنون صاحب رعد..

بكت..

وناقض صراخه ليحايلها برقة!!

لم تدرك أنها تبتسم لأوراقها ابتسامة بلهاء كتلك التي تلازمها في الآونة الأخيرة.. حتى أن رقية غضبت منها على الهاتف لأنها شردت أكثر من نصف المحادثة تراقبه!!

كان قد قرر الإعتناء بالحديقة بنفسه..





خلع قميصة وألبس تميمة خوذة من القش لتصبح المساعد الصغير خاصته وغير كل أنواع الورود تبع مزاجيته الخاصة..

الخاصة جداً..

نحنحة غامضة على مدخل العيادة جذبت انتباهها..

سترة وردية أنيقة وسروال أبيض ملتصق بجسد ممشوق وحولهما خصلات ذهبية منثورة..

اعتدلت إيناس لتدقق النظر في الفتاة المبتسمة ولا تعلم لِما!؟

كانت شقراء بعيون بين الأزرق والأخضر وتبدو بسن صغيرة ربما تحت الخامسة والعشرون..

صوتها رقيق وتتحرك كراقصات الأزيا وتسأل عن مستر خالد!!





ظلت إيناس محدقة فيها لوهلة قبل أن تترك قلمها وتستفسر بنبرة بدت مبحوحة:

ـ عايزة مين؟

جلست الفتاة على المقعد بأريحية واضعة ساق فوق أخرى بتجيب بصوت واثق ورقيق:

ـ مستر خالد رضوان.. صاحب المزرعة, أنا عندي معاه معاد!

رفعت إيناس حاجبيها وارتشفت القليل من قهوتها لتسأل رغماً عنها بسخرية:

ـ بس دي العيادة البيطرية.. معادك في العيادة البيطرية!

لتجيب الفتاة بكل بساطة وصدق:

ـ أيوة..

لا تعلم ما بها ولكن كل انفعالاتها اليوم مركزة بحاجبيها..





ضمتهما قليلاً متفكرة قبل أن تزفر وتهاتفه ليجيب بعملية صارمة بمجرد أن ذكرت وجود الفتاة:

- ايوة يا ايناس.. ياريت تخلصي مقابلات البنات اللي هيجولك علشان وظيفة الفندق.. محتاج حد بأسرع ما يمكن.. شغلي متلخبط ومش فاضي للتفاصيل دي!

هكذا بسرعة وعملية وأغلق الخط..

بديلة للوقحة التي رحلت وعليها هي أن تختار!

والاختيار بين شقراء وسمراء تشبه صوفيا لورين وهناك أخرى لا تصلح سوى للعمل بملهى إن صح التعبير أما الأخيرة كانت تشبهها هي..

هل يرتب الأمر أم هو رجل محظوظ..

رغم أنها تثق به حد الكمال ورغم أنها ترفض جنون الغيرة إلا أنها لا تريد أن تتخيل هائمة أخرى بزوجها بين أربع جدران



ومال تلك المقابلات تشبه للفتات حرية المرأة!..

أين الرجال!!..

كان هو بمكتبه القديم ينهي بعض الأوراق مع حسن وعلى وجهه ملامح رضى غامضة مما أنبأ حسن أن صديقه يعيش متعة خاصة, يتصور ملامحها الغاضبة الآن وهي تصب جام غضبها عليه في عقلها وتبتسم أمامهن تكتم انفعالات.

رغم أنه فعليا ودّها هي أن تختار..

أن لا يعكر صفوها شبه شائبة بخصوص بديلة الأخرى ولو في لحظة خيال مجنون..

لم يتصور أنها ستظهر أمامه فقط بعد ثلاث ساعات باختيارها الأنثوي!

تنحنح حسن عندما لمح ظلها ورفع هو بصره في دهشة وتحفز لزوجته الجميلة التي دلفت بابتسامة هادئة وحلة رمادية فوق قميص وردي أنيق..





كانت تبدو كلاسيكية خاصةً بربطة شعرها المرفوعة على شكل ذيل حصان.

ربما هي بحاجة إلى جولة أخرى فوق نجوى..

اعتدل لتدخل هي وحيدة مع بضعة أوراق وتلقي التحية على حسن في عملية جافة لا تطيق مُعذِّب صديقتها الصدوق رقية..

رفع رأسه ليترك أوراق حسن وسألها بجدية مصطنعة:

- خلصتِ يا دكتور؟

جلست على الكرسي المقابل لحسن وقد ناولته الأوراق لتجيب بعملية موازية:

- كله تمام يا بشمهندس.. أنا اتكلمت معاهم وراجعت ورقهم وعرفت خبراتهم ودي 3 ملفات اختار منهم اللي يعجبك.

اضجع على مقعده براحة ليبتسم بمكر متحدياً جديتها:

- اختاري أنتِ يا دكتورة!





رفعت أحد حاجبيها بتحدي:

ـ ممكن ما يعجبكش اختياري.

حرك شفتيه بالتواء خفيف متحايل:

ـ ممكن أضحي!..

أيقن أنه تجاوز وخاصة أن وجنتيها احمرتا وبدا وجه حسن لا يعي ولا يفهم شيئاً سوى رومانسية حمقاء يسترجعها صديقه مع زوجته بعد مرور ست سنوات..

ربما الأفضل العودة لعراك أبناءه ورقية!

زفرت مسرعة لتستقيم فجأة فحرك رأسه بدهشة مستفهماً وحينها اعتدلت لتبدو أكثر ثباتاً بل تبتسم!

وبمكر..

البندقية تحرك شفتيها بمكر!

ماذا فعلت؟..

وقبل أن يُفكر كانت تدعو امرأة للدخول:

ـ اتفضلي يا مدام سندس..





مدللة.. لا تنفك أن تتذمر كل دقيقة..

"الحصان أكل كل السكر"..

رائحة المكان "ياااكي"

تميمة ومحمود المتناقضان فوق ظهر خيل..

خاصتها بنية بخصلات هادئة تشبهها، ومهره جامح صهيله يغضب دسوقي ويفزع مهرة تميمة..

ويحايلها والدها بإخراج الأخرى الفرسة إيناس التي يوليها اهتمام خاص وواضح لها..

وبعد ركوب الخيل يتركهما دسوقي بالإسطبل لمداعبة المهور وإطعامهم السكر.. وتميمة تعشق السكر فتحتفظ لفمها بالبعض، ويعلم هو أن الحمقاء تلك ستمرض أو ستصبح دون أسنان!

وفقدت هي بالفعل أسنانها الأمامية





وكان يظن أن السبب السكر ولكنها ضحكت منه وأخبرته أن جنية الأسنان ستحضر لها أخرى جديدة وستأخذ النقود من تحت وسادتها!

وتذكر عندما فقد أسنانه من قبل..

ولم يخبره أحد عن جنية الأسنان تلك وربما لم يلحظ أحد

كانت تشب على قدميها تحاول أن تطول فم الفرسة إيناس لتطعمها بيدها ولا نتيجة.. يحذرهما دسوقي من الإقتراب من غرف الخيل ويتركهما مع المهور..

ولكن تميمة تكره الأوامر..

إيناس فرستها وستطعمها السكر.

كانت ترتدي سروالاً قصير حتى منتصف ركبتيها بلون أرجواني مميز وفوقه قميص أبيض مزركش يراه مضحكاً..



تجمع خصلاتها في جديلتين وخصلاتها تشبه تلك الفتاة في فيلم كارتوني ما فهما مزيجاً من لون الشوكلاة والسكاكر..

وفوق رأسها قبعة فقط بلون السكاكر!

ومرة أخرى تتذمر..

زفر دون صبر وهو يقترب منها لينصحها بعملية جافة:

- أنتِ قصيرة مش هتطولي الحصان.

نظرت نحوه في ضيق..

هذا الفتى المتفوق عليها في الخيل والذي لا يجيد اللعب مثل خالد.

لا يحدثها..

ولا يستهويه طعم السكر!!

سخيف يشبه مهره المخيف.

زمت شفتيها وتجاهلته لتعاند وتحاول تسلق باب غرفة الفرس الصغير وحينها صرخ بها:



- يا مجنونة هتتعوري.

وكان محقاً فبمحاولة بسيطة تعثرت لترتطم ركبتها بخشب الباب القاسي وتهديها خدشة..

خدشة بكت على أثرها بحرقة حتى أنه كاد أن يفقد عقله..

تصرخ متألمة وتشير للخدش البسيط:

- دم.. شوفت دم!

بدا مذهولاً حتى أنه اتكأ أمامها فوق ركبتيه بغضب مكتوم:

- ده مش دم.. ده خربوش بسيط.

ولكنها ظلت تبكي محركة رأسها في رفض وتكرر:

- أحمر لونه دم.. وبيوجع.

رقّت ملامحه قليلاً خاصة عندما لمح سيل دموع حقيقية فوق وجنتيها..





أخرج منديلاً ومسح وجهها ثم وضعه فوق ركبتها ليضغط عليها قليلاً وسألها بجدية طفل كبير:

ـ كده أحسن؟

أومأت رأسها بصمت وكانت ما زالت باكية فابتسم لها ثم قال بعد تردد:

ـ أنا ممكن أخليكي تأكليها السكر!

هدأت قليلاً ورمشت عينيها عدة مرات بلهفة:

ـ بجد.. إزاي؟

حرك كتفيه ليجيب ببساطة:

ـ هاشيلك.. هارفعك فوق شوية تأكليها السكر بسرعة.

وجدها تنتفض لتقف على الفور متناسية جرحها وتحرك رأسها بإيجاب مكرر ومبتهج





وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة واسعة..

أحاط ذراعيه حول ركبتيها ليرفعها قليلاً وكانت مسافة كافية لتلتهم مهرتها السكر بنهم..

ولم ينزلها إلا عندما انتهت..

وأخبرته أنها ستخبر جنية الأسنان بشأنه هذا المساء..

واستغرب قليلاً.. فسألها:

- حتقوليها إيه؟

وابتسمت ببراءة:

- إنك طيب ومش وحش وحتبقى صاحبي زي خالد.

****





الفصل الرابع عشر

أتعلم عيناك أني انتظرت طويلاً

كما انتظر الصيف طائر

ونمت.. كنوم المهاجر

فعين تنام لتصحو عين.. طويلاً

وتبكي على أختها

حبيبان نحن، إلى أن ينام القمر

ونعلم أن العناق، وأن القبل

طعام ليالي الغزل

محمود درويش

رغماً عنها تهاجمها تلك الابتسامة!

وتثير جنونه..

وحملقته وذهوله وصمته التام أمام مستخدمته الجديدة..





ألم يرفهها بحق الاختيار فليتحمل!!

وصوتها كان رنان..

"مدام سندس"

أولاً.. مدام

وثانياً.. سندس!

والسندس نوع من الحرير..

ديباج

نعومة ونقيض تام لطباع المرأة الواقفة أمامه

وليست مدام.. بل هي أرملة..

خمسينية وتوقفت حدود الألوان لديها عند اللون الرمادي.

خصلات رمادية.. ثوب رمادي.. والجوارب رمادية أيضاً!..

هكذا..

محروم أنت من الألوان يا خالد!





تعلم هي ضعفه أمام إندماج الأزرق بصبغة بندقية، الأحمر يثير جنونه كحال الرجال، والزهري فإن كرهه هو يُضحي!

وسندس كانت يوماً ما امرأة ملونة كحال جميع النساء، فتاة متفوقة وجامعية طموحة..

وعمل استمر لأربعة أعوام في مؤسسة سياحية مرموقة حتى جاء صاحب النصيب، ونفض كل شيء من حولها بأنانية رجل..

العمل والأصدقاء والأهل.

استأثر بها ولا تنكر أنها في البداية كانت سعيدة..

كانت!

فعل ماضي والماضي لا يعود..

وكان حنوناً لا تنكر ولكنه ذهب لتراب وأصبحت تختزله بصورة مُعلقة وشريطة سوداء تخبرها كل صباح أنه رحل..





تركها مع ثلاث أبناء، فهاجر الأول ولم تعد تتذكر اسم مدينته، وهاجر الثاني خلف لقمة العيش والحياة رغم أنه معها بنفس البلد، والثالثة أصبح زوجها يعد عليها أنفاس الزيارة فحلت قيد مسؤوليتها منها بنفس راضية..

وإيناس ربما فكرت بأنانية أنثى قطفت من حول زوجها جميع الفواكه، ولكن هناك شيء ما لمسها بتلك المرأة

لمس ماض قريب..

لمس احتياج عويص لتلك المهنة..

لأي مهنة..

لعزلة نتذرع أننا عليها مجبرين ومن يعلم ربما مثلها تجد هنا..

السعادة.

****

تدللها فاتن، وتناديها ابنتي الصغرى..





رقيقة تلك المرأة ببشرتها السمراء المحببة ووشاحها الهادئ بدرجات الأخضر المتدرج والذي لا يغادر رأسها سوى عند النوم..

ورأس ليلى العنيد أمهله الطبيب أربعة أيام حتى يلتئم جرحه..

وينفذ حمزه تعاليم الطبيب بحذافيرها، فيطمئن عليها كل صباح بمحادثة تليفونية يضمن بها عدم نزولها إلى العمل..

ومحادثة أخرى وقت الظهيرة يخبرها فيها أن أمين كاد أن يحطم القارب بشبه قيادة، ويتصور تجول حدقتيها قلقاً ثم تلك النظرة حيث تستطيل عيناها بشكل مستعرض وتضيق مع زفرة غاضبة تحمل عطرها الذي حتماً لن يجيئه من خلال الهاتف..

وفي المساء يحادثها دون سبب وتتردد هي كي لا تجيب ولكنه لديه أسباب عملية خالصة.





تقرير مفصل عن رحلة اليوم والأمس والغد

على قاربها الذي هجرته مضطرة..

هي فقط تطمئن.. على القارب.. على ليلى

وهو أيضاً يطمئن.. على ليلى!

وصوته بالهاتف له دفء..

دفء نبرة لم تستشعرها مع رجل من قبل..

مع وجدي الذي كان يقتصد في المكالمات

بحرص مقصود.

وسمعت تأوه غريب منه في محادثة ما

وسألته بتردد:

ـ في ايه؟

ولم يجب وكأنه ترك الهاتف وفكرت أن

تغلق ولكنه عاد يخبرها أنه سكب قطرات

الماء الساخن فوق أصابعه..

كان يعد مشروباً وسألها بمرح:





- تشربي معايا؟

ولم تجب..

بل اجتاح ملامحها ضيق من محادثة تعدت نصف ساعة!..

واعتذرت أنها أزعجته..

هي أزعجته!

هو يعود باكراً للمنزل بفضل تلك المحادثة..

واليوم تخلى عن موعد مع فتاة أوكرانية.

أوكرانية يا أهل الدار..

أوكرانية ببشرة منكهة بحمرة نبيذ وخصلات شعاع شمس!..

أوكرانية لا تمتلك سواد ليل قصير يتهدل فوق أذنيها, لا تمتلك تيه حدقتين فوق البحر نجاتهما بين ضلوعه..

ولا تمتلك هذا اللسان المعاند والرأس القاسي بشهادة طبيب أجزم أن جرح مثل هذا كان يجب أن يهديها ارتجاج!





وابتسم فجأة وأدرك أن صمته عليها طال فهمس بمشاكسة:

- تشربي شاي بلبن؟..

وابتسمت هي رغماً عنها ورغماً عن تقطيب الحاجبين الرافضين لهمسه والعقل الذي يصرخ أغلقي الهاتف وأظافرها التي أصبحت تتسلل نحو فمها مع كلماته وتلعثمها يصله عبر أسلاك لتنطق أخيراً بنبرة مضحكة وعالية تتحدى الهمس:

- تصبح على خير..

وأغلقت وأعدت لنفسها كوب ساخن وشفتيها تضحكان..

"شاي بلبن"!

****

بندقية ماكرة.. وقاسية أيضاً!

تضحك بصدق حقيقي أمام نبرته المغتاظة على الهاتف مع مساعدته الجديدة التي تعامله وكأنه هو مساعدها!..



بل أنها قامت بتوبيخ بعض الموظفين بالأمس وهرعت الفتاة عبير من مكتبها باكية!!

ما هذا!!!..

لا أحد يُبكي موظفيه سواه.

ولكن رغم كل هذا المرأة الرمادية نشيطة بشكل لا يوصف, في السابعة صباحاً تتواجد بمحيط الفندق..

تمر على الجميع من أكبر موظف لأصغر عامل وتشارك النزلاء صباحهم في قاعة الإفطار بابتسامة ودية وتسألهم بلطف عن إقامتهم واحتياجاتهم..

وبعدها تتوجه لمكتبها وتلال أوراق وتنهي كل شيء بحرفية تامة..

ولا تترك الفندق سوى في التاسعة مساءً بعد أن تطمئن على النزلاء وموائد عشاءهم فترحل راضية..





دقة متناهية تصل لسن إبرة في كومة قش..

وهذا ما يغيظه.

والآن بندقيته ترتدي الرمادي، أهي خطة خبيثة أم ماذا؟..

يشفع لها أنه رمادي فاتح وأنه ثوب ضيق ماكر فوق الركبة وأنها خصرها الرشيق يلتف بحزام تركوازي رفيع وأنها خصلاتها

تتناثر بتصفيفة غجرية تفعلها لأول مرة وأنها حافية وترتدي بقدمها اليسرى خلخال!

وبتدقيق النظر ليس خلخالاً بالمعنى المفهوم..

هي ربطة رأس بندقية بألعاب رنانة صغيرة تتدلى منها

هي تبتكر لأجله..





وتسمع موسيقى صباحية بصوت فيروز وتغني معها..

يا أنا يا أنا أنا وياك

صرنا القصص الغريبة

يا أنا يا أنا أنا وياك

وانسرقت مكاتيبي

وعرفوا إنك حبيبي

عرفوا إنك حبيبي

مزاجها مُعتدل بفضل سندس..

كان يبتسم ويراقب بعنين لا ترمش، وظل دون حراك أمام قهوته يراقبها وهي تودع تميمة حتى يقلها السائق لمدرستها..

ورغم أن طرفها فعليا لم يظهر من الباب وإلا كان قد قتلها فوجئت بذراعه يجذبها مغلقاً باب الفيلا ومبتعداً بها بأحد الأركان هامساً فوق جبهتها بقسوة ممتعة:





ـ الفستان ده حتخرجي بيه!؟

لا تنكر أنه أجفلها فأصبح تنفسها سريعاً..

ولا تنكر أنها ابتكرت ملابسها خصيصاً لأجل أن تراضيه بعد أسبوع كامل قضاه في مشاحنات مع اختيارها "سندس" دون أن يلومها بحرف..

ولكن معاندته لذة!

رفعت عينيها نحوه لتهديه ابتسامة مراوغة قبل أن تجيب:

ـ جايز

ظل بصره مرتكزاً على عينيها، لا يحيد ولا يهتز..

مرتكزاً بصمت أربكها فهربت تبلل شفتيها وتردد بتلعثم ناقض ثقتها السابقة:

ـ أنا لازم أغير علشان ألحق الشغل!

ولكن تحركها كان مستحيلاً فهو لم يخفف قبضته فوق خصرها ولم يتحرك من أمام جسدها قيد أنملة..





حركت عينيها متسائلة وعندها سمعت منه صوتاً أجش مع ابتسامته الجانبية التي يختصها بها:

ـ مش لازم!

وبفضل ابتكارها الصباحي تأخرا كلاهما عن العمل ثلاث ساعات!!

****

مرحباً.. يسعدنا أن نقدم لك عرض النهاية

رحيل أميرة!

همسة.. غنوة.. رقصة!

موت..

ولمعت عيناه.. بنشوة غامضة..

لِما يجد البعض في الرحيل خسارة؟..

هو أحياناً أفضل الحلول!.

وشهرزاد الآن ضيفة بمنزله ولم يبذل حتى جهداً بإقناعها, تحركت تبع أهواءه





بهشاشة, وبالأمس راقصها مرة أخرى بعد العشاء وكانت ضعيفة بشكل مُرضي.. طوع بنانه كما يقال حتى خصرها كان يتمايل تبعا لأوامر قبضتيه..

والموسيقى أضحت شرقية.. هادئة بنكهة كمان

ولم تعطه عيناها فضولاً فاسترسل هو بانتصار:

- دي موسيقى العرض النهائي!

وشردت.. تستمع لها بوجه آخر..

شرود غامض مع معزوفة موت..

أي عازف مجنون صمم تلك المقطوعة..

هي آسرة وتشعر باللهب بين ضلوعها فقط لفكرة وجودها فوق المسرح ترقص عليها

ولا ترى نفسها شهرزاد ولا ترى نفسها كارمن بل ترى امرأة أخرى..





وابتسمت..

فقط نصف ابتسامة وهذا الإعوجاج بشفتيها لم يظهر منذ زمن وضم حاجبيه يسألها بعد تأمل:

- عجبتك؟

وأجابت بهدوء متأني دون أن تنظر نحوه:

- عايزة أرقص لوحدي.

ودفعته ورغم انتشاءه بدور شهرياري مؤقت إلا أنه كان يفضل المشاركة..

أناني هو، حتى خصرها يقرر أن يتحرك وفق هواه

وإن كان اغواء الرجل يتمثل برقصة فهي أكثر امرأة في العالم قادرة على هذا الإغواء..

وتحكمها في الأمور لا يساعد..

وخلع حذاءها لا يساعد ووجهها المضيء رغم الهزل لا يساعد..

وحمرة الظلال لا تساعد..





وهي ترقص وترقص ولا تراه

تدور..

تارة ببطء.. وتارة بعنف

تتهاوى.. وتستقيم.. ويميل رأسها حتى تلمس خصلاتها سجادة العتيق وترتفع ببطء محترف..

وأحلامها ليست وردية

أحلامها لهب

عيناه..

طيف من مراهقتها فوق صدره وإن كانت وسيلة.

ازدراءه.. وقربه.. وهمسه.. ولمسه.. ورفضه.. ونيران

حريق..

وكريم ودماء

وموت.





أي خديعة تعيش فالنهاية الموت وهي

تحدد الآن لنفسها رفاهية الطريقة!

وتظن أنها ترقص له..

وأنه هناك بمقعد بعيد يجلس ولا يبالي ولم

يبالي من قبل..

ولكن هي أنثى كحال النساء تتعاطى

الخديعة.

ووسط دموع هاجمتها وشجن استحوذ على

وجهها ودوار أرهقها أسندتها قبضتين..

عينان خضراوتان وذقن غير مشذبة قليلاً..

وتملك يفوق غطرسة جميع الرجال.

وتملك شاهد اغماءة بين ذراعيه

ليست مصطنعة وليست مباغتة

هي نوع جديد من الاسترخاء

شبه موت!





وابتسم هو أيضاً نصف ابتسامة..

اعوجاج غريزي لم يحظ به منذ سنوات.

ولكن ليست تلك الغريزة المتلهفة على عطر جسد..

ليست نشوة جنسية لرجل..

ليست رغبة..

وليس اشتهاء..

هي غريزة الخلاص..

هي الخطينة الثانية في تاريخ البشر

القتل.

****

استيقظت مبكرة.. بقرار..

أنهت إفطار الجميع وتوجه حسن نحو عمله ومحمود نحو حصان وبقي خالد وحيداً





حتى أنه أصبح مؤخراً يتجنب اللعب وأغضب تميمة بالأمس وأخبرها أنه لا يودها أن تكون صديقته!!

وهي انزوت بنفسها كثيراً في الأيام السابقة..

قرأت عن مواضيع شتى وحادثت طبيبة ما مختصة بسلوك الأطفال وهجرها النوم قلقاً على وليدها..

وسيمها الصغير

بل أوسم رجال مزرعة رضوان كما تخبرها إيناس..

والصغير كان وحيداً بغرفته يحرك سيارة فوق حاجز الفراش دون متعة..

توجهت نحوه لتمرر أنفها فوق وجنته الناعمة ورددت بصوت متذمر:

- حبيبي مش هيفطر!

استدار نحوها فأجاب بسؤال:





ـ بابا وافق أروح أركب حصان؟

لِما يظن أن حسن ربما لن يوافق؟.. لِما يظن أنه يفضل محمود عنه؟..

هذرت كأفكارها دون صوت:

"ربنا يسامحك يا حسن"

وتابعت بابتسامة واسعة لا تختص بها سوى ملامحه:

ـ بابا موافق جداً وعايزك تروح من النهاردة.

وكما توقعت..

ليس هناك لهفة أو ابتهاج..

خالد يفعل الشيء عنداً بمحمود ليس أكثر..

تابعت وهي تسحبه ليجلس فوق ركبتيها:

ـ وكمان في مفاجآة من ماما..





استدار نحوها بنكهة طفولية مشبعة في عينيه تفتقدها مؤخراً وسألها تلك المرة بلهفة:

ـ مفاجأة ايه؟

تنهدت:

ـ مش إنت بتحب الجيتار

نظر نحوها الطفل لا يفهم..

فتابعت هي بثقة:

ـ النهاردة معاد أول درس بالموسيقى.. وحتروح بالجيتار..

توسعت عيناه قليلاً وانفرجت شفتيه ليسأل بتردد:

ـ بجد يا ماما!

أومأت رقية رأسها بابتسامة ثم توجهت نحو غرفتها لتحضر الجيتار الكبير عليه





نسبياً والذي بدا مضحكاً وهو يحتضنه ببهجة..

ضحكت بدورها ثم قربت وجهها منه تهمس:

ـ عشر دقائق تكون لبست وروحت تصالح تميمة.

تبدلت ملامحه قليلاً وتحدث بنبرة جافة:

ـ تميمة بتلعب عند الحصان مع محمود

جذبته هي ليجلس فوق ركبتيها مرة آخرى:

ـ تميمة ومحمود إخواتك.. حتى لو محمود غلس شوية هو أخوك وما حدش ينفع ما يحبش أخوه يا خالد..

تذمر مسرعاً وبنبرة عالية لا تعتادها منه:

ـ بس هو مش بيحبني وكمان بابا!

بهتت قليلاً وكلمته تصدو بأذنيها

"وكمان بابا"





حركت ملامحها بتحكم عضلي قاسٍ كي لا تبكي وابتسمت بتشوه يحاول ثم تابعت مسرعة:

ـ لو محمود مش بيحبك متكونش زيه.. لأن ده مش صح وربنا بيحب الحلويين اللي بيحبوا كل الناس.. مش عايز ربنا يحبك

أومأ خالد رأسه ببراءة فتابعت هي بثقة أكبر:

ـ وبابا بيحبك قوي قوي قوي.. اوعى تقول كده.

صمت خالد ولم يعقب فاحتضنته بقوة متنهدة:

ـ ودلوقتِ تروح تصالح تميمة.. وهي في البيت علشان تعبانة النهاردة وزعلانة ما راحتش تلعب.. اتفقنا.

وحرك خالد رأسه إيجاباً وبدا أكثر سعادة





يستعيد صديقته ويمارس هواية يعشقها ومعه جيتار حمزه.

****

حورية..

حسناً هي اجتهدت واستحقت لقب زوجة ثالثة..

ولو علم والده بأنه مر بزيجتين بعد عبير زوجته الأولى وابنة عمه لأصابته سكتة قلبية موجعة خاصة أن الثالثة راقصة!!

راقصة!..

وما المشكلة؟؟!!

أعطته الراقصة ما عجزت عنه ابنة العم التي لا تتقن سوى أتربة الفرن وخبزه القاسي..





وأعطته ما أبخسته من قبل الجامعية التي هربت منه لمجرد أنها عرفت أنه صاحب مؤهل متوسط لا يرقى لها..

نعم قبل حورية كانت هناك ولاء..

وولاء كانت جامعية رقيقة رآها مصادفة برحلة بحرية عندما كان يعمل مجرد خادم على اليخوت..

ولم تلحظه بل أنها أهانته لأنه أوقع بعض العصير فوق رداءها دون حتى أن تتبين ملامحه..

ودون أن تعرف أن الأنيق الذي طلب يدها بعدها بعام واحد هو نفسه العامل الحقير كما زعقت بوجهه من قبل..

ولم تبالي لا هي ولا أبيها بتقصي ولا باستفسار أمام النقود التي رماها فوق طاولتهما تحت مسمى شبكة ومهر ومؤخر صداق



بيعة وتمت

وبعد عقد القران وقبل الزفاف بيوم واحد علمت الحقيقة لتنفجر بوجهه تطلب طلاق!

هكذا بكل بساطة..

أهانته من جديد لتهرب من رائحة عرق عمالته.

ضحكة صفراء مرت فوق أسنانه وحورية ترص أحجار دخانه وتدلك قدميه بيدها الأخرى وهو يتذكر..

يتذكر الجامعية المتذمرة التي أركعها تحت قدميها بفستان ممزق تطلب الرحمة بدلاً من أن يعيدها لوالدها تنقص لقب آنسة وتحصل على الطلاق بلقب متزوجة بحق.

ولم يثير ركوعها به سوى شهوة!

شهوة وانتقام استمرا لمدة أربعة أيام!

أربعة أيام احتجزها بمنزل الزوجية الذي رفضته, أربعة أيام نالت عقابها كزوجة متمردة..





أربعة أيام نهل منها حتى استكفى وأعادها

كما وعدها

امرأة بفضله..

- مزاجك مش رايق يا سي صبري

هكذا يجب أن تنادي الأنثى رجلها..

تستحقه حورية فهي تتقن دلاله..

رقصة ومزاجية دخان وركوع تحت امرته

وقتما يشاء..

ولم يجيب..

فقط أسند رأسه للوراء يسحب دخانه,

فاعتدلت لتجاوره لتملس برقه بسباباتها

فوق خصلات رأسه وتسأله من جديد:

- مركب منصور؟

لمعت عيناه..





هو أصبح لا يود فقط مركب منصور بل ابنته أيضاً..

تلك الجامعية التي تحتقر كل ما يخصه وتظن أنه نكرة لا يستحق, تظن أنها بمأمن بمنزل فاتن أم تظن أن أمثال حمزه وأمين سيمنعوه عنها وقتما يريد..

زادت لمعة عينيه مع ابتسامة خاصة

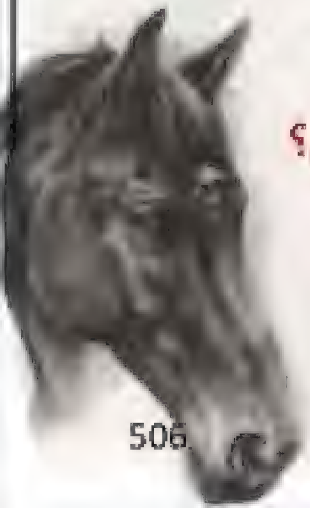
ابتسامة قاسية تعرفها حورية جيداً وتخاف من توابعها..

سحب هاتفها وضرب رقماً حصل عليه منذ أيام وحان وقت استخدامه والصوت الرقيق هناك..

يجيب بأريحية تامة وكأنها لم تتعرض شبه محاولة قتل منذ أيام وكأنه لا يخيفها!

ـ الو

ـ ازيك دلوقت يا بنت الغالي؟





نبرته.. تبجحه.. وسخريته.. وشبه رجولة على هاتفها..

أغمضت عينيها تطلب ثباتاً لتجيب بنبرة زاعقة تناقض كل ثبات تدعيه:

- مش بنت منصور اللي يهددها واحد زيك!

نظرته القاسية أصبحت أكثر توحشاً..

حتى أن حورية انسحبت وفكرت جدياً أن تهرب من صحبته تلك الليلة..

وليلى لا تخافه بل تزيد:

- ولعلمك مش حد تاني.. أنا اللي حاعرفك مقامك كويس!

صمت وقت ليس بقليل ولم تكن تعلم أنه يتحكم بغضبه قبل أن يهمس بفحيح متخابث:

- فاتن مش هنا النهاردة وبكرة.. صح؟

رغماً عنها.. كأنثى.. كفتاة.. تسارعت ضربات قلبها..





فاتن تتركها ليلة كل جمعة وسبت وتبيت برحلة صحراوية مع فوج يتبع الفندق الذي تعمل به..

الأمر مجهد من بيات وتحضير طعام واهتمام بالضيوف ونوم بخيمة بالعراء ولكن العائد يستحق..

ولا تعلم ماذا أصابها فقادتها غريزتها نحو مزلاج الباب ونحو النافذة ونحو منفذ المطبخ والهاتف فوق أذنيها وفحيح صبري ينتصر:

- بلاش عند بدل ما أفاجئك بزيارة علشان أشوف حتعرفيني مقامي ازاي ساعتها

ولم يزد ولم تحتمل أكثر..

أغلقت الهاتف بيد مرتعشة وبعقلها تشوش أكبر منها وتصميم قاسي بأنها يجب أن توقفه عند حده ولكنها لا تعلم كيف.

ورمقت الهاتف من جديد..

ولكن كملاذها الأخير





رسائله النصية البسيطة والبهجة الغير مفهومة

ـ صباح الخير

ـ تصبحي على خير

مناوشات! من نوع آخر..

ومنذ قليل أخبرها أن هناك رحلة صيد مع تحسين ولم يتصور أنها ستهاتفه بعدها بربع ساعة..

ولما يبتسم؟.. ولما أصبح الهاتف صديقه!

هي فقط رسائل نصية ليخبرها أنها ليست وحيدة..

ألم يحتج هو لأصدقاء في بداية عمله هنا؟..

لمن يخبره "صباح الخير"..

أو يهتم بمساءه بـ "تصبح على خير"

أن يخبره أحدهم أنه رأس عنيد وأن خصلاته القصيرة هي أجمل خصلات



وقع بصره عليها، وأن شفتيه بلونهما الوردي المميز وهذا الإمتلاء خاصة بالسفلى منهما والتوتر الذي يصيبهما يثيران جنونه!!

وضحك من جنوح أفكاره وسحب الهاتف لتجيبه هي بأكثر نبرة مرتعشة لمسها منها يوماً حتى أنها أجفلته فظنها مريضة ولكنها نفت بنفس الصوت المتردد:

- لا أنا تعبانة شوية وما اعتقدش حاقدر على رحلة بكرة

كانت تكذب..

كانت خائفة أن تتحرك وحدها برحلة مسائية.

وتعود للمنزل وحدها بظلمته ولم تستطع أن تخبره بالحقيقة

ولم يفهم..





والغريبة أنه أصر وطمأنها أنها بخير وتحتاج هواء نقي لا أكثر..

وحاولت مرة أخيرة:

- بلاش علشان ما يتهوش تاني

وأجاب هو بثقة وإصرار:

- ما تخافيش أنا ضامن إنكم مش حتوهوا المرة دي!

ورضخت في النهاية متحدية خوفها وجبنها إن صح التعبير..

وكان هو يثق أنها لن تضل الطريق..

ببساطة لأنه سيكون معها.





الفصل الخامس عشر

صرتِ أنتِ كل النساء
بسمتك وعنادك سعادتي
رفضك وخجلك مرحي
نبرتك وصدقك لهوي
عطرك وصوتك عشقي
غيرتِ عاداتي وأوقاتي
وأصبحتِ عالمي وميقاتي
عرفتِ بسمة القلب لحياتي
وعادت لي بعض مشاعر الماضي

.....

هل أخبرتك أنك اربكت حياتي؟
ودق قلبي واحمرت وجناتي
وخفتت نبرتي وسطعت ابتساماتي
معك أنسى مخاوفي وتتبدل أحزاني
تحرك بعطرك أمواج نفسي
لأنسى نفسي وزماني

اهداء من إيمان حسن

"همسات حالمة"





عندما هي تحب..

لا يصح أن نختزل الحب بكلمات..

وهو رجل..

لا يجوز التعبير عنه بالكلمات..

قهوتها الصباحية هي نبض أفكار, حتى رغم انشغالها ورغم العمل ورغم موعد استيقاظ تميمة, هي تحافظ على تلك الدقائق معها أمام النافذة حيث تراقب خيوط الشمس..

وهو أخبرها مرة أن الشمس تناسب ضوء عينيها.

هو ليس رجل كثير الغزل ولكنه يُنَكّه كلماته بنظرة تتنوج أنوثتها عنان السماء..

وهي دوماً كانت تكتفي بالصمت

طالما كانت تلك هي القواعد

يغازل فتصمت وتبتسم خجلاً..

يُقَبِلها فتستسلم برضى..





يحتضنها فتدفن رأسها بين ضلوعه..

يبتعد فتنأى بنفسها هي الأخرى في انتظار قراراته..

ابتسامة غريبة امتلكت شفتيها..

ليست ساخرة وأيضاً لا تقصد بها سعادة..

بل هي ذكرى خانقة لتلك اللحظة عندما تسللت خلفه المغناج تعرض نفسها بابتذال..

تطبق شفتيها فوق شفتيه في عرض مخصص لها هي..

وكأنها ودًت اهداءها لمحة ترويجية عن ما سيكون عليه الأمر إن لم تكن هناك!

وترفض أن تفكر أو تخاف أو تحلل أو ربما تظلم..

ربما لم يكن ليحدث شيء، كان سيصفعها كما فعل أمامها تماماً..





وتُرضيها النتيجة ولكنها لا تتركه للفراغ ولا تقبع بمقعد المشاهدة كما اعتادت..

ببساطة تبتكر فهو رجل يستحق الابتكار..

وكان هو يقف على بعد أمتار منها يراقب هذا الشرود الذي كان يتمنى فيما سبق أن يكون بشأنه!

ولا ينكر أنه نال أكثر..

وامتلكت شفتيه هو أيضاً ابتسامة لكنها لم تكن غامضة كتلك التي اجتاحتها بل كانت ذكورية خالصة..

تتذكر ظهورها المفاجئ مساء الأمس بغلالة فاضحة!

بندقيته تتخلى لأول مرة عن خجلها وعن إطلالتها التقليدية وترتدي ابتكاراً مهلكاً مع امرأة مثلها..

وهو رجل مثل أي رجل لن يرفض مثل هذا ابتكار!!



استدارتها قابلها بنفس الابتسامة وكان يبدو أنها أخذت حمامها الصباحي لدورها واكتفت بمئزرها القصير على خف يوازي لونه، وتركت خصلاتها المبللة منسدلة على كتفيها..

اتجه هو نحو ماكينة القهوة..

مظهره يخالفها تماماً،

عاري الصدر ومشعث الشعر نوعاً ما ويرتدي سروالاً بيتياً مريحاً..

شعرت بذراعه حول خصرها يجاورها ويرتشف قهوته دون حديث، لم ينظر نحوها ولكن نبرته الدافئة فعلت:

ـ البشكير ده في حد ذاته عندي ابتكار!

لوت شفتيها بابتسامة راضية وضربته ضربة خفيفة فوق كتفه فضمها نحوه أكثر، وأخذ رشفة من قهوته قبل أن يضعها على





طاولة جواره ويقرب إيناس نحوه أكثر ليطبع تلك المرة قُبلة مختلفة..

حنونة فوق رأسها تماماً ولم يتحدث هو فقط هي قالتها:

ـ بحبك..

نعم تحتاج أن تقولها هي أحياناً ولا بأس من كثيراً

تحتاج أن تُخرجها من حين للآخر لأجلها قبل أن تكون لأجله

تحتاج أن تخبره كم تحبه وكم تعشق كل تفاصيله..

هي لن تغازل خصلات شعر ولا عينين..

الأمر ببساطة أنها تشعر بالأمان فوق صدره ويستقر عالمها طالما كان هواءها أنفاسه.



مروة جمال



وتركت قهوتها وأسندت رأسها فوق ضلوعه وأحاطت خصره بكلتا ذراعيها وكررتها..

بملامح أكثر راحة وابتسامة راضية همستها من جديد في قانون جديد بدا وكأنها تسنه هذا الصباح:

- بحبك

****

كانت المرأة الخمسينية مبكرة في كل شيء كعادتها وعندما فرغت من توبيخ الموظفين اتجهت نحو العمال وأعطتهم دروساً قاسية في الاستيقاظ مبكراً والعناية بالنباتات..

كان هو ما زال في انتشاءه الصباحي، قهوة ومئزر حلو الرائحة وصوتها يردد أحبك في إطلالة رومانسية لم تستمر طويلاً حيث رسمت تميمة مشهد النهاية باستيقاظ مفاجئ واقتحام مندس بينهما لترفع





نفسها في حضن أبيها بغيرة طفولية مبهجة أضحكت إيناس حتى دمعت..

كل هذا يتبخر مع صوت مدام سندس ونبرتها المميزة..

المستفزة!

نعم مستفزة..

كررها عقله وهو يضيق عينيه ويلمح العجوز تقف بمدخل المطعم الرئيسي أمام

ممر طويل مزين بأجود أنواع نباتات الزينة وعلى اختياره, تزعق سندس بعامليه وصوتها بدأ يغزو غرف الضيوف:

- كل يوم تسقوا الزرع.. وبعدين أنتم اتعلمتوا فين بالضبط؟.. الزرع محتاج شمس.. انقلوا الكلام عند حمام السباحة حالاً

- روح يا فتحي أنت ومصطفى دلوقت.

كانت نبرته هو آمرة.. وأعلى..





فانسحب العمال على الفور راضيين بتخلصهم من العجوز..

وحتماً إيناس ستحتاج ابتكارات أقوى لتكفر عن خطئها المتجسد أمامه!..

رفعت سندس أنفها باستعلاء وردّت!!

وهذا كافي..

هي سترد وربما تود أن تلغي قراره.

تلك المرأة هالكة لا محالة, وعندها شيئاً ما أوقفها..

نظرته الغاضبة وثقة ما في ملامحه أن لديه ما سيخرسها!!

كانت محقة..

اقترب منها هو يضع قبضتيه بجيوب بنطاله كعادته في إلقاء الأوامر, وهمس بصوت خفيض وليس عالٍ مثلها..

خفيض ولكنه آمر بدرجة مخيفة:





ـ كل واحد يركز في تخصصه يا مدام سندس.. وأعتقد الزرع مش شغلك!

بدَت رافضة وهمَت لتنطق ولكنه أوقفها بتكرار بطيء ونافذ:

ـ ابقي افتحي الإنترنت واقري عن نباتات الظل.. ما عنديش وقت أشرحلك وشوفي شغلك يا مدام بدل ما تحرقيلي زرعي!

وتركها ورحل وتنفست هي بسرعة منخفضة..

ليس لطيفاً كزوجته ولا يحبها بالتأكيد فعلى ما يبدو أنها عُينت على غير رضاه

وأهداها هي هذا ابتسامة..

من نوع ثالث مختلف تماماً..

ابتسامة متشفية!





فهذا الخشن الملامح شديد النبرة مع موظفيه يبدو أنه يستمع في النهاية لكلام زوجته!!

وهي بفترة بسيطة استطاعت أن تعرف من هم قاطني المزرعة..

خالد وزوجته الهادئة الملامح بطفلة شقية..

وهناك امرأة أخرى اسمها رقية معها طفلين رغم أنها تشك أن أحدهما ليس ابنها وزوجها المهندس حسن مختص بأغلب المعاملات الروتينية والمالية ولا يظهر بمزرعة الخيول كثيراً, فخالد يوكل له الاهتمام بالجزء الآخر من المزرعة والذي يبدو أن ساكنيه منفصلين نوعاً ما عن هذا الجزء..

وهذا أفضل فهي امرأة لا تحب الصحبة.

رغم أن ملامح هذا الطفل تجذبها ولا تعلم لما!





رأته أكثر من مرة عندما صحبت جولة أحد النزلاء بمضمار الخيل وأحياناً تلمح تجوله بقرب مدخل الفندق يدحرج كرة ما ويلعب وحيداً ولا يشبه أباه كثيراً حتى أنه لا يشبه رقية ولا طفلها الآخر الوسيم المدلل..

حتى أنها شبه متأكدة أنه ليس بابنهما..

ربما هو فقير من العائلة يحتاج لرعاية، ولكن على ما يبدو تلك الرعاية لا تمنحه سعادة!!

ولا تعلم ما الذي أصابها فقررت أن تحادثه تلك الظهيرة..

ربما لأنه مثلها في عزلة، ربما لأنك لا تصطدم كل يوم بطفل يحمل ملامح رجل حزين.

ربما لمعة المعاندة الخاصة في عينيه وتوجسه مع اقترابها لتعطيه بعض الفطائر.. رفض في البداية ولكنها أصرت واختارت مقعداً جانبياً لتجلس فوقه





تتناول غداءً بسيطاً معه وأحضرت أيضاً بعض العصير

نظر محمود للكوب بابتسامة غريبة مردداً:

ـ عصير فراولة!

ناولته سندس الكوب وقد استوعبت رغبته به:

ـ شكلك بتحبه قوي؟

ارتشف محمود العصير وقد شرد نوعاً ما ثم قال بنبرة باهتة:

ـ جدتي كانت بتعملهولي أوقات!

وصمت قليلاً قبل أن يرتشف الباقي دفعة واحدة ويُكمل:

ـ لما تكون قادرة.. أصلها كانت على طول تعبانة

صمتت سندس تراقب الطفل بحزن ولم تستطع أن تمنع نفسها من السؤال:





ـ فين ماما؟

لم تتأثر ملامحه!.. أجاب ببساطة:

ـ مش موجودة.

كما توقعت..

هذا الطفل يبدو يتيم الأم ولكن هل هو يتيم الأب أيضاً؟!

ناولته شطيرة فقضمها دون شهية..

سألته مرة أخرى:

ـ طيب وبابا؟

استدار نحوها..

وتلك نظرة رابعة!

نظرة شاردة بها غضب وربما قهر..

تلك السيدة لا تظن أن رقية أمه وربما هي من أخبرتها..

ولكن أبيه..





هل الباشمهندس أبيه لم يخبر الجميع هنا بشأنه؟!!

أم أنه لا يبدو ابنه مثل خالد..

وقبل أن تكرر سندس سؤالها كان جوابه:

- مش موجود.

وسؤالها الأخير لا تحتاج أن تسأله..

هو قرر أن يهديها الجواب الذي يريحه والذي حتماً يستحقه حسن!

- دول مش عيلتي وأنا قريب حسيبهم وأرجع مكاني.

ورحل الطفل الغاضب وقد أكد حدس سندس...

هو طفل مُتبنى!!

****





تحسين رجل سمين بعض الشيء وله وجه أبيض تشوبه حمرة..

وحمزه طالما يمزح معه ويناديه الخواجة تحسين.. ويعشق هو حمزه، وأصبح الغواص الوسيم صديقه ومنسق جميع رحلاته هناك.

ولم يتفاجئ تحسين بصحبة حمزه في رحلة الصيد تلك، فالفتاة تهمه وهذا بيِّن منذ الرحلة الأولى..

وكان مسلياً أن يبتزه في بداية النزهة بشأن اخبارها بخطتهما سوياً في المرة السابقة! ورضخ حمزه غاضباً احمراً كثمرة طماطم ناضجة واعداً بهدية ثمينة من السيجار الكوبي الذي يعشقه تحسين!.

وتحسين لم يغفل أيضاً عن مراقبة ملامح ليلى التي تبدلت فور رؤية حمزه..

ارتباك وهروب ونظرة مترددة تخطف ضوءً نحوه وتهرب من جديد كلما اصطدمت

رائعة هي مراقبة العشق الوليد





لا تصدق أنه معها تلك المرة ويراقبها دون تردد..

يرتدي قميصاً مفتوحاً فوق سروال قصير ويجاور تحسين وضحكاتهما طغت على صوت البحر..

يرتشف مشروباً غازياً ما..

وكلما نظرت نحوه يضبطها وتلتقي عيناها معه ويبتسم..

ابتسامة غريبة..

واثقة وكأنه يخبرها أنه يعلم..

يعلم ماذا؟!

ليس هناك شيء وهي لا تهتم..

هي يجب أن تفكر بصبري وتوعده الجبان مثله..

هي لديها أسرتها, والقارب, وعدواة, ومسؤولية..





ولا وقت لديها لوسيم يبادلها النظرات..

والاهتمام.. والسؤال.. والنبرة الدافئة..

ومشروب الشاي بالحليب!

فركت جبهتها علها تطرد كل زحام الأفكار وعندها جاءها صوت صافي المرأة صاحبة مركز التجميل من المرة السابقة وصديقة جيهان..

لم يجفلها صوت صافي فقط بل سبابتها التي نقرت فوق وجنتها وهي تضحك وتحادث جيهان:

ـ بما إن المركب واقف وهما هيصطادوا ويزهقونا إيه رأيك يا جيجي أعمل لـ "ليلى" نيو لوك؟!

استدرات ليلى مع ذكر اسمها لا تفهم وردت جيهان:

ـ سيبي البنت في حالها يا صافي..





هي مش محتاجة.

لم تكترث صافي لكلام جيهان ونظرت نحو ليلى بتفحص وبدأت تتأمل وجهها باحترافية ثم قالت:

- في نص ساعة هديها طلة مختلفة ومناسبة على فكرة لجو البحر واللبس بتاعها.. معاكِ سكارف؟

تنهدت جيهان:

- معايا يا رايقة!

عندها نطقت ليلى باعتراض وخجل:

- لا.. لا أنا مليش في الكلام ده.

وكأنها لم تقل شيئاً فجذبتها صافي من يدها لتأخذها للقمرة السفلية وكانت تردد:

- ما تخافيش.. أنا ألواني هادية وبشتغل على الإضاءة والظل ولو ماعجبكيش امسحيه قبل ما نطلع.

- ايوة بس..





وكان هذا آخر ما قالته ليلى ولم تعطها صافي فرصة وبدأت على الفور..

وربما فضلت ليلى الهروب قليلاً من أمام حمزه..

وربما لمسة مستحضرات التجميل فوق وجهها أعطتها إحساساً ناعماً خدرها..

وربما صافي تلك مقنعة لدرجة مخيفة..

لا تصدق ملامحها بالمرآة!

هي كما هي لا تختلف وليس بوجهها فوضى ألوان ولكن..

بشكل ما أجمل..

أجمل!!

تحولت نظرته لغضب..

ماذا فعلت تلك المرأة بليلاه؟!!

وجهها مشرق بطلة مختلفة..

وعيناها تهدي نظرة بألف معنى..





وقبعتها طارت والحمد لله ولكن الخصلات منسقة بربطة أنيقه تحيط مقدمة رأسها وتترك باقي شعرها منسدلاً على جانب أذنيها..

شفتاها بهما لمعة صباحية معتدلة وردية..

تبيح لعقله تصور النكهات..

وامتلاء بدا ظاهر أكثر ومعتدل بقياس محترف..

وتضحك..

تبتسم لحديث جيهان وصافي وهمس تحسين بمكر:

ـ أنا بقول جيهان وصافي يساعدونا في الصيد ونسيب حمزه والكابتن ليلى يركزوا في السواقة!

لم يكن صديقه يدرك شيئاً.. فقط تذمر موافقاً:





ـ يا ريت ومكان أحسن يا حمزه.. هنا السمك سمك زينة!

ومن وسط ابتسامتها لم تستوعب سوى صوته يزعق باسمها طالباً التحرك لبقعة جديدة وبدا أنه سيجاورها لتوجيهها..

ولم تدرك سوى أنها وحيدة معه بمقدمة القارب والباقي في الخلف في مزاح لا تعرف أن به همسات بشأنها خاصة بين جيهان وصافي التي همست بمكر:

ـ الواد ما استحملش يا عيني!

نظرت نحوها جيهان بتفحص:

ـ أنتِ مركزة بقى!

تنهدت صافي متابعة بابتسامة:

ـ الحكايات في أولها لذيذة.. ولا ـنتِ ناسية!

ضمت جيهان حاجبيها في يأس وهي ترمق تحسين وسمكة في يده بحجم عقلة الأصبع ثم همست:



ـ طيب وفي آخرها؟

ضحكت صافي بشدة حتى أدمعت لتضع ذراعها فوق كتف صديقتها بمؤازرة ودون تعليق..

****

هل عليها الآن أن تختبر غضباً لا تفهم سببه!

انعقاد حاجبين وشفتين رفيعتين مزمومتين بجانبها..

ذراعه يتحكم بعجلة القيادة دونها وكأنها غير موجودة..

ولم يحاورها ولم يلتفت نحوها وقد مرت أكثر من نصف ساعة..

فجأة ودون ترتيب منها وجدت نفسها تزفر بصوتٍ عالٍ لتتحرك من جانبه راحلة لتوقفها منه نبرة آمرة:

ـ رايحة فين؟





على الرغم من أن السؤال ليس من حقه كما انفراده بقيادة قارب أبيها ردت بديناميكة توازي جفاءه:

- هأقعد هناك.

كان يعترض طريقها بجسده فلم يكن يُسعفها مرور سوى بحركة منه ولم يحدث..

بل زاد من احتجازه ليتابع بصوت خشن:

- أنتِ هتفضلي معايا هنا!

حينها استدارت نحوه وقد لمعت حدقتيها تماماً كما تسحره..

والآن الحدقتان محددتان داخل ظل أعين ماكر يوازي الطبقة اللامعة فوق شفتيها وهو ينظر..

حسناً فسينظر وسيطيل النظر أيضاً فلم يعد باليد حيلة!..

هزت رأسها بغضب لا تفهم وهو رغم تحديقه لم تتبدل ملامحه الغاضبة بل زاد مردداً:





ـ قبل ما نرجع على الغردقة تمسحي اللي في وشك يا ليلى.. مفهوم!

لا تصدق أنه قال هذا لتوه ولا تعلم هل نبرتها عالية أم أن البحر آثر الصمت ليستمع بدوره..

وحتى كلماتها خرجت غير مرتبة فكل ما تتذكره صوتها الغاضب وكلمات:

ـ نعم!!.. وأنت مالك؟؟.. ما اسمحلكش..

ولم تزد..

كان هو قد استدار ليقترب منها مما أجفلها فتركت وجه حمايتها الذكوري وتشبثت بطبيعة أنثوية أعادتها للخلف..

خطوتين

ربما ثلاثة..

أربعة..

ولما هو يقترب؟!





حاجز خشبي خلفها أجبرها على التوقف وحينها كان همسه قريباً ومحذراً وهي لا تعي أنه شغفاً:

- هو ينفع يا كابتن ليلى نتحرك بين العمال بعينيكي دي.. وكمان شفايفك دي..

كانت تتنفس بقلق وهو أيضاً بدا تنفسه أسرع عندما سمع نفسه ولكنه لم يتوقف بل تابع:

- سماح في الرحلة لكن قبل ما نوصل هتمسحيه يا ليلى!

أخفضت بصرها في غضب لتوجز كلمتها في حروف مسرعة:

- عديني يا حمزه..

لم يتحرك..

نظر نحوها بإصرار وكرر أمره بنفس الهمس الصارم:

- هتمسحيه يا ليلى!





وليلى العنيدة تعاند أكثر فما كان منها إلا أن نظرت نحوه بتحدي لتعطه بدورها أمراً مختلفاً:

ـ شيء ما يخصكش وما تتدخلش في أموري تاني..

حينها لمعت عيناه بغضب لم تفهمه ليقترب منها وقد أصبحت المسافة بينهما لا تصح ولكنه لم يبالي..

بل وصلتها كلماته محذرة وإن بدت معاتبة:

ـ أنتِ بتستعبطي صح!

رفعت عينيها نحو وجهه وإن كانت تهديه غضباً فهي من داخلها ترتجف من القادم..

هي لا تود مصارحة ولا تلميح ولا اقتراب أكثر من ذلك..

قد تخسره بسببه..





فما كان منها إلا أن حركت أصابعها فوق صدره في حركة لا إرادية وغبية بذات الحين..

كانت تود المرور فوضعت يدها فوق صدره العاري!..

أي حماقة تلبستها اليوم!!.

عادت للوراء مرة أخرى وقد توردت وجنتاها خجلاً رغماً عنها وأخفضت بصرها لتطلب بضعف اجتاحها تلك المرة:

ـ لو سمحت عديني يا حمزه

حمزه!

غارق حمزه.. وضاع حمزه..

وأنت السبب يا أمين!

سأقتلك.





ولكن سأقبّلها أولاً!

وسأتزوجها وأنجب منها سبعة أطفال

أناديهم أمين وأسبهم كل ليلة..

وربما هو شرد كثيراً وما زال يحتجزها ولكن

تبدلت ملامحه فلم يعد غاضباً..

اجتاحته ابتسامة

تلك التي بها تشبع.. رضى.. وشغف بضربات

قلب لا يمتلك سوى أن يرضخ لها وكررت

هي كلماتها مضطرة لتهرب:

ـ هامسحه حالاً سيبني أمشي بقى

كانت تتوسل بغضب!

وهذا وحده لذة..

والحب لحظة

واللحظة متعة

ومتعته بهذا الوقت شفتيها

سيحتوي تلك الشفتين ويزيل تبرجها

بنفسه..





والمرأة الحمقاء ستتسبب لها وله بفضيحة وسط أمواج البحر وهو إن بدأ لن يتوقف..

وأغمضت هي عينيها لأنه اقترب أكثر وهمست تحذر وترتعش وتخشى وستضرب بيد من حديد وقت المواجهة:

ـ لو قربت هتندم يا حمزه!..

وعندها كان هو يبتسم بالتواء جانبي مبتهج بالضبط أمام شفتيها ليصلها همسه الحار:

ـ عارف

وحينها فقط تركها تمر!!

****

وكانت غاضبة منه وأكثر من نفسها!

هو لم يفعلها وهي مسحت كل تبرج وضعته صافي..





وبها ندم وبهجة!

نعم بهجة أنثوية خالصة لا تستطيع التحكم فيها

لأنه اقترب ولأنه توقف ولأنه همس فوق أذنها قبل الرحيل

- آسف

وطلب أن يوصلها ورفضت قبل أن يكرر..

وهربت نحو أول سيارة أجرة وشعرت بالراحة لأنه خلفها ولأنه ظل واقفاً بسيارته ليطمئن على وصولها..

ولأنه بعث برسالة نصية قبل أن تفتح باب المنزل..

- تصبحي على خير!

وزمت شفتيها غاضبة ورافضة وتدرك أنها تهتم ودون وعي كانت تغلق الباب..

وكانت تنظر للهاتف ولا تعلم أنها مبتسمة





وأنها تفكر به وتريد التوجه نحو النافذة لرؤيته..

شيء بسيط للغاية أوقفها..

تهديد كانت نسيت بشأنه وصوت حركة خلفها تخبرها ببساطة أنها ليست وحدها بالشقة!!





الفصل السادس عشر

أنا الغريب في القلوب والعيون

أنا الجمل الذي يهرب منه الجميع

أنا اللعبة الذي زهدها صاحبها

أنا الصغير الذي هرم قبل الأوان

أنا التائه بلا وطن يحتضني ويشعرني بالحنان

أنا الدموع المتحجرة في العيون

أنا الصرخة المتجمدة في الصدور

أنا العنيد الذي لن يطلب اللجوء

أنا الوحيد وسط الجموع

إيمان حسن

"بلاش عند بدل ما أفاجئك بزيارة علشان أشوف حتعرفيني مقامي ازاي ساعتها"

صمت رهيب اجتاح أذنيها للحظات قبل أن يكرر عقلها كلماته, بل فحيحه.. أصبحت





على يقين أنه نفذ تهديده وربما هو معها بالشقة الآن..

ورغم أنها فعلياً لم تستشعر حركة واضحة خلفها إلا أن تكرار الصوت أفزعها..

مثل ضربات عشوائية وكأن أحدهم يدخل عنوة، أم ربما يخرج من مخبأ ما..

وحينها فقدت كل شجاعة واهية اصطنعتها يوماً، وكادت أن تفقد قلبها بدقاته خارج ضلوعها وهي تتراجع للخلف وتنقر على هاتفها متوسلة لآخر رقم:

- حمزه.. إلحقني.. في حد في الشقة!.

****

هل أخافها؟.. أم هو من يخاف؟؟.

تلك اللحظة عندما انفرد بها..

عندما اقترب للغاية، أدرك أن كل ما بشأنها أصبح خارج سيطرته..





هي لن تحتمل إذا ترك لنفسه العنان.

مرر أنامله بقسوة داخل خصلات رأسه ولكنها كانت قسوة مشبعة بابتسامة..

ابتسامة تختص كل تفاصيل بشأنها ودون اختيار منه تُهديه لذة..

لذة مُجهِدة من نوع خاص ممزوج بنفحة شوق

أيشتاقها الآن!

هل يجوز أن يحادثها؟..

يدلل أذنيه بنبرتها ويشاكسها فيمتع تخيلات عينيه.

أم كفاه كل تلك المقدمات وليقترب منها كما يجب أن يكون العشق..

ونوعاً ما أفزعته الكلمة..

هل عشقتها يا حمزه؟!

تختبر لوعة قلب مع المشاكسة ابنة منصور..





والمشاكسة هل تملك حاسة سادسة أم أنها تسيطر على عقله فيصدو هاتفه باسمها تخيلاً!

وبعد هذا كل خطواته كانت في لمح بصر..

نبرتها المرتجفة..

تصريحها المرتعد عن وجود لص بالشقة..

وصراخه بها أن تخرج حالاً في قفزات موازية على درج البناية حتى وصل إليها..

كانت قد فتحت الباب بالفعل تتحرك مترددة والهاتف فوق أذنيها رغم أنه أغلق الخط! تتراجع للخلف بنظرات مرتكزة للداخل وهو يركض دون وعي فارتطم ظهرها بصدره لتستدير بشفتين شاحبتين وجسد بارد كالثلج...

وضع أصبعه على فمه في إشارة لكي تصمت ودخل هو وحده بخطوات محسوبة ليتجه نحو مصدر صوت آخر ما قد يوحيه وجود لص..





بل كانت أشبه بقرقعة نافذة تتحرك بعشوائية رياح، وكان محقاً فمع دخوله نحو المطبخ أيقن أن نافذته مفتوحة على مصراعيها مُصدرة هذا الصوت الذي أفزع ليلاه..

لا ينكر أنه ابتسم بمكر ليستدير عائداً لها وكانت هي تقف بجانب الباب في قلق واضح..

شحوب شفتيها قضى على اللمعة الصباحية وعيناها تتوسلان بتفسير.

زفر هو ببطء ليرمقها بتفحص ويقول:

- ده كان شباك مفتوح!

فجأة غامت عيناها بنظرة أربكته!

ربما راحة.. وربما حزن يعتريه خجل..

وكأنها ارتعبت من هاجس يقلقها وحدها..





اقترب منها ليطيل النظر بحنو تلك المرة ويردد بهمس حنون يناقض ثورته الصباحية معها:

- هي فاتن مسافرة ولا إيه؟

تنهدت هي ببطء لتجيب دون أن ترفع عينيها نحوه:

- هترجع بكرة..

ابتسم هو بحنو ولم يعقب ومرت دقائق قبل أن تدرك هي أنها وحدها معه وأن الساعة قاربت على العاشرة مساءً..

رفعت رأسها على الفور فاصطدمت بعينيه وهذا ما كان ينقصها..

نظرته نحوها تختصر كل شغف تجاهلته منذ ساعات..

بل هي الحمقاء التي هاتفته مستنجدة به ليصعد إليها بعد أن هربت من اجتياح محتمل بقيادته..



حمقاء..

حمقاء..

كان عقلها يرددها دون وعي..

حمقاء تنهار حصونها أمام تجاوزات حمزه..

ترتعد فزعاً من تهديدات الواهي صبري..

تسلم الجميع مقاليد أنوثتها وكل يستغلها بطريقته الخاصة..

ولكن..

حمزه يقترب رغماً عنها..

يلمس قلبها بجنون فتنتفض دقاته تمرداً على المتمردة لقربه..

كانت شفتيها قد بدأتا تعودا للونهما الطبيعي..

هذا الوردي المبهج بارتجافة عشوائية تثير حواسه..

أمال رأسه قليلاً وقد تبدلت عاطفة وجهه ليعود لطبيعته المشاكسة مرة أخرى..





ـ أنتِ لما بتتخضي بتبقي حلوة قوي!

عبارة لم تكن منتقاة ولكنها أيقظت حواسهما سوياً

هي نظرها مدقق نحوه في توجس وهو يلتهم ملامحها حد الإرتواء..

أذنها تلتقط حروفه بتحفز وهو يسمع ترجمة إحساس صارخ نحوها..

أنفها ممتلىء بعبق عطره النافذ وهو يتوسل عطرها هي دون أي رتوش..

يديه تجرأت لتحيط أناملها..

أجفلها فسحبتها على الفور هاربة من احتواء غير مباح..

أربع حواس..

النظر, والشم, السمع, واللمس..

ألا يحق له اختبار تذوق!





أدارت هي وجهها مسرعة ونأت ببصرها عنه بهروب مرتجف..

اللعنة..

هل أفكاره مسموعة!!

عاد ليمرر أنامله بخصلاته مرة أخرى وللأول مرة يبدو عليه ارتباك.. ليتمتم مسرعاً:

ـ أنتِ خايفة؟

هل هو سؤال أم جواب..

وهل خوفها منه هو أم من وحدة تحارب قسوتها..

من تيه بأمواج غريبة عنها ألقت نفسها فيها بقرار..

ولا تعلم ما بها فلم تجب..

وكأنها تعطيه أحقية أن يبلور سؤاله بطريقة أخرى بل يبلور جوابه مع اقتراب آخر..





حنون..

متأمل..

متردد..

وصادق بقسوة..

ـ أنا خايف..

وتقوس حاجبيها بشكل غريب..

ليس خوفاً وليس قلقاً ولكن..

انهيار

هي تُسقط كل حصن أمامه رغماً عنها وتلتزم بصمت عاجز..

صمت يرفض المصارحة ويرفض الهروب

يرفض المواجهة ويرفض الإستمرار

تقف هكذا بين لا شيء سوى أنه يقترب رغماً عنه..

سوى أنها نسيت بشأن صبري ولعنت هلعها الذي استنجد به..

فجأة تحدثت..





ربما لتوقف خطواته..

ربما لتقطع هذا الشغف منه نحوها..

الشغف ليس كلمات..

الشغف هو نظرته الأخيرة نحوها وكأنه يخبرها بوضوح أن وقت اللعب والتلميحات الجوفاء انتهى.

أن المصارحة آتية شاءت أم أبت.

ولهذا اختارت بضع حروف بنبرة مرتجفة وبأي شيء..

هي لا تمتلك وقتاً لتفكر بذريعة فلتقل شيئاً وبعدها يرحل..

وأغبى شيء

وأغبى همس من فتاة محتجزة مع رجل يضطهدها بعاطفة لا تفهمها وربما هو أيضاً..

نطقت دون وعي:

ـ خايف من إيه؟

وتصلب..





تجمد على بعد خطوتين منها..

سألته ما لا يود جوابه!

ربما مشاكسة القبلات أفضل في تلك اللحظة..

والحب لحظة

واللحظة متعة

والمتعة عيناها المرتجفتان مع اعترافه

- خايف أحبك..

****

ورحل..

ببهجته وطلته..

بصداحه وهواءه ونبض قلب مجنون ينتفض بين ضلوعها.

رغماً عنها هي تنبض.. كلها تنبض!





وملعون هذا الشعور وكأنه رحل وأخذ قطعة منها معه..

وبرودة ارتعابها أضحت حرارة تلتهم وجنتيها ورأسها وعقلها المتردد..

حمزه!

هذا الذي أفزعها بليلة مظلمة عندما قررت أن تتخذ من قارب والدها أماناً بجنح ليل،

المقتحم لعالمها بضوضائه وأمواجه وصديقاته وعينيه..

وارتخت ملامحها مع صورة عينيه أمام صفحة من خيال عقلها..

هي تتهاوى رغماً عنها..

تتهاوى به..

تفكر به..

وتتشرد به..





هي تحبه.

وربما مرت أكثر نصف ساعة مع صوت أنفاسها وابتسامة..

بل مع جنون وأفكار تعبث بها وتُنسيها إغلاق النافذة..

النافذة!

بهتت..

خيال آخر يرتسم أمام عينيها

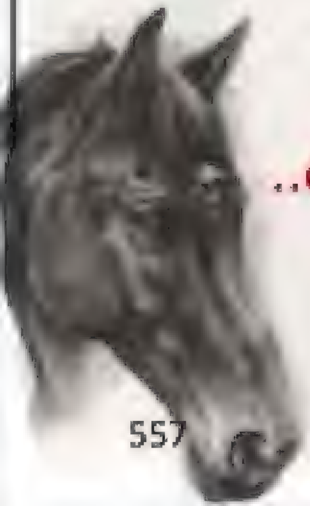
قميء.. كريه.. متبجح.

هي لم تغلق النافذة لأنها لم تفتحها من الأساس..

فاتن تكره تلك النافذة وتكره منبعها من الفئران, الوصايا العشر هي عدم الإقتراب من النافذة

وارتعشت بفزع..

أحدهم ترك النافذة مفتوحة..





****

نحن نعتاد المتاح..

نبرهن لحالنا أن لنا قرار, اختيار..

والحقيقة أننا نتشبث بذيول متعة لنرضى..

منزلها اعتادته كبيراً, أربع غرف وبهو واسع فزوجها وهي وثلاث أبناء..

وكان يحيى رفيق عمرها يحلم بمكان لأحفاده ولكنه رحل قبل أن يتسنى له رؤيتهم..

وابتسمت بجزع..

متذكرة أيام قدست فيها وحدتها..

تستيقظ فجراً وتصلي وتنال قهوة صباحية حذرها منها الطبيب..

تتجول بين محطات التلفاز دون هدف وتتناول شريحة جبن ما كإفطار.

وصديقة همست في أذنها بفكرة رفضتها بعنف..

أن تكفل طفل ما..





يتيماً دون ملجأ، تغدق عليه ويهديها حياة..

وبكت ليلتها فمع وجود ثلاث أبناء وحفيدان وثالث في الطريق هي تتسول عائلة..

ربما مثله..

هذا الشارد الملامح دون عائلة..

ذكرى صديقتها وفكرتها المنبوذة حينها اقتحمتها مع ملامحه..

ورغم أنها اكتسبت عمل بقرار لم تتصور أنه سيهديها اختلاف إلا أن رؤية محمود أنبتت بداخلها هذا الهاجس وتلك الأفكار القاتمة عن عزلتها..

عن حديث لا تتمتم به سوى لنفسك..

عن وجبة طعام تبتلعها وحيداً..

عن فراق مقيت يلتهمك وإحساس مؤلم أنك لم تعد منبع للعطاء.





وهكذا بعد مرور أسبوعين من التفكير الذي حتى منعها عن استفزاز خالد ونباتاته خرجت بقرار, وتوجهت في سابقة نحو اسطبلات الخيل حيث يؤدي الصغير تدريبه هناك ورأته..

كان يجلس فوق الرمال مرتكزاً بظهره على حاجز خشبي حول مضمار الخيل..

وبدا وحده بعيداً عن فوضى العمال وعن الفرسة البندقية المتهادية في الفراغ خلفه وفوقها الصغيرة ابنة خالد..

مدللة كقطعة سكر تذكرها بابنتها في وقت مضى..

ويبدو أنها تذمرت على السائس وتركت حصانها لتجاور محمود الذي بشكل ما أشرق وجهه لها, بل ساعدها لأن الحمقاء أفسدت ربطة حذاءها الزهري فأعاد عقده..





كانت تنظر ليديه بتركيز طفولي مبهج وقد استطاع أن يربط لها الحذاء كما تريد..

وضحك من طلتها الحمقاء فهي ترتدي سروالاً قصيراً بنقوش زرقاء مربعة فوق بلوزة صيفية بلون أحمر.. وتُصر فيما يبدو على الحذاء الزهري برباطه الملون كقبعة بلياتشو..

ولمحت ضحكته فنظرت مغتاظة:

- بتضحك عليا!

زادت ابتسامته ليحرك رأسه بالنفي دون جواب..

استقامت متذمرة تنظف ملابسها من الرمال وتكرر بغضب تمكن من حاجبيها الملونان بنكهة فرستها:

- لا بتضحك عليا.. مخاصماك!

تركته تميمة ليلحق بها محمود ويسبقها معترضاً طريقها كاتماً ابتسامته:





ـ خلاص متزعليش بقى.. لو مشيتِ حفكلك رباط الشوز.

ضيقت الصغيرة عينيها وقد تفجرت بوجهها جينات العنيدة أمها وتصلب رأي خالد فثنت جزعها لتحل رباط الحذاء وترحل!!

هكذا لقد خاصمته مجدداً وسيضطر إلى استرضاءها بالسكر..

ورغم أنه يمل دلالها أحياناً إلا أنه لا يستطيع الاستغناء عن صحبتها..

هي صديقته الوحيدة هنا والأولى أيضاً..

هو لم يصادق فتيات من قبل, اعتاد اللعب بالكرة مع أبناء الجيران واعتاد شحذ قوته ليصمد في العراك معهم.

قطب حاجبيه وهو يتذكر..





بل يتذكر أن له أخت فتاة يراها كل عام مرة

وهي لا تعرفه وتبكي كلما اقترب منها،

وربما هو لا يهتم..

لا يكن لها أي عاطفة ولا يحفظ ملامحها..

لا هي ولا التوآمان اللذان استنفذا مجهود

أمه على حد قولها..

كما أنه لا يكن أي عاطفة لخالد

بل..

بل هو يكره خالد

ابتسامته وقُبلة أمه على جبينه كل مساء..

جيتاره الأحمق وموسيقاه المزعجة وحضوره

المتقطع لدروس الفروسية معه هو

وتميمة..

و..

وتلك الليلة التي أقلقت منامه وصوت أبيه

وهو يقترب من فراش خالد يسترضيه.





يقبل رأسه ويخرج من جيبه له هدية

ويهمس في أذنه كم يحبه!!.. ويتذكرا معاً

عطلة الصيف السابق وما قبلها وقبلها

وتشهد صوراً فوتوغرافية على لحظات متعة

لم يكن له بها وجود..

وانقبض مستديراً متظاهراً بالنوم..

حتى عندما اقترب حسن من فراشه وعندما

قبل جبهته وعندما دس تحت غطاءه هدية

أخرى له لم يشعر بالاكتفاء..

شعر أنه مكرر.. مستنسخ..

موجود رغماً عن الجميع.

والعجوز تظهر من جديد..

تعطف عليه وكأنه فقير!!

حتى أنه رمقها تلك المرة بغضب..

غضب تحول لشيء آخر عندما سألته من

جديد عن أهله

ما زالت لا تعلم أن حسن أبيه..





ما زالت تظنه عالة ربما كما يراه هو.

وببريق غامض أكد لها..

أومأ بإيجاب لكل سؤال وغادرته مقتنعة أنه يتيم..

****

العرض هو حياة..

بداية وأحداث ونهاية..

ولكن حينها ربما نختار..

في عينيه هروب عميق..

هل قدرها أن تهرب بعينيه للأبد؟.. ترحل دون عودة؟.. تنأى بنفسها عن مشاعر العشق والاحتياج وتؤدي دورها كما يجب أن يكون؟.

كان لديه بيانو فخم أسود كما ذوقه..

ولعبت أصابعه على الأوتار بحرفية فيبدو أن ريشته ليست فنية الألوان فقط..





ومن دون موسيقى العالم اختارها هي..

المقطوعة التي تُذكرها به..

"مونلايت سوناتا"

أخبرها من قبل أنها لا تشبهها.. هي لا تشبه معزوفته الثمينة..

هي لا تشبه أي ثمين لديه..

ورقصت له مراراً على أوتارها..

تمايلت لأجله وهو قابع يشاهد، أهدته متعة وقرأتها في عينيه وتغاضت عن الغضب

عن نيرانه..

عن جحيم أفرغه فيها ومنها..

مؤلم أن تكتشف أنك مجرد وسيلة بهتت مع انقضاء الغرض.

وكانت تتأرجح باضطراب على مقعد في الجوار..



تاهت عن مراد وعن موسيقاه التي انتهت..

عادت لتلك الذكرى المنغصة الغير منسية..

ربما الموت ينسيها

ألا يقولون أن الموت سُبات.. فلتنم قليلاً علها تنسى!

ووقف خلفها ليحيط ذراعيها المرتجفين بقبضيته..

كانت هزيلة بل نقص وزنها أكثر في خلال الأيام الفائتة..

ولكن جمالها غير قابل للنقصان..

ورغماً عنه يفكر أحياناً..

كيف يمتلك رجل امرأة مثلها ويرحل؟.

رفع جسدها بتملك لتستقيم واقفة ولكن كانت ما زالت ترجُف, ضمها نحوه بغريزة ضايقتها..





مراد يقترب بشكل يخيفها ويبعثر قناعاتها بشأنه أحياناً..

كانت تشعر بأنفه المدفون خلف خصلاتها وزفرة تلو أخرى من أنفاسه وذراعيه قد أحاطاها باستحواذ.

همست برفض:

- ابعد عني يا مراد

لم يجب ولم يتزحزح..

بل ظل ثابتاً لوهلة ولكنه رفع أنفاسه عن جيدها وأمال رأسه ببطء ليقترب من أذنيها هامساً بصوت أبح:

- شهرزاد ما رفضتش شهريار

التوت شفتيها..

ليست ابتسامة وإنما انكسار..

حتى آخر رمق هي لم ترفض شهريار بل هو من أقصاها من جنته وقتما شاء.

خرجت نبرتها قاتمة:





- بس أنت مش شهريار.

تصلبت ملامحه لوهلة..

ربما لأنها ترفض سطوته بعالمها..

تُصر أن تسطر النهاية كما يود ولكن ببصمتها هي.

وهذا يزعج غروره..

أمال رأسه أكثر ليزيد همسه بتحدي:

- شهريار هو اللي اختار شهرزاد مش العكس!

كانت قد بدأت تفقد احساسه حولها وبدا قيد ذراعيه وكأنه غير موجود..

تجمد نظرها حول نقطة ما في الفراغ وشردت بملامح خالد..

خالد هو شهريار رغماً عنه وعنه

وإن كان يود دور ما بعالمها فلن تعطيه أكثر من مسرور..





وهمست به فأغضبته ليحل ذراعيه من حولها فجأة ويديرها نحوه في انفعال لا يحظى به كثيراً..

وعيناه مخيفة.. لا تنكر..

ولكنها أكملت مُجازِفة:

- مين قتل خديجة؟

ولمعت عيناه أكثر..

ولم يتركها بل كان يعتصر خصرها يقصد الإيلام..

ملامح الألم بوجهها ممتعة..

تسطر بعقله لوحة يود أن يجازف برسمها الآن..

تماماً كما رسم خجل خديجة..

انتفاضتها مع أول لحظة عُري..

اختبارها للخوف من عينيه نحوها..





وتورد ملامحها بين الخجل تارة والشغف تارة..

ولكن اللوحة كانت منقوصة..

لم يكن هذا بكافٍ..

لون غامض تحتاجه ريشته ليصبح للوحته معنى، أو كما يقولون بفن المسرح الختام!

لم ترتبك ملامحه ولم ترمش عيناه..

بل أضاء لونها الأخضر ببريق النشوة التي لا يدرك معناها سواه، وقبل أن تكرر أجابها دون تردد:

ـ أنا..

****

ستظل تلك الليلة عالقة بذهن تميمة إلى الأبد، رغم أنها لم تتعدَ السادسة من العمر





بعد إلا أن هذا المساء حُفرت تفاصيله بذاكرتها كما ملامح محمود..

كانت عيناها تجاهد كي لا تنام..

يئست منها إيناس بعد أكثر من عشر حواديت وتركتها تُكمل قصتها للعبتها المحشوة لأن بابا يريد النوم أيضاً ويريد حكاية!!

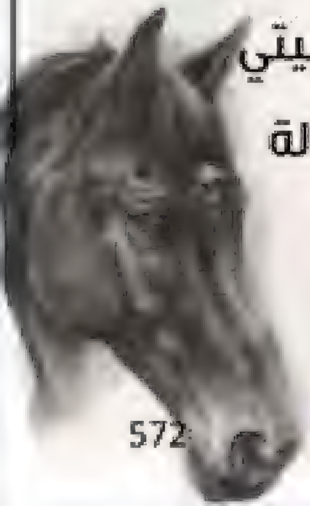
ولكن يبدو أن النوم كان ضيفاً محرماً عليهم جميعاً تلك الليلة..

صراخ حاد للمرأة أفزعها لتتشبث بلعبتها المفضلة وتغوص بقدميها الصغيرتين داخل خُف وردي صغير تركض خلف خيال..

كل ما لمحته واستوعبته خيال..

بل خيالات..

أبيها يركض متعجلاً بسروال بيتي وقميص يعقد أزراره على عُجالة





وأمها خلفه تحكم ربطة روب منزلي محتشم في هرولة خلفه والصوت يتكرر..

واستوعبت أنها..

"ماما رقية"

كما تفضل أن تناديها..

"ماما رقية" تضرب بكفوفها على باب غرفة مغلقة, وخالد منكمش بهلع في أحد أركان المنزل, وأبوها يزيح الجميع ليرتطم بالباب عدة مرات قبل أن يكسره!

والخيالات تدخل الغرفة إلا خالد الصغير الذي ظل منكمشاً على حاله..

وتبعتهم هي بشعرها المشعث ومنامتها الزهرية كخُفُها الرقيق ولعبتها التي لمست في احتضانها آمان.

آمان كان أبعد ما يكون عن محمود المنزوي بأقصى ركن بالغرفة وقد ضم ركبيته لوجهه في صمت مطبق..





لا شيء..

لا صراخ ولا بكاء..

فقط نظرة ثابتة نحو رجل آخر يقف في الركن الآخر ممسكاً بحزام جلدي غليظ وقد اشتعلت ثورة وجهه بشكل مخيف..

عيناه جحظتا باحمرار مُجهِد..

أنفاسه متسارعة وشعره مشعث ووجهه في تلك اللحظة فقد وسامته.

العم حسن يبدو مخيفاً!

وصراخ رقية توقف مع دفعة قاسية من خالد نحوه ليبعده عن محمود..

دفعة تبعتها لكمة ثم صراخ..

ومحمود ثابت بجمود مخيف..

محمود الذي كانت آثار زرقة سوط أبيه ملتمعة على أعلى ذراعه..

محمود الذي صمت وصمت ولم يتزحح هارباً من عقابه..





محمود الذي قذفها بوجهه بقسوة بعد حديث امرأة حمقاء عن رغبتها في تبنيه!

نعم صرح بها محمود..

"أنت لست أبي"

وعندما زعق وانتفض واختبر الطفل أول لحظات جنونه كانت عيناه تخبره شيئاً واحداً لا غيره..

"لا أخافك"

نعم هي ليلة ستظل عالقة في ذهن الجميع..

ليلة لكم فيها خالد صديق عمره ليؤذيه مثلما أذى طفله..

ليلة اختبر فيها الأخوان ثورة وجنون اللامبالي حسن..

ليلة أبدلت مشاعر طفل نحو آخر لتتولد شفقة أمام نبذ..





ليلة طغا فيها غضب مكتوم فوق وجوههم جميعاً..

وسحب خالد محمود بذراع واحدة ليقذفه نحو صدر إيناس بجملة نافذة:

- هاتيه وتعالي.

وحمل تميمة دون أن يحيد بصره نحو أحد وعادوا إلى المنزل ومحمود معهم..

لتُحفر بذاكرتها أعقد علاقة صداقة مرت بها في طفولتها

علاقة لم تستمر..

****





الفصل السابع عشر

زيدني عِشقاً.. زيدني

يا أحلى نوباتِ جُنوني

يا سفرَ الخَنجَرِ في خاطرتي

يا غلغلةَ السِّكينِ

..زيدني غرقاً يا سيِّدتي

إنَ البحرَ يناديني

..زيدني موتاً

علَّ الموت، إذا يقتلني، يحييني

جِسمُكِ خارطتي.. ما عادت

..خارطةُ العالمِ تعنيني

نزار قباني





نعم..

كانت ليلة قاتمة وستظل عالقة بذهن الجميع..

كل ما تتذكره تميمة أنها محمولة على كتف خالد تراقب اهتزاز منزل ماما رقية..

لم تدرك طفولتها حينها أن ذراع خالد كان هو المنتفض وقتذاك.

لم تدرك كيف كان تنفسه سريعاً..

كيف وضعها في فراشها على عجالة ليجذب الصغير الآخر بحنو ويقوده نحو غرفة أخرى يهمس فوق أذنه بصرامة حنون:

ـ نام يا محمود..

كانت كلمة واحدة لم يزدها ولم ينظر نحو إيناس الواقفة بنفس الغرفة, تخطاها نحو غرفته وقد اشتعل رأسه بحرارة..

اشتعلت ذكرى..

بل ذكريات..





قسوة الأقربون موجعة ويوازيها التخاذل..

وإيناس كانت تشعر بتلك الحرقة ببدنه..

بل تكاد تلمس استعار أنفاسه وشعرت بأناملها بارده فوق ذراعه..

نعم كانت تحتضنه..

تتلكأ أناملها على استحياء فوق ذراعه العاري..

تود احتواءه ولا تعلم كيف وخاصة أنه ولاها ظهره متظاهراً بالنوم

لم تكن له رغبة في حديث ولا حتى في صحبة..

في تلك اللحظة لم يكن محمود هو الطفل

كان خالد..

****

وكانت صباحات متتالية..





مكررة..

تستيقظ تميمة فتلمح محمود يأكل دون شهية ويغادرها دون أن يتحدث..

فقط ينفرد بلعبة إلكترونية في ركن بالحديقة..

منزوياً ليس له رغبة بمصاحبة أحد.

وإيناس جاءتها رقية بصباح آخر وهمست بكثير واتضحت الأمور. وإيناس كانت ترجف من داخلها مع ذكر اسم سندس..

العجوز طلبت من حسن تبني محمود وعندما انفعل ليخبرها أنه ابنه كانت فجة في رد ترجم حقيقة يتجاهلها الجميع..

"أنه لا يتقن ذلك"

وحسن حال كثيرين من أمثاله يظن أن فطرة الكون خُلقت طواعية له وأنه إله منزه عن التقصير..

وثار حسن ثورة جنون لم تختبرها معه من قبل حتى أنها استفاقت على صرخته واغلاق



باب الغرفة لينفرد بمحمود, لوت شفتيها بابتسامة منكسرة:

- مش عارفة كان بيعاقبه ولا بيعاقب رفضه!

وحينها كانت نبرة إيناس خشنة.. مغتاظة:

- بطلي تبرري له بقى!

ولم تعبأ حينها بعينيّ رقية وعبراتها التي تتلكأ للظهور..

بالقصة المكررة عن سهام وعنف محمود وغضب حسن وحماقة امرأة سيتخذونها ذريعة..

وفجأة غامت بفكرها بعيداً عن رقية..

هل سيتخذها خالد أيضاً ذريعة؟!!

منذ تلك الليلة وهو بعيد والغضب بعينيه لن تصلح معه أي ابتكارات..

حتى أنها منذ يومين تصنعت التأخر باستحمام مسائي لتخرج ببشرة منداة





ومنشفة قصيرة لفتها فوق جسدها لتجده شارداً فوق الفراش..

قبلت خده الأيسر وسألته إن كان يريد مشروباً ما فرفض بصمت وقبل رأسها ونام.

وهذا أسوء ما قد يفعله رجل!

وتنهدت هي بإحباط لتوليه ظهرها وتنام أيضاً..

والآن وبعدما اتضحت الحقيقة ومع ذكر سندس ذريعة حسن بالأمر يهاجمها هذا الخوف المتمثل في مواجهة انفعال آخر من انفعالاته..

لوم.. ثورة..

إنفجار.

بل أباح لها عقلها تصور سيناريوهات..

سيزعق وتنزوي واذا نطقت فقد تضرب وترا آخر تدرك بعد فوات الآون حساسيته





ولم يكن لها رغبة بصمت..

فلتسقط السماء فوق رأسها معه لا تبالي ولكن لن تصمت..

وانتظرت حتى حل المساء وكان قد عاد متأخراً لتراكم بعض الأعمال بفضل اختفاء حسن..

نعم..

فحسن المدلل يحتاج أن يريح أعصابه وينفرد بنفسه كما ذكرت رقية فقرر الغياب ربما أمام بحر ما ليحتسي عصير البرتقال ويدلل ضيقه!!

أخرجت من عقلها حسن وسيرته التي لا تجلب سوى ضيق وتوجهت نحوه تساعده في خلع ملابسه..

كان شارداً بحزن غريب..

منذ تلك الليلة ومنذ انقض حسن على ابنه كفريسة..

طفل آخر عليه أن يحيا قهر ما..





أن يختبر قسوة لا يملك لها رادع!!

وإن كانت لحظية وإن كانت مبهمة وإن كانت غير مخططة..

فستظل قسوة.

قسوة تجبره على أن يتذكر..

أمه.. مختار.. جوف ليل حالك السواد.. وحرمان.

لم يشعر سوى بأنامل إيناس تقترب..

تساعده..

تجتهد فوق طاقتها لاحتواءه..

يشعر بها ولكنه ببساطة لم يكن به طاقة لحديث..

لم تكن به طاقة لأي شيء سوى النوم والعمل والخروج من تلك البؤرة القاتمة التي حفرها الغبي حسن لتطل أشباح ماضي.

وأشباح مستقبل تطل على عالم محمود



منذ ما حدث وهو يفكر في الطفل..

طفل يستحق حنان أبيه رغم أنفه..

يستحق منزله رغم أنف رقية..

يستحق.. طفولة.

وأناملها تسللت من بين أزرار قميصه..

امرأته تدلل باستحياء!..

ووسط كل هذا همست بأحمق عبارة قد يسمعها:

- أنت زعلان مني بسبب سندس!!

هكذا تهمس بكلمة غبية مثلها!

أي سندس!!..

وكأن محمود يشعر باليتم بفضل سندس..

وحينما استدار لها لم يكن للغباء المذكر حينها وجود



كانت خائفة..

ملامحها تنبض بالخوف..

ليس خوفاً منه ولكن خوفاً من إنفجار غاضب بوجهها قد لا تملك القدرة على احتواءه.

أي غضب هذا الذي تخافه بهذا الثوب!!..

كريمي بأكمام شفافة وينساب بسلاسة فوق جسدها لتتساقط طبقات رقيقة من الشيفون الناعم حتى كاحليها.

ودون إدراك هي فعلت ما يحب..

لم يخبرها من قبل أنه يفضل جيدها دون قلادة, هذا التجويف الناعم بمقدمة رقبتها.. التناغم بين عظمتي الترقوة والمساحة الملساء النابضة بأنفاسها وجنونه.

رفع حاجبه الأيسر وهو يسخر في داخله..

تلك أسرار حربية لا يجوز لها أن تعرفها!





ارتجفت شفتيها تود أن تكرر تساؤلها ولكنه أوقف السؤال والجواب بتربيتة خفيفة فوق شفتيها ليهمس ببطء:

- واللي عايزة تصالح جوزها تقوله سندس برده!!

رفعت عينيها نحوه في حيرة فترك إصبعه شفتيها ليمرره على طول خصلة توازي وجهها ثم أكمل:

- أنا مش زعلان بس ما عنديش مانع إنك تصالحيني!

كانت نبرته الأخيرة ماكرة بشبه ابتسامة..

وكأنه يتشبث باقترابها ليخرج من الهالة المظلمة حوله..

وهي كانت مختلفة

ذكية..





جذبته ليجلس جوارها على الفراش لتمسك برأسه بحنو توسده صدرها وتملس فوق رأسه بحنان أمومي:

ـ إيه رأيك أحكي لك حدوتة من حواديت تميمة!!

غبية!

هو قريب من مصدر جنونه بها وهي تخبره عن حكاية!

كانت بدأت تقص بالفعل..

نعم هي تحكي قصة طفولية عن أمير وفتاة وضفدع.. هي تقص وهو يقبلها..

أي عبث مسائي يحدث..

لم يشعر بحاله إلا وهو يكمم فمها الثرثار بقبضته ويهمس في أذنها بشغف:

ـ أنا هكمل

ولعشقه بها رواية أخرى..





"عندما تكون هي..

عندما تحبها..

عندما تتوق للإحتواء..

تنبض بداخلك تلك الشرارة، تلك التي تسبق وتلي وتجاور كل متعة وشغف بها ومعها..

تلك الشرارة التي دونها لن تنال اكتمال..

إنها العاطفة"..

باولو كوييلو

"خايف أحبك"

هل منها تبدأ الحكاية أم تنتهي؟!!

كانت تجلس جوار فاتن ترتشف كوباً ساخناً من الشاي بالحليب، تراقب تلك النافذة التي أصلحتها فاتن واستبدلتها بقضبان حديدية لا تنكر أنها بعثت في نفسها اطمئنان لا يوصف..

هي لم تخبر فاتن بحقيقة الأمر فقط أخبرتها بكسر النافذة وأنها تشك بدخول لص، لص لم يسرق شيئاً!





واللص المزعوم لم يحاول الاتصال بها منذ هذا الحين وها قد مرت عشرة أيام.. عشرة أيام يهرب فيها حمزه بجدارة..

تلمحه كل يوم وربما كل يومين ورغم أنهما يعملان سوياً على نفس القارب إلا أن اللمحة هي أمثل وصف لتلك اللحظات الخاطفة التي تجمعهما معاً..

وهي التي فكرت أن تخبره بأمر صبري كي تطلب منه حماية!!

لم تكن تدرك أن شفتيها تتحركان بأحاديث صامتة..

تخبر نفسها عما تود قوله له..

عن صراخ يستحقه وغضب ولامبالاة..

نعم هي بدورها تتجاهله..

هي لا تحتاج حمايته, ولا تحتاج عشقه, ولا حتى خوف عشقه..

بل هي تستطيع أن تتدبر أمورها ببساطة وكما فعلت فاتن..





قضبان حديدية..

محادثة مالك البناية عن وجود لص..

وابتاعت هي من موزع يعلن عن بضاعته بجريدة أسبوعية صاعق كهربائي سيهديها حماية..

ما الحاجة إذاً لرجل خائف!!..

وابتسمت شبه ابتسامة..

التواء ممتع بشفتيها منكه بلمحة انتصار..

حتى عندما رأته صباح هذا اليوم تمتمت..

"صباح الخير"..

وتخطته وكأنه غير موجود..

اليوم لم تكن تقصد تجاهل بل أصبح التجاهل أسلوب حياة!

والفرق شعره أدركها هو وثار جنونه..

في الأيام الماضية كان يسترق النظر إليها من حين لآخر, يحتال على قراره بالابتعاد





وتلك النظرات هي أشبه بجرعات المخدر التي

يتعطاها المدمن كي يُنهي العلاج

كي يشفى منها إلى الأبد..

والآن هي تنهي شفاؤها وليس شفاءه!

هل ببساطة تنساه.. تتناساه؟؟

يصبح خارج حياتها وعالمها, ومنذ الصباح

تلتصق به إلجا وهي لا تبالي!!

من قبل لمح بعينيها نظرة غيرة وغضب

واستعار وغيظ مكتوم ورغم أنه يود

الهروب ويتقن الهروب تلك النظرات كانت

تمتعه..

كانت أشبه برشفة لذة..

ترضي القلب وتحارب العقل لأنها تهتم..

واللذة الآن تبدلت لإستشاطة!!

احتراق..





وغضب وغيظ وجنون سيحطم به رأس هذا اللزج المتطفل على وحدتها..

وحيدة نعم..

مع غيره لا..

وألف لا

أنانية.. استئثار..

ربما ولكن هو لا يلقي بالاً لتفسيرات الآن..

هو يحتاج لقبضة يحطم بها أنف هذا السمج

وأزاح ذراع إلجا ورمى بمنشفة كانت تحيط كتفيه وتوجه نحوهما..

****

ما ينقصها مصري لطيف!!

عادة هنا هي تصنف الناس بعرقهم..

ألماني وفرنسي وهذا روسي وتلك هولندية وإلجا نرويجية حمقاء..





وضاقت عيناها بغيظ مع ذكر اسمها..

على مدى عشرة أيام وهو يلتصق بها لا يبالي

أحمق.. غبي.. ككل الرجال..

اليوم يود تقبيلها وغداً يترك لذراعه حرية التصرف في خصر إلجا..

وإن كان يظن أنها ستغتاظ وستظل هكذا تلاحق مرورهما وضحكاتهما ورقصهما بنظراتها فهو واهم..

المثل يقول..

"اشربها وبلفظ أفضل اطفحها!!"

وينقصها الآن هذا اللطيف بجانبها ويسأل أسئلة لطيفة مثله!!

وزفرت وابتسمت بسماجة وأخبرته أنها مشغولة وأن مكانه مع الضيوف بالخلف..



ولا تعلم ماذا يفعل هو مع فوج هولندي ليخبرها وسط حديثه عن نفسه بافتخار أنه يحمل الجنسية الهولندية وله مشروعه الخاص بالعاصمة هناك..

"مطعم شاورما"

توقف حديث عند ظهور نبرة مُتَقِّدة!

صوت قابل للإشتعال..

- حضرتك نورتنا يا أستاذ شاورما..

استدارت هي والرجل اللطيف بذات الوقت لتلمح بوقتها عينيه..

تأكلها..

وتضربها وتأسرها بقضبان حديدية تخصه وحده..

أكمل موجهاً حديثه لصاحب الشاورما ولكن دون أن يحيد نظره عنها:

- الجروب بتاع حضرتك بيدوروا عليك, وآنسة ليلى ما عندهاش وقت للشات اللطيف ده!



فهم الرجل..

ليس الرجل وحده..

لو طفل يحبو مر من أمامهم الآن لأدرك أن الكابتن يغار..

وعندها ابتسم بتفهم ليودعها ويتخطى حمزه بعد أن رفع كلا قبضتيه معتذراً:

ـ حق عرب يا كابتن حمزه.. ما كنتش أعرف والله.

أومأ للرجل دون تعابير واضحة وعاد إليها..

بنفس النظرة!

استدارت تتجاهله وتحدثت بنبرة رسمية:

ـ تحب نتحرك دلوقت؟..

لم يجب..

ظل يحدق فيها بصمت..

فأصابها اغتياظ لتستدير نحوه بانفعال مكتوم:

ـ في حاجة!





لمعت عيناه وتحركت حدقتيه ترتشف ملامحها..

تلك النظرات المسترقة لا تُحتَسب.. هو يحتاج أن ينصهر أكثر..

وابتسم حينها ابتسامة افتقدها على شفتيه.. ليجيب فوراً:

ـ في حاجااات..

ومثل زرقة البحر تموجت عيناها..

اضطربت ولكن لبضعة ثوانٍ استفاقت بعدها لتعود لنفس الجمود الذي أتقنته:

ـ أنا عندي صداع فياريت تقول بسرعة هنتحرك امتى؟

اقترب منها وهمس بمكر:

ـ سلامتك

ردَت مسرعة وبعفوية تود الفرار:

ـ الله يسلمك يا سيدي





هو ينظر نحوها وهي تبتعد تخشى عينيه..

تهرب بأنوثة ممتعة فهمها هو..

وهو الآن أمامها فلا مجال لهروب..

فليشاكسها وينتهي الأمر!

أخفض صوته واقترب منها أكثر..

كانت جالسة فأمال هو جسده ليقرب
شفتيه من وجهها..

وجهها فقط وجهها يا حمزة لا أكثر..

ـ أعملك شاي بلبن!

وحينها استدارت له وبعينيها..

حزن!

لا غضب ولا غيظ ولا استعار..

هو حزن لأنه يقترب ويبتعد كما يحلو له..

وكأن الأمر هو وليس هي!!

واستدارتها تعني أن شفتيها أقرب..





حتى أنها ابتعدت على الفور وتصلب هو..

يريد شفتيها وقد أحزن عينيها..

هل يجوز!!..

وتبدلت نظرته للأخرى هي لن تحتملها..

نظرة لا تكذب ولا تتجمل..

نظرة تختصر كل قول.. وفعل كان..

وسيكون..

نظرة عشق..

وحينها..

هربت..

اتخذت من القمرة السفلية جدران حماية..

أعدت لنفسها في نصف ساعة كوباً من الشاي..

كانت تود أن تفكر وتفكر.. وتقرر..

وكأنه من السهل أن تتخذ هذا قرار





تقترب أم تبتعد؟

تحبه؟

هل هناك اختيار بالحب؟..

وزفرت ربما للمرة المائة وتمنت حينما عادت لسطح المركب أن تجده منشغلاً أو متشاغلاً وقد كان..

فقد عاد الغواص للبحر من جديد..

لا تعرف هل لكي ينساها أم ليُخمد ما بداخله من نيران.

"لا يوجد ما هو أصعب في الحياة من الحب"

جابريال جارسيا ماركيز

****

ويحكى أن شهرزاد في آخر ليلة من انتهاء الحكايا اقتربت من مليكها لتهمس بعبق أنثى وتقبل الأرض من بين قدميه..

ووضعت أولادها الثلاثة نصب أعينه لتبكي متوسلة..





"مليكي.. يا سلطان.. من عجائب الأزمان قصصت لك حكايا.. والعجب العجاب عن الإنس والجان ولكن.. انتهت الحكايا مولاي وفرغت جعبت شهرزاد إلا من عشقك وقرة أعيني الثلاثة بين يديك

والأمر يعود إليك..

تقتلني وتتركهم لليتم صيداً أم تعفو بكرمك كي لا نتركهم لقمة سائغة للأنس قبل الجان".

ويُحكى أن شهريار بكى وضم لصدره أولاده ليوجز عفوه بعبارة عشق.

ورفعت الزينات وقدمت الولائم وأجزلت العطايا واحتفلت المدينة لمدة ثلاثين ليلة..

هكذا ببساطة روضت شهرزاد شهريار!!

بل احتوت بداخله الطفل الملول لتشغله بثلاثة..

ولكن ماذا عن شهرزاد الحمراء

هل امتلكت من قبل لشهريار ترويضاً!!





هل سينضب البئر؟!

ربما هي تشتهي الموت..

ربما وجدت فيه ملاذاً ولكن..

هل ستكون هي الأخيرة؟..

اقشعر بدنها وهي تستمع لتلذذه بحكاية خديجة..

العذراء التي بفضله سلمت نفسها لفكرة انتحار..

ألم تضبط عارية بمخدعه؟!

ألم تخسر نفسها وسمعتها وبراءتها؟!

ألم تنفجر الدماء بوجهها من صفعات أخيها ونحيب أمها وكل هذا بفضله

لأنه أراد أن يدفنها بلوحة!

باقي الحكاية كان موجعاً..

عندما عادت له هاربة لتجده ببساطة قد أنهى لوحته..





مُلهمة.. جميلة.. وموجعة!

بل اعترف ببساطة أنه هو من أرسل لأخيها كي يضبطها..

كي تكتمل لوحته!!

لا تعلم هل كان يتباهي أم لأنه لمس في دواخلها اصرار على الموت فلم يعد يبالي؟؟..

أم ربما ليثبت لها أنه هو من يستحق دور شهريار..

خالد قتل شهرزاد واحدة بليلة..

مراد يقتل شهرزاد كل ليلة..

وسألته.. بشرود بل بتخوف:

ـ شهرزاد.. لوحتك الأخيرة؟

ولم يبدو بملامحه تأثراً.. بل كان يشذب ذقنه ببطء أمام مرآة ثم تحدث بنبرة ساخرة:

ـ ده على حسب تقبل الجمهور لفنان بيقتل بطلاته!!

ابتسمت هي بسخرية أكثر:





- إيدك نظيفة يا مراد.. القانون مش بيعاقب على الإقناع.

رفع بصره لينظر نحوها من خلال المرآة، نظرة قاسية ونبرة واثقة:

- لكن بيعاقب على القتل..

ثم ابتسم بنشوة ليُكمل:

- أنا هاقتلك..

"العقول العظيمة هي تلك المنكهة بلمسة من الجنون!!"

أرسطو

****

حسناً الأمر صعب.. بل في غاية الصعوبة..

لعبة طائرات نفاثة أمام حفلة باربي!!

للمرة العاشرة ترمي تميمة بجهازها الإلكتروني فوق ساقيه وتطلب مساعدة..





تود اختيار لون حمرة شفاه، والثوب لونه سيء فليساعدها في آخر، أما شعر باربي فهو قصة فهي تود صبغه باللون الوردي!!.

أي أحمق اخترع تلك اللعبة!

زفر بضيق ليضيف للمرة الخامسة:

ـ تميمة.. أنا زهقت.. جربي لعبة تانية.

زمت شفتيها ثم انتزعت الجهاز من يديه بغضب لتضعه جانباً ثم ضمت ذراعيها تراقب الأرض في تذمر..

حسناً..

لن يدللها تلك المرة فقد ترك لعبته وها هو يلعب لعبة فتيات.

يصفف الشعر ويضع تبرج ويختار الحذاء وهذا حقاً مضحك

بل مزعج..





ظلت على حالها ليرق قلبه في النهاية ولكنه لم يرضخ للعبتها الوردية الأركان..

ناولها جهازه الخاص وناوشها قائلاً:

ـ تجربي تسوقي الطيارة؟

لم تجبه وظلت على حالها..

تجاوره ولم ترحل ولكن لم تحادثه..

مرر الجهاز فوق عينيها وهو يكرر:

ـ دي جميلة.. زي الطيارة الحقيقة بالضبط.

نظرت نحوه وانفرجت ملامحها قليلاً فتابع هو بجدية:

ـ هتطلعي الطيارة من هنا وتلفي من هنا.. والزرار ده بينزلها تاني..

وكانت متعة مختلفة..

أسقطت تميمة سبع طائرات بالبحر وأربعة فوق أرض المطار ودمعت عيناه من الضحك..





ضحك حقيقي..

ضحك من القلب ربما لم يختبر مثله من قبل.

ربما لو كانت إيناس هي زوجة أبيه وتميمة أخته لكان الحال أفضل..

ولكن لا.. ربما حينئذ كان سيكرهها!!

وجاءت من يكرهها..

رائحة فطائر رقية الشهية كانت تسبقها ومعها خالد..

بحمامه الصباحي وانتعاش رائحة خصلاته المسترسلة كالفتيات وحذاءه المنمق ولعبة جديدة!!

مدلل وسيظل مدلل..

استقامت تميمة تاركة محمود لتركض نحوهما مرحبة:

ـ ماما رقية..





والتقفت رقية البندقية الصغيرة مجدولة الخصلات بين ذراعيها ليرحب بها خالد ويتركهما ويتوجه نحو محمود بلعبته..

كان قلب رقية ينتفض..

رغماً عنها لا تستطيع التحكم وتموت قلقاً على خالد، وزاد الأمر عندما أخبرها أنه يريد رؤية محمود هذا صباح ويعطيه هدية!

دمعت عيناها من الفرح بطفلها الصغير وتمكن منها القلق من ردة فعل الآخر

الهجران يولد الجفاء..

والقسوة تنتج وحش..

والصفعة بداية طوفان..

ولا تود أن يبتلع هذا الطوفان بيوم ما طفلها وبيتها معاً..





حسن ظن أنه ضحى من أجلهما عندما طلق سهام، ولكن الحقيقة هي من ضحت مراراً وتكراراً..

وهو لا يبالي..

هي اختارت التضحية في سبيل أن ينعم خالد ببيت مستقر وعائلة تحويه، وليس ذنبها أن الأخرى آثرت زواج وهربت..

أنزلت تميمة ولم تستطع أن تمنع نفسها من اللحاق بهما ولكن أنامل رقيقة طوقت معصمها لتوقفها..

نظرت رقية نحو إيناس بعجز فبادرتها إيناس بنبرة مطمئنة:

ـ سيبيهم يا رقية..

تنهدت رقية لتقول بتوسل:

ـ خايفة عليه..

ابتسمت إيناس لتجيبها بحكمة:





ـ مش جايز يمر الزمن ويبقى هو اللي ليه

استدارت رقية لترمقهما وقد استقام محمود ينظر لهدية خالد بريبة وتخطو نحوهما تميمة..

جذبتها إيناس لمقعدين مجاورين بالحديقة إذ بدا من المستحيل أن تتوجه بها لمكان آخر..

وحينها تابعت رقية بنبرة قاتمة:

ـ وجايز يبقى هو اللي عليه!!

الحياة ما هي إلا مسيرة..

براءة ثم فتنة ثم ذنب!!

ليمان أبوت

****





الفصل الثامن عشر

وإني أحبكِ..

لكنْ أخافُ التورُّطَ فيك،

أخافُ التوحُّدَ فيكِ،

أخافُ التقمُّصَ فيكِ،

فقد علمتني التجاربُ أن أتجنَّب عشقَ النساءِ،

وموجَ البحارْ

أنا لا أناقش حبكِ.. فهو نهاري

ولستُ أناقشُ شمسَ النهارْ

أنا لا أناقش حبكِ

فهو يقرِّرُ في أيِّ يوم سيأتي.. وفي أيِّ يومٍ سيذهبْ

وهو يحدِّدُ وقتَ الحوارِ، وشكلَ الحوارْ

نزار قباني





الحب..

هو أن تقترب وتبتعد..

هو أن تريد ألف مرة وتهرب مائة فرسخ!

هو أن تضمها نحوك إلى الأبد.

الحب هو أنت يا ليلى.

كانت تجزم لنفسها أنه سيكرر الأمر.. يقترب ليبتعد, ويبتعد حتى يقترب..

آدم حائر.. آدم يتردد.. آدم يتأرجح!!

إذاً.. فليتأرجح وحده.. هي اتخذت قرار.

وكانت مشرقة.. رغم أرق ليلها الذي لم تفلح قضبان النوافذ في إيقافه..

أهداها أمين كوباً ثقيلاً من الشاي أيقظ صباحها وكان يوماً طويلاً فالرحلة مرتب لها منذ أسبوع, وسيخرج قاربان متجاوران بفوج كبير يتبع أحد الفنادق المرموقة..

بدأ البرنامج بسباحة صباحية في بقعة هادئة اختارها حمزه, ثم تناولوا وجبة





خفيفة في أثناء توجههم نحو جزيرة صغيرة لقضاء بقية اليوم..

كانت جزيرة رائعة ولون المياة كان ساحراً, بدت وكأنها شفافة تحمل نكهة كل مخلوقات البحر

وأسيهديه البحر عروساً!!

حرك شفتيه بنصف ابتسامة وهو يرمق ضربات الأمواج الصغيرة فوق ساقيه..

همهمات الجميع بدت بعيدة عن عزلته التي اختارها بعناية في بقعة خاصة على الجانب الشمالي للجزيرة..

وكان يعلم أنها تراقبه..

تنظر نحو ظله البعيد حائرة ومعاندة ربما مثله تماماً..

ومتعة استدارته نحوها فجأة لا يضاهيها شيء, ولو على بعد عشرات الأمتار هو يحفظ ارتباك عينيها حينما يخصها بتلك النظرة..



ولا تعلم هي أن تلك النظرة تترجم طوفان.

وعدتك ألا أحبك ثم أمام القرار الكبير جبنت

وعدتك ألا أعود وعدت..

وألا أموت اشتياقاً ومت..

وعدتك ألا أقول بعينيك شعراً.. وقلت.

وانتهى اليوم.. دون حرف، فقط اختلس النظرات نحوها من بعيد..

وكانت الساعة قد قاربت على السادسة مساءً ولا تعلم لم أصر أن ترسو بقاربها ببقعة شبه فارغة!

ولكنها أوامر الكابتن..

وكان الجميع قد غادر وأعطت هي لرحيم بضع تعليمات قبل أن تهم بالرحيل بدورها وتتركه لينظف القارب..

كانت لحظة أرجفتها عندما أيقنت أن بطريقها ذراع..





رفعت عينيها نحوه لتجده ينظر نحوها بتسلية وقد استند على مقدمة القارب ويمد ذراعه كي يساعدها على الهبوط, رفعت أحد حاجبيها تنظر نحوه في لامبالاة ثم تخطه ببساطة لترحل..

بل ابتعدت بضع خطوات بالفعل غير مكترثة, ولكنه أوقفها بنبرة صارمة تحمل اسمها لتستدير وتجده يقف خلفها مباشرة..

رفعت رأسها نحوه لتنطق بجفاء:

ـ في حاجة؟

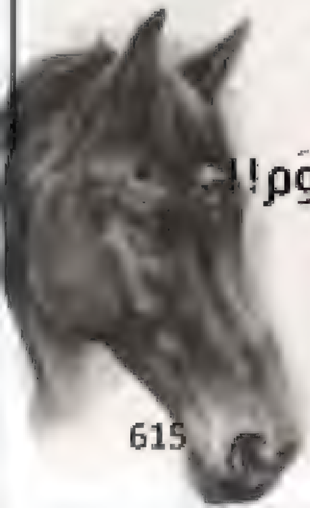
ـ بحبك..

وبعدها صمت.. حتى صوت البحر اختفى..

كانت تقف مشدوهة ولا تدرك أن شفتيها انفرجتا قليلاً وارتعشتا وترددت فوقهما ألف كلمة وتقيدت كل الحروف والنظرات في عينيه

تلك النظرة..

بل أخرى.. مختلفة وحقاً لا تُقاوَم!!





أدركت أنها تتنفس بسرعة لتجحظ عيناها أكثر وهو يرفع كتفيه وحاجبيه وكفي يديه وكأنه يقول بكل تعبير حركي يملكه

"ما باليد حيلة!!"

وقبل أن تجيب ولا تعرف أصلاً بماذا ستجيب جاءها صوته بنبرة أكثر حدة وربما أكثر حيرة:

- أعمل إيه.. بحبك!!

وكأنه.. نادم!!

وجدت نفسها تستدير..

هكذا ببساطة يخبرها أحبك فتتركه وتستدير..

أين القُبلة!!

وجد نفسه يزعق ولكن بتسلية أمتعته:

- استني..





تجمدت مع نبرته لتستدير نحوه من جديد

وكانت المسافة بينهما ثلاث خطوات

ابتعدتهم هي لتهرب..

وكأن من هذا الرجل هروب..

ردّت بحدة وارتباك بذات الوقت:

- عايز إيه!!

كانت ممتعة.. بخجلها وارتباكها وضياعها ومقلتيها الحائرتين بفضله, همس بنبرة مقصودة تلك المرة:

- بقولك بحبك..

ما هذا؟!..

كيف يمكن لكلمة تحمل أربعة أحرف أن تملك كل هذا التأثير.. قلبها يعدو وأنفاسها تصرخ وتشتاقه وهو أمامها وهذا سيء..





حقاً سيء..

رفعت هي كتفيها في حيرة لتستدير مجدداً وتهرب لا تنوي رجوع وسمعت صوته يرافق خطواتها.. يزعق بشقاوة.. بتسلية

وكأنه قد تخلص من همه وارتاح!

- ليلى.. طيب مش هتبصي وراكي بعد كل خطوتين زي الأفلام!

الآن هي تبتسم!..

كيف يستطيع بأسوء المواقف أن يُخرج منها ابتسامة!..

وزمت شفتيها فجأة..

"لا تلتفتي نحوه"

العقل يأمر وستنفذ..

كانت تؤنب نفسها وتدفع خطواتها أكثر..

سترحل..

ليس منه حقه استدارة.





ولكن الخطوات كانت بطيئة..

تكاد تتآمر عليها أيضاً..

كانت تغمض عينيها وتفتحها مع ألف فكرة

تخبرها أن تستدير

أن تخبره أنها لا تريد.. لا تحب ولا تنوي..

أن تهرب

أحبك!

بأي قانون يقرر أن يقيدها بتلك كلمة..

وكأنه قراره منفرداً

تُرى هل ما زال هناك.. أم رحل؟.

لقد مرت دقيقة.. بل خمس، هي متصلبة

دون خطوات لأكثر من خمس دقائق لم ترحل

ولم تهديه نظرة.

وأغمضت عينيها مجدداً بقرار..

واستدارت دون كلمات حقيقية تمتلكها

ولم تكن تحتاج، كانت التفاتة مترددة ولم

تنتهِ كما تصورت





فالأمر لم يكن وداعاً مكرراً بفيلم رومانسي قديم..

استدارت لتصطدم بصدره!

كان يقف خلفها مباشرة..

وأجفلها ففتحت عينيها لترتد للخلف خطوة لم يسمح بها بل أسند ظهرها بيده لاغياً كل هروب

وشفتاها ارتجفتا من جديد..

وهو بشر وليس بحجر..

وعيناه اخبرتاها بانهيار, وقبل أن تنطق أو تفكر أو تفهم أو تستوعب لما عطره قريباً وكأنه غزو!

بل اجتياح واكب همس صارم يقترب:

- أنا مش فارس ولا فتى أحلام!

وبعدها شعرت بدفء

دفء لم يستغرق فوق شفتيها سوى ثانية واحدة..





قبلة خاطفة كانت هي الحياة..

ليبتعد بعدها ببطء بأروع ابتسامة رأتها يوماً..

ابتسامة توقفت عندها كل فكرة وصفعة وكلمة ونبهتها بالسبيل الوحيد المتاح لديها الآن..

"اهربي يا ليلى".

"حالاً يا ليلى"..

وكان عقلها هو من يصرخ تلك المرة

****

يعلم أنها غاضبة منه..

أصابعها متشابكة, تنقل هذا وتحرك ذاك وترفع آخر فوق خصلة شاردة فتدور الخصلة في حلقات مفرغة.. ممتعة.. بندقية.

وتلك الأصابع أعدت له منذ ساعات أسوء قهوة تذوقها في حياته والسبب أن رفيقه كان حسن..





منذ ظهر حسن أمام منزلهم وهي تغلي، كيف يستضيفه ويقدم له قهوته ويتسامر معه بغرفة مكتبه بعد ما حدث!!

وزاد الأمر بأن صعد حسن لغرفة محمود..

هكذا صعد ليمكث فوق نصف ساعة وينتهي الأمر، ويعود الطفل لغضبه ولحزام بنطاله!!

أسندت رأسها فوق حافة الفراش وقالتها بنفس الوتيرة، كما تشعرها وكما تتوسم في المدلل حسن:

ـ رجعتهوله علشان يضربه تاني

امتدت يده نحو فنجان آخر من القهوة أعده لنفسه تلك المرة ليرتشف القليل قبل أن يجيب بثقة:

ـ حسن مش حيمد إيده على محمود تاني..

ـ هه!





خرجت منها رغماً عنها، لم تكن تقصد الاستهزاء به ولكنها لا تثق في هذا الـ "حسن"..

رمقها بنظرة جانبية غاضبة ليترشف باقي القهوة ويجاورها مسنداً رأسه على حافة الفراش بدوره:

ـ الطفل اللي خرج ده مش هيسمح لأبوه إنه يضربه تاني!

كانت ملامحه هادئة وكأنه لم يفجر لتوه قنبلة..

استدارت نحوه وهي تتسائل بتلعثم:

ـ بس ده..

قاطعها:

ـ مخيف؟..

قاطعته هي:

ـ ده طفل لا حول له ولا قوة





أغمض عينيه ليجيب بصلابة:

ـ بس لما يكبر هياخد حقه بالقوة!

تنهدت في حيرة..

لا تفهم ولا تدرك لما أرسل محمود مع حسن بكل يسر، بل لا تدرك عن من يتحدث محمود أم خالد..

قربت أناملها من منابت شعره لتتلمس عليه في حنان..

كانت غاضبة والآن هي من تواسيه، مدلل أنت يا خالد..

خرجت نبرته تلك المرة أجشة بعبق ماضي لا يُنسى:

ـ ما ينفعش محمود يتربى بعيد عن بيته.. ما ينفعش نحرمه من حقه في أبوه حتى لو أبوه مش مستوعب الحق ده..

تركت خصلاته لتستند هي فوق صدره وتهمس في حيرة:





- لكن الولد مش سعيد هناك يا خالد.

تسارعت أنفاسه قليلاً ولكنه عاد ليتحكم بها ونبرته مجيباً:

- حقه يكون هناك زيه زي أخوه وإلا خالد أول واحد هيدفع التمن.

لوت شفتيها، لم تكن راضية ولم يكن بها طاقة لجدال..

بل يقودها عقلها نحو أم الطفل التي قررت هكذا أن تتركه دون حنان، كيف طاوعها قلبها بل كيف تنام!!

تحركت شفتيه ببطء لتخرجها من أفكارها:

- القهوة كانت بشعة يا إيناس!

كتمت ضحكتها لتعتدل وتنظر نحوه متحدية:

- كويس.. القهوة تليق بحسن.

رفع أحد حاجبيه ليرمقها بمكر:





- وخالد يليق بيه إيه؟

رفعت هي كلتا حاجبيها وكأنها تفكر ثم ابتسمت لتدير ظهرها وتنام!

هكذا بكل بساطة..

اعتدل يرمقها غير مصدقاً فتمتمت بكلمات متلاحقة:

- اطفي النور علشان لازم أصحى بدري.. وعدت محمود اعمله بيتزا هاعملها واروح بيها عند رقي.ة

محمود.. رقية.. بيتزا!

ماذا عنه خالد..

ربما الأزرق يليق بك كان سيجدي..

رمقها بغيظ ليدرك أنها ستنام بحق..

بل ربما تعيد بذهنها وصفة البيتزا خاصة محمود.

لا تفكر بالأمر سوى كأم

إيناس في النهاية أم..





كررها عقله قبل أن يطفئ المصباح بجانبه

ويحيط خصرها بذراعه مقرراً هو ما يستحق

بفطرة رجل اعتاد على أخذ حقه..

****

ليلة شهرزاد الأخيرة..

نعم.. إنها النهاية.

ولن تكون مجرد حكاية من ليالي تلو أخرى..

بل هي الخاتمة..

أليست المتعة في الختام، وعفواً شهرزاد..

فشهريار هو بطل إغلاق الستار..

وأنتِ يا شهرزاد مجرد رقصة

انحناءة..

إيماءة!

جسد..

وكل جسد مسكنه تراب..





والموت ضيف ثقيل نصر نحن على نسيانه..

ولكن شهرزاد تفهم..

تدرك بحنكتها خبايا, أليست هي ملكة

الحكايا!!

أما شهريار فهو رجل وكل رجل ملول..

كل يتشبث بذريعة مثنى وثلاث ورباع

والمدان..

"ملل"

نعم سترحل شهرزاد ليس اختيار وليس

قرار..

ببساطة هي رغبة ملك..

انتهى وقت العبث وحالمية النساء..

دعونا نتوسد الواقع..

فشهريار قاتل..





شعرت بأنفاسها تختنق.. توقف كل شيء, لا شهيق ولا زفير وكأنها تموت بكلمة..

بكل سلاسة وواقعية وبهجة..

"سأقتلك!!"

مراد قرر أن ينهيِ اللوحة بسكينه الخاص وتكون ألوانه دماء!!

خديجة ماتت بعيدة عنه بعد أن حالفه حظه ليُقنعها برحيل..

ولكن كارمن هي أيقونة النهاية..

والبداية..

كارمن هل الألم المتجسد في رحيل ملكة..

وجارية..

وعاشقة..

وعاجزة تنقاد نحو مصير..

وهو رجل يمتلك قوة سرد هذا المصير!!

ابتسم.. وبغرور



بل غذت ارتجافتها جنونه, اقترب ليهمس بشغف حاذق:

- ما فيش ألم بعد الموت يا كارمن.

لمعت عيناها بشبه دمعة.. شبه.. لم تبكي, وخرجت نبرتها ثقيلة:

- في إيه بعد الموت؟

غامت عيناه للحظة قبل أن يعود لبهجته ويهمس مجدداً:

- راحة!

استدارت له فجأة وبزرقة للمعة اجتاحت عينيها.. وكأنها صحوة بعد سبات:

- وأنت؟!

رفع حاجبيه في دهشة فأكملت دون أن يخفت الضوء الأزرق بمقلتيها:

- هتتحاسب يا شهريار؟

تملكت شفتيه ابتسامة راضية:





- بس أنا مش شهريار

اقتربت منه حتى واجهته:

- قررت أنك تستأثر بالدور بقتلي!

تأمل ملامحها المتحدية.. تظن القطة بين ضلوعها أنها في النهاية من حقها السبعة أرواح!!..

أدارها بعنف فتناثرت خصلاتها الحمراء فوق وجهها الضعيف وخمد ضوء عيناها رغماً

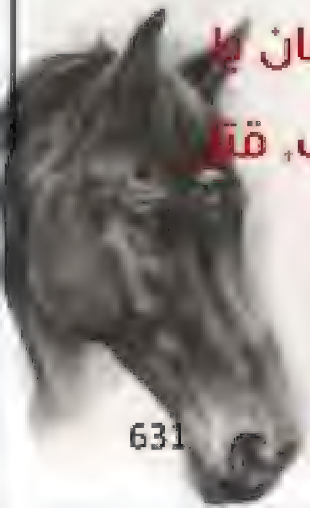
عنها وهي تواجه ملامحها بمرآة.. كانت منتهية..

جميلة ولكن منتهية..

وكأنه وجه قارب على فقد الماء والدماء..

أحاط خصرها من الخلف بذراعه ومرر الآخر على طول ذراعها ببطء وهو يهمس قرب جيدها بتوحش:

- شهريار الحقيقي قتلك من زمان يا كارمن.. قتل روحك في بداية حب، قتل





جسدك يرفض بعد انقضاء المدة وقتل كل لحظة فاتت وجاية ليلة ما نفاك يا كارمن..

شهقت بأنين وقد اشتعلت أمام عينيها نيران لتعود ذكرى..

لم تنسَ هي حقاً.. لم تنسَ..

كريم..

وحمزه..

وصراخ.. وخيل..

وهو.. وهي.. والأخرى..

ودماء.. وموت.

موت كانت ستهديه إياه في لحظة جنون..

جنون كان سيرافقها بقية العمر إذا نجحت، كانت ستفقد عقلها لو رحل خالد!!

ارتعشت بشبه بكاء.. ضحية.. بل ذبيحة جاهزة للالتهام، وشره مراد نحو دماءها في أوجه..



كرر ببطء شرس:

ـ أنتِ شهرزاد من زمان يا كارمن.. إنتِ اللي اخترتِ قصر الجواري.. وأقنعتِ نفسك إنك ملكة!

كانت أنفاسها تتسارع أكثر.. وبدا بصوتها شبه نحيب رافق انهمار عبرات مالحة فوق وجنتيها..

مرر سبابته على طول خدها ليتذوق عبرتها المالحة بانتشاء ويُكمل بعينين منتصرتين:

ـ أنا هحررك يا كارمن.. أنا هاقتل شهرزاد بين ضلوعك لأنك عارفة إنها تستحق الموت!

رفعت بصرها لتنظر نحو انعكاس صورته في المرآة خلفها..

بدا كجلاد, هذا الذي يقدر بقعته جوار المقصلة ويكتسب عظمته من تذكرة رحيل.. جلاد لا يخفي وجهه ولا يحيد نظره عن عيون ضحاياه..

بل هي تلك النظرة التي يبحث عنها..





تلك التي سيحررها بريشته عن قرب وفوق خشبة المسرح..

سيكون قريباً تلك المرة..

سيحفر ألمها بخياله ويجسده بأعظم لوحة..

ستكون آخر وأهم عمل..

وسينقش حروف اسمه بالتاريخ بجدارة الدماء

حال كل عظيم احتل الأوراق والكتب..

ستسقط شهرزاد بين ذراعيه قتيلة..

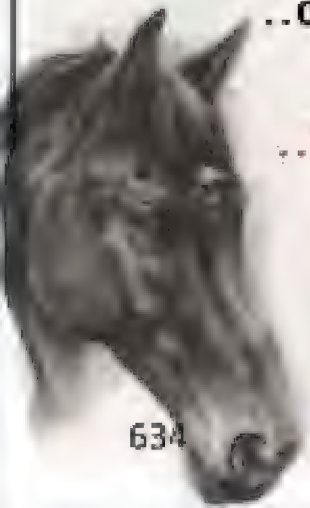
وسيصبح عرض بولوني حديث الصباح،

وستكتسب نجمته الشهرة بعد رحيلها..

وستدور أصابع الاتهام والذريعة خنجر مُستبدل..

هكذا ستظل الحقيقة غائبة لأشهر لتسطع مع آخر لون في تحفته الفنية..

سيدسل الستار عن "كارمن"..





وسيوقع تحفته الفنية بنهجه الخاص، بتفاصيل فنان أصر على دماء بطلته كي تكتمل اللوحة..

وحينها فقط ستبدأ المتعة..

****

حورية ابتلعت وحدها مفاتن النساء..

خصر وردف ونهد بمقاييس راقصة، أي متعة أكثر!!

كان يرقب ملامحها من خلف سحابة دخان، تميل وتميل.. بكل اتجاه وتضرب خطواتها الأرض بحساب وخلعت النعل والثوب والحياء وكل هذا ليس بكافٍ!

زفر بضيق لتترك موسيقاها الصاخبة وتتوجه نحوه..

هي تفهمه وتدرك أمثاله من الرجال فهي امرأة واسعة الخبرة!

عدلت من أحجار مِزاجه وهمست باغواء:





ـ صبري عليك طال!

كانت تقصد مداعبته فتلقت التفاته قاسية، ولا تنكر أنها تخافه..

رغم حنكتها وقسوة الأيام وضنك العيش فوق جسدها إلا أنها تخشاه بحق، حتى عندما قرر أن يتزوجها لم تمتلك رفض.

أزاح بصره عنها ليجذب ثمرة تفاح ويقربها لفمه بقضمة قاسية..

قضمة تلو أخرى وكأن مصير التفاحة ينتهي بمجرد الاقتراب من هواءه..

رفعت حورية عينيها في محاولة لاستجداء رضاه:

ـ مشاكل الشغل حورية مش قادرة عليها!

رفع بصره نحوها تلك المرة باستهجان فتابعت خافضة بصرها بخضوع ماكر لا تمتلك سواه:

ـ أمشي؟





ظل على نظرته نحوها دون رد فعل يُذكر ثم رد بنبرة صلدة:

ـ لسه..

كان هاتفه على وضع استعداد..

فقد اقتربت ساعة الثمن وستدفعها الصغيرة المتباهية, منذ زيارته الليلة لجدران.. حمايتها وهو ينتظر ردة الفعل التي لم تأتِ..

الحمقاء لم تخبر أحداً..

وتركها هو لتتشبث بحماقة أنثى تظن أن بمقدرتها دفاع!

لمعت عيناه مع صوت كلب وفي من أحد تابعيه:

ـ كله تمام يا ريس..

التوت شفتيه بابتسامة إبليسية, وتابع مساعده بفخر!





ـ بكرة بالليل التنفيذ يا ريس وحتى لو فكرت تستنجد بصحابك مش هتعرف.

أغلق الهاتف وقد اعتدل مزاجه مائة وثمانون درجة..

مجرد ساعات وسيمتلك كل ما أراد..

بل سيرضخ له الجميع بعد أن يمتلك غالية منصور..

بل ربما يحصل على الاثنتين!!

وعندها توحشت ابتسامته أكثر لينظر نحو القابعة أمام قدميه ويكرر بين أنفاس دخانه:

ـ ارقصي..

وكانت أفضل رقصة.. فهي لحظات ما قبل المنال وشغفها يضاهي المنال نفسه حتى وإن كانت أخرى!!

****





الفصل التاسع عشر

ابتسمت وهي ترفع نحو فمها شريحة من البيتزا لتتذوقها دون شهية, بالأمس عاد وقد قرر أنها المذنبة!

هكذا الأمر..

هي دوماً المخطئة والمُلامة وهي من حطمت طروادة وأنهت مجد نابليون بل هي من تآمرت على قتل قيصر!!

هي رقية المخطئة دوماً..

وهو حسن.. المدلل..

كانت تميمة تتذمر على قذف الكرة بين الأخوان اللذان بديا متفاهمين في بادرة غريبة لم تحدث من قبل..

ابتسمت إيناس لتجذب عينيّ رقية من الشرود ثم قالت بنبرة جادة لا تنوي تراجع:

ـ ليه؟

ضمت رقية حاجبيها لا تفهم فتابعت إيناس مجدداً:





ـ ساكتة ليه؟.. انطقي.. انفجري..

تقلصت ملامح وجهها وتركت وجه إيناس لتعود وتنظر للنافذة ثم تابعت باستسلام:

ـ وخالد يا إيناس؟.. أنتِ متخيلة لما أصرخ ولا أنفجر في حسن ده حل؟!

ضحكت ساخرة ثم أكملت:

ـ مش أنا بس اللي اتغيرت.. حسن كمان اتغير.. حسن من وقت ما طلق سهام علشان حياتنا تستقر وهو شايف أنه كده عمل اللي عليه.. عمل اللي عليه وزيادة!

تنهدت إيناس بضيق لتردف بعفوية:

ـ بس دي مش عيشة.. جوزك مستفز جداً يا رقية!

رفعت رقية في البداية حاجبيها في الدهشة وما لبثت بعدها أن ضحكت وبشدة.. وبدمعة..





الأمر ليس أنها تضطهد محمود كما يظن

ولكن جزء منه يظل على حق..

جزء صغير يرتكز في جانب القلب ولا تملك

ولا يملك نكرانه...

هي لا تستطيع أن تحب محمود..

هي ترى في محمود كل ما لم تغفره لحسن

رغم السنوات..

ترى صوت أمه وملامحها خلف هاتف تخبرها

بأمر الزواج..

ترى خبث

ترى خداع..

ترى ماضي لم يكن لها به قرار..

ومستقبل لا يعلمه سوى الله ولكن لا

تفارقها الهواجس..

توقف الحديث مع ظهور حسن الغير

متوقع..





نظرت إيناس نحو رقية في غضب وهي تتمنى أن صوتها لم يصل لمسامعه لتستدير رقية لزوجها في برود وديناميكة واضحة:

ـ اعملك الفطار؟

رمقها حسن بشرود قبل أن يجيب بجفاء بدوره:

ـ لا.. أنا حافطر برة.

استدارت دون تعليق فتابع هو بعد أن ألقى تحية صامتة على إيناس:

ـ جهزي الولاد.. هاخرج وآخدهم معايا.

حينها استدارت نحوه مجدداً وقد شاب ملامحها بعض الضيق لتسأله بنبرة مستاءة:

ـ فين؟!

رفع حاجبيه لينظر نحوها باستهانة ثم استدار دون جواب ليخرج لأبنائه..





وحينها جلست على المقعد بقلة حيلة ونيران تأكل صدرها..

كل عراك وكل نقاش وكل قرار تخرج هي منه خاسرة!!

مدت إيناس أناملها نحو كتفيها في تردد..

فأحاطت رقية وجهها بكفيها لتردف بصوت مكتوم:

- ما فيش جديد.. ما فيش أمل.

ثم أنزلت كفيها لتضعهما فوق المائدة بغيظ وتضم حاجبيها مقلدة نبرته الزاعقة:

- ولادي مش حيكرهوا بعض يا رقية.

رغماً عنها ضحكت إيناس لتفجر رقية بدورها بضحكة غير مبالية..

قرصتها إيناس في وجنتها لتُكمل بتمرد:

- سيبك منه.. تعالى نخرج نتفسح وناخد معانا تميمة

Girls night





وقبل أن تفكر رقية كانت إيناس تجذبها من ذراعها لتدفعها نحو غرفة نومها كي ترتدي ملابسها دون نقاش وتهاتف خالد في نفس الوقت تخبره أنهما ستذهبان لمركز التسوق..

كل هذا وعينان هناك من خلف النافذة كانت تراقبها..

حزنها وسخريتها وابتسامتها وهروبها..

جزء منه يشعر أنه يحملها فوق طاقتها وجزء يكره هذا الجفاء الذي تعامل به ولده!

أم حنون لولده... وامرأة باردة لولده

يالها من معضلة!!

****

كانت تميمة متذمرة في البداية لأنها لم تستطع اللعب لمزيدٍ من الوقت مع خالد ومحمود ولكن إيناس وعدتها بالمزيد من





الشرائط الملونة والوقت الممتع في رحلة الفتيات تلك..

وبالفعل كان الوقت ممتعاً فالبداية كانت مع وجبة خفيفة بأحد المقاهي ثم دخل ثلاثتهن فيلم كرتوني في قاعة السينما على ذوق تميمة ولا تنكر رقية أنه كان ممتعاً..

وأصرت بعدها تميمة على شراء الآيس كريم والتجول في محلات التسوق كي تحضر العديد والعديد من الشرائط الملونة كما وعدتها إيناس.

لم يعكر صفو اليوم سوى ظهور متبجح ثلاثيني أصر على مطاردة إيناس بمغازلة سخيفة تطورت في نهاية الأمر لجملة فاحشة أربكتها فتلجمت قبل أن تشعر بحقيبة رقية فوق رأسه!..

كانت نهاية كارثية فأوقعت تميمة المثلجات على ثوب أمها لأنها ذعرت من





صوت رقية العالي وشحبت ملامح إيناس من العراك والتفاف الناس حولهن..

ولكن الأمر بدا أفضل عندما تدخل شابان ليلقنا المتطفل علقة قاسية يستحقها..

كل هذا وخالد هو من بقي في المزرعة يتابع تفاصيل العمل بصحبة سندس!

لا ينكر أنه يتجنب المرأة ويعاملها بجفاء من وقت مشكلة حسن وهذا جزاء تدخلها فيما لا يعنيها ولكن يظل شيء مميز بها يجذبه

أنها صريحة..

واليوم بلغت صراحتها أوجها عندما دلفت إلى مكتبه قبل ساعة الغداء لتخبره بوجه غاضب عن وجود امرأة بملابس خليعة في مكتبها تقول أنها مساعدته

مساعدته السابقة..

شيرين





مناورة باللون الأبيض..

هي ربما اختارته لأنه يشبه الصباح ولكن بتصميم يناسب غرفة نوم!

التصاق ينسدل عن كتفيها ممرر بباقي جسدها حتى توقف قبل ركبيتها بثلاث إنشات!!..

في اللحظة التي دخل فيها لغرفة سندس ولمح خصلاتها السوداء متهدلة على كتفيها بثقة شعر بالندم..

نعم ندم..

لأنه استمع لكلام إيناس ولم ينتقم فلولا ذلك ما جرأت تلك الحقيرة على القدوم وبتلك الهيئة..

وهي كانت تنظر نحوه بعين أخرى..

رجل أهانها وقربها وأبعدها وكان كل تلاقي بينهما هو صفعة..





صفعة خرجت بها ليلتها تحمل مهانة وذل وانتقام ورغبة مستعرة في العودة كي تثأر لنفسها منه..

توسعت ابتسامتها بثقة وهي ترمقه بإعجاب لا تملك له سبيلاً ثم أردفت بنبرة متزنة:

ـ إزيك يا مستر خالد..

وقتها لم يكن هو مستر خالد..

كان الهمجي الذي تطلب الأمر تطويع حصان أعمى من أجل ترويضه!!

ولم تدرك سوى لمعة قاسية بعينيه وباب يغلق واقتراب مباغت منها مع نبرته لا تنكر أنها أخافتها وهو يردد:

ـ انسي مستر دي خالص!.

خوف يتبعه لذة ولذة توازي الخوف..

هذا هو هوسها بشأنه..





بل تملكتها ابتسامة عندما فقد أعصابه ليجذبها من ذراعها ليصرخ فيها بانفعال واضح:

ـ أنتِ ليكي عين تيجي هنا؟!

رفعت عينيها نحوه وقابلت صرخته بهمسة ساخرة:

ـ واضح إني ما وحشتكش!!

ابتعد عنها باشمئزاز فكادت تسقط على مقعدها ثم توجه لمكتبه ليجلس في مواجهتها رافعا إحدى قدميه فوق طاولة صغيرة وتلك المرة رمقها باستهزاء:

ـ واضح إنك مش لاقية شغل.

رفعت إحدى حاجبيها لتردف بحقد:

ـ البركة فيك.. ولا جاي عايزني أرجع!

استعرت عيناه بغضب من تبجحها ثم رمقها باحتقار ليردف:





- لو متخيلة إني فاضي افكر في أذيتك تبقي بتحلمي.. لكن قسماً عظماً خطوة تانية ناحية هنا هادخلك السجن.

لم يعطها فرصة للرد..

استقام ليسحب ملف ثقيل من خزانة نظمتها سندس ثم قذف بالأوراق أمامها ليكمل بتوعد:

- أخطاؤك صغيرة.. بس أنا لما بقلب شر هخليها كوارث يا شيرين.

لا تنكر أنها ارتجفت..

كانت تعلم أنه لن يستكين لها ولكن أن يظهر له هذا الوجه المخيف فهذا ما لم تعمل حسابه..

استدارت نحوه وقد ترقرقت بعينيها دمعة!!

- مشكلتي أني حبيتك..

وعندها كان الباب قد فُتِح لتظهر...





إيناس.

****

كانت سندس تشعر بالغيظ..

فتلك الفتاة بشبه ملابس ظهرت واختفى هو وأغلق باب المكتب!!..

كيف كانت تلك هي مساعدته؟!!

وكيف تترك زوجته امرأة مثل تلك لتحوم حول زوجها؟..

ومن يظن نفسه هذا المتباهي؟؟!

توقفت أفكارها مع عطر مخملي وطلة بندقية لوجه ملائكي هادىء..

نقيض لمساعدة إبليس التي ربما تقدم له عرضاً بالداخل..

ظلت سندس تنظر لإيناس دون تعبير فاتحة فاهها لترد السلام بحروف بمعثرة وتخبرها أن خالد ليس بمكتبه بل بمكتبها هي مع مساعدته السابقة..





فعليا لم تشعر بنفسها إلا وهي تحرك مقبض الباب لتدخل..

حتى التردد لم تستطع تحمله..

فقط دلفت وبسرعة.

كان هو يقف بجوار خزانة جانبية يضع يديه في بنطاله والأخرى مستقيمة تنظر نحوه وتخبره أنها تحبه..

ببساطة..

وحل الصمت مع ظهورها..

وكأنها هي من قطعت خلوة..

نظرت نحوه لتجد أن ملامحه قد تبدلت لـــ مائة وثمانون درجة..

القوة باتت ضعف..

التحدي بات خضوع لمقلتيها..

ولكن الغضب في أوجه..

لكليهما..





رفعت شيرين ذقنها في ثقة لتهمس لها وكأن شيئاً لم يكن:

- أهلاً يا مدام!

وقبل أن ترد سمعت همهمة قاسية منه تفصل بينها وبين الأخرى:

- اسمها دكتورة إيناس.. وما تتكلميش معاها خالص مفهوم!

وقبل أن ترد شيرين أو يكمل هو همست إيناس بنبرة قاطعة:

- اطلعي برة.

جحظت عينا شيرين لتدرك أن الموقف يتطور بشكل لم تعمل حسابه فخرج صوتها مستنكراً:

- إيه؟!





همّ خالد ليتحدث ولكن إيناس كانت أسبق حتى أنها وقفت أمامه لتكمل بصوت بدا أكثر حدة:

- هما كلمتين.. اطلعي برة وإلا هخلي الأمن يجي يطلعك.

وعندها جذبت حقيبتها في حنق لتغادر دون كلمة..

فقط نظرة غل نحو كلاهما ومع آخر خطوة توجهت إيناس للباب لتصفعه في حدة وتستدير بغضب مشتعل نحو خالد..

****

خالد..

حسناً الأمر هكذا..

رجل تلاحقه أنثى..

زوج تلاحقه امرأة أخرى..





وهو المسكين!!

بل ربما يُنهي الأمر أنها هي المخطئة

فالزوجة تذنب أكثر!!

توجه لمقعده ليجلس كما كان وقد أسند قدمه مرة أخرى على الطاولة الصغيرة وابتسم باتزان:

ـ جميلة الزيارة دي.. رغم إني بفضلها أكثر في اسطبل الخيل!

وازى نبرته الأخيرة بنظرة ماكرة لم تؤثر فيها بل نظرت بغيظ نحو مدخل الغرفة لتردف بغيظ أكبر:

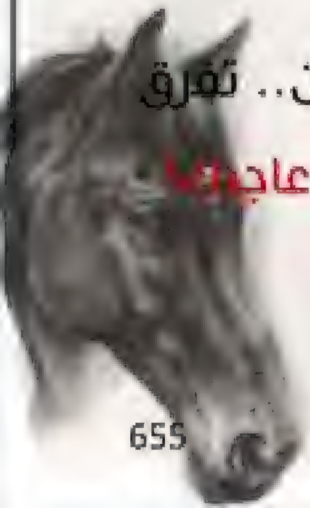
ـ قفلت الباب ليه؟

قطب حاجبيه وتبدلت ملامحه:

ـ هتفرق في إيه؟

علت نبرتها لتصبح أكثر حدة:

ـ هتفرق على الأقل قدام الموظفين.. تفرق إن الهانم ما تتجرأش إلا إذا كان عاجبها





جملتها الأخيرة أثارت غضبه ولكنه احتفظ بهدوئه وهو يقرب وجهه منها ليردف ببطء:

ـ لو كان عاجبني يا إيناس كنت خلصت من زمان.. مش محتاج أقولك إن ما فيش ست بتحرك مشاعري غيرك.

قالها ثم جذب يدها نحوه ليطبع قبلة..

قبلة أزاحت كل غضب لتجيب بتلعثم:

ـ برده متغاظة

ترك مقعده ثم اقترب منها ليهمس قرب أذنيها:

ـ خلاص.. ناخد جولة على الحصان وهتنسي كل الغيظ.. بس غيري الفستان الرقيق ده.. وعامة ما تلبسهوش تاني.

لم تنتبه لغيرته من ثوبها الهادئ والذي أعطاها رونقاً مهلكاً رغم احتشامه فتابعت بعفوية:





- فعلاً.. أصلاً واحد سخيف قاعد يعاكس في المول ورقية ضربته بالشنطة و..

فجأة توقفت لتدرك حماقة ما تفوهت به وتلمح بريق مستعر بعينيه وهو فعلياً يصرخ:

- واحد إيه يا هانم!.. وما كلمتنيش فوراً ليه؟.. وعاكسك إزاي يعني؟.

تراجعت خطوة للخلف وهي تدرك أن الأدوار انقلبت في لحظة وأصبحت هي المدانة

فتمتمت مسرعة:

- مجرد كلام.. ده متخلف ورقية بهدلته والناس ضربوه و..

قاطعها وهو يحاول التحكم في أعصابه:

- خلاص يا إيناس

مدت أناملها بتردد نحو كتفه:

- طيب أنا مالي.. وبعدين..





قاطعها من جديد وكانت نبرة صارمة:

- ما فيش خروج لوحدك تاني يا إيناس.. أبداً!

وتركها ليرحل نحو مكتبه متمتماً بزعيق آخير:

- وكمان ما فيش خيل.. روحي

وغادرها لتدرك أنها الآن هي من في حاجة لابتكار!!

****

وغادرت ليلى وتركته مخموراً بمذاق شفتيها..

أنثى وهواء وماء ورائحة بحر..

لحظات لا يجوز لها نهاية..

وكان مغمض العينين يتجول بين دهاليز خياله في لا شيء, وكأنه غارق بلون أبيض حليب..





شاي بالحليب..

وابتسم مساءً وهو ينقر فوق هاتفه برسالة نصية..

"بتعرفي تطبخي شاي بلبن؟!"

وترك الهاتف وأغرق جسده بشلال مياه أوقفه مع صوت رسالة..

هي تجيب!!

لم يتصور أنها سترد بل كان كل غرضه مشاكسة مسائية تضمن تسلله لأحلامها رغماً عنها..

كانت على شفتيه ابتسامة واسعة وهو يمسك الهاتف وقد تناثرت المياة فوق كتفيه وصدره بعد أن ارتدى سرواله على عجل..

"أنت قليل الأدب".

وكأنها كانت تخنقها طوال اليوم فكتبتها على عجالة.



"عارف!!"

من يظن نفسه!!..

لقد قبلها..

عديم الحياء بابتسامته وعطره وهمسه

واقترابه وصوته الذي لا يفارقها..

وزمت شفتيها تنظر للهاتف

هو مذنب ويعترف ولا يبالي!!

وكأنها ارتبكت أكبر حماقة في التاريخ

عندما حادثته ولو من خلال حروف..

كتب واستطاعت أن تتكهن بابتسامته

"ما قولتيش.. بتعرفي تطبخي ايه؟"

أغاظها..

يمزح حمزه؟!..

الكابتن حمزه!!

"سم هاري"..





كتبتها بمعاندة..

ويستطيع أن يتخيل ملامحها.. وأشياء أخرى..

كتم ضحكته وهو ينص:

"أهم حاجة ما تكتريش الملح ممكن تحطي سكر ;) "

وكان يختم جملته بتعبير الغمزة..

وغضبت وأقسمت ألا تجبه, بل ستجيبه وستخبره..

أن لا يصح ولا يجوز ولن تحبه..

ستصرخ به..

هل تفهم لا أحبك.. لا أريد..

حسناً..

أحبك.. ولكن لن أخبرك..

وهل أفكارها مسموعة..

أرسل لها كلمات أغنية

لم تكن حديثة ولكنها كانت هي..





كانت تعبر عنها..

وكأنه يعلم..

"يا مجنون مش أنا ليلى ولا بقصة هواك مايلة.. عايزني أقول بحبك ليه.. بحبك بس مش قايلة"

وختم محادثته بجملة أخيرة أسقطت كل نية لرد

"أنا مجنون ليلى"..

****

وكانت ليلى وحيدة تلك الليلة دون مخاوفها, ففي أحلامها مجنون..

وتراقصت فوق شفتيها ابتسامة..

والحب رفيقه أرق والأرق ونيسه حب..

وكانت قد قاربت على الحادية عشر مساءً وفاتن بعيدة برحلة أخرى لم تستطع تفويتها وربما هذا أفضل فعندها كانت ستلاحظ حمرة وجنة ورفرفة أهداب لا تنوي سكون..





والأسوء قد تسمع تنهيدة

وتلك هي الفضيحة بعينها!!

وكان سكوناً وليس مناماً أقلقته نغمة هاتف..

انتفضت لا تنوي رد..

حتماً هو وهي لن تجيب.

ولكن لم يكن هاتفه.. كان رقماً غريباً.. مُلحاً..

عازماً على أمر تجهله ومع أول نبرة منها جاءها الصوت..

متخابث..

فاسد..

وبين طيات حروفه تخطيط وضيع:

ـ شكلك نسيتِ يا بنت الغالي!

لم تجب.. فقط احتبس صوتها وهو لم ينتظر جواب:





ـ قضبان حديد!.. وماله.. بس أنا ما كانش في نيتي أكرر الزيارة .

وجحظت عيناها.. لم تكن شكوك.. الحقير كان هنا بمنزلها وربما.. غرفتها..

وتطلعت حولها في قلق وهو ما زال على الهاتف يقول جملته الأخيرة:

ـ اللي أنا عايزة أخدته خلاص.. ويا تلحقيها يا ما تلحقيهاش.. مركب الغالي نار يا حبيبي نار..

ولم تحتج لتوضيح أكثر

مركب منصور تحترق!!

وكانت قد قذفت بالهاتف بعد أن أطلقت بوجهه سباباً وانطلقت أناملها تضغط الأزرار في ارتجاف باحثة عن حمزه..



ومجنون ليلى كان قد انطلق كالمجنون إثر مكالمة مخادعة..

أمين في المشفى!

وفي الطريق اصطدم به حثالة, وحتى بعد أن ترجل من سيارته وتحاشى العراك مسرعاً نحو صديقه لم ينتبه إلى أن هاتفه قد سرق..

كما سرق هاتف أمين منذ ساعات..

وأمين كان مضجعاً على الرمال أمام صوت البحر مع صديقين وصوت نجاة وأكواب شاي ثقيلة لا ينتوون نوماً وكان يلعن من سرق هاتفه..

أي أحمق طمع في تلك القطعة المتهالكة..

كان الوقت يمر واقترب من الثانية عشر وحمزه وصل ساخطاً يسب أمين المنتشي دون وسيلة اتصال والحقير الذي سرقه بعد أن صدم سيارته..

الأمر غير مفهوم..





كانت دقائق استوعب فيها حمزه أن هاتف أمين سُرق بدوره..

ودقائق تلتها دقائق مرت على مسكينة في الجانب الآخر حاولت دون جدوى الاتصال بالاثنين وهي تهرع باكية نحو المرسى وسبيلها الوحيد الشرطة التي أخبرتها أنها قادمة..

وتأخرت الشرطة لأنه ببساطة لا يوجد حريق..

لا يوجد أحد..

المرسى فارغ حتى من حارسه السمين..

والقارب هاديء فوق المياه..

وهي وحيدة..

وحيدة مع قبضة قاسية لثمت فمها لتركل دون صوت ودون أمل.. و

يغيب الضوء ومعه جسدها فاقدة الوعي داخل قارب تحرك دون مراقبة بفضل





حفنة أموال..

والوقت مؤلم ولا تستوعب كيف مر..

كانت ملامحه تبدو مخيفة على ضوء أصفر عتيق وهي وحيدة معه بغرفة منعزلة بالقمرة السفلية..

استقامت فجأة وفي شراسة رغم ثقل رأسها وضمت ركبيتها وفي ضعف مؤلم كانت تطمئن أنه لم يمس ملابسها..

ضحك بهدوء بيْن صُفرة أسنانه..

كان يجلس مقابلاً لها فوق مقعد خشبي ويلتهم تفاصيلها بعينيه ببطء مقصود..

همس بدناءة:

ـ لسة

رفعت عينيها نحوه بقتالية تشبثت بها وكأنها نجاة:

ـ أنا هوديك في ستين داهية..

مرر لسانه فوق شفتيه فأخافها أكثر خاصة عندما مد يده فوق أحد ساقيها





فانتفضت مبتعدة وممسكة بمرمدة على جانب الفراش على شكل قوقعة بحر تصرخ حتى ضاع صوتها في بحة يائسة:

ـ لو قربت مني هافتح دماغك..

ضحك حتى انتفخت أوداجه, وكانت تعلم لمَ, فالمرمدة صغيرة أقل من أن تجرح رجل مثله وهي وحيدة في عرض البحر معه..

حتى الصراخ غير مجدي..

منعت عبراتها بمعاناة, وظلت تنظر نحوه وهو يحل أزرار قميصه!!

واحد.. اثنان.. ثلاثة..

لا تصدق أنها بهذا الموقف..

لا يمكن أن يمسها هذا الحقير..

ستقتله أو تقتل نفسها..

توقف فجأة مع تهدج مصطنع بأنفاسه:

ـ تحبي نبدأ ولا تسمعي الكلام؟.





كانت ضعيفة..

رغماً عنها رقيقة دون حول ولا قوة..

أومأت رأسها بطاعة وقد ترقرقت العبرات بوضوح داخل عينيها

اتجه للطاولة ببسمة منتصرة ليسحب عدة أوراق ويناولها إياها بأمر قاسي:

- امضي يا حلوة..

كان عقد بيع ابتدائي للقارب, معه أربع وصولات أمانة بثمن القارب..

نظرت له غير مصدقة فتابع ساخراً:

- ما تخافيش.. الوصولات هترجعلك أول ما نسجل العقد في الشهر العقاري.

ظلت تمسك القلم بارتجاف فاقترب منها ليجدها انتفضت مبتعدة وقد صدمت رأسها بحافة الفراش.

الأمر يصب في مصلحته كما خطط والفتاة المتباهية بشجاعة مذعورة..

همس بتوحش:





- يلا امضي

وكانت ما زالت خائفة فلمعت عيناه بخديعة طمأنتها:

- مجرد حبر وكل واحد يروح لحاله.. توصلي البيت زي الفل وطبعاً مش هتجيبي سيرة علشان أنتِ بنت وما حدش هيصدق إني سبتك..

لم تشعر بلحظة أنها تكره أحداً مثلما تشعر نحوه الآن..

بل لم تشعر من قبل برغبة في القتل..

اختلط الحبر بعبراتها وأقسمت أن يدفع الثمن غير أنها لم تكن تعرف كيف..

كان يراقبها بنهم ووقتما انتهت انتزع الأوراق منها بقسوة ليرميها جانباً ويستكمل اقترابه..

وقبل أن تستوعب كان يقيد قدميها الراكلتين بقبضتيه ليسحبها نحوه أكثر وصوته كالفحيح في أذنيها:





- ودلوقتِ بقى دورك يا ليلى..

****





الفصل العشرون

هل يجوز؟..

أن أغتنم من عينيك فرصة؟..

من شفتيك فرصة؟..

من شذاك فرصة؟..

تُراها آخر فرصة!

هل يجوز أن يتوقف الزمن لبرهة؟.

لحظة..

حبيبتي أن لا أبغي سوى لحظة..

أتنفسك..

بل أحتجزك بين جدراني..

حتى ينتهي الزمان..

أو أنتهي أنا مع آخر فرصة..

هل يجوز أن أعاقب؟..

أحارب؟..

أقتل أو أُقتل؟.





لا أبالي!!

فإن ضعتِ أنتِ

ضاعت كل فرصة..

مروة جمال

كلها على بعضها كانت مرتجفة وبشكل ما شهية!!

الخطة تسري كما خطط تماماً, بل ربما أفضل فهو لم يتوقعها خائفة بهذا الشكل!..

كانت متقوقعة بأقصى ركن فوق الفراش مبتعدة عنه..

تضم ركبتيها وتوقع الأوراق دون حيلة..

هي لحظة انتهت وانتهى..

جذب الأوراق من يدها ليقذفهم جانباً ثم ارتكز بإحدى ركبتيه فوق الفراش وجذب ساقيها بقبضتيه بكل يسر!!





وجدت نفسها فجأة مقيدة ولا تدرك كيف..

كفيه فوق ركبتيها ويقترب منها كذئب على وشك التهام فريسته..

همسه الحقير وازى جذبه لها فطفقت تركل بكل ما أوتيت من قوة, ولكن لا جدوى..

كان يفوقها حجماً وبسلاسة ارتكز بركبته الأخرى فوق الفراش ليترك ساقيها ويقيد كلتا ذراعيها فوق رأسها وتحكم بركلاتها بساقيه الشديدتين..

ضغط فوقهما بالبداية ثم باعد بينهما في النهاية..

بكل سلاسة!!

لطالما ظنت أنها تقدر.. تستطيع..

صفعة أو قبضة ولكن الواقع مختلف عن الخيال..

الواقع قاسي وخانق..





الواقع شنيع..

شهقت بصرخة تلو أخرى وبرقت عيناها عندما أبصرت وجهه يقترب منها..

شعرت برائحته مقززة حتى قبل أن يلمسها وهلعت أكثر مع همس فاحش لا ينتوي رجوع..

استطاعت بمجاهدة أن تحرر إحدى ذراعيها من قبضته لترفع وجهه بعيداً عنها, وعندها أغضبته فاستدعى قوته ليقيد ذراعيها بقبضة واحدة تلك المرة ويصفعها بالأخرى..

صفعة أعطته هدوءً استغرق عشر ثوانٍ..

مجرد ثوانٍ ترنحت هي فيها لتستفيق على تسلل أصابعه فوق زر سروالها..

وعندها لا تعلم ماذا حدث وكيف ولكنها بعزم لم تختبره من قبل صرخت مرة أخرى وضمت ركبتيها لتضربهما ببطنه أولاً وعندما تحرك ركلته مسرعة بمنطقة حساسة..





كان هو قد اندفع للخلف وكاد يقع من فوق الفراش، وأغضبته أكثر وتعالى منه سباباً بذيء وهو يستجمع تركيزه ويمد قبضته نحو خصلاتها القصيرة قبل أن تهرب..

وهي قفزت بعدها من على الفراش في ثوانٍ وقبل أن تتحرك خطوتين شعرت بألم حاد كاد يمزق شعرها وهو يجذبها نحوه من جديد وقد أحاط بذراعه الأخرى خصرها فحمل وزنها الخفيف بكل يسر لترتفع من فوق الأرض بضعة سنتيمترات وعندها اقترب من أذنها أكثر تلك المرة وهمسه يتوعدها بانتهاك.

وبدت تلك المرة دون رجعة..

دون سبيل..

أين ستهرب؟..

ضحك وهو يسخر منها ويسحبها ببطء نحو الفراش مرة أخرى..





وكانت تجاهد ولكن خارت قواها..

وهو بدا كمن استدعى قوته فوق جسد ضعيف..

وصرختها الأخيرة وازت ضحكة منتصرة منه، وتوعد مقزز بالمتعة!

جذب خصلاتها بقوة أكبر حتى مال رأسها إلى الوراء تماماً ونظر للفراش خلفه بغرور ثم قال بفحيح أخير:

ـ المرة دي تسمعي الكلام..

وقبل أن يدفعها فوق شراشف متعته بدا الباب وكأنه انفجر من شدة الصوت فوق رأس كليهما..

****

قبل نصف ساعة..

كان يحدق بأمين ولا يفهم..

تبدو خطة حقيرة لسرقة كليهما..





بل سرقة وسيلة اتصال..

هي أول من قلق بشأنه وهاتفها ليقلق أكثر..

لا تجيب..

أكثر من عشر محاولات اتصال على هاتفها والمنزل ولا جواب..

ولم يكن يحفظ رقم فاتن وأجرى ثلاث محاولات هاتفية بأصدقائه حتى هاتفها ليصرخ صوتها بأسوء مخاوفه..

فاتن التي كانت غير منتبهة لهاتفها واكتشفت أن ليلى حادثتها أربع مرات وفي النهاية كتبت رسالة على عجل

"مركب منصور يحرقه صبري!!"

عندما حاولت الاتصال بها مجدداً كانت ليلى قد اختفت بالفعل وتحاول منذ وقت الوصول لحمزه وأمين دون جدوى..

الجميع يبحث عن الجميع

وآخر خطط ليحظى بليلة انتصار ومتعة





صوت فاتن الصارخ يخبره بأمر الرسالة..

مركب.. حريق.. صبري.. وليلى التي اختفت في المرسى

وتوقف كل شيء حتى أنفاسه..

حتى الهاتف سقط من يديه وعينيه جاحظة نحو أمين وقد تشكلت بملامحه كل خوف يعرفه الكون..

ولم يدرك أمين سوى ركض حمزه بكل ما أوتي من عزم نحو سيارته ومنها للمرسى..

- حمزه.. حمزه.. استنى..

لم يكن يسمع أمين..

لم يكن يسمع شيء فصورتها كانت أمام عينيه..

صورتها مرتبكة أمام عجلة القيادة..

مغمضة العينين خجلاً من قبلته.. مذهولة من اقتراب لا تفهمه..





وصورة أخرى لا يود تخيلها..

تهديد حقير وهي اختفت بحق الجحيم..

صرخ وهو يضرب على المقود وقد تعدت سرعته المائة وأربعون كيلو متر، وأمين لم يستطع أن يلحق سوى بمؤخرة السيارة فدفع جسده بالمقعد الخلفي..

المرسى كان هادئاً وكأن شيئاً لم يحدث والضابط المناوب بالقسم أخبر حمزه الثائر على الهاتف أن هناك اتصال جاءه بشأن حريق ولكن الحارس أكد أن المرسى هادئ تماماً..

الحارس..

أصبح وجهه يرتج بفعل لكمات حمزه..

أمين يحاول أن يتحكم بجنون صديقه والرجل انبثقت الدماء من وجهه ويقسم كاذباً أنه لا يعرف شيء..

مركب تتحرك بجنح الليل والفتاة مفقودة وهو لا يعرف شيء!





أمسك حمزه بسكين فواكه ليمرره فوق رقبته ويصرخ بعنف أمين نفسه لم يختبره معه من قبل..

ـ هادبحك لو ما نطقتش.. فاهم ولا هيفرق معايا!

عندها صرخ الرجل من وسط كدماته:

ـ أنا ماليش دعوة.. صبري شوكته قوية..

جحظت عينا حمزه باحمرار هائج وصرخ به من جديد:

ـ انطق.. راح فين؟.

تلعثم الرجل وأقسم بتوسل:

ـ والنعمة الشريفة ما اعرف.. المركب اتحركت من ربع ساعة وكانت واقفة جنب يخت الياسمين..

دفعه حمزه ليخرج راكضاً نحو الرصيف بجسد كله يرتجف!!



اختطفها الحقير..

أغمض عينيه وفيها ألف كلمة ورقم

حسابات..

أفكار متزاحمة..

ويوازي كل هذا صراخ ليلى..

صراخها يخترق عقله بشكل لا يوصف..

بل يرى نفسه مقيداً وأمامه ملامح كريم

تتوعد بتدمير كل شيء، والذنب ذنبه!!

أمين كان يشعر بالعجز ويراقب انتفاضة

جسد حمزه..

شفتيه تهتز بلعثمة لا يفهمها..

حتى أنه رفع سبابتيه وبدأ يدعك جانبي

جبهته بتعبير يائس

مجاهدة كي يحدد موقعها..

ربع ساعة ومسافة وسرعة بالعقدة ودائرة

بقطر ما سيبحث في محيطها..





وفتح عينيه فجأة ليقفز فوق للانش إنقاذ خاص بالمرسى ويتحرك في لمح البصر حتى قبل أن يدرك أمين ليختفي في الظلمة وحيداً..

وبعد دقائق بدت ساعات..

وظلام..

وعيناه بهما تشوش فأصبح لا يرى..

وأذناه تطن وتطن..

وعقله يكابد كل يأس..

وصرخ بقوة أكبر..

يتوعد.. وينازع.. ويأمل..

ووسط كل هذا ظهرت ومضة..

بصيص ضوء..

بعيد..

ابتعد الحقير أكثر مما يظن..

سيقتله..





كل ما شعرت به هو نفس كريه فوق أذنيها..

توعد حقير ولفظ بذيء تلو آخر..

كان يجذبها بتمهل يرضي غروره..

وكأن نصف متعته برهبتها..

وفي النهاية دوي مفاجئ طغا على صوته..

بل خفف من قبضته الموجعة في لحظة نظر فيها نحو الباب ومن كسره لتستمع لصوت حمزه..

لم تره فقد كانت باكية حد العمى، ولكنها شعرت بقبضته تخلصها من الحقير وتدفعها بشدة نحو الحائط حتى أنها تألمت من الارتطام، وعندما استفاقت وجدت حمزه يمسك بصبري من تلابيب صدره ويدق رأسه بالحائط..

يزعق ويسب ويتوعد..





لم يكن حمزه المشاكس..

كان آخر..

الصدمة لجمت صبري فحتى دفاعه كان واهياً والدماء أحاطت بوجهه ولم يكن يعرف المصدر..

تركه حمزه خائر القوى ليقترب منها ويرفع جسدها المرتخي على الأرض..

يتأمل ملامحها وصوته بعيداً رغم زعيقه.ز

أزاح خصله من وفق وجهها ولمح كدمه على وجنتها لينفجر جنونه أكثر وهو يهتف:

ـ قرب لك؟.. لمسك؟..

والصرخة الأخيرة بدت باطشة:

ـ انطقي!

حركت رأسها في نفي مذعور ونظرت نحو الطاولة الجانبية للأوراق فجذبهم يقرأ وتبرق عيناه بذهول..





وعندها أخرج من جيبه قداحة لتمسك النار بطرف الأوراق وتأكلها مع نبرة غليظة تطحن نواجذه:

- حريقة!!.. بتحب النار أنت..

ثم لمعت عيناه:

- جربها بقى!

كانت تنظر لكل ما يحدث في ذهول..

حمزه وجهه ربما أحمر.. أسود..

متعرق.. غاضب.. شيطاني..

خرج نحو المطبخ وعاد بزجاجة ضخمة بها كيروسين..

رفع صبري عينيه بذعر ليصطدم بعيني حمزه المستعرتين وهو يسكب الكيروسين فوق جسده..

عندها انتبهت ليلى فجذبته من ذراعه وقد تحشرج صوتها من الصراخ:





ـ حمزه لا.. لا.. يا حمزه..

لم يكن يشعر بنفسه..

أراد حريق فلينله..

صرخ صبري وهم ليقف ولكن حمزه دفعه بقدمه ليقع مرة أخرى ثم هذر بوعيد:

ـ هولع فيك.. فاهم يا صبري.. عايزها نار تولع بقى!

كانت ليلى تصرخ بيأس لتجذبه مرة أخرى بنشيج متوسل:

ـ حمزه.. لأ.. والله ما قربلي.. والله العظيم أنا كويسة.. حمزه.

كانت أنفاسه متسارعة.. يلمح ضعفها.. توسلها.. انهيارها..

نظر للمركب حوله ثم جذب صبري الذي كان عبقه خانقاً وخرج من القمرة نحو سطح المركب..

تبعته تتعثر في الدرج الضيق وقد انتفخت جفونها من البكاء فكل ما تراه خياله يقترب من الحافة..





وقبل أن تدرك كان قد دفع صبري فوق سطح اللانش الصغير وبدا صوت ارتطام جسده قوياً مع صرخة أخيرة منه..

حقيرة..

متآمرة..

مثله:

- هتروح في ستين داهية.. ما حدش هيسيبك وهي والله لأفضحها!

عينان ملتهبتان في الظلام وشعلة نار ورفع صبري وجهه لا يصدق ما ينتويه حمزه..

لتحيط النيران بجسده وتتشبث به في أقل من ثانية في تطبيق واقعي لكذبته ولكن هو من سيحترق!

****

نيران تشتعل بجسد..

ببساطة..

أحرقه!





كانت تتراجع للخلف في خطوات بطيئة من الذهول، وحمزه صامداً كصخرة صلدة وقد بدا بعينيه إنعكاس لصورة شيطان تنازع الألم..

لن يقترب منها مجدداً.. لن يكون هناك سبيل..

لم تكن هناك فكرة بعقله سوى ذاك..

وهو يراقب جسد صبري ينتفض من النيران التي تشبثت به بُغية التهامه..

وتشبث الحقير بالحياة فقذف بنفسه في الماء..

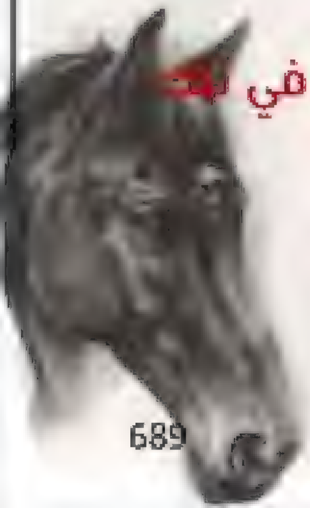
ولم يهتم حمزه بمشاهدة باقي العرض..

استدار ليدير القارب ويرحل..

لمحها بطرف عينيه..

انزوت في الظلام لتجلس على الأرض دون حراك..

عيونها جاحظة في لا شيء وبدت في تلك اللحظة تخشاه..





لم يستدر لها أكثر ولم ينبس بحرف فقط ظل يقود كالصنم طوال طريق العودة..

وعلى المرسى كان واضحاً أن هناك جمع!!..

مَن أخبر مَن؟.. وكيف انتشر الخبر؟.

لا يعلم..

ولكن هناك حشد لا بأس به..

نوايا لا يعلمها إلا الله..

بعضها بها فضول..

وآخرون يبغون اطمئنان.. وهناك من يلهث خلف إثارة بحكاية..

قطب حاجبيه ليجذبها من ذراعها ويخرج وهي جانبه دون مقاومة تُذكر..

حتى الخيالات لشبه بشر لم تكن تراها..

بدت في حالة صدمة تجعل مَن يراها يصدق الأسوء إن أراد..





زفر بضيق جاحظاً للأمين الذي هز رأسه في نفي أن يكون الخبر خرج منه..

وعندها علت غلظة من عجوز على شكل صوت يظن أنه مبالياً:

ـ ينفع كده يا بشمهندس!.. قولنا ده مش مكان لبنات..

استدار له حمزه وقد تأججت عيناه بشعلة الغضب من جديد ليقف دون أن يتركها وهو يرمق الجميع باحتقار:

ـ فعلاً مش مكان للبنات.. مكان للحقارة بس.. صبري اللي هياكلكم كلكم واحد واحد طول ما أنتم ساكتين.. ومش بعيد يطمع في مراتك ولا بنتك علشان يجبرك تبيع يا ريس!

انتفخ الرجل من الغيظ ليصرخ مدافعاً بهجوم:





- بناتنا في بيتهم مستورين محدش يقدر يمسهم.

ضحك حمزه باستهزاء ليرفع ذقنه بشموخ وهو يردف بنبرة مظلمة:

- الكلب اللي مخوفكم بيغرق محروق..

ثم نظر نحو ليلى بملامح غير مفهومة ليردف وقد توحشت نبرته أكثر:

- ومش بنت الريس منصور اللي كلب زي ده يقدر يقرب لها.

ولم ينطق بما هو أكثر ليجذبها نحو سيارته وخلفه أمين دون أن يبالي بأحد..

****

كانت تجلس في المقعد الخلفي دون حراك..

انتبهت أنه يحادث فاتن التي فيما يبدو رجعت مسرعة للمنزل واستقبلتهم على الفور لتأخذها لغرفتها وحمزه يتمتم بتعجل:

- نص ساعة.. هاستنى في العربية.

سألته فاتن:





ـ أنا هاجي معاكم؟

استدار رافضاً:

ـ ما فيش داعي.. تعب وهناخد الطريق صد رد.. بس هي لازم تروح النهاردة.

كانت صامتة..

تراقب حديثهما وكأنه عن أخرى..

رغم أن صبري لم يتمكن منها ورغم أن حمزه هو أكثر شخص يعلم هذا إلا أنها تشعر أنها عارية ولا تعلم لمَ!!

همهمة الجمع آلمتها..

بدا بعضهم وكأنه كان يود البحث عن فضيحة..

وفاتن كانت تبكي وتعتذر لها بطيبة..

تمسد على وجهها.. ذراعها..

تتأكد أنها دون إصابات..

جذبتها فجأة نحو حضنها وصرخت:

ـ عيطي يا ليلى.. حابسة دموعك ليه؟





ارتجفت وهي تهز رأسها بنفي.. بل ابتعدت..

أمسكت فاتن بقبضتيها:

- الحمد لله.. ربنا ستر.. أمين قال إن حمزه وصل في الوقت المناسب.

ظلت متجمدة دون تعبير.. تنهدت فاتن بقلة حيلة:

- مش عارفة ليه مصمم تروحي الليلة!.. مش عارفة حصله إيه؟!!.. أمين نفسه مش قادر يكلمه

حينها استقامت بكبرياء لتردف بكلمة واحدة:

- أنا جاهزة..

****





ظلام الطريق يوازي سكون مؤلم لا يقطعه سوى همهمات من أمين على هاتف أخذه من أحدهم..

هناك من يطمئن..

هناك من يعتذر..

وهناك من يقول أن صبري في مشفى حكومي يعاني من حروق درجة ثالثة ولكن لم يمت..

والضابط أصابه الجنون ويحدث الجميع..

والحارس قال أنه لا يعلم شيء، ولكن بشكل ما الأمر انتهى على أن صبري سرق للانش إنقاذ صغير واحترق به!!

همس أمين باستهزاء:

ـ كلهم دلوقتِ فرحانين في صبري، ومن شوية كل واحد كان عامل قاضي!

لم ينطق حمزه..





كان يرتكز ببصره على عجلة القيادة ويراقب وجهها في مرآته من حين للآخر..

في البداية أغمضت عينيها ولكنه علم أنها ليست نائمة, وفي وسط هروبها ذاك كانت عيناها تتألم بتعابير لا تحتمل..

وكأنها تتذكر كل لحظة..

صوت آذان الفجر جعله يهدىء من سرعته ليلمح مسجد قريب..

نظر نحو أمين ليهمس بإنهاك:

ـ صلي إنت الأول وبعدين إحنا..

وفهم أمين لينسحب بعدما رمقه بنظرة خاصة تقول له..

"اهدأ"

يعلم أمين..

ويفهم أمين..

حمزه انفجر غضباً وحان وقتها هي!!





انتفضت على صوت إغلاق باب السيارة لترفع عينيها وتصطدم به..

عيناه لا ترمش..

فقط ينظر نحوها وكأنه فوق فوهة بركان..

انفرجت شفتيها لتنطق بلاشيء وحينها اخترق صوته أذنيها:

ـ هددك امتى؟

ضاقت حدقتيها في حزن..

هددها نعم..

ومنذ وقت وهي ظنت أن بمقدرتها حماية..

رفعت بصرها مجدداً لتناظره بكبرياء رغم ارتجافها:

ـ من ساعة ما وقعت من المركب.

ثم أخفضت بصرها تردداً لترفعه مرة آخرى مُكملة:





ـ كان هو..

وحينها انفجر البركان..

عيناه وصوته وملامحه بل كل انفعالته..

ضرب مقود السيارة بعنف ثم استدار نحوها وقد تراقصت بوجهه لهيب نيران:

ـ كل ده!!.. مهددك كل ده وساكتة!

تراجعت في مقعدها بصمت فأكمل هو صراخه:

ـ ليه؟.. أنتِ بتفكري إزاي؟.. أنتِ عارفة إني وصلت لك بمعجزة يا هانم.. معجزة..

انهمرت دموعها من جديد..

أرخى هو رأسه فوق مقعده بتعب ليهمس:

ـ كنتِ هتكسريني يا ليلى..

رفعت صوتها لتتحدث ولكنه أذهلها بنبرة قاسية:

ـ اخرسي!





ضيقت عينيها تود أن تغضب.. تثور..

ترفض..

وتهاجم وتثأر وتدافع..

ولكن كانت بتلك اللحظة أضعف من أي

جدال، زفر هو بضيق أخير:

- أمين وصل.. يلا انزلي صلي.

وراقب خطواتها التي بدت دامعة كعينيها تتوجه نحو المسجد تنشد راحة وربما آمان..

آمان منه هو فهي كأنها أصبحت تخافه!

وشرد هو كثيراً بعد الصلاة ولا يتذكر عدد سجدات الشكر التي سجدها لأنها بخير.. لا يتصور أي مكروه قد يصيبها..

بل ثار جنونه وإن عليها..

هي فهي كالطفل الذي يخطو دون حساب قسوة خيالات الظلام..





تنهد ببطء ولمح وجهها من خلف زجاج السيارة نائم..

تلك المرة لم يكن هروب كان نوماً بحق..

كانت متعبة ورغماً عنها جدران سيارته آمانها..

لو بإمكانه لجاورها لتستقر فوق صدره لا يبغي منها سوى سكينة النوم..

يحتضنها فقط ليضمن أنها بخير..

يحتضنها للأبد إن استطاع..

أشار لأمين ليجلس مكانه وأرخى رأسه بدوره وإن لم ينم ولكن كان كل ما يبغيه استرخاء..

وشروق الشمس تلاه ضوء صباحي أيقظها قبل الوصول بساعة..

رفعت بصرها لتجده ينظر نحوها وبدا أنه لم ينل من النوم لحظة واحدة..

يتأملها بتعب..





بغضب..

بقلق..

باشتياق..

بحب..

ولا تملك هي كلمات حتى أنها لا تعلم كيف ستفسر لأمها أمر عودتها وماذا ستقول!

توقفت السيارة أمام المنزل ونزل هو بجاورها يسحب حقيبتها ليحملها عنها حتى باب الشقة غير مبالي..

توقف بعد أن صعد بضع درجات وكانت تستشعر قوة أنفاسه..

بل ربما جحيمها..

استدار وكان غضبه قد خمد قليلاً ولكنه حادثها بنبرة آمرة:

ـ هتحكي كل حاجة لمامتك..

نظرت نحوه في رفض فبدا حازماً بنظرة واحدة قبل أن يتابع:

ـ ده هيضمن إنها تحبسك شوية!!



قطبت حاجبيها لتعترض أخيراً:

ـ ده الحل!.. إني اتحبس؟.. وهارجع امتى من الحبس إن شاء الله؟!!

لم يجبها..

كان يود أن يصفع هذا الرأس العنيد ولكنه للأسف لا يضرب أنثى..

اقترب منها فأجفلها لتبتعد خطوة ناقضة كل قوة واهية تود أن تتشبث بها..

بدت بشفتيه شبه ابتسامة لم تكتمل..

قطعها فرمانه الأخير:

ـ هترجعي وأنت مراتي.

****





الفصل الحادي والعشرون

لقاء أول..

ثوب أزرق وفتنة نائمة

وعبق بندق أيقظها!!

كانت بالحديقة وترتدي الأزرق عن قصد..

تستند بظهرها على الحائط وحولها أوراق وقد مدت ساق وثنت أخرى وتناثرت خصلاتها فوق وجهها في عشوائية مقصودة فبدت رائعة وسط فوضى حافية!

وعطر فواكة!

استند على حافة الجدار ورفع حاجبه الأيسر يتأملها بفكرة واحدة..

هو لن يمانع استرضاءه الليلة على الإطلاق..

شعرت بحرارة على جانبها لتكتشف أنه قد جاورها وجلس..

نظرت نحوه فتحدث وهو يوجه بصره للأمام بلامبالاة:

ـ مفيش عشا النهارده؟





من جانب وجهه يستطيع أن يتبين بملامحها الغيظ..

وأزرقها التي ظنت أنه لم يجدي..

زفرت لتجيب بمعاندة:

- لما أخلص اللي ورايا!

أمال رأسه ليلقي نظرة على الأوراق في يدها ثم عاد ليستند على الجدار دون ردة فعل وأغمض عينيه!

ببساطة..

ولم تكترث وأكملت هذا اللاشيء فهي فقط كانت تعانده..

مرت نصف ساعة دون أن يتحرك ولمست انتظام انفاسه

لقد نام!

زوجها يجلس على الأرض بجانبها في الحديقة الباردة ونام في انتظار طعامه!! تنهدت بغيظ..





تركها ونام!

بندم..

هو لم يتناول عشاءه..

همست:

- خالد..؟..

ولكن لا أمل..

هو غارق بأحلامه مع الخيل..

هزت كتفه ببطء، ولكن لا شيء!

أزاحت الأوراق من على ساقيها وارتكزت فوق ركبتيها أمامه لتناديه بنبرة أعلى ولكن رقيقة تخشى افزاعه:

- خالد.. قوم يلا علشان نتعشى.

وكأنه لم ينم منذ سنوات..

ما هذا!

ربتت فوق كتفه من جديد ومع زفرة يأس أخيرة وهمهمة اعتذار:

- حبيبي.. مش حينفع تنام من غير عشا..





توقفت كلماتها مع انتفاضة مفاجئة منه أفزعتها, فصرخت لتجد خصرها محاصر بين ذراعيه ليجذبها في لحظة ويحتجزها تحت جسده..

نظرت نحو غير مصدقة فتابع بنبرة هادئة دون أن يتزحزح:

ـ نص ساعة!!.. أنا كنت هنام بجد..

كانت ما زالت تتنفس بسرعة أثر فزعتها, ضربت صدره في غيظ:

ـ حرام عليك.. خضتني..

رفع حاجبه مجدداً ليبتسم بمكر:

ـ اعتبريه ابتكار!

زمت شفتيها ودفعته لتنهض ولكنه لم يسمح لها..

احمرت وجنتها:





ـ خالد.. احنا في الجنينة..

اقترب من شفتيها:

ـ وبعدين؟!

تلعثمت:

ـ تميمة ممكن تصحى..

اقترب أكثر:

ـ وبعدين؟!

أغمضت عينيها:

ـ أنا آسفة..

كتم ملامح انتصاره وأردف بخشونة:

ـ وبعدين؟!

اغتاظت من جديد فصرخت:

ـ بس شير..

ولم تكمل..

ابتلع باقي جملتها في قبلته..

****





رغم كل شيء كانت ليلة هادئة، خالد ومحمود منشغلان بلعبة إلكترونية وحسن يتجاهلها أمام التلفاز!

أنهت جلي الصحون ولم تغادر المطبخ..

أعدت لنفسها كوب شاي، وجلست تتطلع لكتاب أهداه له شاب مرح منذ سنوات..

لا هي اقتدت بالكتاب ولا الشاب عاد كما كان..

حمزه!

لا تصدق أنها تسمع صوته.. مرت أشهر منذ هاتفها آخر مرة..

نظرت للهاتف ربما لتتأكد ثم أجابته بنبرة أم:

"وحشتني يا واد"

أجابها مازحاً:





"برده واد يا روكا!"

ثم ضحك مكملاً:

"أخبار الواد خالد ايه؟.. وخالو؟"

كانت ضحكته مخنوقة.. ليس حمزه الذي اعتادته وحتى ليس حمزه الهارب..

سألته مباغتة:

"أنت كويس يا حمزه؟"

مرت فترة صمت..

هل هو بخير؟

هل حقاً هو بخير؟!

هل هي بخير؟

ليلى..

اسمها, وعيناها, وفزعتها, وضياعها الوشيك منه..

كلها أفكار تهاجمه..

تفتك به..





كــليلة حريق..

همس:

"حبيت أطمن عليكم بس"

ثم تنهد بغموض:

"أخبار الناس اللي في المزرعة ايه؟"

دمعت عيناها لتجيبه بصدق:

"المزرعة وحشة من غيرك يا حمزه"

ضحك ليناوشها رغم حزنه:

"أكيد حسن مضايقك!"

كتمت دمعات أخرى لتضحك لضحوك كان يلون عالمها كابن بكري احتاجته دوماً

"حقوله!"

تنهد مجدداً فتابعت:

"مش هتقولي مالك؟"

سمعت أنفاسه قبل همس أخير:





"جيتوا على بالي يا روكا.. كلكم جيتوا على بالي"

وودعها وأغلق..

كان يراقب البحر وحيداً..

مرت ليلة كاملة على رحيلها..

لم يحادثها ولكنه طلب من فاتن أن تطمئن عليها..

لو حادثها سيتشتت عقله..

ستعانده..

ستغضبه..

وسيتهور هو بما لا يحمد عقباه..

يشعر بالغيظ.. بالغضب..

بالجنون..

وحنو يودها أن تنهار فوق صدره..

سيعاقبها ثم يراضيها..





يضرب رأسها ثم يقبلها..

يلومها ودونها لا بديل..

وفي النهاية سيتزوجها..

وزفرة أخيرة وازت نظرة مظلمة نحو مجهول..

صبري..

القابع في مشفى يعاني جراحه..

لن تخطو ليلى مدينة هو فيها..

وتسارعت أنفاسه من جديد..

بل استعرت ككل

غضب عارم تمكن منه.. غضب يود القتل..

لا سبيل..

السجن أو القتل..

وكان هناك حلاً آخر في أفق قريب لم يكن يعلم به



النبذ!!

****

فوق فراش..

كانت تجلس ضامة ركبتيها تتأرجح في حركة توازي بندول الساعة

ثوانٍ.. دقائق..

ولو زادت لاختلف كل شيء..

ارتجفت ككل وشهقت بعنف فتح باب غرفتها على مصراعيه لتدخل أمها وتحتضنها بألم..

تسأل مجدداً..

هل حدث؟..

تشجب وتولول وتلوم وتبكي وتعتذر!!

تقبل يدها:

- حقك عليا يا ليلى.. ما كانش لازم أسيبك لوحدك.





تترك يدها وتضرب الفراش وتصرخ:

ـ الكلب.. ده دخل بيتنا.. الحقير.

تمسح عبراتها بهستيريا:

ـ عايزة أقابل حمزه..

وتصمت ليلى مجدداً..

تراقبهم وهم يفندون تفاصيل عالمها
وهي ضيف شرف لا يحق له الاعتراض..

جميعهم دون استثناء يضعون عليها ذنب
وحتى إن لم يصرحوا به..

وفاتن تحادثها يومياً..

تطمئنه هي تعلم..

لم يرفع الهاتف بعد قراره..

"مراتي"

أمر بالطاعة.. بالسكون..

قرار واجب النفاذ!!





والتهمة أنثى!!

أنثى كانت تود الكثير

أن تستقل

أن تحقق حلم منصور..

أن تحب حمزه بنهجها هي لا غير..

أو حتى ترفض حبه..

أن تقتل صبري!!

وتقلقلت مقلتيها باضطراب مع ذكرى

حرق..

وازدادت ضربات قلبها..

وضعفها

وبكت مجدداً بقلة حيلة..

ضعف..

ضعف بين طياته رغبة في الإنهيار فوق

صدره ولكنها تأبى..





زفرت بألم آخر قبل أن تسحب هاتفها..

تكتب رسالة..

رسالة نصية كآخر يوم!!

بكت من جديد..

وكتبت لتنتهي..

"ماما عايزة تقابلك"

ومرت نصف ساعة دون رد..

وبكت مجدداً لأنها لم يجب..

وخفق قلبها مع صوت الهاتف..

مع حروف لا تعلم هل يجب أن تسعدها أم تبكيها!!..

"بلغيها أني هزوركم آخر الأسبوع"

ثم زاد

"بطلي عياط"

ولكنه لم يتحدث..





إن كان الموت اختيار فهو اختيارها لا قراره!

كانت تتنفس بغضب مكتوم وهي تراقب تحركه بين جوانب المسرح يقرر كل شيء بما فيه انحناءات جسدها..

ودون أن يصرح بدا الأمر وكأنه سيقول..

"هنا سأقتلك"

Les hommes sont des con.

بفرنسية بائسة قالتها

"الرجال أوغاد"

بفرنسية بائسة كررتها عجوز تلاصقها منذ بدآ في بروفات العرض..

كانت من هؤلاء المتطفلين حول بؤرتهم الساطعة وسط الظلام كل ليلة..

تأتي مع بداية العمل وبيدها شطيرة مهترئة يبدو أنها أخذتها عنوة من شخص ما، وتلف حول خصرها حزام قماشي





غريب به ثنايا تبدو كجيوب تحافظ على محتواها قدر عينيها!

شعرها الأبيض مشعث من تحت قبعة مستهلكة ووشاح قاتم تلف به رقبتها المتغضنة أكثر من بشرتها..

جلست جوار كارمن دون دعوة وتلك المرة أخافتها..

لم تكن قد تمعنت في ملامحها من قبل ولكن حقاً تلك المرأة تبدو مخيفة..

مدت العجوز أناملها نحو كارمن لتتلمس بشرة جيدها في حركة مفاجئة ثم همست بقسوة ومكر:

Votre peau est belle, ne le laissez pas sans tache Bqublath

"بشرتك رائعة.. لا تدعيه يلوثها بقبلاته"

برقت عيناها الزرقاوتان دهشة وغضبا..





لم يصر الجميع أنها عشيقته.. أنه ببساطة ينهل منها ما يشاء.

حتى أن بعض الفتيات بالعرض يلقبونها بالعشيقة المحظوظة فمراد يفعل من أجلها الكثير!!

ابتعدت مشمئزة عن ملمس يد العجوز لتضحك الثانية بشراسة أظهرت قواطع مختفية ثم تابعت:

Hee .. temps ne sera pas vous arrêter, vous avez une belle

"هه.. الزمن لن يتوقف عندك يا جميلة"

ثم حركت شفتيها مستهزئة وأكملت بحقد:

Un jour Stsubhan gay

"يوماً ما ستصبحين مثلي"

وتركتها قبل أن تضيف:





Ne oubliez pas que tous les hommes sont des salauds .

"ولا تنسي.. كل الرجال أوغاد"

وحينها لا تعرف ماذا أصابها ولكنها ضحكت بهيستريا..

مراد.. كريم.. وخالد

عالمها به نخبة منتقاة من الرجال

ولكن القسوة نصيبها هي فقط.

وعلى العشاء قربت من فمها قطعة لحم دون شهية وازت صوته الهادئ:

- مش محتاجة تفقدي وزن أكثر!

ارتسمت فوق شفتيها ابتسامة جانبية بتهكم فتابع وهو يتفحصها بتمعن:

- عشيقتي!

رفعت بصرها في غضب فأردف مكملا بمتعة:





ـ بيقولوا إنك عشيقتي..

قالت بنبرة مغتاظة:

ـ وقف الإشاعة دي.

ابتسم بتسلية:

ـ بس دي إشاعة ممتعة!

رمقته باستهجان:

ـ غرضك مش ده يا مراد.

ترك طعامه ليسحب سيجاراً أنيقاً نفثه ببطء ثم نظر بغموض:

ـ شهريار بيحب ياخد كل حاجة!

استقامت وقد التمع الموج الأزرق بعيناها فبدت متمردة ورافضة:

ـ شهريار اختار الموت

لوى شفتيه مبتسماً بلذة:

ـ واختار قبليه المتعة





رفعت ذقنها في كبرياء:

- صح.. لكن أنا كارمن مش شهرزاد!

ثم نهضت من على المائدة لتواجهه واقفة بشموخ:

- شهرزاد قتلت طمع شهريار.. بس واضح كارمن بتغذيه!

لأول مرة تلمح بعينيه ارتجاف..

ابتلع ريقه وقد بدا نادماً على الحوار برمته:

- الموت اختيار راقي.. مش هلوثه بالجنس

ثم أردف وهو يستقيم بدوره:

- أنا منعت دخول المتطفلين للموقع، خاصة العواجيز اللي بتخرف!

ورحل بتوقيع شهرياري آخر..

في مملكته هو لا يفوت تفصيلة!!

****



- هششششششششششششش..

قالها وهو يضع إصبعه فوق فمه والتنبيه تلك المرة صارم..

فلعبة الغميضة تعني أن تختفي دون صوت..

يا تميمة!!

ربما هي المرة العاشرة التي تتسبب فيها في خسارته..

لا تستطيع أن تدبر أمر اختفاءها وحيدة فتركض خلفه وفي النهاية يجدهما خالد على صوت ضحكاتها..

نظر نحوها بجانب عينه محذراً فرفعت كفها الصغير فوق فمها وقد تحول لونها لوردي من كتم الضحكات..

وفجأة انفجرت ضحكتها رغم عنها مع ظهور خالد ليتركها كالعادة ويمسك بمحمود

فالمدللة تبكي عندما تخسر!



قطب حاجبيه وقد أصر تلك المرة على أن يمسك بها هي لا خالد, ولتبكي فهو لن يدللها مرة أخرى!

وبالفعل ركض خالد وهي خلفه فتجاهله تماماً وأمسك بها لتنفجر بدل الضحكات في بكاء حقيقي لأنها خسرت!

مشعثة بضفيرتين وسروال بني قصير وبلوزة وردية كربطة شعرها..

وباكية.. متذمرة..

وغضبت منه..

كتفت ذراعيها وتحركت مبتعدة عنهما بخطوات واسعة وحاول خالد أن يصالحها ولكن دون جدوى

كانت توده هو..

وهو لن يدللها تلك المرة!!





ضحكت إيناس وهي تستمع لتميمة الشاكية الباكية من خالد ومحمود اللذان تآزرا عليها في اللعبة السخيفة..

ـ لعبة وحشة!..

كررتها وهي تشدد على كل حرف وخاصة حرف ال "ش" لتزيد:

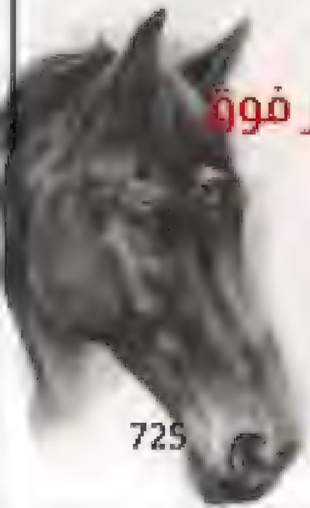
ـ محمود وحش!

وتلك المرة كانت الشدة فوق الشين واضحة فهي حقاً غاضبة منه...

تنهدت إيناس من عراكات الأطفال التي لا تنتهي وأعدت لها العشاء فتناولته الصغيرة دون شهية لتتوجه لغرفتها وتنام مع لعبتها المحشوة شاكية من جديد محمود..

وقبل أن تستغرق بالنوم، نقرات متقطعة فوق الزجاج أفزعتها..

هي طفلة في السابعة من ينقر فوق نافذتها بحق السماء!





وكيف تسلق هو تلك النافذة في تلك الساعة؟!

ولم تره!!

ترك ورقة ملونة وعلبة سكاكر..

وعبارة..

"آسف!!"

وفي غرفة المكتب كان خالد يجلس شارداً..

دخلت تمسك بقهوته ولاحظت أن عينيه مرتكزة على بطاقة بريدية وقد غاب انتباهه عنها تماماً..

ـ خالد!

استدار مع صوتها لتتابع هي وقد أثارت هيئته فضولها:

ـ ده جواب؟

زفر وهو ينظر للبطاقة من جديد:

ـ بل دعوة!..



بتوقيع غاب عن عالمه لسنوات والآن يبدو أنه عاد..

"كارمن"

****





الفصل الثاني والعشرون

الحب..

الحب هو الألفة ورفع الكلفة..

هو أن تجد نفسك في غير حاجة للكذب..

أن تكون أنت دون استحداث آخر ليثير الإعجاب..

أن تصمتا أنتما الاثنان فيحلو الصمت أو أن يتكلم أحدكما فيحلو الإصغاء..

"أناشيد الإثم والبراءة"

"مصطفى محمود"

****

كان ما زال ممسكاً بالبرقية حينما تركت هي القهوة واقتربت منه لتحتضنه من الخلف..

تملُك!.. أم بالأحرى خوف..

كلما تذكرت كارمن مرت برؤياها رصاصة غادرة تتجه نحو قلبه..





أغمضت عينيها لتطبع قبلة دافئة فوق كتفه وتحدق في الحروف بصمت..

كارمن..

عرض!..

ومسرح ونهاية..

رحيل شهرزاد!

درامية كما اعتادتها..

نظرت نحوه لا تفهم..

وحينها تأمل هو البطاقة من جديد..

تأمل سنوات مضت وزيجة تلو أخرى..

رقصة, وشغف, ولقاء, وخديعة..

حق.. ومستحق.. وحقير.. ومُستغلة!!

حتى وإن كان طلباً لحبه..

همست هي لتقطع السكون أخيراً:

- ما تروحش..





استدار نحوها وقد لمح بعينيها خوف..

لن تنسى ولن ينسى وحتماً تتذكر كارمن..

حريق وهروب وانهيار وموت..

موت كان سيصيب أي منهما في مقتل لو فقد الآخر..

استدار نحوها ليجذب رأسها فوق صدره ويملس فوق بندقها وقد تبدلت نظرته بين حنو وتوحش..

وكأن تركة مختار تأبى أن تتركه..

وكأن السلام أكذوبة..

خاضع تُدهس.. وقوي تُعاقب!!

هل عادت كارمن لتثأر؟!

خيط الإنتقام الرفيع الذي أرخته إيناس من طوق قلبه ما زال مشدوداً بطرف آخر..

طرفاً لن يغفر..





ضرب الطاولة بغضب وأنفاسه تهيج بأحقية لا تمتلكها الحمراء في الغفران..

شعرت بغضبه..

بالوحش الساكن يعود بل يستعر

رفعت رأسها لتحتضنه هي وتجذب رأسه ليميل نحو صدرها..

أنفاسه الحارة كانت تضرب رقبتها كأعاصير وحركة يده امتدت نحو أزرار قميصها ليفككها ثم مر بأنامله على موضع الجرح..

الرصاصة التي طلبته فاستقرت في صدرها.

شهقت تنظر نحوه لتلمح قسوة غابت منذ سنوات قبل أن تتحرك شفتيه بتوعد:

- أنتِ خط أحمر.. تميمة خط أحمر..

وجِلت وقد وعت لما ينوي:

- أنت خط أحمر!





وكانت تجهش بها باكية, تخاف..

البندقية تخاف وهو رجلها!

لا يجوز..

نظر نحو البرقية العائدة من نيران الماضي مجدداً ثم طبع فوق رأسها قبلة قاسية مع همس أخير لا تراجع بعده:

- الموضوع ده لازم يخلص.. أنا هسافر..

****

ليس لأنها أجمل النساء..

ولا أذكى النساء..

ولا أوفى النساء..

ولا لأنها بالحب أولى النساء..

لأنها هي..

هي فقط وحدها دون جميع النساء

فهذا هو الحب..





"سارة"

"عباس محمود العقاد"

أن تغمض عينيك كي تقابلها..

فيها اختزل كل الأحلام فغابت كل أمنية

وبقيت هي ترقص فوق صفحة مياه

ترتدي ثوباً رمادياً فضفاضاً وخصلاتها

القصيرة منثورة وتخطو بحذر بين أمواج

البحر خشية أن تقع..

وحينما سقطت كانت بين ضلوعه

وهذا غرقٌ دون نجاة!

"كوني أنتِ الحب يا ليلى"

كان يوم جمعة والساعة تعدت الثامنة وهو يجلس بغرفة استقبالهم بأريحية تامة! يرتدي قميصاً سماوياً وسروالاً من خامة الجينز ويرتشف الشاي مع أمها..

التوأمان في غرفتهما بأمر صارم، والحديث الجاد لا تسمع منه همسة..





كانت تراقبهما من خلف الستار..

أمها منفعلة وهو هادئ دون تعبير واضح ولكن بشكل ما هي تُقدِّره

بل شكرته!

شددت فوق قبضته وابتسمت له وكأنه منقذ..

منقذ سيتزوج بفتاة لا تملك اختيار..

فهي كانت في شبهة انتهاك..

بعالمها الانتهاك شبهة، بل بوطنها ككل..

ألم تصرح بها أمها بالأمس؟..

ألم تسرد كلمات مؤلمة حال..

"خلي الطابق مستور"

"بلاش فضايح"

"الستر يا رب"

والستر زوج.. والزوج حمزه..





انقبضت ملامح وجهها لتتنهد بيأس

اصطدم بعينيه..

رفعهما فجأة نحوها وكأنه يدرك موقعها منذ البداية..

داخله صراخ هي لا تسمعه وربما لا تفهمه..

"أخرجي يا ليلى.. مش بنت منصور اللي تستخبى!!"

ولم يزح عينيه، بل أهداها ابتسامة مقصودة.. معانداً!

ها هو أمامها بعد مرور خمسة أيام على الحادثة..

خمسة أيام حملوا الكثير وآخرهم اختفاء صبري

بل بالأحرى هروب لم يتوقعه ولم ينتظره

ففي النهاية غلبت النخوة قلوب الرجال واجتمعوا رافضين خائن..





ولا يعلم كيف ولكن فجأة تبخر!!

تبخر قبل أن يتمكن منه..

وانقبضت يداه غضباً ووازى هذا خروجها من مخبئها..

شامخة ترفع ذقنها مرحبة به مع لفظ رسمي يحمل كلمة

"بشمهندس حمزه"

وكأن والدتها تود أن تنتهي من كل توابع الأمر فأردفت مسرعة:

- البشمهندس حمزه طلب إيدك يا ليلى..

وأنا وافقت.

هكذا.. تم الأمر..

وشكراً منقذي العزيز!!

رفعت عينيها نحوهما وبتوحش:

- شكراً.. بس طلبك مرفوض يا بشمهندس

ورغماً عنها نصف كلمة بشمهندس ابتلعتها حشرجة..





يا الله ستبكي وسيفقد سيطرته أمام "الحاجة"

ـ استني..

قالها بنبرة آمرة وعالية!..

ثم توجه ببصره نحو أمها ليبتسم ويطلب منها بأدب:

ـ ممكن حضرتك تعمليلي شاي تاني.. على بال ما أتكلم مع ليلى شوية!

تنهدت المرأة بعد أن نظرت نحو ابنتها بغضب وتركتهما لتغيب مع كوب شاي وقته سيطول..

زفر هو بضيق ثم أضاف:

ـ ممكن تقعدي نتكلم؟

قاطعته بتعجل:

ـ ما فيش كلام!

قاطعها بغضب ونبرة ستتطور لزعيق





ـ اقعدي يا ليلى..

استدارت لترمقه بحنق ثم جلست تواجهه فترك الأريكة واستقر بمقعد يجاورها..

يلمح جانب وجهها الحزين وهو ينظر نحو للاشيء..

عبرات مكتومة.. وشفتين مرتجفتين..

وتعب

ليلى متعبة..

منهكة..

وتظن أنها قوية.

استدرك ضعفه وتحدث بصوت أجش:

ـ ده مش طلب..

استدارت مستنكرة فتابع:

ـ ده واقع..

ضيقت عينيها مكملة له:

ـ ليه؟.. قول تضحية وشهامة وقارب إنقاذ لغريقة مكانها ما كانش البحر





وتكتم البكاء بمجاهدة خيالية..

اقترب منها يهمس بضعف:

- مكانها هنا..

وأشار نحو قلبه

وحينها.. بكت

أمواج البحر وجدت طريقها نحو عينيها، بل هي تشهق بألم وتكتم كل شهقة بكفها الصغير فوق فمها..

وكل هذا لا يُحتمل

سيقتله..

همس بغضب مكتوم:

- هاقتله!!

رفعت عينيها تحرك رأسها برفض ولكنه

تابع:





ـ ما فيش غير دمه يشفي غليلي..

وكانت كل ملامحه منقبضة.. مخيفة.. حمزه الذي لا تعرفه وبشكل ما تخافه!

خرجت نبرتها مبحوحة:

ـ أنت حرقته..

طحن هو فوق أسنانه بغيظ:

ـ الكلب عايش وهرب

بدا وكأنها غير مستمعة له, كررت:

ـ ولعت فيه.. نار..

كانت شاردة وكأنها تهمس للفراغ, تأملها بعينيه ليردف:

ـ يستاهل أكثر من كده..

استدارت تواجهه أخيراً بضعف وصدق:

ـ بس أنت مش كده..

ثم استقامت وكأنها استفاقت:

ـ وهي مش غلطة أنت بتكفرها بجواز





استقام هو ليواجهها وبدا قاسياً:

ـ غلطتك يا هانم.. كان لازم تقوليلي!

انفجرت متحدية:

ـ بصفتك إيه؟

وصرخ هو تلك المرة:

ـ من غير صفة.. كان لازم تبلغينا بالحقارة دي.

وانكمشت مرة أخرى مع صراخه فجذبها من ذراعها نحوه غير مبالي:

ـ أنتِ مش ملك نفسك بس.. إنت هتوجعيني أنا.

حررت نفسها منه لتزمجر رافضة:

ـ أنا مش هاتجوز.. وشكراً على عرضك الكريم أنا مش محتاجاه!

صمت ليتنفس ببطء وكان يتأملها.





أضعف ما تكون وتسبح بتيار لا تقدر على مواجهته

حبه..

تقدم ليواجه جسدها المبتعد عنه ثم أخفض وجهه نحو وجهها وهمسه كان هادئ تلك المرة:

- ده مش عرض.. دي رغبة!

رفعت عينيها بتوتر مقلتيها المعتاد..

القاتل..

فأردف متابعاً:

- أنا عايزك يا ليلى وأنت عارفة..

تكلمت بعد تردد واصطنعت قوة:

- الوضع اختلف وأنا مش عايزة أتجوزك.

لم يحد بعينيه عنها وكانت ملامحه جامدة رغم حرارة أنفاسه:





ـ كدابة!!

بصرها بدا أكثر حدة وحركت رأسها في شموخ رافض:

ـ أنا مش محتاجة أتجوزك..

ابتسم هو وقد انفجر قلبه بشوق لا يحمد عقباه:

ـ بس أنا محتاج!

تسارعت أنفاسها وأرادت أن تتخطاه وتهرب من تلك المواجهة الغير محتملة:

ـ لو سمحت عديني يا حمزه؟

ابتسم بشقاوة وقد تذكر موقف مشابه ليغيظها بـ

"لا"

زفرت غير مصدقة وكررت بحدة لم تتخطَ الهمس كي لا تسمعها أمها:

ـ عديني يا حمزه!





المشاكسة تلك المرة بنظرته التي اقتربت منها وهو يردد بجملة يحفظها عن ظهر قلب:

- لو قربت هتندم يا حمزه..

رفعت عينيها نحوه غير مستوعبة وحينها أكمل وقد بدت ملامحه يائسة كمن غرق ودون نجاة:

- غرق حمزه.. وضاع حمزه.. ومنك لله يا أمين!

تلك المرة لا سبيل.. يجب أن تخرج من هذا الحصار الغير عادل..

فالعاطفة أمامه مباراة غير منصفة..

وهي غارقة ربما أكثر منه..

رفعت يدها لتزيحه ولكنه لم يتزحزح..

وجهت بصرها نحو باب المطبخ وعادت تلومه بنبرة خفيضة:





- حمزه!!

تحبه!!..

هي غارقة حتى النخاع وتعاند..

عيناها وملامحها وحتى شفتيها المعاندة كلهم تآمروا عليها بفضيحة..

ابتسم هو بثقة وأردف مجدداً:

- كلامي واضح.. هترجعي وأنت مراتي..

عادت لرفضها:

- ما ينفعش.. أنا مش ذنب ولا عار ولا..

قاطعها وقد غضب:

- يا غبية.. أنا خايف عليك.. أنا مش هآمن لحظة تكوني لوحدك هناك حتى بعد ما الكلب هرب..

رفعت بصرها وهذرت محتجة:

- أنا مش غبية وأقدر أدافع عن نفسي كويس و..





قاطعها مجدداً وتلك المرة باقتراب أكثر وغير مشروع وستتم أمها الزيجة الآن بفضله!!

ـ ما تتعبيش قلبي بقى..

وكانت جملة تخرج متقطعة من بين أنفاسه التي وصلتها جيداً..

رفعت يدها ودفعته أكثر دون جدوى:

ـ عديني يا حمزه..

ابتسم هو من جديد وبشقاوة:

ـ تؤ!!

تنهدت بقلة حيلة:

ـ أنا مش هتجوز كده يا حمزه..

وحينها همس هو بنبرة أخيرة وجادة لا تحتمل جدال:

ـ وأنا مش هجازف بيكي تاني يا ليلى..

وحينها فقط تركها تمر..





الخطايا تحرق صاحبها

تجبر وطمع وانتقام وشهوة.

مر بسبابته فوق ثنايا على جانب وجهه شكَّلها حريق، تعرجات غير قابلة للترميم.

وإن كان..

فهو سيتركها هكذا!!

لن يداويها إلا عندما يأخذ بثأره.

كان قد ترك البحر الهادئ ليقذف بنفسه نحو آخر أكثر ثورة..

المتوسط أمواجه طوفان تقودها أو تغرقك.

رفع نحو فمه سيجاراً وقد لمح ثلاثة أولاد يركضون جواره ويلعبون بكرة بالية وأخت أحدهم تصرخ منادية بوقت الطعام.

سمراء وحافية تركت قدميها لتملك رمال وترفع ثوبها حتى منتصف ركبتها كي لا تضربه الأمواج وحينما لمحت نظرته نحوها هلعت وغادرت المكان على الفور.

ابتسم ساخراً..





الأمر جيد الآن أصبح مخيفاً بحق!

سيجارة محروقة تلو أخرى وتتشكل داخل خياله تفاصيل..

مباغتة من الرقيق الذي رسم رجولته فوق وجهه بلكمة تلو أخرى

سقط بغتة ولكن تلك جولة..

كان يرددها وقد جز فوق أسنانه مع ذكرى آخر لحظاته بالمشفى وزيارة من يظنوا أنفسهم أصحاب حق..

لقد تجاوز تلك المرة بما لا يقبل المفاوضة..

انتهك المال والعرض وأصبح حق العرب موته أو رحيله..

وكحال كل خادم خلف مخدوم تخلى عنه مخدومه فنبذه خادميه..





والرجل الذي كان يستند على سطوته نبذه كحال الكبار..

وقتما تجب التضحيات نبدأ بالبيادق..

آخر سيجارة تركها لأمواج البحر قبل أن يُكملها..

فالتتمة ستكون بيده هو والقسم هنا لا رجعة فيه..

سيعود..

وحين افترقنا..

أصبحت أحمل كل الصفات..

شباب وحزن.. رماد ونار..

وطير يغني بلا أغنيات..

أدواي الجراح بقلبٍ جريح..

أمني القلوب بلا أمنيات..

"فاروق جويدة"





باريس..

السابعة صباحاً..

هو يتجول بمنزله حافي.. غاضب!

صراخ بالخادمة وبحث عن شهرزاد التي اختفت.

بعد مرور ربع ساعة كان قد ارتدى ملابسه على عجالة قللت من تأنقه بشكل ملحوظ,

قميص لم يكترث بإقفال جميع أزراره وسترة بنية فوق سروال فاتح من خامة الجينز

القاسي وسيارة عالقة في تكدس مروري عقيم..

بعد عشرة دقائق أخرى كانت خطواته متسارعة على درج محطة مترو جورج الخامس ليحشر جسده داخل قطار سيهبه سرعة!!

بنايتها بسيطة ولكنها راقية..

شقة تحتوي على غرفة نوم واحدة وغرفة معيشة لا يوجد بها سوى أريكة حمراء ولوح رسم فارغ..



وهي..

ترتدي سروالاً كريمي اللون له سحر طبقات هادئة من الشيفون وينساب بسلاسة فوق أردافها المثالية القياس.. بلوزتها لها نفس اللون بأزرار ذهبية تبدأ من تجويف وسحر كل امرأة..

هذا المفترق الناعم بين كل نهدين!

وخصلاتها الحمراء مرفوعة بفرشة رسم، توقف صامتاً في محرابها المظلم!

نعم هو الصباح ولكنها أسدلت ستائرها رافضة واكتفت بضوء خافت ينبعث من مصباح جانبي..

توليه ظهرها وتعد قهوة منكهة بالحليب.

جاء صوته غاضباً وبخشونة:

ـ مش ده اتفاقنا يا شهرزاد..

لم تجبه ظلت تقلب قهوتها ولا يعرف هو أن فوق شفتيها ابتسامة..





خمرة قانية وعطر صارخ لم تستخدمه منذ زمن..

هدر بصوت أقوى:

- سيبتِ القصر ليه يا كارمن؟

بعد صمت طويل مقصود جاء ردها خافتاً بثقة تناقض كل صوتٍ عالٍ:

- بيتهيألي إنك معاك مفتاح شقتي!

صمت يراقب استدارتها وطلتها!..

صحن مسطح تبسطه بأناقة فوق كفها الأيمن واقتراب مرسوم كلوحة ألوانها ليست بيده..

وبحمرتها القانية فوق صف أسنان بيضاء حد الكمال تابعت:

- تفطر معايا!

وخطوتان اثنان وأضافت:

- ده وافل!





وبعد ثلاث خطوات كانت تواجهه وتسكب فوق فطائرها غلظة شهية وتكرر بهمس:

ـ أكيد بتحب الصوص زيي!

لتزيد بنبرة هامسة أخيرة وابتسامة لم تعرف لشفتيها طريقاً منذ ست سنوات:

ـ ده توت!

وكانت همسة الهاء تلتصق بهمس التاء في لحن طويل

لا تتقنه سوى امرأة واحدة.. الحمراء..

كارمن

الحمراء..

كارمن..

****





الفصل الثالث والعشرون

منذ رحل لم تحادثها أمها في شيء..

لم تصرخ، ولم تعترض، ولم تسأل حتى!

وكأن القرار تم وهي ليست طرفاً!

أم أنه هو يثق في الموافقة؟!

"- أنا مش عايزة أتجوزك

- كدابة!"

تنهدت بيأس..

ربما لأنه على حق، ربما عليها أن تكون أكثر صراحة..

أن تخبره أنها لا تود تلك الطريقة وهذا النهج..

ومر الأسبوع أيضاً دون أن يُحادثها فقط ظهر ببيتهم بصباح جمعة أخرى..

أيمارس دور خطيب تقليدي الآن!

كانت تمسك بقلم ملون وترسم على وجه التوأمين..





هذا يود سيارة، والآخر يريد مركب مثل خاصة منصور..

تتجاهله تماماً وتتجاهل قميصه المفضل بلونه الأزرق السماوي وعطره الذي أمطرها به من قبل..

هو وسيم وهي شاحبة ترتدي بلوزة بلون باهت وسروال رمادي واسع..

ولا تُغرق نفسها بعطر مثله ولن تتزين لمجيئه ولن تعد القهوة وربما هو لا يشربها!.. همس بجانب أذنيها فجأة:

- رسمك حلو!

توترت وارتجف القلم فكادت أن تُخرب القارب أم ربما هي دمرته بالفعل!

اقترب أكثر.. ألا يخجل!!

- وحشتيني..





ولم تجبه والرسمة أصبحت سيئة للغاية وتقوس حاجبيها في يأس ليتابع هو دون رحمة:

- يا روح قلبي..

حسناً..

هذا يكفي!

استقامت فجأة وقد تركت القلم والطفل وابتسامته المشاكسة ودخول أمها المبتهج بكوب شاي وبسبوسة للضيف..

للعريس..

قطبت حاجبيها مع الفكرة لتسمع صوته جاداً تلك المرة وكأنه يفهمها ويلقي بكل رغباتها الحائط:

- إن شاء الله الأسبوع الجاي هجيب والدتي علشان نحدد معاد كتب الكتاب.





واستدارت..

بخصلاتها القصيرة المشعثة الغاضبة

الممتعة جداً

جداً يا ليلى!

وسمعت صوت أمها الفرح:

ـ تشرفوا!

وصوته بدا متردداً ولكنه لم يتراجع:

ـ ليلى مش هترجع الغردقة على بيت فاتن..

واستدارت نحو أمها التي بدت لا تفهم..

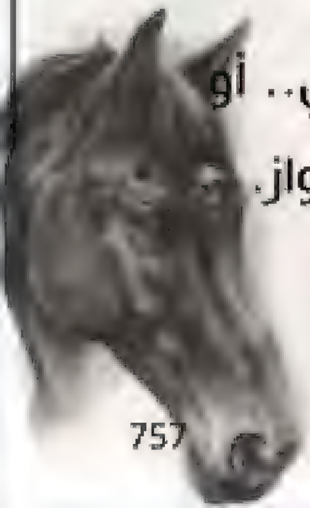
كانت تظن أن مشكلة الزيجة عقد قران متعجل يفند ملكيتها تحت اسمه

ملكية تمنع اقتراب أي ذكر.. وتبيح له كل اقتراب..

والغرض حماية!..

وتابع هو بإصرار بل بقرار:

ـ ليلى هترجع الغردقة على بيتي.. أو هتفضل هنا لغاية ميعاد الجواز..





وحينها ترك أمها ليستدير نحوها هي..

فهمت الجملة بتفاصيلها الآن..

"هترجعي وأنتِ مراتي"

وهناك أشياء لا تُقال.. فقط نستشعرها بأعين..

رفض أمها..

وأيام قادمة تحمل حُمرة شفاه وزينة من أجل الضيف!

شاي وقهوة وعصائر.. وربما فُسحة..

همس حب.. وربما استراق قبلة

عالم وردي لكل فتاة..

سواها!

رفعت بصرها نحوه لتبدو بعيدة عن كل توقع وعن كل عراك كان ينتويه..



وعن تململ الأم وتذمر أحد التوأمين على رسمه القبيح..

وقفت تواجهه بثبات وتقولها وبكل إرادة حرة!

- أنا موافقة

وتركتهم لتغلق باب غرفتها على نفسها وقد تسارعت أنفاسها بطبول لا تدرك من

قرعها، بل كيف وافقت على أن تكون زوجته بتلك السرعة!!

وسقطت دمعة

اثنان

عشرة

ليته كان هنا.. ليته كان معها..

منصور..

ولم تلمح ابتسامة واضحة على وجهه..





ابتسامة ربما تختصر كل شيء

كل حب..

أخيراً يا ليلى..

****

"غُشة!!"

صبري بجبروته الزائل الآن يمكث في "غُشة"!

قش وفراش ومصباح ليلي..

يالها من رفاهية!!..

نفخ تبغه مرة تلو أخرى وقد عرى قدميه

بين ضربات الموج..

على جانبه المخيف تقدم العجوز بكوب

الشاي وشطيرة الفلافل المعتادة

- اتفضل يا ريس.

نعم.. ريس..

ووجد خادم!!.





العجوز لا يختلف عنه كثيراً فهو قبيح الهيئة حتى دون رتوش وله ساقٌ مقطوعة وأبنائه عشرة!..

وتندر صبري في سخرية بائسة:

ـ رجل واحدة وعشر عيال!!..

وضحك العجوز على المزحة السخيفة بُغية ما هو أكثر..

أوراق نقدية ليست بالقليل ما زال يملكها صبري, ومركب متاهلك قد يودون شراءه, وقوة جسمانية لم يعد يمتلكها..

ـ الصيد رزق.. نشتري المركب ورزقك ورزق عيالي..

وتهكم صبري من جديد:

ـ رزق!! وسمك..





وضحك العجوز وقد أخرج من طيات ملابسه مسحوق أبيض من النوع الرديء ليُكمل بفحيح وجد ضالته:

- الحال واقف من زمان.. ومحتاج جدع زيك..

رفع صبري كلا حاجبيه بتهكم، فالعجوز مقروء منذ البداية..

مجرد موزع يقتات على هيروينه من تجار البحر.. يصطاده ويبيعه بحفنة توازي رداءته

ويحتاج لقارب آخر بعدما أكل الأخير قدمه وقبلهما..

يحتاج لذراع!

نفخ تبغه من جديد وقد أعجبته اللعبة:

- وتضمن منين إني مش هخونك واشتغل لوحدي!

مد العجوز يديه في خبث:

- نبقى قرايب!!..





ولم يفهم صبري..

فكرر العجوز:

- نسايب..

ونظر نحو الفتاة.. السمراء التي فزعت منه من قبل..

والعجوز يضحك بصفرة ويطلب تبغاً بدوره وهناك بيعة أخرى ولكن دون ثمن!!

فهم العجوز نظرته نحوها وحينها بدا كنخاس:

- عاجباك؟

تحدث صبري دون أن يحيد بصره عنها:

- مش بنتك؟

أومأ الرجل:

- زي بنتي.. بنت مراتي..

ولم ينظر نحوه ولم يتأثر وجهه بأي تعبير فقط تمتم:

- موافق!





****

بعيدة عنه..

مُغتاظة منه..

وخائفة..

كانت تجلي الصحون، بل هي تجلي صحنٌ واحد!..

مراراً وتكراراً مع ينبوع مياة صافٍ ومناقض لما يجول برأسها من أفكار..

لمحت ساعده يجاورها ويسكب بعض القهوة ليمتد ساعده الآخر نحو الصنبور ليغلقه ويسحب كفها المبتل نحو شفتيه..

سحبته في ضيق وازى انهمار عبرة ليتنهد هو في ضيق:

- وبعدين؟!.

ثم ارتسمت فوق شفتيه ابتسامة:

- خايفة عليا؟





ولم تجبه فقط بكت أكثر ليجذب رأسها الناعم نحوه ويلصق جبهته فوق جبهتها وقد قطب حاجبيه مازحاً:

- ده أنا اللي بخوف مش تخافي عليا!

وعندها توحشت نظرته..

يرتشف ملامحها ويغوص بذكرى امرأة بين ذراعيه..

امرأة همست بأذن جواد أعمى وخطفت قلبه وهي تبكي من تحت عصابة..

امرأة بدلت كل شيء..

قرب رأسه لها أكثر وبدا وكأنه يضغط عليها بجبهته ويستحوذ منها على كل شيء حتى أنفاسها..

وأغمضت عينيها..

ولكن هو لا

كان يلتهمها بكل نظرة..





كان هو رعد..

ولكن مُبصراً ومشتهي لكل تفاصيل أنثاه

قوة حواء من ضعفها.. وضعف حواء لقوة آدم!

ابتعدت عن طوفانه بعناق!

شبت فوق قدميها الحافيتين وعانقته وطوقت رقبته بذراعيها الشاحبين من القلق لتطبع قبلات رقيقة ومتفرقة على طول عنقه بتوسل طفولي:

ـ ما تسافرش!

ارتجافة بسيطة لمست خده الأيسر، ليزيح ذراعيها ويحيط وجهها بقبضتيه وقد اقترب بنظرته نحوها من جديد:

ـ ما تخافيش.

وكانت كلمة تحمل كل ثقة وكل غرور وكل قسوة عرفتها برجل لم يكن يؤمن بشيء سوى جبروته..

وربما لا زال!





وقست عيناها، وتوحشت وصرخت وغضبت:

ـ مش رأيك لوحدك.

وضاقت عيناه وشردت وتجهم وجهه لينطق ببأس:

ـ مشكلتي لوحدي.

وترقرقت عيناها بالدموع من جديد، تلومه.. تعاتبه:

ـ لوحدك يا خالد؟!

ومرر إبهامه فوق شفتيها:

ـ ما ينفعش تكوني طرف..

ومنعها من الحديث ليستكمل وبحدة قاسية:

ـ ما فيش رحمة لو أنتم طرف!

وحينها ابتعد ليتركها ويغادر..





يترك نفسه لركض دون توقف, لهواء يُشبع أنفاسه ولكل فكرة قد تجول بخاطرة أو لا تجول..

واليوم..

هذا الصباح..

تلك اللحظة..

واللحظة فقط..

يفتقد رعد.

****

احذر من امرأة فقدت كل شيء..

امرأة لديها الموت والحياة سيان!!

نعم..

فالموت لم يعد تلك الفكرة المبهرة التي ظننتها من قبل..





بل هو مجرد عذاب آخر في مسار قُدِّر له الألم..

هل تعلم أن عاطفة الحب أصبحت هلامية؟!

نعم..

فهي لم تعد تلك الصخرة الصلدة التي تتحطم فوقها القوانين..

الحب أصبح متاعاً مباعاً!

هل تدرك كم النساء في نخاسة الحب؟!

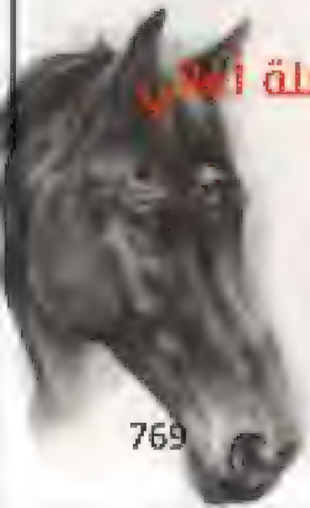
سلمت نفسها لمقاليد رجل..

روح وجسد وحياة في صفقة غير قابلة للتفاوض..

هل تعلم أنني توقفت عن العشق منذ فقدانك؟..

نعم أنا لم أعد أعشقك..

أنا محجوزة في تلك المنطقة الفاصلة أعلى اللعنات..





ليمبو!

هناك حيث يبدو أنني تخطيت الجنة بالفعل

ولن أنال رفاهية العذاب

والمؤلم أنني أستحق!

سأخبرك سراً لن يعرفه أحد حتى أنت..

في نخاسة الحب الثأر غير مباح!

فانتقام العاشق منقوص..

وإن كنت أنا لك عاشقة فأنت لي لعنة..

لعنتي الأبدية التي تأبى أن تفارقني حتى بالموت..

أو ربما تلك الهوة التي تعيد امرأة غابت عني..

شبح من الماضي ظننت أنه فارقني بلا رجعة

فإذا به يقتات الحياة مني وبك

أنت تستحق انتقامي..

لعناتي وكراهيتي وثأري..

تستحق كل شيء مني ولكن لا أستطيع



فبشكل ما وجودك يمنحني الحياة..

ربما لو رحلت لأصبح الموت..

أسهل!

حبيبي

والأمر ليس بيدك فالحب هنا يحدث رغماً
عنك!

هل تعلم أن علاقتي بك هي أربع مفاتيح!!

هناك في خزانتي الثمينة أعلقهم على حافة
مدببة لها طرف حاد مؤلم حد الدم!

أولهم مفتاح اللهفة..

نعم..

هي لهفة من أول نظرة..

هي كل تأوه سمعه قلبي مع نظرتك
واهتمامك وقُبلتك الأولى وضمتك القوية
حتى وإن كانت مُنتقمة!!

مفتاح الرغبة..





رغبتك لا أنكر..

هل تُخزي الرغبة امرأة!.. هل توصم بالعار زوجة!

هي فقط تقتل مُشتاقة!!

مفتاح الوحشة

وهذا أسوأهم صدقني..

يقتلني الغياب، هذا الفراغ الخالي من تفاصيلك، تلك الهوة العميقة أسقط فيها وحدي وكأنه بئر خطايا أسددها أنا فقط!

مفتاح العودة..

اخبئه..

بل أتركه هناك معلقاً على نهاية الطرف المدبب فهو يوازي كل جرح وكل قطرة دماء ولّت وستأتي!!

"رسائل كارمن"





كان يبتلع أول قضمة..

شهية وهشة ومغلفة بمذاق أرجواني!..

والعبق ملهم..

تفاصيل صغيرة من عطر الفواكه والجاردينيا بعمق بتلات الزهور وخشب الصندل.. وكأنك ترقد فوق فراش أحمر وسط غابة!

- امممم..

كان فمه يمضغها ويستلذها ويبتسم بثقة لا ينكر أنها غادرته هذا الصباح..

والآن هناك تلك الومضة المزعجة داخله..

تلك الفتنة لا تستحق الموت ولكن الموت داخله يشتهيها بجنون!

ناولته الأخرى بنفس الابتسامة..

ليست ثقة بقدر ما هي غموض..

ويغيظه أنه سبر أغوارها الآن غير متاح

- سيبتي القصر ليه يا كارمن؟.





وتركته لتحل خصلاتها.. بل تنثرها فوق كتفين..

وخطت حافية برشاقة نحو موسيقى لترقص!

هي تجد نفسها بتلك الخطوات..

وفتنتها أنها ليست مبتذلة فهي تتقن العزف فوق مفاتيح البيانو كما العازف..

هو بأصابعه..

وهي بقدميها.. خصرها.. ملامحها وعينيها المغمضتين..

وصمت قطع معزوفتها هي عندما استحوذ على خصرها..

تحركت شفتاها ببطء:

ـ أنا مشوهة في قصرك!

وضم حاجباه..

هل يفهم أم أنه تاه من تلك الحمراء؟





أزاحت يديه ثم تركته مبتعدة بضع خطوات وقد مررت إصبعها النحيل فوق طرف كوب القهوة مع صوت ربما خافت ولكنه قوي:

ـ أنا هارقص ككارمن مش شهرزاد!

اقتربت خطواته منها ليقف خلفها مباشرة مما جعل صوته قريباً جداً من أذنيها:

ـ الحقيقة في اللحظة دي كارمن أجمل بكتير

وفجأة مرر هو أنامله فوق كتفها لينطق بنبرة جادة ومظلمة:

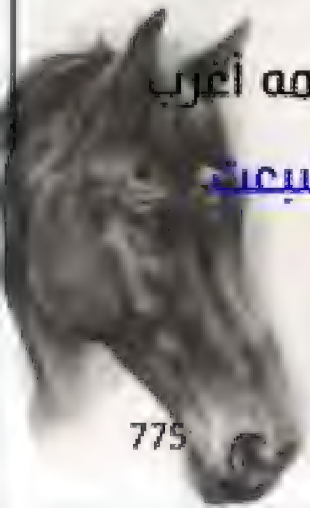
ـ أنا عايز أرسمك!

بشكل ما فاجآها..

حتى أنها استدارت نحوه وسألته بعينيها قبل لسانها:

ـ كنت فاكرة إنك عايز بس لوحة النهاية!!

اقترب منها خطوة أكثر وعلى وجهه أغرب ابتسامة رأتها منه يوماً وقد تشبعت





ملامحه بالثقة من جديد ليهمس بحرارة عاشق ولكن ليس لإمرأة بقدر ما هو عاشق لنفسه:

- مين قالك إني عايز أرسم شهرزاد؟!

ثم تخللت أصابعه خصلاتها بقسوة:

- أنا عايز أرسم كارمن!

أزاحت يده من جديد وقد لمعت عيناها بتمرد:

- بس كارمن مش لوحة..

وحينها أحاط هو وجهها بتملك فنان نحو أيقونة حظه, منحوتة غير قابلة للاستبدال..

همس من جديد وبتملك:

- اللوحة دي هي الحقيقة الوحيدة دلوقتِ يا كارمن.

رفعت ذقنها بكبرياء وربما رغبة في تلك اللوحة:

- موافقة!





اتسعت ابتسامته حينئذ:

- جميل

وتركها ليتوجه نحو اللوح الفارغ وربما فوضى الألوان المهجورة، حرفية تامة علت ملامحه..

خلع سترته وشمر ساعديه واستدار نحوها فجأة وبعينيه خشونة مخيفة..

هذا الرجل يجمع بين كل تناقض ممكن..

وتزعزعت ثقتها للحظة قبل أن تغادرها تماماً مع جملته الأخيرة:

- اقلعي!!

وتسارع الأنفاس يسبق الغضب وربما هو يستحق انفجار..

رجل لا يتقن سوى الغري ووقتما تنتصر شهوته لا يبتغي سواه.

ابتعدت مع نظرة مستهجنة بل مُحتقرة ليبتسم هو من جديد، وازته متهكمة





ـ ده الفن عندك؟!

وازها هو ليقف جوارها تماماً ويديرها نحو غرفة نومها بتحدٍ سافر:

ـ وتستنيني هناك..

واستدارت بكل زرقة غيظ وحمرة غضب، ليضحك هو بابتسامة أوسع وأوسع ما لبثت أن تحولت لغضب شرس:

ـ خيبتي ظني يا فنانة!

ثم اقترب أكثر ليحيط رقبتها بكف واحد وتملك مخيف ويقترب بشفتيه من فمها المصبوغ باتقان ليتابع بنهج مظلم:

ـ أنتِ عارفة كويس أنا عايز إيه..

ثم صمت عن قصد ليضيف بعد ذلك:

ـ وموافقة..

ضيقت عينيها تتأمله..

تلك العلاقة الغامضة التي تجمعها بـ





ضحية وجلاد..

الجلاد يأمر والضحية تنفذ...

لحظات مبهمة من الطاعة وكأن في صوت الجلاد خدر ونظرته أمر ونهجه قانون.

ولم تتمرد ضحية يوماً وإلا لأصبحت جلاداً

ولم تعد تميز الآن من هو جلادها الحقيقي مراد.. أم خالد!

تنفست ببطء مع متابعته وتلك المرة بهمس ناعم:

- نهاية شهرزاد هناك في بولوني لكن نهاية كارمن حارسمها هنا!

وكان واضحاً فيما تلا ذلك لتتحرك كالمنومة نحو الفراش وتخلع ملابسها وترقد متزينة بالشراشف..

نائمة أم ربما هائمة وقد تبدو ميتة..

جسد ممدد ورأس تدلى من على حافة الفراش حتى كادت خصلاتها أن تلامس الأرض..





وعيناها مغمضة تمسك بين أناملها وردة!

وكانت تغوص بكل ذكرياتها مع همسه أمام لوحة ألوانه:

- دي كارمن اللي أنا شايفها..

وربما مرت ثلاث ساعات أو أكثر وربما هي امرأة تتقن الموت كما الحياة وربما هو لعب على أكثر أوتارها حساسية بتلك اللحظة..

اليأس..

الموت!

توازي وتقابل وتكامل!

فتحت عينيها أخيراً على قرب دافئ ونبرة استحوذت على كل فراغ:

- وهج كارمن في موتها!

لتقابله بنظرة لا تخاف حتى وإن كانت مقلوبة!!

****





الفصل الرابع والعشرون

معضلة

أن تود شيء وترفضه في ذات الحين!!

أم ربما تلك هي الحقيقة المجردة..

مثل حقيقة ظهوره بأحلامها كل ليلة..
وتلك معضلة أخرى تحدث رغماً عنها!

وتلك هي المرة الأولى التي يحادثها فيها من منزله..

غرفته.. شراشف معطرة بحب أمه وصورة جيتار!

حمزه الأخر..

ابتسم لصمتها..

مجرد وجودها يعطيه اختلاف..

يحتاجه!

ألا يحق لنا أن نستبدل تلك العبارة المستهلكة





"أحبك"!!

لما لا تكون "أحتاجك"؟!

أو ربما "أتنفسك"!!

أو ربما فقط نختزلها لصمت..

وفي حالته تلك يختصر الصمت أشياءً كثيرة ربما لا يجب أن تُقال!!

وعندما غاب حضرت هي، بهمس مشوش:

ـ حمزه؟...

وكأنها أجفلته..

ربما قطعت صمتاً ممتعاً، أردف ببطء ماكر بعد وهلة:

ـ عيون حمزه..

يكاد يجزم أنه يرى توتر مقلتيها، ولم تجبه فتابع بمشاكسة:

ـ مش عاجباكِ "عيون حمزه"!.. طيب نقول "قلب حمزه"؟!





ولم تعلق أيضاً ويُجزم كانت مُغتاظة، فزاد بنبرة مبحوحة:

- روح حمزه!!

لتزعق:

- حمزه كفاية!

ارتشف البعض من مشروبه الدافيء وكتم ضحكته متابعاً:

- خلاص فهمت.. ما بتحبيش كلام الحب والجو ده..

وردّت بجدية:

- أيوة.

رفع حاجبيه مستسلماً:

- أمرك

ثم اجتاحت شفتيه ابتسامة ماكرة من الجيد أنها لم ترها:





ـ افتكري بس إن أنتِ اللي قررتِ!!

وزمت هي شفتيها ولم تجبه.. وكأنها هي من ستتوسل لكلمات العشق مثلاً!!

ارتشف البعض من مشروبه مرة أخرى ليتابع بجدية:

ـ أنا هحدد ميعاد مع عيلتي وأبلغك.

وفجأة دون مقدمات جاء منها استفسار وربما اتهام:

ـ وعيلتك هتوافق على الجواز بالسرعة دي؟

صمت تلك المرة ولكن ليس استمتاعاً بل غضباً..

والنبرة بعد الغضب تختلف، وهي اختبرت غضبه من قبل ولم يكن جيداً على الإطلاق..

ـ أنا ما حدش بيراجعني في قراراتي يا ليلى.

ما هذا؟!..

هل عشق دور الدكتاتور فقرر تطبيقه!!





قاطعته بغضب:

- يعني إيه؟

أجاب بجمود:

- زي ما سمعتِ!

سألته بنفس الجمود:

- ووالدتك؟

شرد لوهلة ليتحدث دون تعبير واضح:

- والدتي بتثق في حكمي.

وصمتت فتابع بنفس النبرة:

- عقبالك!

لترفع عينيها في تمرد لم يلمحه..

أيهما يودّ..

ليلى الخاضعة أم المثابرة؟!!

وأردف هو بجملة أخيرة:

- يومين وهابلغك بالميعاد.. بس هاتفق مع نبيلة.





ولم يدرك أن نبرة صوته تغيرت لبهجة خاصة..

فمهما مر الوقت ستظل هي حبيبته الأولى

وبهجته الخاصة

"نبيلة"

****

عوينات كبيرة لحد ما وبشرة بيضاء شاحبة وشفتين رفيعتين فوق ذقن حاد ووجنتين حمراوتين على الدوام..

صيف.. شتاء..

مر بجانبها وكانت ما زالت بالمطبخ ترص فوق إناء ما مكعبات منظمة من الملبن وتحادث جارتها عن وصفة جديدة لعجينة بسكويت بالزبد..

مد يده فجأة ليقرص إحدى وجنتيها وهو يغمز لها في مزاح:





ـ أكلك منين يا بطة!

تركت الهاتف لتزجره هامسة:

ـ اختشي يا واد!!..

وضحك بشدة حتى كاد كوب الشاي الثالث هذا المساء أن يحرق يده، تركت الهاتف وجارتها وتوجهت نحوه تحمل منشفة مبللة وتملس فوق يديه موبخة:

ـ ما فيش فايدة فيك أبداً..

ثم سحبت الكوب من يديه لتسكب فوقه بعض الحليب متابعة بجدية:

ـ ما فيش شاي سادة بالليل..

ولم تنظر نحوه، فهي غاضبة وبشدة..

يظهر دون مقدمات ليخبرها أنه سيتزوج، واختار العروس

وخلال شهر!

أي ابن مجنون أنجبت..





تركته وعادت لقطع الملبن خاصتها

فجاورها ليمد يده نحو واحدة ثم أخرى وهو يسألها:

- إيه ده؟

ضربت يده قبل أن يأخذ الثالثة:

- ملبن الكحك..

علت ملامحه دهشة:

- كحك!.. هو العيد جه؟

نظرت نحوه بغيظ:

- كحك نشوى بنت طنط هناء هتتجوز كمان أسبوع!

غافلها ليأخذ أخرى:

- حلو ملبن كحك نشوى بنت طنط هناء اللي هتتجوز الأسبوع الجاي

رمقته بجانب عينيها ثم تجاهلته من جديد..





وعندها دخلت الصغيرة حبيبة..

وحبيبة هي ابنة أخته الكبرى حنان ومنذ توفى والده وسافر زوج حنان لإحدى الدول، وهي تمكث وأولادها مع والدته..

إزعاج محبب بأربع شياطين أثاروا جنونه..

يصرخ ممازحاً:

- هو أنا طفشت من شوية!

ثم رفع الصغيرة ذات الثلاث أعوام فوق كتفه وناولها قطعة من الملبن:

- صاحية لغاية دلوقتِ ليه يا بيبة؟

ضحكت الصغيرة:

- صاحية مع توتا!

وحينها ضحكت نبيلة لحفيدتها لتأخذ قطعة أخرى من الملبن وتضعها بفمها:

- كلي يا حبيبة توتا..

جلس ووضع حبيبة فوق قدميه ليميل جانبها هامساً:





ـ وحبيب توتا ما ياكولش!

تنهدت بضيق ثم استدارت له جاحظة:

ـ تبقى العروسة تأكلك!

كتم ابتسامته:

ـ أنت اللي في القلب يا جميل..

استدارت وأخذت الصغيرة منه لتناولها في يدها قطعة أخرى من الملبن ثم أخرجت أخيراً كل الغضب:

ـ اسكت خالص.. واخدنا ديكور وقررت وفكرت وجاي تقول قلب.. قلب إيه بقى!

ثم لوت شفتيها مُكملة:

ـ بس هقول ايه!.. طول عمرك رأيك من دماغك..

كان يرتدي تي شيرت قطني قديم برسمة جيتار فوق سروال قصير بلون غامق وخصلاته مشعثة بعض الشيء..





فرك رأسه بيأس ثم ابتسم قبل أن يأكل قطعتين متتاليتين من الملبن ويجيبها بخبث:

ـ طالع لك!

التفتت نحوه رافضة:

ـ نعم!

أومأ هو بثقة:

ـ مين اللي اتحدت الكل واتجوزت زميلها في الجامعة قبل ما يخلصوا وقدرت تقنع باباها؟!

فركت جبهتها غير مصدقة:

ـ أنا ما اتجوزتش في شهر..

أجابها ببديهية:

ـ المبدأ واحد!

أجابته هي باعتراض:





ـ أنا ما اتجوزتش في شهر..

وردّ هو تلك المرة بجدية ودون قطع ملبن:

ـ بحبها..

وكادت أن تضعف.. حمزه يحب..

وأخيراً ولكن.. لا..

هي ليست راضية..

تذمرت:

ـ الحب مش كفاية..

وأدار وجهه..

ليشرد قليلاً ثم يعود بجواب آخر.. وأغرب:

ـ عارف!

ونظرت نحوه لا تفهم..

ابنها لم يبتعد فقط في ليلة الحريق المشؤومة..





وكأن كل ليلة له في هذا الميناء البعيد بدلته أكثر..

ابتسم لحبيبة ليقرب أنفه من أنفها الصغير ويضربه بحركة ممازحة اعتادها معها ثم قال بمزاحٍ ودّ أن يهرب به من النقاش:

ـ ايه رأيك تتجوزيني أنتِ كمان يا بيبة؟

لتنطق الصغيرة من بين مكعبات الملبن في كلتا يديها:

ـ أناااا اتجوز حمزه..

فتهكمت الأم بغيظ امرأة:

ـ كلهم عايزين يتجوزوا حمزه!

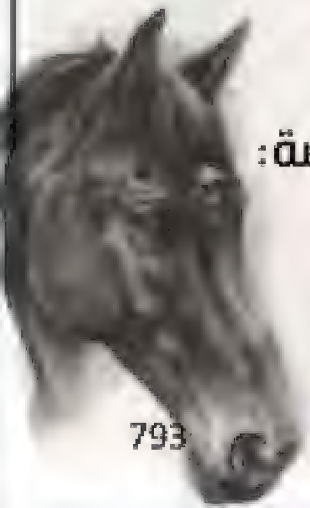
وحينها ضحك هو:

ـ يا ريت.. حد يرفض النعمة!

رمقته باغتياظ مجدداً فهمس دون ترتيب:

ـ بس ليلى مش موافقة.

استدارت وعلى وجهها دهشة:





- إيه؟!

نظر نحوها مؤكداً:

- رافضة الجواز السريع زيك بالضبط.

ثم ضيق عينيه في إصرار:

- بس ده قراري أنا..

وهذا هو ابنها الذي كانت تقرأ دواخله في لحظة الآن لا تتبين من ملامحه شيئاً..

حتى تلك الملامح لانت من جديد على الفور بابتسامة للصغيرة وحملها فوق كتفيه من جديد ليرحل وهو يرمق الطبق الفارغ ويغمز مجدداً بضحكة هادئة:

- على فكرة إحنا خلصنا ملبن كحك نشوى بنت طنط هناء اللي هتتجوز الأسبوع الجاي

وتركها وآخر ما تفكر به الكعك وحشوه..

فهناك الأهم

حمزه..





"أنا لا أحبك لما أنت عليه، وإنما لما أنا عليه عندما أكون معك.. أنا لا أحبك فقط لما صرتِ إليه، ولكن لما صيرتيني إليه.. أنا أحبك بسبب هذا الذي كان في أعماقي ثم أخرجته أنتِ إلى السطح"

"أنيس منصور"

هناك تفاصيل كثيرة تمر أمامها وهي صوت خافت، تشاهد من بعيد وعقلها بعالم آخر له ومعه..

تميمة مبتهجة ورقية مشغولة بألف أمر..

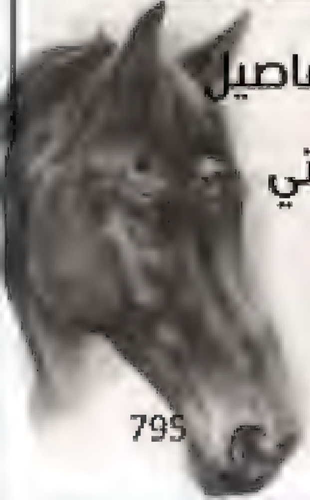
وأتتها حين صباح...

بوجه أحمر ومستدير وطبق ساخن من كيك البرتقال

"حمزه حيتجوز"

"مبروك"

ولا تعلم لمَ خرجت منها فاترة ولكنها حقاً لا تهتم كما لم تهتم بسماع تفاصيل مبهمة عن العروس وأمه التي





استنفذ منها كل طاقة حبه كالعادة

وأقنعها أنه سيتزوج بشهر!

رقية كانت في عالم آخر..

منشغلة بكل شيء سوى نفسها..

كعادتها!

زواج حمزه..

وحفلة عيد مولد خالد التي ترتب لها من

الآن رغم أنه بعد شهر ونصف..

و..

نطقت فجأة وقد دمعت عيناها دون سبب

واضح تفهمه رقية:

- بس خالد هيكون مسافر!..

لم تستوعب رقية, فخالد لا يحبذ الحفلات

والضوضاء بالفعل ولو حضر فسينفرد

بحسن في الشرفة أو يغادر مبكراً..





وبعيداً عن أفكارها كررت إيناس ببكاء أقوى وهي تحرك رأسها رافضة!

- خالد هيكون مسافر..

....

وفي المساء كان الصداع ما زال متمسكاً بها كلهفة عاشق على معشوقته.. حتى مع ابتلاعها لحبوب قوية من المسكن لا شيء..

ببساطة قاتل..

جاورها ليطفأ المصباح الجانبي ويكتفي بالضوء الخافت من النافذة:

- تميمة نامت؟

أومأت مجيبة بصمت ثم أغمضت عينيها ولكن دون أن تضع رأسها فوق الوسادة, فقط رأسها مستندة على حافة الفراش وملامحها متعبة بشكل واضح, تأملها بابتسامة:





- لسه الصداع؟

أومأت بإيجاب مرة أخرى دون أن تحرك لسانها, نقر بسبابته فوق وجنتها:

- مخاصماني!!

ضمت حاجبيها ثم استادرت نحوه متذمرة:

- هتسافر وتسيبني وأنا تعبانة!

اقترب منها وقد ضم جسدها نحوه وأسند هو أيضاً رأسه على حافة الفراش:

- هتفضلي تعبانة لغاية ما أسافر

اومأت بإيجاب مجدداً وكان طفولياً.. للغاية

تنهد بتعب:

- إحنا مش اتكلمنا في الموضوع ده قبل كده؟

رفرفت أهدابها بلهفة:

- نتكلم تاني!

وحينها شرد..





شرود واكب تحرك عيناه ببطء على تفاصيلها..

عيناها.. شفتيها.. شعرها.. جيدها

رونق العسل الذي أيقظ قلبه..

تذوقه لشفتيها أول مرة..

تذوق أربكه ثم صدمه بالحقيقة التي ظل يحاربها لوقت ليس بهين

أنه عاشق.

شعرها..

ألا تتذكر هي؟..

أول مرة، حينما جذبها من أمام رعد ليغوص بأنفاسه داخل تلك الخصلات

عبق البندق..

وأخيراً جيدها، وتلك البؤرة الساحرة التي تحمل كل جنونه..





رفع بصره نحوها بابتسامة غامضة:

- يا ريتك ظهرتِ من زمان..

ثم تابع بصوت خافت:

- قبليهم كلهم.

ولم يعطها فرصة لترد..

كان يود أن يقبلها في تلك اللحظة, قبلة لا منتهية..

لا تحمل فقط نكهتها..

امرأته

بل تحمل كل ذكرى وكل تفصيلة صغيرة معها..

تحمل عاطفة لرجل كان لها هي فقط وبها..

تحمل غضب وشوق وتملك وتشبث وامتزاج!

النصف والنصف الآخر..

قلب وعقل..





لهفة وارتياح..

ثورة وسلام..

خشونة ولين..

قسوة واحتواء!

"ليست متعة وإنما اكتمال"

****

ثلاثة لا يفهمون المرأة..

الشباب والشيوخ والكهول!

"أنيس منصور"

لم يكن يوماً من المهتمين بتفاصيل امرأة،
الأنثى هي الأنثى..

صوت وجسد ونهد وأشياء أخرى..

متعة مطلوبة..

زوجته الأولى.. الأم





حورية.. الشهوة..

ولاء.. الثأر..

وليلى.. الذل!..

كل غرض يوازيه بوتقة..

ليس أكثر..

والآن تلك..

والعجيب أنه ليس لها مسمى واضح بعالمه..

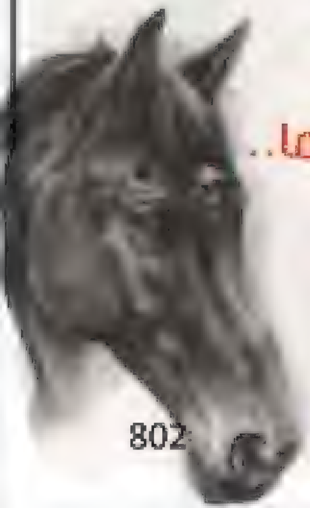
مجرد شيء مجاني وقع في طريق وحدته

ربما هي كل شيء الآن وربما لا شيء..

ولم يكن هناك زفافاً بالمعنى المتعارف عليه, جاء المأذون وكتبوا العقد.. كانت ترتدي ثوب زفاف رخيصاً استعاروه من جارة لهم..

واسمها كان بسمة ولم يلمح على وجهها أي ابتسامة..

وعمرها لم يعرفه سوى ليلتها..





تسعة عشر عاماً

وهو اقترب من الخامسة والثلاثون..

فرق ممتع لكل رجل..

ربما هناك ميزة بها الآن..

هي أصغرهن جميعاً..

كان شعرها حالك السواد يناسب سمرتها الصافية..

وضعت حمرة شفاه باهتة وورِدت وجنتاها بمستحضر رخيص..

سلمتها له أمها باكية فهي غير راضية عن الزيجة..

باعوا ابنتها لرجل مشوه!

وصرخت وولولت وتعاركت مع عثمان الزوج والنخاس..

وما لم يعرفه صبري أن العراك انتهى بكلمة





"موافقة"

مِن الفتاة.

وما لا يعرفه أيضاً

أنها لم تكن فتاة

أنها فشلت

أنها لم تجد من يدافع عنها مثل ليلى

وأنها هربت عن قصد لجحيمه, فهناك
جحيماً أكثر ظلمة عانته على مدى سنوات

ولم تستطع لا النطق ولا الدفاع

جحيم عثمان نفسه!!

وربما لهذا كانت مستسلمة..

هادئة تماماً ومستعدة.

ربما حل زر.. اثنين..

كان هو سريعاً والأغرب متوتراً

لا خوف ولا حياء!

مجرد تمثال حجري باهت..





والصدمة اكتملت..

ليست عذراء..

وابتعد عنها منتفضاً والأدهى مشمئزاً!!

ونظرته تلتها صفعة فأخرى وأخرى..

ووصم بأبشع الألفاظ عن البيعة الخاسرة..

وضحكت.. بشدة وبانتصار..

هل يلومها هي فليسأل صاحب البيعة، العجوز بنصف ساق، وصوتها كان يردد:

- أعرج آه.. بس أقوى مني

وتلت عزيمتها بكاء.. وتوضيح.. وسرد!

فزوجته الأخيرة كانت مُغتصبَة.. بشكل مكرر..

وكان عثمان بمنزله يحصد غنائم النصر حتى لو استغنى عن متعة مجانية وحفنة أموال من أجل ترقيع عذرية تكفلت هي به كما اخبرته..

حتى أجفلته طرقات باب..





لمجنون.. ومخدوع!

وقبضة تلو صفعة وزجاجة تتناثر فوق فروة رأس..

وغضب عارم بنكهة مخيفة..

مشوهة..

هو.. صبري يحدث معه هذا!

بضاعة معطوبة..

مستهلكة وهو أحمق يبتاع بفخر

وهذا الحقير المنتهك..

الخاسر لكل صلاحية، يغتصب ابنة زوجته

يال العار!!!

****

وكان صباحاً عادياً..

وهي

هي ما زالت مرتبكة.. شاحبة..





ترفض سفره في صخب وصمت وكل تعبير ممكن...

بندقيته الحائرة معه وبفضله على الدوام،

شاردة!

خصلاتها مسدلة فوق وجهها ومتعرقة بعض الشيء..

ترتدي قميص نوم قصير بصبغة لبنية وخفاً وردياً يشبه ذاك خاصة تميمة..

تتحرك في الغرفة بعشوائية وتنظر نحوه بتردد..

وقبل أن يفكر وجدها تتوجه نحوه وبين أناملها شريط بلاستيكي صغير وهي تهمس:

- أزرق!

وضم حاجبيه لا يفهم لتعض هي فوق شفتيها ثم اقتربت أكثر وخفضت رأسها بخبر مؤكد:





- خالد.. أنا حامل.

****





الفصل الخامس والعشرون

في الجنة كان للإنسان عدوٌ واحد،

شيطان

وفي الأرض تكاثر الإنسان فأصبح عدو نفسه!

هو رجل لم يختر أعداءه، كانوا جود الحياة

ولم يختر عائلته.. من منا فعل!

والأم كانت الحب..

التملك..

فطبيعة الذكر تميل نحو كل أنثى، والطفل يرتبط بأمه

الطفل يغار..

من الأب..

مقبول

من كل رجل..





جنون!!

وخالفت الأم التوقعات.. خالفت الآمال

وأحضرت له أول أعدائه

ملس على رأسها ولم ينطق..

ظلت ملامحه غامضة وهو يستمع..

لأول الخبر

آخره ومنتصفه ومحتواه

هي حامل

وجه آخر في عائلته الصغيرة

عائلته الحقيقية

فبماضٍ ما كانت هناك شبه عائلة,

أجبروه على تقبلها

على الخضوع.. على الابتسامة لما لا يرضاه

وعلى تنفيذ أوامر رجل يكرهه





اللحظة الأجمل، اللحظة الأفضل، الحظة الأروع..

يوم خرج منتصراً من غرفة كارمن

يوم طرده مختار ليتخلص أخيراً من تلك العائلة حتى لو كان الثمن خذلان أتقنته أمه!!

تنهد ليجذب رأسها نحو صدره ثم طبع فوق بندقها قبلة، رفعت عيناها نحوه:

ـ مبسوط؟

أغمض عينيه لتخرج من بين شفتيه ابتسامة وتنهيدة دافئة:

ـ أجمل عيلة!

حركت عينيها لا تفهم وودت أن تتحدث مجدداً ولكنه وضع إصبعه فوق فمها ليهمس:

ـ ما تسأليش!

تنهدت ولم تنطق..



لم تخبره أنها لا تود غيابه..

هل يجوز أن تأمره.. تتوسله.. تضغط بكل أسلحتها..

مباح كان أو غير مباح!

حركت شفتيها ومجدداً حرك أصبعه ليمنعها من الكلام

يعلم ما ستقول ولا ينوي تنفيذه, فقرار الرحيل الآن بات لازماً.. وطفله القادم يحتاج حمايته ربما من قبل أن يولد..

وكارمن آخر من تبقى من إرث مختار.

حب..

جنون..

رغبة..

ثأر..





هوس..

وربما وحدة..

ولكن تظل هي كارمن صاحبة أكبر تهديد قد يهدم عالمه, ففي النهاية رصاصتها قد مرت بقلب إيناس..

****

خلف بنايتها الصغيرة وفي ركن منزوٍ بعد ثلاث شوارع من جاليري لافييت كانت هناك طاولة ومقعدان..

ورجل وفاتنة..

ضحية وجلاد..

وطبق شهي من حلوى البروفيترول

شهية وهشة وتذوب في الفم بقضمة واحدة!..

ارتدت ثوباً نبيذياً وتركت خصلاتها منسدلة تحت قرط متدلي من العقيق الحر, جيدها شامخ دون رتوش وفوق شفتيها حمرة صارخة بنكهة الرمان.





أيهما الجلاد؟!

أيهما الضحية؟!

ماذا لو بدلنا الأدوار.. هل لدى الضحية اختيار

هل ستنحر جلادها..

أم أنها ببساطة اعتادته!!

من لم يختبر الوحدة لا يفهمها, أن تستيقظ صباحاً دون أحد.. أن تموت دون أحد!

أن تقبع رغماً عنك في الذكريات لأنك ببساطة لا تمتلك غيرها, وفي النهاية تمنحك سخرية الحياة جلاد ليهتم بك..

ابتعلت مشروبها جرعة واحدة ففهم أنها تود الرحيل, كان يرتشف قهوته السوداء ببطء ويراقب زخات المطر تتلكأ فوق الزجاج وكأنها بدورها تتلصص

على حكاية..

يودها أن تكتمل كما رسم في مخيلته





على امرأة

تقترب من الموت في شموخ غامض، كأنها لم تعد تخشى مواجهته..

- باريس سهارنة كالعادة

قالها فجأة وكأنه يود أن يأخذها لحوار.. فمنذ هذا الصباح بمنزلها وتلك اللوحة التي أصر على أن يلونها بريشته، وتلك النظرة التي تحدثه بها ثم استقامت لتكمل إفطارها وكأن شيئاً لم يكن، شعر أن هناك

كارمن أخرى تختبيء خلف ستار النكهة الحمراء اليائسة

كارمن لا يعرفها

وربما لا يود..

والبرقية!

تلك التي أرسلتها لحبيب سابق لم تخبره عنها ولم تبادر حتى بشبه ذكر لما فعلت وقرر هو ألا يسأل.





فأياً كان ما تخطط له فالنهاية سيسطرها بيده كما قرر وبكل ثقة.

ابتسمت هي بعد وهلة لتقطع أفكاره:

- عايزة أروح برج إيفل.

اندهش فرفع حاجبيه استنكاراً:

- ليه؟

لم تجبه فقط استقامت وتركته ليدفع الحساب ويلحق بها..

كان الطقس بارداً بعض الشيء وعلى مقربة من البرج الشهير كان الوضع المعتاد, بعض البائعين الأفارقة يعرضون منتجاتهم ثم يولون هروباً كلما ظهرت صفارات الشرطة, صف طويل من السائحين نحو جولة ستمر بمصعدين نحو قمة البرج الأشهر, وابتسامة من الحارس العربي المنشأ نحو امرأة ربما لا تتكرر بعينه كثيراً..





في المساء الأضواء رائعة وربما المراقبة من الأسفل أفضل ولكن فوق اختلاف..

هواء..

ملكها فقط هذا الهواء..

لم تكتفِ بمنتصف المسافة فهي أرادت القمة..

توجهت مسرعة نحو المصعد التالي ليقلها نحو القمة المستديرة والتي اكتظت بعدد لا بأس به من السائحين مع مشروب الشامبانيا الشهير في ذكرى مميزة فوق أجواء باريس

الهواء لفح بشرتها وارتدت جميع خصلاتها نحو الوراء، راحة ليس لها مثيل وكأنها امتلكت الأرض والسماء وما بينهما في لحظة

سكون ممتع قطعه هو بهمس يود امتلاك:

ـ أفهم سر الطلب الغريب؟

لم تستدر نحوه فقط جاوبت بهدوء:





اعتبره أحد أمنيات ما قبل الموت!

وبدت ساخرة.ز

وأصبح مغتاظاً...

جذبها ولكن برقة لتترك السياج الحديدي ثم اقترب منها محذراً:

ـ أنا مش بحقق غير أمنية واحدة بس!

وحينها رفعت هي ذقنها شامخة لترمقه بنظرة شبه محتقرة قبل أن تردف بلسان واثق:

ـ وأنا اخترتك علشان كده.. بس المهم تقدر تحققها!

وتركته متبخترة..

ترقص شهرزاد ويقف شهريار ساخطاً

تخطط شهرزاد ويكتب شهريار أمانيها كمنتصر

نسي شهريار أنها هي صاحبة الحكايا!

****





كيف يتم الأمر؟..

حقاً كيف يتم الأمر!

ركبتان مضمومتان، فم صغير بابتسامة مترددة، وقرصة فوق وجنة عروس..

كعك وعصير وأصوات عدة وهو بشكل ما يبدو مختلف..

الآن تدرك أن قميصه المفتوح الذي طالما كرهته فوق السروال القصير ومياة البحر

تبدو أفضل من مظهره الكلاسيكي ورزناته بالحديث وبجانبه أمه!

ومنذ دخلوا تحاشت هي النظر نحو أمه، بل تحاشت النظر نحو الجميع..

ولم يكونوا كُثُر..

فقط رجل أنيق هو خاله وامرأة بشوشة الوجه قيل أنها زوجته وحمزه يناديها بكل أريحية روكا!!

والجميع يتفحصونها..





ولمَ لا؟!

فهي ترتدي ثوب بوردات ملونة وتجلس كحمقاء في طلة عروس لا حول لها ولا قوة..

وكرهت الثوب وعاندت أمها ورغم أنها وصية لمنصور بعدم الحداد بعد أربعين يوماً، إلا أنها تكره هذا الثوب الربيعي وتلك الطلة الحمقاء التي جاءت بتعليمات جارتها، وتحمد الله أنها غسلت وجهها قبل أن يأتوا ويشاهدوا تلك الكارثة!.

وفي عينيه بدت خرافية..

ثوب ربما لا يلائم ذوقه كثيراً ولكنه أهدى جسدها ملامح أنثى

"رغماً عنك هناك أنثى مختبئة في تفاصيلك يا ليلى حتى وإن تمردتِ"

ومن وسط شرودها وأفكاره خرج صوت رقية مهللاً بطلب أرجفها:

ـ تعالي اقعدي جنبنا يا عروسة!





عروس.. ومكان ما وسط تلك السيدة ووالدته!!

تقدمت بحذر وربما لأن تلك السيدة صغيرة الحجم كانت تتفحصها منذ دخلت دون تعبير واضح!

وزاد ارتباكها وجلست بشبه الابتسامة، نعم تلك الابتسامة المترددة التي كانت تكرهها! وصوته هو عاد من جديد..

يفرز قوانين بشكل ما بدت دون رادع..

يتحدث والجميع يستمع، موعد عقد القران بعد شهرين..

لا اعتراض..

وافقت الأم..

رأي العروس؟

صمتت..

السكوت علامة الرضا..





تلك العبارة هي السبب في مصائب العالم..

ربما السكوت علامة الغضب وربما التيه..

التردد..

الحيرة..

بل الرغبة في الخروج من تلك الدوامة، نحو القارب.. نحو البحر..

نحو روح منصور.

وفي ردة فعل غير متوقعة، وفجائية لها قبل الجميع

بكت!!

عبرتان.. ثلاثة.. عشرة ولا تستطيع التوقف..

فقد رأته هناك يبتسم.. يجلس جوار حمزه ويطمئنها ويوصيه عليها ويخط تفاصيل زفافها ككل عروس.





ولحظة تلتها لحظة أخرى فجائية أيضاً ربما لصاحبتها نفسها, امتدت ذراع نبيلة حول كتفها لتضمها إليها وتبتسم مطمئنة..

لا حديث.. لا حوار..

فقط ربتت فوق رأسها بحنان أمومي يشبهه ولتتدارك أمها الموقف بجملة واضحة:

ـ ليلى كانت مرتبطة بأبوها قوي.

ويهمهم الجميع:

ـ الله يرحمه.

ويعود صوت رقية تحادثها أم ربما تتحدث عنها:

ـ يا حبيبتي..

ثم..

ـ تعالي..

وعناق آخر





الآن تفهم لما يحب حمزه العناق يبدو أنه أمر وراثي!

وعندما رفعت بصرها نحوه وجدته يبتسم وكأنه يقرأ أفكارها، بل تجرأ وهمس:

- دوري!

وأهداها غمزة!

تتورد وجنتها وتلمحه رقية فتبتسم معاندة وتضمها لها أكثر في استحواذ أمومي تتقنه.

ووسط كل هذا يشرد حسن ويراقب أمومة وحنان زوجته مع الجميع سوى ابنه!!

وفرك حمزه كفيه بعد صمت درامي طويل:

- نقرا الفاتحة؟

وتم

وثاني خطوة،





خاتمي زواج..

وتلك مفاجأة أخرى!

نظرت نحوه لا تفهم ودفعتها رقية لتكون بجانبه..

فعلياً ملتصقة به واضطربت وابتعدت وجذب يدها بتحكم ذكوري فوق بنصرها

ثم دفع حلقته وأطال فارتجافها بشكل ما ممتعة..

وحان دورها..

الآن هي تمسك بيده وتضع بإصبعه حلقة..

قرب لم تكن تتصوره فقط قبل أسابيع عدة.. وحب كانت ترفضه، ورجل هو بعد ستون يوماً زوجها!

وهمس:

- مبروك..

ونظرت نحوه، كفتاة تود أن ترى الحب.. تختبره.. ترفضه وتقبله وتعاركه ويهزمها أو تهزمه.





ولكن.. بشكل ما الأمر يختلف..

تشعر أنه ليست صاحبة قدرة ولا قرار..

وهذا خانق!!

رغم أنها تحبه.. تعشقه, ولا تود رجلاً غيره

هذا.. كله خانق.

****

منذ رأتها رآته

حمزه بشكل ما يعود والسبب تلك الفتاة..

هو مختلف معها

وكأنها في عينيه سعادة..

احتياج أكثر منه اشتياق

هو يحبها وبصدق..

ولكن هذا لم يمنعها أن تسأله وتلك المرة بحزم:

- ليه مستعجل يا حمزه؟





أوقف السيارة ولم ينظر نحوها بل ظل صامتاً يراقب ظلام الطريق، كررت:

- ليه يا حمزه؟

أغمض عينيه وبدا مستاءً:

- علشان ليلى لازم ترجع شغلها على مركب باباها وهي مراتي!

وقبل أن تبادر بسؤال ثانٍ أزاد:

- ما حدش هيقرب من مراتي ولا يضايقها.. غير كده هافضل خايف عليها..

وبنبرة لم يتوقعها عارضت الأم:

- يا سلام!.. تقعد في البيت خالص وتفهموا بعض براحتكم.

وحينها استدار ولم يكن غاضباً بل ابتسم:

- أنا حبيتها زي ما هي كده.. بعنادها وبشغلها على المركب، ووقفتها كل الصبح على مقدمته وعلى راسها أسوأ





ممكن تشوفيه في حياتك وشعرها القصير بيعاندها وبرده بيطير..

أغيرها ليه!

ولم يلحظ أنه شرد بها أثناء حديثه وتحولت ابتسامته لشيء آخر يشبه شرود عاشق حتى نغزته أمه في كتفه بغيظ:

- اطلع يا روميو!!

ليضحك وتتمتم هي بهمس لم يسمعه واغتياظ أكبر ربما لأنها هي نفسها أحبت ليلى.

****

عادة كل شيء بثمن

ورغم أنها كانت تظن أنها بلا ثمن إلا أن قرار عتمان بزواجها من المشوه أفهمها أنه قبض وأنها مجدداً غنيمته وبشكل آخر.





صرخة أمها بعد ضرب عتمان على يد صبري كانت ممتعة..

حتى أنها توجهت نحو دورة المياه لتغتسل برضى تام وكأنها فائزة..

وحتى عندما عاد صبري وفهمت من ولولة أمها على الباب قراره المتفرد بالنفي ورأس عتمان النازف خير دليل..

ساعة واحدة..

وكان قد رحل عتمان وأمها واخوتها عن الشاطيء بأكمله ولم تتأثر!

في البداية ظنت أنها راحلة معهم ولكن ما فعله صبري معها مجدداً أخبرها أنها باقية كزوجة بكل الصلاحيات.

ولم تبالِ..

ليس هناك فرق عتمان من صبري من غيره

فالأمر مقزز في كل الحالات!

ولكن عزاءها تلك المرة أنها زوجة..





وكانت الأيام تمر متشابهة، تستيقظ في الصباح الباكر.. تعد الطعام والشاي ويرحل نحو عمل تجهله ولكن بدا أنها تركة مغتصبة من عثمان..

ويعود مزمجراً ويتحدث مع أناس لا تعرفهم على الهاتف ويتناول عشاءه.. ويطلبها

تلبي ثم تنام..

ثم يوم آخر

وهكذا..

وكل هذا عندها كان سعادة

حياة والسلام!

ولكن الصفعة تقول.. كل شيء بثمن..

الفكرة جاءته بليلة مقمرة وأمام بحر ثائر..

الأمواج تضرب أفكاره واحدة تلو أخرى وكل ضربة تحمل اسم رجل واحد لا ينوي انتقاماً سوى منه..





"حمزه"

سينتقم من حمزه ويعود ملكاً فوق رؤوس الجميع..

وسيعرفون بحق من هو صبري..

والآن هذا الكوخ الصغير وعاريته السمراء بالداخل لا يبدوا بشيء سيء على الإطلاق، بل هم شرارة البداية.

العودة!

قالها هو..

من بين صفرة أسنانه وتبغ رديء الرائحة بدا وكأنه أهداه نشوة..

ضمها نحوه في تملك ما بعد العدوان ليتابع بفحيح مخيف عن مجهول لا تفهمه:

ـ أنا خدمتك يا حلوة وخلصتك من الراجل العجوز.

وحركت عينيها بارتباك.. فتابع وقد ضاقت عيناه هو بتوحش:

ـ دورك جاي وهتردي الجميل!.





وحينها لا تعلم لما ابتعدت عنه,

انتفضت جاذبة قطعة مهترئة من الملابس وقلبها ينبئها بخطر..

بدور جديد لا يحمل ترف مجرد زوجة حتى ولو بالية.

****

وفي مكان آخر وعلى فراش وردي يشبه وجنتيها أمسكت الهاتف غاضبة, ألم تحذره من تلك الرسائل..

الكلمات..

عن الحب.. وعن اشتياقه

زفرت وكتبت بتلعثم بعد ثلاث رسائل..

"وحشتيني"

و..





"ما ينفعش تكوني حلوة كده"

والأسوء هي الأخيرة..

"غير في بيتي"

ولم تكتب..

لن تكتب..

بل هاتفته, وكانت قاسية.. معترضة.. ومتمردة!

- حمزه.. قلت لك ما بحبش الكلام ده!!

وضحك ثم أخفض صوته هامساً:

- أنا هسافر بكرة.. مش هتحني عليا بالكلام يا كابتن ليلى؟

ضمت حاجبيها معاندة:

- لأ يا كابتن حمزه!

وفجأة صمت, غاب فأقلقها وقبل أن تناديه جاء بجواب أسوأ:

- ما فيش خروج وأنا مسافر يا ليلى!





وخرجت منها عفوية ورغم صرامته لم تغضبه:

ـ نعم!

رد بهدوء أكبر:

ـ ما فيش خروج من البيت وأنا مش موجود يا ليلى.

وكان يضغط على كل حرف وكأنه يحتاج توكيداً, ورفضت كما توقع:

ـ لا طبعاً.. يعني إيه ما فيش خروج!!.. هو أنت فاكر إيه يا حمزه.. غلطة مني وتحكمات منك!

وحينها غضب..

وتحول الهمس لزعيق..

وحتماً ستسمعه نبيلة..

ـ مخك ده متركب إزاي!!.. ما فيش خروج لوحدك وأنتِ فاهمة ليه. ولو خرجتِ يا ليل





حتشوفي مني وش ما تعرفيهوش وهاجي أكتب كتابك بكرة وأخدك غصب عنك!

ولم تحتمل أكثر..

أول عراك وجاء مبكراً جداً!

- سلام يا حمزه

وكانت مستاءة وغاضبة منه

ومرة أخرى اختفى قبل أن يأتيها جوابه ساخراً:

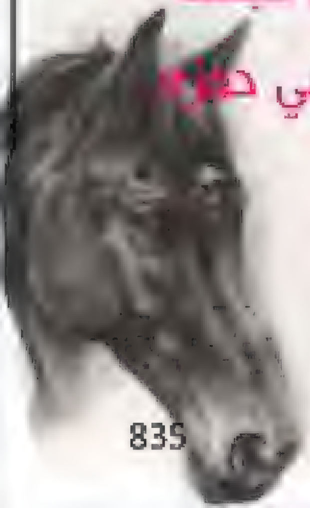
- اسمها حاضر يا سي "حمزه"

وفتحت فاهها لا تصدق, الآن سي "حمزه"

- يا سلام!

قالتها بتنمر ليضحك هو بمكر:

- وأصحى كل يوم الصبح ألاقيكي لابسة أمينة وتقوليلي الفطار جاهز يا سي حمزه





ولم تمنع نفسها من الضحك حتى أنها لم تجبه فشاكسها:

ـ بتضحكي!.. طيب وكمان لما أرجع بالليل..

قاطعته هي متهكمة:

ـ تلاقيني لابسة أمينة وبقولك العشا جاهز يا سي السيد..

ضيق عينيه متوعداً:

ـ اسمها سي حمزه!..

ثم ضيقها أكثر وتلك المرة بخبث مقصود:

ـ وتكوني لابسة مارلين مونرو!!

لم تتوقع.. فاجأها من جديد وبوقاحة لتصرخ معاتبة بقسوة:

ـ حمزه قلت لك..

وقاطعها هو بصوت أبح.. أجهد من معاندتها بحق:





ـ ما فيش خروج.. ما تتعبيش قلبي يا ليلى..

وتنهدت حينها بحرارة خرجت منها رغماً عنها,

تنهيدة تلاها رضوخ..

كحال كل أنثى..

ـ حاضر يا حمزه..

****





الفصل السادس والعشرون

شهران..

شهران مرا منذ أن اتخذ قراره بالسفر، والآن هو سيغمض عينيه في صندوق حديدي لمدة ثمان ساعات..

يكره السفر بالطائرة..

يمقت هذا الإحتجاز القصري وبرغبته..

وليست رحلة واحدة بل اثنتان!

إيناس التي ودعته بعبرة وضيق لم تكن تعلم أنه ليس متوجهاً إلى العاصمة الفرنسية كما أخبرها، بل أن وجهته الأولى ستكون نحو الولايات المتحدة وبشكل محدد نحو المصحة النفسية التي كانت تتعالج بها كارمن من قبل..

معلومة.. وتقرير.. وربما قرار

لو مثلت كارمن له خطورة..

ستعود!





بين أروقة الممرات البيضاء ومع خطواته المتأنية نحو غرفة الطبيب كما الموعد المتفق عليه عادت له ذكراها منذ ست سنوات..

على أحد تلك الأسرة وفي غرفة منعزلة كانت ترقد..

منكمشة دون بريق

دون وهج أحمر ودون زُرقة ثائرة..

فقط سكون..

وابتسم لحاله وقت تذكر أنه شبهها حينئذ بالعفة!

فمنذ البداية كانت كارمن هي بيجونيا!

الفضيلة والخطر

وبلحظة ما جمعت الصهباء بين النقيضين.

استقر بمقعده أمام رجلاً ديناميكي الهيئة..





شارب بني أنيق وعوينات سميكة وتقارير عدة عن حالة مريضة راحلة..

مريضة تعاني نوعاً حاداً جداً من الاكتئاب، فبعد أن تعافت كارمن من صدمة موت كريم وما حدث لها من هذيان مؤقت بعد حريق المزرعة تشكلت بعقلها كل تفصيلة ممكنة عن ما حدث..

ساعدتها وحدتها على الغوص أكثر بكل شعور سلبي ممكن، ولما باءت الجلسات النفسية معها دون فائدة لجأ الطبيب بشكل مكثف للعقاقير المهدئة ومضادات الاكتئاب، مع اللجوء في بعض الأحيان للصدمات الكهربائية ليبرز بعد فترة طويلة من العلاج تحسناً ملحوظاً وحق طبيعي بمغادرة المصحة..

في البداية ومع التوصية الشديدة المريضة صُنفت خطيرة على غيرها خاصة مع حادث محاولة القتل الذي تم ذكره ولكن..

ولكن..





تظل تلك العبارة هي الأهم..

هي التفصيلة التي ربما فاتته ولم يفكر بها من قبل..

هي لُبَ الحديث وهي النهاية التي لم يكن يتوقعها

كارمن لا تمثل خطراً على أحد سوى نفسها!!

****

الرغبة..

لطالما كانت هي محور العلاقة..

الثأر والتملك..

المتعة والانتقام..

اللهاث دون بصيرة من أجل إشباع الحاجة، وكانت حاجتها هو

وكانت حاجته كل شيء سواها..

كانت ثأره الممتع ويوقن في دواخله أنها تستحق. فكارمن لم تكن قديسة بغاية انتقامه..





الطائرة حطت في مطار شارل ديجول في تمام الخامسة والنصف صباحاً, أدرك مع ارتطام العجلات أن ساعات نومه الفعلية نالها في السماء..

بعض ترتيبات اتخذها بشكل ساخر بدت دون فائدة..

شركة حراسة مدربة تولت أمر المزرعة في غيابه, لن تدخل حشرة غريبة, هكذا اتفق..

فالخطأ الذي ارتكبه من قبل ضمن أنه لم يتكرر.

ولكن الآن لم يعد يفهم لما دعته!

إن لم تكن تنوي لعبة انتقام كما سبق فما غرضها بالضبط!

بسيارة الأجرة التي توجهت به لفندق ماريوت الذي يقع على مسافة قريبة جداً من قوس النصر والشارع التجاري الأشهر "الشانزليزيه" تلقى منها خامس رسالة نصية, ابتسامة مرت على زاوية شفتيه وهو





يتصور ملامحها خلف خصلات منثورة وثوب قطني ووردي أحمق وتطوف بالغرفة قلقاً في انتظار مكالمته..

- وحشتيني..

كان صوته هادئاً والطقس رغم أنه ليس مشمساً إلا أنه رائع، وضع حقائبه بغرفته بالفندق وتوجه لأحد المقاهي المفتوحة لشرب بعض القهوة مع الكرواسون الهش، ردت هي بلهفة:

- شوفتها؟

تنهد وهو يبتسم مجدداً:

- هو أنا لحقت!

ثم تابع:

- وبعدين مش أنا طمنتك امبارح.

زفرت هي بحيرة:

- أنا مش فاهمة حاجة.. واتفاجئت إنك رحت أمريكا، وكمان كلام خطر على نفسها ده





عام.. خطر على نفسها يعني غير متزنة عقلياً وبرده خطر عليك..

وجدت أنه قاطعها فجأة وبحزم:

- المهم ما يكونش في خطر عليكم!

بعدها.. صمتت هي على الهاتف، كثيراً..

كان يعلم أنه تكتم بكاءها ولكنه لم يكن يتوقع أن الحزم نبرتها أيضاً:

- خالد رضوان.. لو حصلك حاجة مش حسامحك أبداً

وأغلقت الهاتف!!

****

أنيق..

أول كلمة ستقفز بذهن من يقابله أنه رجل أنيق، كان لمراد اهتماماً خاصاً بالتفاصيل..





زر أكمام قميصه المتشكل بحروف اسمه الأولى، خصلاته المشذبة بعناية، ساعته.. وحذائه وقبضته التي تبدو لناظريها ناعمة..

حتى ترتيب ملاعق وسكاكين المائدة.. كل شيء منظم ومرتب ومثالي لحد الإرتعاب فبشكل ما تلك الأناقة المفرطة تناسب الدماء!

باقي فقط خمسة أيام..

تفاصيل العرض أصبحت واضحة الآن، الأضواء والديكور والملابس، ويناسبها هي درجات متوهجة من الأحمر..

شهرزاد بسحر ثائر..

ونهاية خامدة!!

كانت تجلس على الأرض شاردة نحو مقعد محدد..

الدعوة، وهو،

والموعد بعد خمسة أيام..





سيكون هنا جالساً أمامها مباشرة يشهد النهاية بحق.

رجفة قوية اجتاحتها عندما تجسدت أمامها عيناه..

ماضٍ كامل لا يُنسى!

انجذاب..

شغف

رحيل

سطوة

خضوع

ثأر

ونهاية..

لا ترضاها!!





وهنا على هذا المسرح ستبدأ كشهرزاد وترقص ككارمن، كل رقصة منها خطفت عينيه ورفضها قلبه..

كل ايماءة وانحناءة، وابتسامة وصرخة وومحاولة فرار..

من حكم واجب النفاذ، وفضيلة جلاد قرر أن ينهي المأساة!

خالد!

الاختيار لم يكن يوماً لك، اليوم أنت لا تملك خيار..

فقط استمتع وشاهد..

وكما يتمنى مراد ويخبرها دوماً..

موت شهرزاد وعودة كارمن!!

****

فستان زفاف.. وزحام وتبرج وأمها ومرآة





لا تصدق أنه قد مر شهران بالفعل وهي الآن عروس زفافه, كانت أمها تمسح دمعات باكية تناقض حماسة الأيام الفائتة.. حتى أنها توجهت مسافرة إلى الغردقة لتقوم بتوضيب حاجات عدة بشقة حمزة..

شقتها المستقبلية كما فهمت..

وهو..

كان يطمئن عليها.. يدللها ووقتما تُغضبه يغيب بلا سؤال فيجتاحها القلق لتبحث عنه..

أضحى الأمر كمطاردة غرامية!

صوت رقية المميز أخرجها من أفكارها وهي تردد باتزان:

ـ بسم الله ما شاء الله.. زي القمر..

كانت فعلاً جميلة وبهدوء..





فستانها بسيط ينسدل برقة معتدلة فوق كتفيها مع تطريز هادىء فوق الصدر ثم ينتهي باستدارة واسعة كتلك التي تتميز بها اثواب الأميرات..

لا يناسب هذا الحفل المبسط بالمنزل كما أصرت والآن أصر حمزة فيما يبدو على الفستان

فقد كان اختياره..

مع خروجها من الغرفة سمعت أصوات زغاريد عدة لتظهر ملامحه أخيراً من بين الزحام وكان وسيماً بشكل أغاظها

أينقصها الآن أن يكون وسيماً بهذا الشكل!!..

يرتدي بذلة سوداء راقية ويزين قميصه الأبيض بربطة عنق مميزة تناسب الزفاف.. ذقنه مشذبة بشكل خفيف وعطره يفوح تستطيع أن تشمه من مكانها

نفس العطر..





ولا تعلم هل كانت حقاً واعية لما حدث بعد أم لا، كل ما تتذكره هو حديثه مع وكيلها وزوجتك وقبلت وعقد وامضاء وأصبحت زوجته..

شعور غريب.. مخيف وممتع بذات الحين.

وجنتها بدت حمراء حينما مال عليها ليهمس بوضوح:

- أخيراً!!

ثم ابتسم لكل مهنيء في ثبات تام، وبعد مرور ساعة واحدة من المباركات وتوزيع الشربات والحلوى فاجأها باستقامة استحوذت على خصرها وصوت واضح:

- يلا يا لولّا

لولا بشد اللام وأمر مباشر بالرحيل..

كانت تعلم أنهما سيقضيان الليلة بفندق شهير ثم يتوجهان بعد ذلك للغردقة ولكنها لم تتصور أنها سترحل بتلك السرعة





فالساعة فعلياً ما زالت الرابعة عصراً وهو من أصر على عقد قران مبكر بحجة مواعيد المأذون.

استدارت نحوه لا تفهم فضم حاجبيه بجدية ليزيد:

ـ ناقص 3 ساعات على ميعاد الطيارة.. يا دوبك نتحرك دلوقت.

طائرة.. ثلاث ساعات!

والأمر بدا واضحاً بعد دقائق.. ستسافر اليوم.

ضربات قلبها كانت متسارعة وهي تودع الجميع على عجالة.. حقيبة ملابسها أخذها أحدهم ليضعها في السيارة, وأمها كانت تقبل رأسها وتوصي حمزه, والتوأمان متعلقان بطرحتها حتى امتدت يد حمزه فجأة لشعرها ليفك أحد الدبابيس المثبتة بمهارة ويخلع عنها الطرحة ملقيها للتوأمين:





- خدوها!

ثم استحوذ على قبضتها بيد وحيا الجميع بالأخرى ممهداً للمغادرة وهو يهمس لها بشقاوة:

- كده أحلى.

المفاجأة الثانية كانت هي سيارته، فحمزه قرر أن يقود سيارته بنفسه متوجهاً للمطار وهي بجانبه وحينها أيقنت فصرخت:

- إيه ده!!.. استنى هغير الفستان مش هسافر كده.

ابتسم بمكر وهو يدير السيارة:

- ما فيش وقت.. وبعدين أصلاً هتسافري كده ولا هتدخلي بيتي من غير فستان الفرح!

رفرفت أهدابها لا تفهم، فضحك وكانت السيارة قد ابتعدت عن المنزل بالفعل وانطلقت مسرعة نحو الطريق الرئيسي:





- أنا متفق أروح بعروسة وفستان ولا عايزة تخميني وتبوظي الليلة!

ها قد بدأنا..

كانت تكررها لنفسها وقد انتابتها حمرة وازت لحظات كثيرة منها أناملها التي كان يقربها نحو فمه كلما توقفت السيارة بإشارة.

والإشارة كانت متعة وأصبحت كارثة، واحدة تلو أخرى تلو أخرى لتدخل السيارة في زحام سرمدي بدا غير منتهياً..

الخامسة والقاهرة كيف كان يفكر!

وهكذا بدأ فعلياً يسب نفسه ويتخلص من ربطة عنقه الخانقة مع تزايد الزحام لشكل بدا متوقفاً إلى الأبد..

كانت جواره تراقب الطريق بحيرة فالسيارت لا تتحرك تقريباً وهي مكدسة بفستان





زفاف داخل علبة حديدية اسمها سيارة، وعريسها

الوسيم يضغط على البوق كل ثلاث دقائق ويلعن كل طريق اتخذه..

كان موعد الطائرة قد اقترب وبدا فعلياً أنهما لن يلحقا بها وحمزه بدأ ينثر غضبه على المارة وعلى كل سيارة تتخطاه وقريباً عليها هي شخصياً خاصة عندما قالت بتذمر:

- غلطتك.. معاد دلوقتِ زحمة جداً يعني كنا لازم نتحرك بدري.

أنفاسه كانت مسموعة وهو ينظر نحوها مغتاظاً وضم حاجبية بغضب قبل أن يصرخ:

- ليلى.. نقطيني بسكاتك!

حينها تمكن هي منها غضباً أكثر لتوازيه:

- أنت بتزعقلي!.. مش كفاية مخنوقة من الحر بقى لي ساعة والفستان كاتم نفسي ومش عارفة أخرج من العربية وكمان





الجزمة كعبها عالي جداً ومش حمل البهدلة دي.. قلتلك أغير بهدوم مريحة..

أغمض عينيه ليضرب فوق المقود بقلة صبر ليستدير نحوها محذراً:

ـ ليلى.. مش ناقصك.. هو يوم منيل من أوله!

حينها استشاط غضبها لتبرق عينيها باعتراض واضح:

ـ والله.. خلاص نروح عادي جداً على فكرة.

لم يجبها..

تركها ليدور بعينيه في الزحام حوله ثم خرج من السيارة لينظر على امتداد الطريق ويدرك الكارثة

هو لن يخرج من هذا المأزق قبل ساعتين على الأقل!!

وفجأة وجدت بابها يفتح ليمد ذراعه ويسحبها بالأمر وهو يقول بنبرة جادة:



ـ تعالي!

خرجت بالفعل لأنها كانت تتوق لأن تترك مقعد السيارة ولكن لا تفهم!..

تابع وهو يأخذ حقيبتها ويغلق السيارة:

ـ هسيب العربية هنا وهابعت لحد يجي ياخدها.. هنعدي وناخد التاكسي يلف بينا من طريق سالك..

حينها توقفت وقد فتحت فاهها ثم تخصرت لتقول باعتراض:

ـ تسيب العربية وتاكسي!!.. حمزه استنى أنا أصلاً مش عارفة اتحرك!

لم يبالي وسحبها وكان الطريق سيئاً فتعثر حذاؤها بصخرة بارزة كسرته وحينها صرخت من الغيظ وهي تمسكه:

ـ شوفت!!

وقبل أن ينطق حركت رأسها بعناد تسبقه:

ـ هو يوم منيل من أوله!





وضع الحقيبة على الأرض وتنهد مهدئاً أعصابه حتى لمح متجر منزوياً لأحذية نسائية فسحبها مجدداً نحوه دون إرادة مما زاد من اغتياظها وكان اغتياظاً لا يوازي ما حدث بعد

فقد خرجت من المتجر بعدها بخمس دقائق ترتدي حذاءً رياضياً!!

عروس بفستان منتفخ وطرحة مفقودة وحذاء من ماركة أديداس

وقبل أن تقولها هي أو يرددها هو كان يهذي بها سائق التاكسي وهو يتحرك بهما على الجانب الآخر من الزحام:

"هو يوم منيل من أوله!!"

****

كانت صالة مغادرة الركاب الداخلية بمطار القاهرة تنتظر وصول عروسين. وسيم تخلص من ربطة عنقه لتنسدل على جانبي قميصه، وعروس بخصلات قصيرة انسدلت بعفوية على جبينها وفستان زفاف



كلاسيكي رائع فوق حذاء أبيض رياضي جداً

وواضح جداً لكل من أطال النظر نحوها!

وهم كثيرون..

وربما التعليقات المسموعة كانت أكثر

ـ مبروك يا عروسة.

ـ دي موضة جديدة يا بنتي ولا إيه؟!

ـ تقاليع آخر زمن!

ـ أمور قوي العريس وهي.. عسولة!

والجملة الأخيرة كانت من مجموعة فتيات جاوروهن في مقاعد الانتظار، ولا تنكر أنها أغاظتها.. بل زادتها غيظاً فوق غيظ، وغيظ ثالث جاء مع طلب لحوح من فتاة لم تتجاوز السابعة عشر هي وصديقاتها بأخذ صورة "سيلفي" مع العروسين

وقبل أن تعترض رفض حمزه

أخيراً فعل شيء جيد!..





ولكن ليس تماماً, فقد رفض أن يصورن عروسه ووافق هو على أخذ الصورة!!

يبتسم وسط ثلاث صغيرات لكاميرا والمذنب "سيلفي"

واستدارت ولن تعلق.. لن تهتم وابتسم لها بهمس مشاكس:

- دول ناشونال!

وتحركت شفتاها منفرجة بابتسامة مغتاظة قد تأكله هو وثلاث مراهقات في نفس اللحظة.. فصمت

وهنا..

السكوت علامة النجاة!

وتعلن شركة مصر للطيران عن قيام رحلتها رقم 342 المتجهة إلى مطار الغردقة في تمام الساعة السابعة مساءً..





أخيراً جزء من الراحة على مقعدين متجاورين في طائرة من ماركة ايرباص تتجه بسلاسة فوق سحب ممتدة نحو البحر الأحمر

والراحة ليس لأنه وصل، ولا لأنه لحق بطائرته، بل لأنها غافية ببراءة طفلة فوق أحد كتفيه..

ـ ليلى..

ـ امممم..

ـ حبيبتي اصحي

فتحت عينيها على ابتسامته واقتراب ماكر وراضي للغاية:

ـ وصلنا..

****

الحب يكمن في التفاصيل..

أن تحفظها





تقرأها

ثم ترغبها..

ومركب منصور كانت عروس متزينة, أضواء ملونة استقرت على جانبيها فأهدت البحر المظلم بهجة زفاف..

وسائد بألوان مخملية منتقاة, ورائحة شهية لطعام دافيء اختارته فاتن بعناية..

على مقدمتها شاهدت أمين يرتدي جلباباً رمادياً بشال مزركش ومبهج بدا وكأنه بلمسة زوجته وفي الداخل استقبلوهما عدة أصدقاء أغلبهم لحمزه مع نغمات دفوف أتقنتها فرقة نوبية كانت في مقدمة حفلهم الساهر..

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تراقب القارب لتهمس دون أن تستدير نحوه:

ـ حمزه





وحينها أحاط كتفيها بذراعه ليضمها نحوه ويهمس بدوره فوق أذنها:

ـ عرفتِ ليه كانت مستعجل؟

وابتسمت له أروع ابتسامة ربما قد رآها منها يوماً، وكانت هي بتلك اللحظة تعلم كم تحبه..

بعدها اختطفوها منه

فاتن تحتضنها وتقبلها باشتياق، والمفاجأة كانت تحسين وزوجته وصديقتها التي تأملتها بإعجاب وأخبرتها أن طلتها تبدو رائعة رغم متاعب السفر، ولكن العريس يستحق تحسين بعض التبرج..

وكأنه يقصد دعوتها!

نفس طلة شفتيها الساحرتين أتقنتها المرأة بحرفية تامة، وعيناها..

عيناها من جديد تعطي نظرة بألف معنى





ظل يتأملها حتى تلونت وجنتاها، ولكن الحصار لا سبيل منه تلك المرة، قبضة فوق الخصر.. قبلة فوق الجبين.. رقصة هادئة

أخرى أكثر حيوية..

جذبهما الجمع وخجلت واستحوذ عليها:

ـ لو رقصتِ هاكلك!

لم تصدق، رفعت عينيها وشفتيها ووجهها وكل خصلة نحوه

هذا لا يجوز..

جذبها مبتعداً نحو مقدمة المركب وقبل أن تعترض فتح يده ليدس في أناملها خاتم بحجر ماسي بدا كأمواج البحر الصافية..

ثم قبل أناملها ببطء مقصود، لتسحبها في خجل واعتراض وعندها ابتسم بشقاوة:

ـ ينفع ينطوا هنا علشان نبقى براحتنا!

فتحت فمها لا تصدقه وهمت لتتركه ولكنه استحوذ على يدها:





ـ رايحة فين؟.. تعالي هنا..

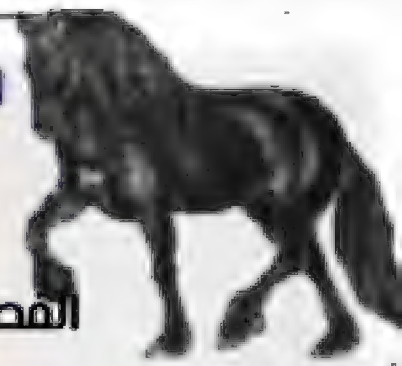
وتلك المرة حينما جذبها كانت قريبة جداً بتجاوز لم تعتده, دفعت صدره معترضة فرفع أحد حاجبيه ممازحاً:

ـ ايه رأيك... تيتانك يا روز!!

وتحولت الدفعة لضربة لائمة تشوبها حمرة خجل مجدداً لا تستطيع التحكم بها وحينها نظر خلفها لفضول ضيوفه القادم قريباً ثم همس بمشاكسة أخيرة:

ـ أنا بقول نكمل في البيت!





الفصل السابع والعشرون

"يكاد الشوق يقتلها ولا تنطق

فإن باحت فيا ويلي

وإن سكتت تصير مشاكلي أعمق"

عبد العزيز جويدة

غريبة هي تلك العاطفة المسماة الحب..

أن تجد نفسك دون سبب,

مشتاق

تواق

فغرم..

بتفاصيل عادية..

خصلات غير مرتبة, ومقلتين حالهما الارتباك,

الحيرة,

والذهول.. مع أول قُبلة..





كانت بالمطبخ تقف حافيةً، مرتدية قميصاً يخصه وتُعد له إفطاراً..

ساقاها ليستا نحيلتين كما تصور، فأردافها ممتلئة بعض الشيء بشكل مصري خالص!،

وساقين ملفوفتين جميلتين فوق قدم صغير

تُشغل نفسها بطعامه كي تهرب منه..

كما فكرت أن تفعل ليلة أمس..

فكرة..

مجرد فكرة تبخرت مع أول لهفة..

فالفعل لهفة

والقول لهفة

والحب.. لهفة.

وأخبرها، بل كررها بما لا يفوق احتمال

- أحبك..





كانت ترفرف أهدابها ثم تهرب بعينيها، حال الليلة الأولى ككل عروس.

تشعر أنها تورطت، بل تفتقد فراشها الهادئ وليس فراش هذا الرجل الغريب عنها والذي فجأة أصبح كل شيء!

وتُعد له مشروبه المفضل..

شاي بالحليب

وتطور الأمر للإفطار وضحكت وهي تتذكر جملته

"سي حمزه"!!

إفطار وشاي وعشاء ومارلين مونرو!!

وعندها زمت شفتيها..

وشفتاها جميلتان لهما لون وردي طبيعي بنعومة خاصة وكأنك لتوك قبّلت زهرة.
همسة مفاجئة من خلف جيدها أجفلتها





فكادت أن توقع صحن البيض فوق قدميها..

- صحيتِ بدري ليه؟

وعندها كان قد اقترب أكثر ليلف ذراعيه من الخلف فوق خصرها, رامياً بصره على أصناف الطعام أمامه ثم قال بنبرة راضية ومشاكسة:

- برافوا يا أمينة!

بشكل ما رحلت الهادئة المتحفظة منذ ليلة أمس وحلت محلها متمردة ومغتاظة لتستدير نحوه متحدية تحكم ذراعاه الصلبتان وتهاجمه بنبرة رافضة:

- بقى كده!!.. على فكرة ده فطاري أنا.. اخدم نفسك يا كابتن!

كانت قد بدأت أن تندم على قرارها بمواجهته, فالآن هي تقف قبالة وجهه ودون أن تتخلص من قيد الخصر.

ابتسم بشقاوة:





ـ أهون عليكِ!

ثم اقترب أكثر ليهمس باستعطاف:

ـ حمزه ما يفطرش!

وابتعدت بوجهها في محاولة فاشلة مع قراره الأخير:

ـ أنا هافطر نفسي

وغابت بين شفتيها بقايا حروف..

****

أحبيه كما لم تحب امرأة

وانسيه كما ينسى الرجال

أحلام مستغماني

يُقال أن لحظات النهاية دوماً تحمل كل التفاصيل

هي انعكاس المرايا..





تفاصيل وجهه منذ البداية..

كيف لبصر له أن يمتلك تلك الحدة..

والدفء، الرغبة والثبات..

القوة دون لمحة ضعف،

القبلة الأولى، والأخيرة!

المسرح أصبح أسطورة، أضواء ملونة تطوف
أمام الستار المغلق وعلى مساحة شاسعة
رتبت مقاعد الزوار بشكل هرمي مميز
ونسيج قاتم اللون على ذوق مراد

أحمر قاتم، أرجواني كما يليق بها..

كانت التذاكر قد نفذت من قبل العرض
بأيام، فالجميع لديه فضول عن تلك التي
ستؤدي موت شهرزاد فوق مسرح..

عن شهرزاد التي ستُنحر معلنة الاستسلام!

عن أنثى ستضرب بأسطورة الدهاء عرض
الحائط..





مراد كان يجلس في مواجهة المسرح

مباشرة، ولكن دون ورقة ودون ألوان..

الليلة هو فاعل وليس فقط ناسخ لحدث!

وقت الضرورة هو الرواي، وشهريار،

ومسرور إن استدعى الأمر..

والليلة شهرزاده سترحل

بيده..

وفي لحظة تاريخية ستغير مجرى الفن إلى

الأبد

ليكون الفنان هو الآمر والناهي وصاحب

الرواية

هو البريء والجلاد..

هو الضحية

وإن لزم الأمر..

هو الشيطان!





والشيطان كان يرتدي حلة رمادية راقية،

ربطة عنق سوداء وكأنه ينوي حداد..

وخصلاته مشذبة بأناقة توازي ساعة

رولكس في معصمه الأيسر وقلم أسود من

ماركة مون بلانك وضعه فوق حافة جيبه

الأيمن..

كل شيء مرتب.. ومقعد جواره!

رجل جواره..

خطف قلبها وما زال

كان كما هو لم يختلف كثيراً حتى الشعيرات

البيضاء لم تتجرأ لتقترب نحوه.

يرمق كل شيء حوله بحذر لا يخلو من

ثبات..

يمسك بهاتفه من حين للآخر ويفرد ساقيه

بأريحية توازي مضمار خيوله..



همس الثياب

بروح جمال



لا يطيق الكلاسيكية فاستغنى عن سترة بدلته القاتمة واكتفى بربطة العنق النصف مفتوحة

بدا وكأنه يحتاج لحصان!

وعندها اجتاحت شفتيها القرمزيتين

ابتسامة.. ثم دمعة..

عابرة وسريعة ومختصرة جداً

لقد افتقدته

كانت خلف الستار تراقب..

آتى..

ظهر من أجلها،

حتى وإن كانت كراهية فهي أفضل من اللامبالاة!!

....





بداية عرض

شهرزاد

بداية حياة

عندما أظلم المسرح بدا وكأنه في انتظار

تفسير للوغاريتمية الدعوة..

عن أسطورة جارية اختارت أن تكون ملكة..

وجارية ثم ملكة

متأرجحة في بلاط شهرياري جائر..

مسكينة وهي صاحبة القرار!

حتى وإن كان الرحيل..

ملكة!

لا ينكر أنها بدت هكذا بمجرد أن رآها..

خصلات حمراء منثورة حتى خصرها، جسد

ممشوق القوام وشفتان بنكهة توت بري

كما حفظها..





رداء أحمر بدرجات قانية, محدد بمكر عند الخصر ومرسوم بدقة أوراق ذهب فوق نهديها..

طويل حد كعوبها المرسومة بنقش حناء شرقي خالص..

ومبعثر بطبقات متدرجة من نسيج أرجواني مشتعل.

شهرزاد كتلك التي جاءت من الأساطير
ولكن ببريق يوازي امرأة يحفظها
امرأة كانت زوجته

كارمن

المسرح كان قصر من الليالي الألف

ملك.. جواري.. عبيد..

حتى الشياطين اتخذت مقاعدها,





وحينما ترقص شهرزاد..

تبتسم..

تضحك..

تنظر

تتلوى بتلك الشرائط الحمراء حتى ردفيها،

يتعلم الشيطان

وربما يتعظ!

ومنذ البداية كانت تنظر نحوه، وكأنها
تخبره أنه هو من تقصد

هو شهريار!

أرادها.. فنالها.. وملّها.. فصرفها

تلك هي الحكاية، وهي في سرمدية
اضطرارية لتحتفظ به..

تحكي.. تشدو.. ترقص..





تتعرى إن لزم الأمر!!

توازي جواريه رغم أنها تعطي أكثر، وتقدم فروض الطاعة والتبرير لتمحي أسطورة خيانة احترفها عبيده.

حاولت مراراً وتكراراً حتى أُنهكت فهي تكفر عن ذنب لم ترتكبه..

كانت ترقص بما يوازي كل حكاية وتسقط في نهايتها حد التعب

فتارة هي جارية خائنة

وتارة عفريتة تقدم فروض الولاء نحو تاجر باعها لمهر أميرة..

تلهث خلفه كل ليلة وينتظر هو باقي الرواية

حتى يقتلها!!

أيستحق الأمر هذا العناء..

أتوازي الجائزة حجم المشقة





أسيرضى أبداً شهريار!..

أتمسك هي بسكين؟..

أتنحر حالها؟

فحتى وإن كان العتق موت فهو أحياناً يستحق..

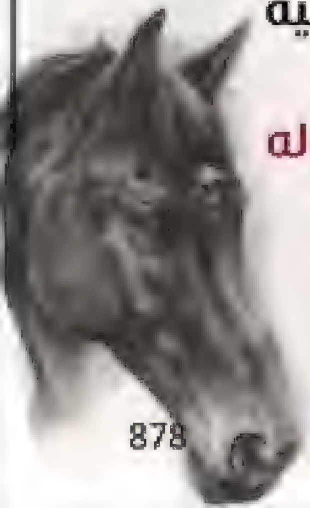
أغلق الستار معلناً عن نهاية الجزء الأول من العرض، كان كل شيء يبدو أسطورياً وكأنه انتقل نحو كتاب خيالي لم يقرأه يوماً..

وتنوي هي تلقينه أهم الحروف.

تنظر نحوه مع كل انحناءه وتغيب لتعود بالتفاته

بدت كارمن التي يعرفها وليس تلك المتهاوية ندماً بمصحة نفسية

وكأنها بشكل ما تعود به وله





حتى وإن كره تلك الطلة فستبقى هي وجهها بالحياة.

لم يستطع أن يمنع نفسه

كان يود أن يراها.. أن يفهم

أن يوقف تلك المسرحية المنتهية بموت لن يتحمله..

ليس الآن كارمن, وليس بتلك الطريقة!

غرفتها كانت في مكان جانبي منزوي يقف على بابها حارسان بديا من أصل عربي, وكما توقع منعاه

ولكن لم يدم الأمر

حينها ظهرت وكانت قد تخلصت من بعض التبرج الحاد لتستبدله بآخر وحول ثوبها المفتوح سترة قاتمة بدت مانع من برودة الجو





كلمة واحدة هي البداية

ـ خالد!

ـ كارمن!

كانت الغرفة صغيرة

مجرد طاولة زينة في حالة فوضة وساتر خشبي لتبديل ملابسها مع أريكة واسعة في منتصفها تماماً

أريكة فارغة لم يجلس فوقها أي منهما

كان يقفان متقابلان وربما مرت أكثر من خمس دقائق دون حوار..

مجرد نظرة وأخرى تحملان ماضٍ مزدحم ليس بسهولة ستُمحى أحداثه

ونطقا بنفس الحين

ـ خلفت؟

هي سألت..





ـ ليه؟

هو لا يجيب..

كانت تنظر مستقبله وكان يعيدها لماضيها

استدارت وعلى شفتيها سخرية بشبه ابتسامة

ـ ليه!

ثم رمقته بنارية:

ـ المفروض أنا اللي أسألك السؤال ده.

لم يجبها، حتى ملامحه لم تجبها..

كان ثابتاً حد الصخر كدأبه معها

تنهدت ترمقه مع المحيط حولهما..

هي وهو ومسرح عليه خطة موتها..

ثم عادت تنظر له:

ـ كده أحسن.. راحة للجميع

ولم ينطق..





ظل لنصف دقيقة محدقاً نحوها ولكن دون تعبير واضح، حتى نطق بقسوة:

- راحتي مش في موتك..

ثم قسوة أخرى:

- راحتي إنك تبعدي.

وقسوة أخيرة.. ضعيفة!

- لأني تعبت من الدايرة دي يا كارمن..

وكانت نبرته مبحوحة وبشكل ما صادقة

صدق خالد الذي لم تختبره سوى لمرات عديدة في طوفانها معه

نعم فما بينهما لم يكن رواية ولا حب ولا حتى انتقام

كان طوفان ولكن ابتلعها سواه.

أربعة مفاتيح..





اللهفة والرغبة والوحشة والعودة!..

- بيجونيا!

كان جواب هادىء منها

بيجونيا تلك الزهرة التي طالما كانت تشبيهه مع كل رقصة كانت تخطوها، مع كل همسة وكل لوح ملون أصرت أن ترسمه فوقه ورفض.

بيجونيا

كنت عاشقة وما زلت

بيجونيا

لم يكن الخطر خيارك، ولم تلائمك الفضيلة

بيجونيا

وريقات منثورة فوق درجات ثأر كان يجب أن يخطوها

بيجونيا





تلك العلاقة الفريدة من الحب والغضب

بيجونيا

لا حياة معه ولكن لا موت في رؤياه

فبشكل ما وجوده يمنحها حياة!

- ما فيش انتقام تاني يا خالد.. اقفل الدايرة!

ولم تنتظر منه جواب, ولا حتى التفاتة

لتتأمل ملامحه..

لكن مع صمته كانت لها همسة أخيرة..

لم تكن همسة لجياد بل لصاحب الجياد..

- لكن جواها دايماً حتفضل كارمن

وحينها استدارت بابتسامة, واثقة..

لعاشقة.





مروة جمال

عيناها ترمقه بزرقة هذا الطوفان الذي ابتلعها سواه..

لو امتلك القدرة سيبتلعه وكل رجل..

وابتسم لا يصدق وللأول مرة تجتاحه ابتسامة معها منذ سنوات!

وغابت عنه الكلمات لترفع هي كفها في وداع مؤقت، وقت العرض..

دور لشهريار آخر يجب أن يقابل شهرزاده

****

الرقصة الأخيرة..

ترفض شهرزاد سحر الساحر

لا حكايا ولا إكتراث بحد السيف، والسيف تلك المرة بيد الملك لا الجلاد..

هي اختارت الموت

كما اختارت العبودية من قبل

وداعاً شهرزاد..





كان يخفي نصف وجهه خلف لثام عربي

يناسب بطل الأساطير

يراقصها بحرفية تامة وشغف..

لحظة تمنى

متعة نحر امرأة بهذا الجمال، ساحرة

ستنتهي بين ذراعيه

بكل مشهد ألم ممكن

وبكل تفصيلة ساحرة

ووداع راقٍ

ومحبوبها الذي بحثت عنه يشاهد

أفضل ختام ممكن!

خصرها بين يديه.. تميل معه بكل ثقة

أريحية

سعادة





ورضى!

وكأنها طاعة ما قبل الموت..

لم تقاوم ضحية جلاد!

النصل معه كان مجهزاً..

يظن العامة أنه مزيف بقصد ترويجي، وهي وهو من يعلمان أنه..

حقيقي حد الدماء

حقيقي حد الهوس

الهذيان

الخديعة!!

نظر نحوها لا يفهم..

فسلاحه مهمشاً يوازي مسرحه المزيف المغادر بعد ساعات!

لا شيء..

لا دماء ولا موت..





وعينا شهرزاده تطوف بدوامة زرقاء انفجرت

لتوها لتعود

امرأة..

لا يعرفها..

استدارت خلفه توازي تلك الموسيقى

وذهوله

لتقف هي خلفه بنصله الحقيقي..

الذي بدلته قبل لحظات

تمرر شهرزاد السكين فوق رقبة شهريار..

- تحب أخلدك في لوحة!!

****





الفصل الثامن والعشرون

هل أخبرتك من قبل أني اخترتك وطن العشق؟

وطن القلب؟

هل أخبرتك أن أحببتك حد الفتنة؟

أنتِ الفتنة

صوتك فتنة..

جسدكِ فتنة..

كلك فتنة..

هل تعلمين؟.

أنت تشبهين ليلة صيفية، وامرأة تغرق دون العالم بسبات..

لا أدرِي إن كانت أحلامك وردية..

أو رغبة هجرة نحو ممات..

لا أعلم

لا أود





ثوب زرقته.. **خطفتني**

خصلات.. أسرتني

و...

عفواً ليلتها لو اقتربت أكثر لصارت فضيحة..

"خالد"

مروة جمال

****

وبليلة لا توازي ليالي، كانت شهرزاد

وكان شهريار

هل تعرف شيئاً عن تمرد الجواري؟..

هل تدرك أن القصر بات دون سلطان؟..

هرب السلطان!

رحل السلطان!

ضاع السلطان!





والنصل اللامع نطق بعنف فوق رقبة سلطان..

خدش.. جرح..

ما الفارق؟

فالستار أُغلِق بانتصار..

واللحظة لم تمكنه التفاتة..

والصدمة تشبه اجتياح قطار!

صَمَتَ مراد.. شَدَهَ مراد..

تصفيق حاد..

وربحت شهرزاد..

وعلى ضفاف السين.. في ظلمة ما بعد منتصف الليل..

باريس هادئة..

تشبه امرأة حزينة ولكن جميلة.





ترتدي كل الأضواء وتبتاع رغيف خبز لا تنوي التهامه..

وتبتسم للفراغ رغم أنها لم تودعه بأكثر من تلك الابتسامة..

نصب عيناها أربعة مفاتيح..

اللهفة.. ما زالت وتزيد مع الهجران!

الرغبة.. باتت أفلاطونية الهوى، تتلذذ بالحرمان!

الوحشة.. أم ربما تلك الهوة التي ما إن سقطت فيها عاد هو وبمحيطه امرأة غابت عنها!!

العودة..

المفتاح الأخير.. كان هناك بطرفه المدبب وهوس كل نقطة دماء.

عاد خالد.. فعادت كارمن

رحل خالد ولكن..

يقيت كارمن!!





- بونجور مدام..

أربعيني.. قصير.. سمين.. مبهور..

استدارت وكان كثير الكلام..

العرض.. الروعة.. المفاجأة..

الصهباء الفاتنة هي حديث صحف الغد وبعد الغد..

وعرض شهرزاد يطلبه الجمهور..

وهل يقبل شهريار أن ينحر كل ليلة!!

شفتاها القرمزيتان اجتحاتهما ابتسامة غير عادية..

حتى الآن تتذكر وجه مراد

الصفرة.. النظرة القاتلة.. المتوعدة.. والخائبة!!

وجنون يطلب نحره كل مساء فوق مسرحها..

سؤال..





ماذا لو بدلنا الأدوار؟.. هل ستنحر الضحية جلادها؟!

نعم.. وبقسوة

ابتسم الرجل.. سأل:

ـ هتوافق شهرزاد؟..

وابتسمت هي..

بسيطرة أنثى تجمع بين البحر والنار:

- كارمن..

****

رحلة كانت طويلة.. موحشة

ولكن ما الفرق؟..

فهناك أناس يختارهم الهم رفيق، يأكلهم أحياء حتى تتكسر عظامهم فلا يُكمل فينتهي ويرحمهم، ولا يعتقهم





لوجه الله..

ـ اعتقني لوجه الله..

كررتها كثيراً.. توسلتها، له ولعثمان من قبل ولكن استجداءها لا شيء..

هي لا شيء..

حتى جسدها الذي تركته تحت رحمة رجل مشوه..

لا شيء..

هي كانت وستظل ليست أكثر من وسيلة!

المدينة الساحلية التي رتب قدومها لها لا تشبه الإسكندرية في شيء..

لا تحمل نفس الرائحة ولا تذكرها بصرخات أخوتها الصغار..

النساء شقروات رفيعات بأجساد لا تحمل شائبة والرجال يستقبلونهن بابتسامة فوق الوجه وقبلة فوق اليد..





- خواجات!..

كانت تتمتمها لحالها في سخرية لاذعة..

وتتحرك بخطى ثقيلة نحو رجل رمقها بنظرة تفحصية قبل أن يأمرها باتباعه..

وكان هو تابع بدوره, أحد مخلصي صبري كما فهمت..

أوصلها لغرفة صغيرة مكثت فيها أربعة أيام قبل أن يُسلمها لرجل آخر, فآخر تحت

مسمى فقيرة من بلد مجاور واحتاجت لقمة عيش..

خطة محكمة حتى تصل لوجهتها دون أن احتمال ولو طفيف يربطها بصبري نهائياً..

حتى الرجل الذي استقبلها من قبل لم ترى وجهه بعد ذلك..

وصلت لامرأة سمراء, حنونة الملامح سألتها بنبرة مُشفقة:





- ايه اللي جابك تشتغلي في آخر الدنيا هنا يا بنتي؟!

كانت فاتن قد فوجئت بتلك الصغيرة المتلعثمة وتوصية من شخص طيب دفعها نحو الفندق الشهير لتساعدها هي أو غيرها..

أي شيء فالفتاة يائسة نحو عمل..

رفضها الفندق بالفعل، وبكت ساعتها بكاءً مريراً، ليس من أجل الوظيفة الوهمية بل هذا الإحساس الموجع بالقهر

العجز..

أن تشبه الدنيا في دنوها فتوقن أنك لا شيء!

ربتت فاتن فوق كتفها بتنهيدة فمسحت عبراتها بقسوة:

- شكراً يا خالة.. شكل ما فيش نصيب





صمتت فاتن لوهلة بتردد قبل أن ترمقها بتفحص:

ـ أنتِ هربانة من حاجة؟

حركت عينيها المتسعتين لتقول بصدق:

ـ جحيم جوز أمي.

لوت فاتن شفتيها في حسرة:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

وبسمة تكرر بصدق ثانٍ:

ـ شيطان.

وبكت وقامت وشكرتها لترحل..

تابعت فاتن الحائرة خطواتها الضعيفة حتى أوقفتها بنداء حاد:

ـ استني.. شوفي يا بنتي المثل بيقول اعمل الخير وارميه البحر، والمصطفى عليه الصلاة والسلام بيقول "من فرج عن مؤمن كربة





من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة"

رمقت بسمة بأمل غامض وجهها الذي بدا مضيئاً بتلك اللحظة لتكرر بعفوية:

ـ عليه الصلاة والسلام

تابعت فاتن:

ـ أنا عندي ليكي شغل.. ناس طيبيين قوي ومحتاجين حد هادي كده يساعدهم في الشغل على المركب.

لمعت عيناها بلهفة..

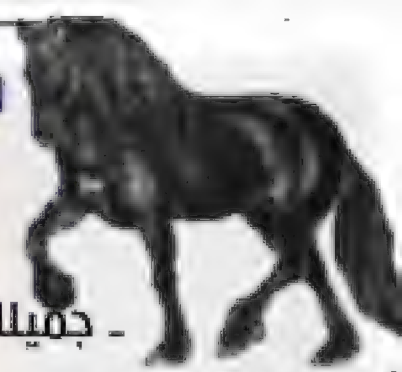
كما أخبرها صبري..

كما كرر الشيطان..

ستساعدها العجوز السمراء برقة القلب وسلامة النوايا!!

خرجت حشرجة صوتها ضعيفة:





ـ جميلك على راسي من فوق.

وابتسمت وأخبرتها فاتن أن ابتسامتها جميلة بل أنها فتاة جميلة وأنها تذكرها بشبابها.. بتلك السُمرة التي استحوذت على نصف الجمال..

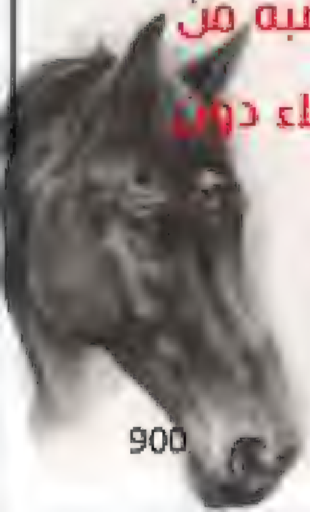
وضحكت فاتن ضحكة لطفت الأجواء ثم أعطتها كوباً ساخناً من الشاي لتربت على ظهرها بحنان أم متابعة:

ـ اشربي الشاي وافطري معايا.. وهنروح عند حبيبة قلبي من جوه وأول ما تشوفيها هتحبيها زيي بالضبط.

رجفة بسيطة اجتاحتها..

هي تتحدث عن تلك المرأة, تلك التي يخطط لها صبري بشاعة انتقام..

يهذي باسمها وآخر مع توعد وسباب..
ويأن جسدها هي تحت وطأة غضبه من أناس لا تعرفهم لتكفر ذنب هؤلاء دون ذنب!!





تصلبت قبضتها على الكوب الساخن وتلونت ملامحها بصبغة حقد أسقته لها لعنة الدميم لتستفيق على صوت فاتن التي انشغلت بطحينها وخبيزها وهي تُكمل:

- هوديكي عند ليلى..

****

في جميع قصص الحب يخبرونك أن الزواج هو النهاية السعيدة..

وهناك فقط من يكتفي بكلمة النهاية..

المساء، الزفاف.. والقبلة!

ولكن لا توجد بأي عالم نهاية مغلقة حتى وإن كان افتراضي..

فالنهاية هي بداية أخرى نحو شيء أكبر وربما أكثر جدلاً..

وقالوا أن الزواج هو نهاية الرجل وبداية المرأة..



فهو يودع مغامراته ونزواته ويغامر بحريته من أجل اشتياق نحو امرأة واحدة.. والمرأة تختبر تفاصيل غريبة عليها مع رجل غريب..

فعليها أن تعتاد لمسته.. نبرة صوته..

وأن تودع خجلها أمامه فهو بشكل ما أصبح كل شيء ويريد كل شيء.

وبصباح ما.. خرجت من دورة المياه صارخة بعد محاولة فاشلة لأخذ حمام صباحي..

صرصور أم ربما شيء طائر آخر هي لم تفكر..

فقط جذبت منشفة صغيرة لتهرع حتى قبل أن تحكم اغلاقها..

وضحك حد الدمع وطرد الصرصور شر طردة بعد أن شكره بحرارة على تلك اللفتة الصباحية الكريمة.

وبعد وقت كانا يتناولان الإفطار..





بعض الشطائر مع كوبين من الشاي بالحليب..

ابتسم وهو يقرب فمه من شطريتها ليأخذ قضمة تلو أخرى فتذمرت لتبعدها بمشاكسة:

- هتجري ورايا

فهمس هو بحرارة:

- أكتر من كده!!

هل أخبروه من قبل أن هناك امرأة يدخرها له القدر ستهديه تلك سعادة؟..

لو أخبروه ما اقترب من إيناس..

ما مقت خالد وما استسلم لكارمن وما أحرق المزرعة، بل كان قد وفر كل جهده ليحرق من أجل عينيها الأخضر واليابس..





ليس عينيها فقط.. بل تلك الخصلة النافرة فوق مقدمة وجهها وشفتيها الورديتين وباطن ساقها الشبيه بسطح البلور..

من قال أن الزواج نهاية الرجل؟!

هو بدوره يعيش معها تفاصيل

تفاصيل خاصة جداً..

وأخرجه صوتها من دوامة أفكاره:

ـ الساعة 8 اتأخرنا..

وكانت محققة.. ونشيطة ومنفعلة حد البهجة, حتى أنه طلب قبلة ليتركها لترتدي ملابسها فأهدته الكثير..

واحدة واثنان وعشرة!

وليس أكثر..

فهي كانت في لهفة نحو شيء آخر..

البحر





القارب

منصور..

أبوها الذي تستشعر روحه مع كل قطعة بهذا المركب..

يداها اللتان ارتجفتا على عجلة القيادة..

ابتسامة حمزه وتشجيعه المشاكس وبأعلى صوت ممكن:

- يلا يا كابتن.. هنمشي بسرعة النملة ولا إيه!

والنبرة كانت خشنة.. قاسية!

والابتسامة تلتها في مكر يخبرها سأدلك فيما بعد..

وضحكت غير مصدقة ولولا ظهور فوج بقيادة شقراء شمطاء لاكتملت الضحكة..

تحييه بحرارة وترتدي بيكيني ساخن بلون المشمش وترقص دون موسيقى وابتسم هو بأريحية ثم توجه لتحية باقي الفوج والاطمئنان على معداته.





يستدير نحوها.. ينادي.. بزعيق آخر وكأنها لا تسمعه..

لا تراه وتلك الملتصقة به وكأنه لم يتزوج

- يلا يا ليلى.. نتحرك بقى

واستدار ليكمل عمله ويحادث تلك الـ"إلجا" بكل بساطة بل يضحك على شيء ما أخبرته به في أريحية تامة

تغار؟؟..

لا..

لن تغار..

بالطبع لا تغار

بل تغار.

عدلت خصلاتها.. وقطبت حاجبيها لتهمس بتوعد وهي تزيد من سرعتها:

- ماشي.. هوريك يا حمزه.





وقبل أن يتحرك القارب ظهرت أخرى..

سمراء..

تتعثر في ثياب متواضعة وتتبع المرأة الطيبة في سكون..

تغاضت ليلى عن كل شيء وتوجهت نحو فاتن باحتضان قوي:

- وحشتيني..

- وحشتيني يا أجمل عروسة..

وبعد هذا, الكلمات مقتضبة وكان حمزه يراقب من وسط جمعه لا يفهم..

ما سر تلك الفتاة العائدة مع زوجته؟.. وماذا أخبرتها فاتن؟؟

بل ربما منصور من قبل ماذا علمها!

"اعمل الخير وارميه البحر"





وكان خيراً في غير محله!!

****

ألحت عليها رقية كثيراً في البقاء ولكنها لم تحتمل..

لا تعرف هل ما تشعر بها هو مجرد إجهاد جسدي وارد لمن مثلها من الحوامل أم هو إجهاد نفسي اقتات عليها من كثرة الأفكار؟..

لقد حادثها مرتين منذ أن صرخت بوجهه محذرة بالهاتف..

كان سريعاً وغامضاً ولم يخبرها بأي تفاصيل، فقط يكرر أن الأمور ستكون بخير وأنه بصدد العودة..

متى؟..

لم يحدد

سألته عن كارمن..

لم يخبرها أي تفاصيل





بعد أن اطفئوا شمعات الصغير خالد وانشغل الأطفال بالحلوى والهدايا اعتذرت من رقية لترحل تاركة الصغيرة تميمة لتمرح مع الأولاد وطمأنتها رقية أنها ستعيدها بنفسها بعد الحفل.

تشعر أن الصداع لم يغادرها منذ الأمس وارتشفت قهوة داكنة رغم أنها تؤلم معدتها مع الحمل وشعرت بضيق أنفاسها فخرجت نحو الحديقة تستنشق بعض الهواء..

حسناً.. لا ترتدي الأزرق!

دخل بعد ساعات سفر طويلة ولم يكن يتوقع وجودها بالمنزل فهو يعلم أن الليلة حفلة عيد مولد خالد..

كان ينوي أن يفاجئها هي وتميمة عند عودتهما خاصة أنه ابتاع لتميمة





مجموعة هائلة من تلك العرائس الصغيرة التي تفضلها..

وهي..

ها هي الآن توليه ظهرها مرتدية ثوباً قصيراً يصل حتى منتصف فخديها بلون كريمي هادئ لا يزينه شيء سوى وردات بنية لامعة في نصفه العلوي ويتطاير قماشه الانسيابي برقة تشبهها مع كل نسمة هواء قاسية..

يتطاير بقسوة لن يحتملها هو..

لقد افتقدها حقاً ويعلم أنه أقلقها وأثار غضبها ولكن لم يشأ أن يشتت عقلها بتفاصيل هو نفسه لم يستوعب جميعها حتى الآن..

ولكن تبقى النهاية هي الأكثر منطقية..

كارمن أغلقت الدائرة مثله..

والأكثر جنوناً..

كارمن ما زالت متمسكه بعشقه!!





حسناً سيتغاضى عن الجزء الثاني من تلك النهاية وإلا ستمزقه إرباً صاحبة البندق!..

ابتسم بمكر يقترب وكانت هي تتنهد بصوت مسموع عندما هاجمتها نبرته خشنة:

ـ أنتِ حلوة كده بسبب الحمل ولا بسبب السفر!

مع صوته استدارت فجأة ورغم أن عينيها كانت مترقرقة بالدموع إلا أنها كانت تبدو خلّابة بمعنى الكلمة..

شعرها تناثر حول وجهها وبشرتها صافية بحمرة اجتاحتها بثورة حضوره، شفتيها هادئتين بلونهما الطبيعي دون أي حمرة وأنفاسها سريعة..

سريعة جداً..

قريبة جداً..





لقد اندفعت نحوه في لحظة تحتضنه بقوة

اشتاقته..

تهمس..

تلومه..

تبكي..

وتضرب كتفيه:

- مش مسامحاك يا خالد رضوان.. مش مسامحاك أبداً!

ملس بقبضته فوق رأسها ليبتسم بعدها بشقاوة:

- ليه بس؟.. منا وصلت سليم أهو!!

ابتعدت عنه لحظة ترمقه بغيظ..

عيناها تلمع بنقاء عسلي مُهلك ولم يكن هو مبتسماً ولا ساخراً ولا مشاكساً بل..

لم يكن لديها وقت للتفكير..





اجتاح شفتيها في لحظة شوق..

لحظة عشق..

لحظة احتياج..

سرقت أنفاسها من وسط شغفه وارتجفت شفتيها:

- ما تبعدش تاني.

كانت قبضتاه تحيط بوجهها في تملك لا يمنحها فرصة للابتعاد..

همس فوق شفتيها بصوت أجش:

- وحشتيني..

ثم جذبها بقبلة أخرى.. ربما أكثر قسوة..

ربما يودع ماضي استدعته كارمن في الأيام الفائتة..

ظُلمة يودها أن تنقشع..





باس يتغذى عليه قبل أي أحد آخر..

نكهة لاذعة سينهي عليها بمذاقه المفضل من البندق.

أحاطت رقبته بذراعيها..

همست بحبه.. همست لتعطي.. لتمنح..

لتغدق بحنان امرأة تفهم بفطرة ناعمة معنى الإحتواء.

****

واحد.. اثنان.. ثلاثة

وشمع ينطفأ.. تصفيق حاد.. تهنئة.. وقُبلة فوق الخد..

كان يمسك بالكاميرا الرقمية ويقف أمامهما لالتقاط صورة تذكارية..

خالد يبتسم أمام كعكته التي أعدتها له أمه خصيصاً وعلى شكل جيتار!!





لقد أخذت منها الكثير من الجهد بل أنها تعد لهم نموج مصغر منها منذ ثلاث أشهر حتى وصلت أخيراً لتلك النتيجة المرضية..

تميمة كانت تبدو رقيقة كعادتها مثل قطعة حلوى بفستانها الوردي الذي ابتاعته لها إيناس خصيصاً في تلك المناسبة..

ومحمود.. محمود كان يقف منزوياً على جانب الصورة يرمق خالد وفرحته بنظرة ضائعة!

أم ربما متمنية.. ولكن هو لا يتمنى كعكة ولا حفل..

بل أمومة.

وضع حسن الكاميرا فوق الطاولة وآثر أن يترك كل شيء وينفرد بجلسة تدخين..

لم يعد له طاقة بمهاجمة رقية من جديد، عراك آخر يقطع أنفاسه من أجل مساواة هي غير قادرة على تقديمها..





زفر بضيق وهو يستدير لمراقبة الحفل من بعيد، كل شيء مرتب.. مثالي لأقصى درجة..

حقاً رقية هي الأم المثالية ولكن فقط لخالد.

بعد حوالي ساعتين كان الجميع قد غادروا إلى منازلهم..

تميمة غفت على إحدى الأرائك تراقب التلفاز ودخل خالد لغرفته لترتيب ألعابه وهداياه

الثمينة التي حصل عليها الليلة، أما محمود فقد وقف يراقب النافذة ثم دخل الغرفة بعد أن طلب منه أخوه مساعدته..

رمق ابنه الأكبر بصمت ثم انتبه لصوت رقية وهي تقول بنبرة هادئة:

ـ حسن.. تميمة نامت.. أخليها تبات هنا ولا أوديها نايمة لمامتها؟

فرك جبهته ثم جذب حبة مسكن من أجل صداع حاد ليتجرع خلفها المياه وهو يقول بلا مبالاة:





- أي حاجة يا رقية.. كلمي مامتها وشوفي..

ملست برقة فوق شعر الصغيرة وتابعت:

- هاشوف إيناس..

ثم همست جانب أذنها بنبرة مبتهجة:

- يا ترى يا تميمة هيجيلك أخت سكرة زيك كده ولا أخ عفريت يطلع عينك!

نظر نحوها بغموض ليردف هو بنبرة قاسية:

- وأنت يا رقية.. مش عايزة أخ لخالد؟

خطف بصرها..

استقامت تنظر نحوه بحزن، لتتابع بصوت انقلبت ملامحه تماماً:

- ما أنت عارف إنه مش بالساهل.

وحينها استقام هو ليجيب بنبرة أكثر حدة:





ـ أنت عارفة إن خالد فعلاً عنده أخ يا رقية!

وحينها قطع حديثهما صوت ارتطام قوي ثم صرخة..

انطلقت تتعثر في الأثاث لتجد خالد ممدداً على الأرض وبجانبه رفان خشبيان قد سقطا بما يحملا من ألعاب فوق أرضية الغرفة..

تناثرت الأشياء حول الصغير وكان هو يمسك رأسه في بكاء يذيب القلب..

شهقت رقية بحدة لتنزل على ركبيتها ثم عدلت من جسد خالد لتطمئن عليه ثم توجهت بنظرها نحو محمود الواقف بأحد الجوانب في صمت لتصرخ دون وعي:

ـ ليه كده يا محمود؟!..

وحينها فقط خرجت صرخة أقوى:

ـ رقية!!

كان حسن قد وصل خلفها..





الألعاب على ما يبدو قد تكسرت تماماً وكان من الواضح أن الرفوف الخشبية سقطت بما عليها..

أما كيف حدث الأمر لا أحد يعلم!!

فخالد يبكي ومحمود صامت وكرسي خشبي صغير كان يقف خالد فوقه ملقى بجانب الفوضى..

استدار حسن نحو محمود لينطق بغضب مكتوم:

ـ حصل ايه يا محمود؟.. هو وقع إزاي؟

غضب مكتوم..

ليس على ابنه وربما ليس على رقية بقدر ما هو غضب على ما يحدث..

سيظل هكذا دوماً محمود هو المتهم الأول حتى وإن كان السبب حاجز خشبي غير متزن..





ومحمود لا يجيب..

صامت تماماً كما الصخر وكأنه يشجع كل اتهام!

- انطق.. هو وقع ازاي؟

وكان سؤال حسن الثاني أكثر حدة, ليجيبه الصغير بكل هدوء وبكل تحدي ممكن:

- أنا اللي وقعته!.

واحد.. اثنان.. ثلاثة

انطفأت الشمعات, وتكسرت الهدايا..

تصفيق حاد ولكن ليس لأحد.

فليس لدينا مذنب!

كان يثق أن محمود لم يفعلها ويستشيط غضباً لاعترافه..

أم ربما لتلك الابتسامة الساخرة التي رمقه بها هو ورقية قبل أن يتوجه للنوم..





لتلك النظرة الحاقدة نحو أخيه..

لهذا الاعتراف الغير مبال..

لهذا الاعتياد الغامض على الحرمان.

الساعة تدق.. دقيقة.. اثنان.. ثلاثة..

الثانية عشر مساءً..

ودقات باب بأسوء توقيت ممكن أن يحدث

أم ربما الأفضل..

توجه نحو الزائر الغامض ليفرك جبهته من جديد مع صداع غير منتهي..

وهي تبدو كما كانت..

حقود النظرة بملابس ربما أكثر ثمناً وحلي ارتدت جميعه عن قصد ونبرة راضية جداً تنطق اسمه

- إزيك يا حسن!

وهو يواجهها بصوت مشدوه تماماً

- سهام!!





الفصل التاسع والعشرون

هو غاضب.. وهي أيضاً..

هو ثائر! وهي أيضاً!!..

هو يتجاهلها.. حسناً..

وهي أيضاً..

كانت تقف في المطبخ وقد ولته ظهرها..

تعد طبقاً من المعكرونة بالتونة وتسكب بعضاً من عصير البرتقال..

شعرت بأنفاسه المغتاظة خلفها مع برطمة هامسة لم تستوعب منها شيئاً.

ثم صوت قرقعة..

كوب فآخر..

هو هكذا حينما يغضب..





ينتقل بعنف بين كل الأكواب ويُخرج من خزانة المطبخ أربعة عشر طبقاً وسبع ملاعق من أجل إعداد كوب شاي!!

وكان بالفعل يُعد الشاي وأسود دون حليب وكأنه يخبرها أنه لن يتناول طعامه.

لم تبالي..

أعدت لنفسها وجبة وقبل أن تستدير سمعت صوته متهكماً:

ـ ليلى.. هو كتاب أبلة نظيرة بتاعك ما فيهوش غير صفحة التونة!!

فاستدارت له ودفعت الطبق نحو صدره مما أجبره على إمساكه وقد ردّت بحدة:

ـ إذا كان عاجبك!!

وتركته لتخرج..

لقد أعطته الطعام! ففي النهاية لن تحتمل نومه دون عشاء..





قذف بملعقة طعام نحو فمه يمضغها بغيظ فأخرى وأخرى، ولاحظ أنها لم تأكل وتوجهت لغرفة النوم، زعق يناديها:

- ليلى.. مش هتاكلي؟

- لا.

وكانت حادة وغاضبة..

زفر هو بغيظ كتمه على مدى الساعات السابقة..

هكذا تأتي لها فاتن بفتاة غريبة وتقرر في لحظة أن توظفها دون أن تسأله..

وحينما اعترض غضبت وتركته دون أن تكمل حديثهما..

أغمض عينيه يستدعي بعض الهدوء قبل أن يتابع:

- ليلى.. تعالي عايزين نتكلم.

خرجت وقد بدت وجنتيها في توهج ليس من الغزل بل من الغيظ..





والنبرة كان غيظ:

ـ ما فيش كلام يا حمزه!

رفع حاجبيه في دهشة وقد التمعت عيناه بشراسة:

ـ يعني ايه ما فيش كلام؟!

لتجيب هي بعناد لا يبالي:

ـ يعني كل واحد بيعمل اللي هو عايزة!

من قال أن الجنون امتلك النساء..

صادق!

رفع قبضتيه في يأس وقد أصابت نبرته بحّة:

ـ هو في إيه؟.. ضاربة البوز من الصبح ليه؟!

ضمت هي قبضتيها تستجمع شتات نفسها قبل أن تتابع بغيظ مكتوم:

ـ بوز!!... سيبنا الضحك للست إلجا!

وحينها توسعت في شفتيه ابتسامة..

انتفاخ..





نظرية الغضنفر!!

قوة ليث تعشقها النساء..

ولم تكتمل ابتسامته حيث أنها انفجرت بجنون أكثر وهي تزعق داخل الغرفة مع تجول عشوائي لم يفهم ماهيته..

- لعلمك أنا مش بغير.. بس المفروض حضرتك تراعي الست اللي معاك.. بس ازاي!.. **ازاي يعني تراعي يا انترناشونال!!!**

وكانت تضغط بأسنانها على كل حرف ستدمر مستقبله في لحظة طيش لا محالة

همس هو بنبرة أكثر حنواً:

- ليلى اهدي بس..

وسادة!!

شراشف!!!

حمزه سيقضي ليلته على الأريكة..

وقبل أن ينفجر بها بكل غضب ممكن كانت قد أغلقت الباب..





نظر لوسادته وفراشه الجديد وقد ارتسمت فوق شفتيه ابتسامة يائسة

تغار ليلى..

تتمرد ليلى..

****

- إزيك يا حسن..

لا الشكل اختلف ولا النبرة اختلفت..

سهام كما هي ستظل تطل عليه برأس أفعى حقود تتشبث بدور المغدورة..

كانت ترتدي على ما يبدو جميع حليها.. تحرص على ظهور بضعة خصلات مصبوغة من خلف وشاحها المزركش وتمسك بيُمناها جوال أنيق مواكب لآخر صيحة..

تزوجت سهام ومن رجلٍ يفوقه ثراءً على ما يبدو..

صيد ثمين من أجله استغنت عن كل شيء حتى ابنها.





رمقها بنظرة فوقية قبل أن تتحرك شفتيه بجفاء مقصود:

ـ عايزة إيه يا سهام؟

ابتسمت باستهزاء قبل أن تتوجه من نفسها لأقرب مقعد وقد جلست بأريحية ترمق المكان باستهانة:

ـ ده برضه استقبالك لأم ابنك!!.. ولا ده المغضوب عليه؟

وجملتها الأخيرة كانت عالية النبرة.. تحمل ضغينة سنوات لم تنطفأ..

تركها حسن..

تركها من أجل المرأة التي امتلكته قبلها ومنذ زمن..

حتى وجود محمود لم يشفع!

رفعت رأسها في عجرفة:

ـ عايزة ابني.





لوى هو شفتيه بسخرية:

ـ جاية نص الليل تسألي على ابنك!!

وحينها بدا صوتها متجبراً برنة أعلى وهي تجيبه في صيغة آمرة:

ـ أنا أشوف ابني وقت ما أنا عايزة.

لتحمر عيناه في غضب يتذرع على بابه منذ وقت ونبرته كانت أكثر حدة وبصوت جهوري صارم:

ـ وطي صوتك.

ضيقت عينيها في لؤم وبفحيح أفعى حقود:

ـ أمرك يا سي حسن!

ثم ابتسمت وهي تقترب منه متابعة:

ـ مش كنت زمان بقولك كده ولا نسيت؟..

ابتعد عنها وقد أخرج سيجارة نفث دخانها في عصبية واضحة:

ـ عايزة ايه يا سهام؟

جاوبت بهدوء ماكر:





ـ قلتلك عايزة ابني.

رفع حاجبية مستهزئاً:

ـ وحشك ابنك دلوقتِ ونص الليل!!

وحينها بدا صوتها ثقيلاً ولكنه صارماً.. صارماً حد المعاندة:

ـ لا يا حسن.. أنا عايزة ابني على طول.

****

كان الوقت ما زال مبكراً، السادسة صباحاً على ما يبدو..

غثيانها الصباحي لا يهننها بنعاس..

تتركه في سباته وتطمئن على تميمة في فراشها ثم تتوجه للمبرد كي تمضغ شريحة من الجبن مع كوب من عصير البرتقال.

وصفة رقية التي تريحها بشكل مؤقت في ساعات الصباح..

رقية





منذ زيارة تلك المرأة سهام وانقلب حالها..

أصبحت شاردة على الدوام تتعامل مع الأطفال في تيه يواكب نظراتها المتواصلة نحو حسن

حسن الذي على ما يبدو اتخذ قراره وقرر أن يُحمِّل رقية توابعه..

سألتها ذات مرة:

- أنتِ عايزاه يمشي؟

وحينها ابتسمت رقية وهي تنظر نحو شرائح ليمون أعدتها لتوها:

- حسن بيحب الشاي بشريحة ليمون واحدة!

ولم تفهم إيناس فكررت رقية بنبرة ساخرة:

- حسن عايزه يمشي!

قاطعتها إيناس في رفض:

- رقية!

وحينها ابتسمت بلذوعة:





- حسن بيحب يريح نفسه.

وهمست إيناس مُقتربة منها:

- وأنتِ؟

وحينها استدارت رقية بعبرات متجمدة:

- أنا تعبت.

ثم أكملت وهي تحرك رأسها في نفي ويأس:

- حسن بيهاجمني بسبب ومن غير سبب.. والولد مش متقبلني وأنا مش حاقدر أديله أكثر من كده.

ثم فركت جبهتها وكأنها تحدث حالها.. بل تبرر:

- جايز لما يعيش مع أمه نفسيته تبقى أحسن.. في النهاية هي أمه.

نعم قررت رقية ربما مثل حسن..

اختارت راحتها..





ارتشفت ما تبقى من البرتقال وهي تتنهد في حسرة

تشعر بالآسى من أجل هذا الطفل الذي يدفع ثمن أشياء لا يفهمها..

صوته الخشن جاورها فجأة وهو يرمق كعادته شروق الشمس بجانبها:

- خلاص هيمشوه؟

كان خالد هو الوحيد الذي يرفض بحدة رحيل محمود..

حتى أنه تعارك مع حسن أول أمس بسبب تلك المشكلة.. هي تشعر بالألم داخله

تعرف أنه يرى نفسه بمحمود..

ويرى رجل آخر مختار

همست تطمئنه:

- ممكن سهام اتغيرت.. حنانها..





قاطعها بغضب:

- حنانها!!

اقتربت منه وقد التمعت عيناها بحنان:

- هي أمه يا خالد.

ضم حاجبيه وقد غامت عيناه في ضوء الشمس:

- مش كل ست ينفع تبقى أم.

وقبل أن تقول هي شيئاً آخر ختم هو حديثه بزفرة يائسة:

- حسن هيندم.. كلنا هنندم على القرار ده.

وتركها ليوم عمل آخر..

وعلى بعد أمتار كان هناك طفلاً آخر أمروه من جديد أن يعد الحقيبة.

****





الواقع اكتسح الخيال!

عن أشياء لم تظن أن لها وجود سوى بعالم السينما..

عن حب لم تظن أن له وجود سوى بعالم السينما..

عن رجال لم تظن أن لهم وجود سوى بعالم السينما.

عندما رأته تصلبت قدماها ورغم أنه لم يعطها نظرة ترحيبية إلا أن النظرة منه بكل صورها تكفي أياً كانت!

وضحكت بعقلها ساخرة متذكرة مُزحة من صديقة سابقة كانت تكررها بشأن الرجال

"فاضله اتنين فولت وينور"

ورغم برونزية جسده الطاغية إلا أن المقولة تنطبق عليه تماماً..

ـ بسمة؟؟؟





صوت ليلى الرقيق أخرجها من دوامة أفكارها..

اليوم هو الثامن لها على سطح مركب منصور..

بكل أريحية استقبلتها ليلى.. بكل ثقة استقبلتها ليلى!

وفرت لها عملاً بسيطاً على سطح المركب يتمثل في التنظيف ومساعدة الضيوف، بل وتطوعت أن تبحث لها على مسكن ولكنها أخبرتها أنها استأجرت غرفة بالفعل. ليلى فتاة جميلة..

رقيقة تشبه الورود وصادقة العينين بشكل نادر، ربما لو قابلتها في ظروف مختلفة لأحبتها، ولكن..

تنتابها مشاعر غريبة حيالها تزيد وتزيد مع كل دقيقة بهذا المكان.

كراهية؟..





حقد؟!

لا تعلم..

كل ما تعلمه أن تلك المرأة نالت من الدنيا

كل ما تتمناه هي..

بل أكثر!

هذا العشق المتمثل في عيني رجل مكانه
عالم خيالي..

نعم حمزه هذا يجب أن يعود إلى الخيال
رحمة بالواقع.

لقد أنقذها.. كان هناك من أجلها..

أحرقه لأجلها!

ذكرى الشيطان واكبت مروره من أمامها،
كان قد خرج لتوه من المياة مع مجموعة
السائحين..

نصف مبلل يمسك بالمنشفة مجففاً قطرات
المياه المتساقطة من خصلاته وكعادته
تبحث عيناه عنها..

عن ليلاه





تراه بل تراقب تلك التفاصيل الخاصة المكررة بينهما..

يهمس في أذنها بشيء ما فتتورد وجنتيها..

يحضر لها طبقها الخاص من الطعام كلما نسيت أن تأكل..

يجاورها كلما استطاع رغم أنه وقت عمله، يترك كل شيء ويلتقط لها صورة بعدسته الخاصة..

هي تمتلكه بشكل غريب.. هذا كله غريب!

حتى أنه حينما فقد أعصابه وزعق فيها ذات صباح أمام الجميع صالحها بقبلة أمام الجميع!..

وهذا مغيظ





ضاقت عيناها في حقد وحين رفعتها نحوه من جديد وجدت عينيه.. كانت تنظر نحوها تلك اللحظة..

عيناه تخترقها.. تتجاوز كل حصونها وتتخطى كل درع واقٍ اتخذته لتنفذ تلك المهمة على أحسن وجه..

هو يشك بأمرها..

تعارك مع ليلى بسببها مرتين..

ووفر لها عملاً بديلاً لترحل.

نعم لقد سمعته بالأمس قالها بالحرف

"مش عايز حد غريب على المركب يا ليلى"

وذات الحظ جاوبته..

"دي بنت غلبانة"

تدافع عنها..

وهي تخطط منذ اليوم الأول على نهايتها

لا ليست نهاية..





زجرت نفسها..

زجرت تلك العاطفة التي لا مكان لها بعالم الأقوياء

صبري يريد ليلى..

الشيطان سيكسر حمزه

وفي غمرة الجنون قد يقتله.

آلمتها الفكرة..

ليست ليلى..

بل هو!

ولكن لا..

العالم لا يحتمل وجود هؤلاء الرجال..

العالم الحقيقي هو صبري وعتمان ومن على شاكلته..

توترت ملامحها..

تصلبت وتشنجت وبدا السواد طاغياً نظرتها..





ترمقه وقد رحل نحوها

يدلل.. يهمس.. ويبث عشقاً لا ينتهي

فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم.. غداً ستنفذ.

والغد كان اختياراً جاء على طبق من فضة، بل ذهب..

الكابتن سيخرج في مهمة عمل وحيد دون القارب وليلى..

وليلى قررت أن تدلل بدورها..

طاجن لحم بالبطاطس

لقد أخذت من فاتن وصفتها الخاصة وها هي تقف متعرقة أمام الفرن تجتهد لأجله..

تتمتم

"ماشي يا حمزه"

وتبتسم..





فقد عاقبته بما فيه الكفاية..

وترمق نفسها بالمرآة..

سروال بيتي يصل حتى منتصف ركبتيها وبلوزة قطنية واسعة بصورة مضحكة لوجه باسم وخصلات مربوطة في عقدة قصيرة لما يشبه ذيل حصان!!

حسناً أمينة نفسها تبدو جانبها الآن مارلين مونرو..

وبذكر مارلين مونرو ابتسمت بخجل وهي تفتح خزانتها لتُخرج ما يشبه غلالة.. أغمضت عينيها في يأس لتعض فوق شفتيها غير مصدقة ما تنتويه..

ثم أغلقت الخزانة مع طرقات الباب..

فقد وصلت بسمة

الأمر لم يتطلب أكثر من مكالمة هاتفية منتصف ليل البارحة..





شعرت بإثارة خفية في صوته وهي تخبره أن الموعد حان..

ثاره..

جشعه..

بأسه..

المسميات ليس لها مكان بالصورة الآن..

الصورة رتبها صبري بالفعل وبسمة آداة التنفيذ، ستستدرجها لمنزلها ويتكفل هو بالباقي

والباقي وازى ابتسامة شيطانية ارتسمت على وجهه..

الباقي والممكن والمتاح والقادم بكل صوره سيرضيه خاصة فيما يخص النهاية..

بالنار.. بالدماء

لا يهم





سيترك لحمزه التحديد ولنفسه التنفيذ..

ثم توحشت عيناه بقسوة وهي يتصور المشهد الأهم..

وقتما يستدعيه ليراها بين أحضانه..

وقتما يثأر بحق..

وقتما يستغل جنونه.. ثورته.. هذيانه

وحينها فقط سيرسم النهاية.

****

رفعت عينيها لتجد ليلى بأبسط صورة ممكنة وخيالها يرسم أسوأها..

لا تصدق أنها ستسلمها إليه بعد ساعة على الأكثر

تُسلمها وتتصور تماماً السيناريو الكريه بتفاصيله..

وابتسمت ليلى وقدمت لها كوباً من الليمون المثلج ووعدتها بالمساعدة





ألم تتوسل لها بالأمس أن تبقيها معها بالعمل..

ألا تتركها لتعمل مع غرباء..

ألم تهدئها ليلى وتعدها وتستقبلها بمنزلها بكل ودّ.

- خلاص يا بسمة ما تخافيش.. أنا هاكلم حمزه.

قالتها ليلى مطمئنة لتزم هي شفتيها وترفع عينيها بعبرات متجمدة:

- الأستاذ حمزه ما بيرتحليش.

ضمت ليلى حاجبيها نافية:

- ما تقوليش كده

لتبتسم بسمة بأسى:

- عادي يا ست ليلى.. أنا اتعودت على البهدلة.





اقتربت ليلى منها لتحتضن كفها الصغير بحنو متابعة:

ـ سيبيها لله.

صمتت بسمة سارحة لوهلة قبل أن تكرر:

ـ ونعم بالله.

ثم أخذت نفساً عميقاً لتتجول بنظرها في الشقة رافضة تلك الأفكار التي اقتحمت عقلها فجأة..

الأفكار الطيبة..

نطقت مُسرعة وهي تشمر عن ساعديها:

ـ تحبي أساعدك في إيه يا ست ليلى؟

لتضحك ليلى وتنهض بعفوية وهي متوجهة للمطبخ:

ـ تساعديني ايه يا بنتي!.. اقعدي هاعمل شاي بلبن نشرب سوا, أصلاً أنا عملت الأكل بمجهودي.





ابتسمت بسمة وهي تراقب العروس الصغيرة تتوجه كل دقائق لتطمئن على طعامها بحماس وتُعد لها مشروباً وكعكاً وكأنها صديقة!!

تُحادثها وكأنها صديقة.. عن أشياء عدة..

عن قاربها وعن منصور..

رجل رحل عن عالم الأحياء وعشقه يلتمع بعينيها مع كل ذكرى، قالت لها:

ـ شكله كان راجل طيب.

نظرت ليلى نحو النافذة بشرود لتُكمل:

ـ كان شبه البحر.. ما يجيش منه غير كل خير.

ضحكت بسمة بسخرية:

ـ وهو البحر ما بيجبش غير الخير يا ست ليلى؟!

وحينها أجابت ليلى بتوكيد:





- أيوة يا بسمة.. الشر ده في النفوس ليه نظلم البحر؟!

وحينها شردت بسمة فيما اختبرته هي من شرور.. عتمان.. صبري..

ألم يكونوا جود البحر!

فنطقت في سخط:

- بيجيب بلاوي يا ست.

شردت ليلى قليلاً لا تفهم..

ترتشف قدحاً ساخناً أعدته بنفسها ويحتوي حبة منوم دسته لها بسمة بمهارة..

بسمة التي استرسلت تكرر بغضب مكبوت:

- عتمان.. صــ...

تقطع لسانها وتُكمل في سرها

"مش كل بحار حمزه"

سألتها ليلى:





- مين عتمان؟

فأردفت بسمة بلذوعة:

- جوز أمي.

لتستنبط ليلى ببراءة:

- ما كانش حنين؟.

وتسخر بسمة أكثر:

- كان حنين قوي!.. حنين زيادة عن اللزوم!!

بدأت ليلى تشعر بشبه دوار..

فوضعت القدح بيد مرتعشة تكمل وهي تفرك جبهتها:

- بسمة.. ما تزعليش..

رفعت بسمة وجهها لا تفهم وليلى تجاهد من هذا التيه الغريب الذي أصابها:

- أنا مش هسيبك.. أنا لما احتجت ناس كتير وقفت جنبي وأنا هاقف جنبك يا بسمة.

وبسمة تنظر نحوها بتيه أكبر..

تيه يرفض تلك المساعدة..





تلك النوايا الصافية.

تابعت ليلى بشبه همس:

- منصور كان بيقول اعمل الخير وارميه البحر.. والبحر بيرد الخير يا بسمة..

تمتمت بسمة في شرود حزين:

- اليتم وحش يا ست.

فابتسمت ليلى في حنو:

- ما حدش هيأذيكي تاني لا عتمان ولا غيره.. أوعدك.

اقتربت منها بسمة بوجه جامد وهي ترقب غيابها المتدرج عن الوعي:

- ما توعديش بحاجة أنت مش قدها يا ست ليلى.

ابتسمت ليلى في تردد واكب لفظ أخير خرج بشهقة ناعمة:

- بسمة.. أنا تعبانة.. الحقيني.





وتغيب ببطء أخير.. تستنجد بها!

ثقة في غير محلها!!

اقتربت بسمة منها أكثر ترقب شفتيها اللاتين توقفتا عن الكلام..

أنفاسها الهادئة.. نومها العميق..

ملست بأناملها فوق بشرتها الناعمة وقد انقبض قلبها وهي تتخيل تلك البشرة بين قبضة صبري بعد قليل..

عبرة ساخنة انهمرت من عينيها رغماً عنها لتغلقهما في بأس وهمس آخير:

- سامحيني يا ست ليلى.

****





الفصل الثلاثون

ـ اليتم وحش يا ست..

ـ أنا مش هاسيبك يا بسمة..

كانت تنظر نحوها بجمود..

تتذكر آخر كلمات وعدتها بها بل لتوها تُدرك أن ليلى مجرد أخرى يتيمة مثلها..

الهاتف لا يتوقف عن الرنين..

كان هو يلهث ويزبد ويرعد ويسُب بكل أنواع الحروف التي تفقهها..

أغمضت عينيها لترتعش ككل بل وتصلبت كل ملامحها.

تُباغتها دمعة.. اثنتان.. ثلاثة..

لا!!

نطقتها بحدة وهي تجفف عبراتها بظهر يديها وتتحاشى النظر نحو جسد ليلى المرتخي باستسلام تام





بثقة..

الهاتف عاد للرنين مرة أخرى

سيسبها من جديد..

سيصرخ ويضرب ويركل وترتعش هي فزعاً لتنفذ في طاعة البهائم!!

هو كما عثمان.. كما غيره

"بسمة ما تزعليش"

كان صوت ليلى يأتي من عقلها..

بحنو لم تختبره.. بابتسامة صادقة

رنين آخر وسباب آخر..

فركت جبهتها في يأس لتحرك رأسها في هيستريا ودموعها تنوي انهماراً

وفي النهاية جذبت هاتف ليلى بعنف لتحادث رقم واحد..

رجل واحد يبدو أن هناك امرأة تستحقه..

"إلحق الست ليلى"





وأغلقت الهاتف!!

****

غرفة منزوية بأحد المناطق العشوائية البنيان..

رجل مشوه يجوب المكان في عصبية مخيفة.. وسمراء رقيقة متعثرة في ملابسها تُعدِّل من وشاحها قبل أن تدلف إليه.

توقدت عيناه حينما لمحها وحيدة، شرارة غضب تبدو مفزعة وسط تعرجات وجهه القبيح..

رفعت رأسها لتدخل وتغلق خلفها الباب وبكل هدوء..

ضم قبضتيه في شراسة ليهذر باستشاطة:

ـ جاية لوحدك يا بنت الـ..

سباب آخر.. ومهانة تتكرر، صفعة وركلة وفي النهاية بصق!





وهي كانت تلوم ليلى!!

كانت تستقبل ضرباته دون أن تنطق..
وكأنها تتركه ليفجر شحنة غضبه علها
تموت وتنتهي ويهلك..

وجهها بات متورماً وانبثقت من أنفها
وفمها الدماء، شعرها تناثر وتمزقت أكمام
عباءتها الرثّة.

وفجأة من وسط العاصفة خرج صوتها
متحدياً وكانت سعيدة:

ـ مش هتقدر تقربلها

وملامحه حينها أهدتها نشوة، وكأنها
جرعة مكثفة من مخدر ممنوع أسقط كل
مفاهيم الألم.

كررتها وبضحكة هستيرية:

ـ هتموت بغلك يا صبري

لم يشعر بنفسه إلا وهو يضرب رأسها في
الطاولة..

مرة تلو أخرى وأخرى..





وسباب آخر

يتوعد ويؤذي حد الموت!

كانت تنتهي.. كانت تود الرحيل.. كانت تستمع لهذره من وسط دماء:

- وهاجيبها بطريقتي.. غلطتي إني اعتمدت على...... زيك!

ولم يؤلمها السباب حد ما آلمها التوعد.

لأخرى عاملتها كبشر ولأول مرة.

الدماء.. الصرخة..

السكين الذي بدا لها ولغيرها ملاذ.

دور البطولة الذي سينتهي خلف القضبان

وكانت سعيدة!!

الطعنة.. تلو أخرى.. وأخرى..

لشيطان يستحق ما فوق النيران

والنهاية دوماً تأتي من هؤلاء من أسقيناهم من البأس أنهاراً فانبثق من شقوق عذابهم كفيضان.





صمت.. توقف كل الشيء.. السباب والركل وأنفاسه.

وهناك بمنزل آخر اختبرت فيه الحياة كان يقف أمام جسدها بوجه مصفر..

تستفيق هي ويخبره أمين بآخر مستجدات من اتصلت به وقلبت صباحه رأساً على عقب

حتى أنه كاد أن ينقلب بسيارته وهو يأكل الطريق ليصل نحو المنزل.

والأسوء ما علمه مع استفاقتها

بسمة قتلت صبري

بسمة تعرف صبري.

****

كانت ترى ملامحه من بين ظلال ولا تدرك فعلياً ما يحدث..





وهو..

هو بمجرد أن فتحت عينيها بدأ في الصراخ..

أغلبه لا تفهمه ولكن هي تسمع حروف غير مطمئنة على الإطلاق.

بسمة.. صبري..

نظرت نحوه في صدمة:

- بسمة!

كان هو يتحرك أمامها في عشوائية ورأسه مشتعل حد الغليان, استدار لها فجأة ليصرخ وقد بدا بعينيه شرار:

- خدرتك يا هانم.. فاهمة يعني إيه خدرتك؟.. فاهمة كان ممكن يحصل ايه؟!.. تاني!!

تسارعت أنفاسها ورفعت أناملها تمسك بصدغيها..

عيناها غامت وتجمدت بمقلتيها دموع..





بسمة كانت..

قطع هو أفكارها بصراخ آخر:

- أنا مش عارف أفكر.. مش قادر أفهم!.. وهي كلمتني ليه؟.. كان نيتهم ايه؟..

ثم ضرب كفه بقسوة فوق المائدة:

- خدرتك إزاي؟.. دخلتيها إمتى؟.. ولا أنتِ خرجتي معاها في حتة؟.. انطقي!

وكانت الأخيرة مرعبة لتتحدث هي على الفور علها تطمئن طوفانه:

- ما خرجتش.. هي جات تترجاني أخليها في الشغل بس.. وأنا عملت لينا عصير ووعدتها أساعدها

وتحشرج صوتها في النفس الأخير..

كانت تبكي بحدة حتى أن جسدها كله كان يرتعش..

لولا أنها تبدو طبيعية دون أن يمسها أحد لكان جنونه قد وصل حد القتل تلك المرة.





رفعت بصرها نحوه لا تفهم وحينها تحدث هو بجمود قبل أن يتركها ويرحل:

- بسمة قتلت صبري.

****

الصدمات في حينها مضطربة.. تبدو كحلم مشوش يفسر أسوء خيال، ولكن بعدها يحاسبنا الواقع!

ربما مرت عشرة أيام أو أكثر..

لاحظت أنها لم تعد تكترث بالمواعيد، حتى العمل لم تسأل بشأنه.

فاتن كانت تنقل لها الأخبار بندم..

خطة الحقير باتت الآن معلومة ويبدو من اتخذها سلاحه هي من أوقفتها..

ليلى باتت تفهم كل شيء من خطاب متعرج الخط تركته بسمة..





الخطاب لم تجده سوى بعد يومين من الحادث مكتوب بعُجالة وبخط مبتديء فوق ورقة مُجعدّة

"شكراً يا ست ليلى.. شكراً على كل حاجة.. وسامحيني بس وعد أنا اللي مش هاخلي حد يأذيكي"

كلمات بسيطة تفسر كل شيء أم ربما تفسر جملة ما قالها لها رجل عجوز

"اعمل الخير وارميه البحر"

وكان هو يتجاهلها منذ وقتها..

غاضب ويلوم ويخاف ويفكر في أشياء لا تعلمها..

وربما حين الغضب يجب أن نتحاشى المواجهة ولكن ليست ليلى!





كان يجلس على الطاولة منفرداً يتناول طعامه بينما يتفحص جريدة حينما ظهرت هي أمامه لتتحدث ليس بطلب وإنما بقرار:

ـ أنا هاروح أزور بسمة!

لم يجبها.. بقي يتفحص الجريدة متجاهلها تماماً..

زفرت ببطء ثم تابعت بتوكيد:

ـ حمزه.. أنا هاروح أزور بسمة.

مضغ ما تبقى من طعامه لينظر نحوها بسخرية:

ـ ده بتسأليني ولا بتبلغيني؟

زفرت هي تلك المرة بيأس:

ـ حمزه مش هينفع كده.. الأسلوب ده مش هينفع.

رمقها هو بغضب:

ـ بس الاستهتار ينفع!





ضيقت عينيها في غير احتمال لملامة جديدة ولكنه لم يتوقف بل زاد وبقسوة:

ـ متخيلة كان هيحصل إيه لو كانت نفذت؟.. أنت كُنت تحت رحمة قرارها يا هانم وبعدها بدقايق كُنت هتبقي تحت رحمته.

ثم نهض فجأة ليقترب منها وقد جذبها من ذراعها نحوه ضاغطاً عليه بقسوة:

ـ مراتي أنا كانت هتبقى تحت رحمة راجل تاني.

من وسط غضبه لم يشعر بقسوة أنامله, ولا بمحاولتها اليائسة للتملص منها, ولا بصوتها المبحوح وهي تأن حتى همست بوجع:

ـ حمزه!!...

تركها فلمح احمراراً فوق ذراعها وقبضته تخبره أنه آلمها..





تراجع وقد فرك فروة رأسه في تعب وحينها اقتربت هي منه وقد تحشرجت نبرتها:

ـ انا كل يوم بفكر.. كل يوم بعيط في الحمام علشان أنت ما تسمعنيش.. ومش بفكر في نفسي قد ما بفكر فيك أنت.. كانوا هيدبحوك بيا وكانوا هيدبحوني بيك.. وأنا برده اللي امنت لكن ربنا نجاني تاني.. عارف ليه؟

نظر نحوها دون جواب فأكملت:

ـ علشان أبويا عمره ما أذى حد.. زرع خير والخير اترد فيا وأنت جزء من الخير ده يا حمزه.

وتوقفت الكلمات لتبكي بشدة.. بضعف لم يلمحه بها من قبل..

جذب رأسها لصدره ليملس فوقها بقبلات رقيقة لم يمتلك حينها سواها

ثم همس بصوت أكثر رقة:

ـ عايزة تزوريها ليه؟





مسحت عبراتها وهي تجيبه:

- تفتكر ليه!.. هي رغم كل شيء أنقذتني.

أسند ذقنه فوق رأسها وقد بدأ دون وعي

يُدلِّك ذراعها بموضع ضغطته ليوافقها

وعقله يفكر في أمر آخر..

أمر لم يكن يتصور حدوثه.

****

حينما ندهت امرأة غليظة الصوت باسمها

تحركت بديناميكة نحو الغرفة المطلوبة

والجملة مكررة..

"زيارة!"

هناك أناس لا تعرفهم أتوا ورحلوا..

أحدهم محامي ما وكلته لها المحكمة..

وفي المرة السابقة كانت أمها!

تبكي وتولول وتخبرها أنه كان من الأفضل

لو رحلت معها وعثمان..



وبدا الصراخ حينها دون جدوى فضحكت..

ضحكت حتى أدمعت عيناها..

وكانت تبدو جميلة, جلباب أبيض واسع ووشاح من نفس اللون, خصلاتها مشذبة تحته ووجهها صافٍ..

بل أنهم أخبروها أنها تأكل جيداً ومقولة ساخرة تتردد بين الجدران أن السجن يزيد من وزن النساء!

حينما جلست أمامها ابتسمت فجأة وبوهج:

ـ ست ليلى!

دمعت عينا ليلى لتجد نفسها تُمسك بيد بسمة فجذبت الثانية يدها:

ـ جاية ليه؟

توترت شفتا ليلى لتتمتم بحيرة:

ـ بسمة..

هوت بسمة رأسها:





ـ خلاص يا ست ليلى أنا ريحتك منه

ثم رفعت سبابتها التي بدت مرتعشة:

ـ بس أنا نبهتك أهو مش كل البحر بيجيب خير.. أوقات بيجيب بلاوي يا ست

لتبتسم بعدها وتضيف بسخرية مريرة:

ـ وأنا مش هكون موجودة أساعدك المرة الجاية.

تأملتها ليلى بعبرات متجمدة لتحادثها بعدها بنبرة حانية:

ـ بسمة.. صبري مات خلاص.

حركت بسمة كلتا يديها لتؤكد في بديهية:

ـ عارفة والله.. أنا قتلته كويس.. سقاني المر يا ست وقلت لأمي ما صدقتنيش وهربت كتير والحكومة رجعتني.

ثم انهمرت عبراتها لتشهق من بين الكلمات:





ـ تعبت والله..

لتمسحها بعدها على الفور بعنف:

ـ بس خلاص عتمان مات

شعرت ليلى بتيه..

بل هذيان طفلة وبدا ما بين السطور مفهوماً بألم:

قربت أناملها منها لتملس ببطء فوق وجهها:

ـ خلاص يا حبيبتي محدش هيأذيكي تاني.

وتضحك بسمة بصدق وبملامح غريبة:

ـ خلاص!

ثم ارتمت في حضن ليلى التي شددت من احتضانها بدورها وحينها قالت بسمة بتوسل:

ـ أنتِ مش زعلانة مني؟

همست ليلى:





- لا يا بسمة.

ثم رفعت بسمة رأسها لتنطق بصوت بات خشن:

- هتفتكريني لما أموت؟

تجمدت الكلمات في حلق ليلى فكررت بسمة:

- هيعدموني.. علشان صبري!!

وضحكت مرة أخرى..

رنة ضحكتها كصفعات.. فوق صفحات.

صفحات حياة تُسطر كل يوم عن بسمة

ومثلها كثيرات يبقى الاختيار واحد من اثنين

خضوع أم قانون غاب!

وخرجت ليلى تائهة.. في أذنيها هذا الناقوس.

حكمت المحكمة

فقد تضيع بسمة أم هي ربما بكل الأحوال ضائعة.





- ليلى..

كانت توليه ظهرها..

تتأمل البحر وقارب منصور، حدث الكثير منذ اختارت المجيء لتقضي ليلتها الأولى في هذا القارب ويجدها حمزه!

- ليلى؟

كررها لتستدير نحوه وما زالت في شرود..

بسمة.. طمأنهما المحامي الذي وكّلاه بشأنها، بل أجزم أن الأمر لن يتعدى بضعة أشهر في مشفى نفسي لتخرج بعدها..

تخرج لغاب جديد!!

تنهدت ببطء ودمعة مجددة تهطل مع اقترابه، ملّس فوق وجنتها بسبابته ليهمس هو بصوت أجش:

- كفاية دموع..





أسندت رأسها فوق كتفيه فضمها نحوه أكثر, كان هواء البحر يضرب صدره فأخذ من رائحته نفساً عميقاً ثم أردف وهو ينظر مثلها للبحر:

- ما تيجي أحكي لك حكاية!

أغمضت عينيها في استرخاء:

- حكاية إيه؟

مرت فوق شفتيه ابتسامة ساخرة ليُكمل:

- حكاية واحد ما كنش فارس ولا فتى أحلام.. حكاية كنت فاكرها حب وختمت بقى بنار!

رفعت عينيها نحوه لا تفهم وحينها بدأ يقص..

كان ياما كان...

وحينما انتهى كان كلاهما يجلس فوق الرمال, مررت أناملها بسواد شعره لتهمس بعدها:





ـ كل ده شايله في قلبك يا حمزه!

ضحكت عيناه ولكن بحزن:

ـ كنت عايز أنسى.

تأملته باحتواء:

ـ ونسيت؟

حرك هو رأسه في نفي:

ـ اكتشفت أن النسيان مش الحل.. أنا كنت مركب تايه في البحر ولقيت المرسى في عينيك يا ليلى..

ابتسمت وقد قربت رأسها منه في مداعبة:

ـ ده علشان أنسى قصة الحب اللي أنت حكيتها من شوية!

ضحك هو وضمها نحو صدره:

ـ إيناس ما كنتش حب.

ووازته هي بضحكة وزادت بتنهيدة:





- أنت كنت طيب قوي يا حمزه

رفع حاجبه الأيسر ممازحاً:

- ودلوقتِ شرير يعني!

ضربت كتفه وعادت لتأمل البحر فتابع هو بالتالي والأكثر أهمية..

ما انتواه وما فكر بشأنه على مدى أيام..

قرار لم يتصور أن يمر بذهنه يوماً

- ليلى.. أنا عايز أرجع المزرعة!

لا يعلم كم من الوقت ظلت على صمتها.. ولكنها لم تتحرك.. لم تترك صدره، كرر هو جملته:

- ليلى..

قاطعته:

- سمعتك..

ثم صمتت من جديد لتنطق بعد حين:





ـ ليه؟

سمعت بين حروفه تنهيدة:

ـ تعبت..

كانت تستند فوق صدره وترمق قاربها يتأرجح من بعيد..

منصور وليلى وقصة حبها التي بدأت بهذا المكان.

صوته آتاها من جديد:

ـ أنت اتجوزتيني بس علشانه؟!

رفعت رأسها تنظر نحوه في حزن:

ـ أنت عايزني بين أربع حيطان يا حمزه؟

أحاط رأسها الصغير بقبضتيه ليقترب منها قد وصلتها كلماته بحرارة أنفاسه:

ـ هتختاري إيه يا ليلى؟

حركت عينيها تتأمله في لوم:

ـ أنت بتخيرني يا حمزه!





اقترب منها أكثر وبهمس تلك المرة:

- لأني مقدرش أجيرك..

أنزلت قبضتيه لتستدير نحو القارب من جديد..

تأملته كثيراً ورأته هناك.. أبيها.. منصور يضحك.. يراقبها..

ويتأملها بانشغال أب.. بل اطمئنان أب.

عادت إليه لتقترب هي خطوة محيطة رقبته بذراعيها وعلى وجهها ابتسامة:

- هناك ما فيش إلجا ولا أفواج من أوكرانيا!

امتلكته ابتسامة واسعة ليحيط هو بخصرها ويضمها نحوه أكثر ثم يشاكسها بشقاوة:

- ما حدش عارف جايز ربك يرزق!

لكمته في كتفه فتأوه ضاحكاً:

- زعلك وحش.





هددته بمشاكسة أكبر:

ـ حتنام في الصالة!

أمال رأسه يقترب من شفتيها:

ـ حالغيلك الصالة.. هخلي الشقة كلها أوضة نوم!

ووازت هي شفتيه اقتراباً لتهمس قبل قُبلة كانت هي من بدأها:

ـ موافقة..

"تُعلن شركة مصر للطيران عن قيام رحلتها رقم 458 المتجهة إلى ميناء الكويت الجوي وعلى السادة الركاب التوجه لبوابة رقم 5"

ووسط الجموع كانت هناك امرأة، ترتدي الكثير من الحلي وتُظهر عدة خصلات مصبوغة من تحت وشاح بني مزركش..

تتحدث في الهاتف بصوت عالٍ وتضحك مع صديقة ما ساخرة من زوجها الحالي، خلفها يتحرك طفل ببطء يسحب حقيبة صغيرة تضم كل ممتلكاته الثمينة





بضعة ألعاب تكسر بعضها.. وقصاصات ورق لشخصياته الكرتونية المفضلة ولعبة وردية محشوة!

أهدتها له طفلة تشبه قطعة الحلوى وهي الوحيدة التي كرهت توديعه.

- محمود

صرخت سهام في ولدها حينما لمحت تلكؤه فأعاد اللعبة للحقيبة مرة أخرى وتبعها في صمت..

نحو منزل آخر وأطفال غرباء عنه يخبرونه من جديد أنهم له إخوة!!

****

كان صباحاً مشمساً..

ليلة صيفية ممتعة لحفل إفطار متأخر كما خططت..





خالد كان يُمسك بجيتاره يحاول أن يكرر بعض الأنغام التي تعلمها وحسن ينفرد بهاتف ولفافة تبغ.

أعدت جميع أنواع المعجنات وزادت من الخبز بالزبيب من أجل إيناس فهو الراعي الرسمي لحملها تلك المرة..

شعرت بأنامله تسحب شريحة بيتزا فسألته في تردد:

ـ كنت بتكلم محمود؟

أجاب بجفاء:

ـ قالت لي نايم

أرادت تغيير الموضوع فسألته تلك المرة باهتمام:

ـ هو خالد ما علقش على رجوع حمزه؟

نظر نحوها في حدة:





ـ خالد راجل عاقل ومخه مش صغير.. اللي فات قتله الوقت, وحمزه راجل متجوز دلوقتِ.

احتدت هي بدورها:

ـ أنا بسألك عادي.. لأنه خالد بطبيعته غيور بس مش أكثر.

أجابها ساخراً:

ـ هه.. لا متخافيش أكيد مش هيضربلها البوز كل ما سهام كلمته أو ابنها جه هنا!

أغمضت عينيها تحاول ابتلاع كلماته ورحل هو يستقبل ضيوفه..

لن ينسى ولن يفهم ولن يتحمل يوماً تبعات قراره!!

كانت ليلى ترتدي فستاناً صيفياً بلون أبيض بسيط..





تلك هي المرة الأولى التي تراها فيها إيناس, تأملتها بابتسامة وشعرت بالسعادة من أجل حمزه الذي طالما اعتبرته كأخ أصغر لا تتمنى له سوى الخير..

واكتشفت أن ليلى ليست مجرد وجه رقيق فقط بل تتمتع بحضور رائع واجتذبت الأطفال على الفور في حديث مطول جعل تميمة تعشقها من أول مقابلة..

في المقابل حمزه كان ملتصقاً بها طوال الوقت..

عشقها في عينيه واضح كضوء الشمس حتى أن ملامحه بدت مغتاظة حينما تحدثت في أمور عمل مع خالد الذي عرض عليها أن تكون في فريق عمله بالفندق حينما علم بتخصصها في المحاسبة.

ابتسمت إيناس لتلمح وجه رقية المتجهم فحركت يديها أمام وجهها:





ـ ايه يا روكا.. مش مبسوطة ليه؟.. حمزه رجع اهو.

ابتسمت رقية لتربت فوق يديها وقد حبست عبرة:

ـ لا يا حبيبتي.. مبسوطة قوي الحمد لله.

ابتسمت لها إيناس بتفهم:

ـ إديله وقته وهينسى ده حسن يعني!

ضحكت رقية ساخرة:

ـ عارفة.. الفكرة عند كل مشكلة هيرجع يلومني أنا.

جذبت إيناس قطعة من الخبز بالزبيب فمضغتها ثم أكملت:

ـ كبري.. ركزي مع خالد.

نظرت نحوها رقية لتغير ذاك الموضوع وتشاكسها قليلاً:

ـ هتتخني.. الرشاقة هتبوظ!





نظرت إيناس بضيق نحو الطعام ثم أعطت الخبز لرقية:

- ابعديه عني وما تعملهوش تاني..

ضحكتا سوياً وتناول الجميع إفطارهم بودّ رغم أن حديث خالد وحمزه لم يخلُ من توتر مكتوم، ولكن الزمن سيظل كفيلاً بانهاء الأمر.

***

في الظهيرة وجدته يقف وحيداً أمام جواد جديد كان قد ابتاعه منذ شهر واحد..

وقفت خلفه لتحيط جسده من الخلف بذراعيها ثم همست:

- اسمه ايه؟

نظر بجانب عينيه نحوها ليستدير لها وقد جذبها لتكون بجانبه محيطاً هو خصرها بذراعه اليمنى:





ـ ليل!

الجواد كان أسود بحق كالليل سوى من بقعة رمادية تتوسط جبهته..

خصلاته مجدلة في ضفائر مشطها السائس خصيصاً من أجله..

مرر خالد أنامله برقة فوق رأس الجواد فأصدر حمحمة هادئة أوحت للإيناس بمدى الترابط بينهما..

ضحكت تمازحه:

ـ بقيتوا صحاب بسرعة!

رمقها هو بغيظ ممازح:

ـ أنتِ ما تعرفيش قدراتي ولا إيه!!

تأملت الجواد لتجيبه بابتسامة:

ـ الهمس

تنهد هو ثم أجابها بحديث دافيء:

ـ البداية دايماً بتكون الهمس..

تأملته بعينيها:





- وبعد الهمس؟

استدار لها ليجيبها بمباغتة:

- الصمت..

شردت وغامت عيناها لوهلة:

- الصمت!

ابتسم هو ليتأملها بحب:

- أبوة الصمت.. أنك تسمعيه من غير ما يتكلم.. أنك تفهميه من عينيه.. لمسته.. النفَس جواه..

كان يقترب منها، تنهدت حينها بارتياح لتوقفه بقبضتها فوق صدره برقة وتسأله من جديد:

- وبعد الصمت؟

تأملتها عيناه بشغف وحينها نطق ببطء:

- العشق..





بريق عينيها كان يشبه كل صباح لها معه بهذا المكان..

يتأملها من بعيد دون أن يأمل اقتراب، تهمس لجواده فتصله هو همساتها.

كررت كلمته باستفهام:

- العشق؟!

تخللت أنامله أناملها ليحتضن يديها وهو يشير نحو جواده:

- ساعتها هيكون ما فيش مسافات.. أنكم تكونوا قلب واحد جوه جسدين، لو حد اتأذى التاني يحس بيه فوراً قبل حتى ما يعبر

نظرت للجواد المستكين أمام زوجها:

- الحصان بيحس بصاحبه؟

أجابها بصوت أجش ودافيء وهو يشدد من احتواء قبضته ليدها وبيده الأخرى يملس فوق رأس الحصان:





ـ بيحس بيه.. لو مضايق أو مبسوط..

فرحان.. مهموم.. حتى لو في خطر هيحس

بيه وهيبعده عنه ويفديه بروحه كمان.

ثم ترك الحصان ليستدير نحوها ممسكاً

بذقنها ليرفع وجهها نحوه..

شعرها كان متناثراً بعبقه البندقي فوق

كتفيها ولون عينيها يشرق كما الشمس..

وجنتيها تحمل وهج حرارة الصيف وشفتيها

تخبره بما يجب عليه فعله..

ابتسم بمكر قبل أن يغيب بينهما مستأثراً

بنكهتها التي يثير كل ما فيها جنونه.

ثم همس وهو يتخذ أنفاسه:

ـ **وده بقه اسمه عشق الجياد.**

ولم يعطها فرصة أخرى لسؤال.

****





الخاتمة

سيخبرونك أن دخان التبغ قاتل..

ولكنهم لا يدركون متعة النظر من خلف سحابته.. فالعالم بشكل ما يبدو أجمل وهو غير واضح!!

زفر دخانه ببطء وهو يراقب الأضواء المتناثرة على مرمى بصره تحوي عدة طاولات مرتبة تدور بينهم امرأة رقيقة بخفة وصوت الموسيقى يصدح ملتهماً حتى الفراغ.

عيناه تجولت من جديد فاصدمت بشاب يوازي عمره يعتلي المسرح متغنياً بكلمات مبهجة لا تلائم سحابته الخاصة وتجاوره فتاة سمينة بخصلات مشعثة تصرخ بانفعال أكثر منه غناء..

هل تلك هي؟..

متى أصبحت قبيحة بهذا الشكل!

فهي كما يتذكرها..





توقفت أفكاره وضاقت عيناه قليلاً مخترقاً سحابته ليلمح خصلات متناثرة تعتلي المسرح

كما يتذكرها تشبه قطعة الحلوى..

والآن النكهة امتزجت فباتت تشبه حلاوة الفانيلا مع لذوعة الكراميل.

ضاقت عيناه أكثر وبتمعن راقبها تتمايل برقة والشاب يضرب بشغف فوق جيتاره

يتغنون بما يلائمها فاليوم هو عيد مولدها الحادي والعشرون.

مرت فوق شفتيه ابتسامة لينفث من بينهما دخان تبغه من جديد وبوحشية أكثر.. وبعدها وجده الستيني البشوش المصادف أنه أبيه!!

وبخطوات أخرى نحو الضوء..

نحو تلك البقعة المختفية وراء السحابة جذب العجوز ذراعه بغبطة وهو ينادي ولده





الآخر لتأتي هي معه..

تقترب هي منه وخطوة تلو أخرى فأخرى فتنقشع سحابة..

مجرد تعارف..

- محمود..

- تميمة..

تمت بحمد الله

وإلى اللقاء مع الجزء الثالث والأخير

عشق الجياد

